مواهب الرحمن
في تفسير القرآن

تأليف

عبد الكريم محمد المدرس

دار احياء التراث العربي
بيروت - لبنان

مواهب الرحمن
في تفسير القرآن

مواهب الرحمن
في تفسير القرآن

تأليف
عبد الكريم محمد المدرس

الجزء الثالث

طبعة جديدة مصححة

دار إحياء التراث العربي
بيروت - لبنان

جميع الحقوق محفوظة
الطبعة الاولى
١٤٣٥هـ-٢٠١٤م

دار احياء التراث العربي للطباعة والنشر والتوزيع

العنوان الجديد:طريق المطار خلف اوتيل الغولدن بلازا

هاتف 009611540000 /009611455559 فاكس:009611850717

Email: darturath2012@hotmail.com

يطلب من

مكتبة القيروان العراق-كركوك شارع المتنبي -قرب سوق السراي موبايل:009647707152384

مكتبة امير كركوك عمارة خان الكبير -الطابق الأرضي موبايل:009647702304025

amirmaktaba@yahoo.com

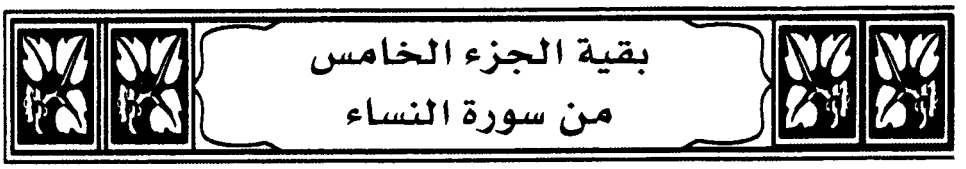

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ ٱقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ أَوِ ٱخْرُجُواْ مِن دِيَٰرِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ ۖ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُواْ مَا يُوعَظُونَ بِهِۦ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا ﴿٦٦﴾﴾.

عن السدي قال: لما نزلت هذه الآية افتخر ثابت ابن قيس بن شماس ورجل من اليهود، فقال اليهودي: والله لو كتب الله علينا أن اقتلوا أنفسكم لقتلنا أنفسنا. فأنزل الله: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُواْ مَا يُوعَظُونَ بِهِۦ﴾ الآية أخرجه ابن جرير.

وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ ٱقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ﴾ أي ولو أنا فرضنا عليهم أن تعرضوا بأنفسكم للجهاد لتُقتلُوا، أو فرضنا عليهم قتلَ أنفسهم مباشرة ﴿أَوِ ٱخْرُجُواْ مِن دِيَٰرِكُم﴾ واتركوا أرضكم وديياركم ووطنكم، كبني إسرائيل حين استتيبوا من عبادة العجل ﴿مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ﴾، وهم المخلصون ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُواْ مَا يُوعَظُونَ بِهِۦ﴾ من متابعة الرسول ﷺ وإطاعته الكاملة في أمره ونهيه ﴿لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾ في الدنيا والآخرة ﴿وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا﴾ لهم في دينهم لأن الإيمان يتكامل بمزيد الطاعات، والقلب يطمئن بالذكر والمجاهدات، وكل ذلك يوجد في إطاعة الرسول ﷺ.

﴿وَإِذًا لَّءَاتَيْنَٰهُم مِّن لَّدُنَّآ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٦٧﴾ وَلَهَدَيْنَٰهُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٦٨﴾﴾.

هو طريق الإخلاص في العبادة.

﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ

﴿وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا ﴿٦٩﴾ ذَٰلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ عَلِيمًا ﴿٧٠﴾﴾.

نزلت هذه الآية في ثَوبانَ مولى رسول الله ﷺ لقوله: أخاف أن لا ألقاكَ في الآخِرة يا رسول الله، ورآه رسول الله متغيراً لونه وكان يحبه حباً شديداً لا يكاد يصبر عنه، فذكر الله كرامته، فقال: ﴿وَمَن يُطِعِ اللَّهَ﴾ بالانقياد والتسليم لأمره ونهيه وتطبيقهما بقدر الاستطاعة، ﴿وَالرَّسُولَ﴾ أي ويطع الرسول النبي الأمي العربي محمداً ﷺ المبلغ للأحكام من الله إليه بالذات أو بالواسطة فآمن به وبما جاء به من أحكام الإيمان والإسلام وأحب الله ورسوله بإجلال واحترام واستقام على ذلك إلى الختام ﴿فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ﴾ بالذكر في الحياة وبالزيادة الروحية البرزخية بعد الممات، وبالجسم والروح الاعتيادية الحقيقيه بعد البعث والحشر والنشر ودخول الجنة كيفما شاؤوا، وحسب الاشتياق الذاتي المقرر ﴿مِّنَ النَّبِيِّينَ﴾ والمرسلين وهم الذين تمدهم قوة إلهية وتصحبهم نفس في أعلى مراتب قدسية ﴿وَالصِّدِّيقِينَ﴾ وهم الذين حازوا المرتبة المتأخرة من مرتبة الأنبياء والمرسلين بموهبة نور التصديق بالوحي المقدس وصاحبه الأقدس الذين صعدت نفوسهم بمصاعد الإيمان والأدب وأنوار الحضور والخشوع لله تعالى وروح التضحية بما لديه من النفس والحال والمال في سبيل إعلاء كلمة الحق بكل حال، كسيدنا أبي بكر الصديق ومن حذا حذوه في ميدان الكرامة والإخلاص، أو ترقت أرواحهم بمراقي التصفية وتخلية النفس عن الرذائل بالفضائل فتنورت أرواحُهم ومشاعرهم بنور العرفان فكانوا حاضرين بالشعور ومدركين بالبصائر فتحققت فيهم نتائج ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ أو الذين ترقوا من دركات الرذائل على درجات الفضائل بمراقي النظر في الحجج الساطعة والبراهين اللامعة من الآيات الكونية التي تشهد على وجود واجب الوجود الخالق لكل موجود، وتحقق الرسالة من الله إلى الناس في نظام عالم الوجود.

﴿وَالشُّهَدَاءِ﴾ أصحاب المنزلة الثالثة وهم الذين أدى بهم الإيمان والإخلاص إلى الجهاد في سبيل إعلاء كلمة الحق بلا شرط وقيد وبلا ملاحظة لعمرو أو زيد، ففازوا بإحدى الحسنيين، وهم الذين ثبتوا أركان الإيمان وسقوا أشجار اهتداء الإنسان بدمائهم الذكية، فعلت وأثمرت ثمار العرفان، فجزاهم الله بإعلان الحياة

السرمدية والفوز بالبشارات الأبدية على مرّ الزمان ﴿وَٱلصَّٰلِحِينَ﴾ الصارفين أعمارهم في طاعة الله تعالى، وأموالهم في مرضاته سبحانه، ﴿وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ﴾ الأصناف الأربعة الكرام ﴿رَفِيقًا﴾ لمن وفقه الله تعالى.

يقول صاحب روح المعاني أعلى الله مقامه: وقد ذكر أصحابنا أن الصديق صيغة مبالغة بمعنى المتقدم في التصديق المبالغ في الصدق والإخلاص في الأقوال والأفعال، ويطلق على كل من أفاضل أصحاب الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وأماثل خواصهم كأبي بكر - رضي الله عنه -، وأن الشهداء جمع شهيد، والمراد بهم الذين بذلوا أرواحهم في طاعة الله وإعلاء كلمة الله، وهم المقتولون من المسلمين بأسلحة الكفار، وقيل: المراد بهم ما هو أعم من ذلك. فعن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «ما تعدّون الشهيد فيكم؟» قالوا: يا رسول الله من قتل في سبيل الله تعالى. فقال ﷺ: «إن شهداء أمتي إذاً لقليل. من قتل في سبيل الله تعالى فهو شهيد، ومن مات في الطاعون فهو شهيد، ومن مات مبطوناً فهو شهيد». وعد بعضهم الشهداء أكثر من ذلك بكثير.

والصالح: هو الذي صلحت حاله واستقامت طريقته، والمصلح هو الفاعل لما فيه الصّلاح ولذا يجوز أن يقال لله تعالى مصلح، ولا يجوز أن يقال في حقه صالح.

ثم ليس المراد بالمعية اتحاد الدرجة ولا مطلق الاشتراك في دخول الجنة بل كونهم فيها بحيث يتمكن كل واحد منهم رؤية الآخر وزيارته متى أراد، وإن بَعُدَت المسافةُ بينهما. وذكر غير واحد أنه لا مانع من أن يرفع الأدنى إلى منزلة الأعلى متى شاء تكرمةً له ثم يعود ولا يرى أنه أرغد منه عيشاً ولا أكمل لذة لئلا يكون ذلك حسرة في قلبه، وكذا لا مانع من أن ينحدر الأعلى إلى منزلة الأدنى ثم يعود من غير أن يرى ذلك نقصاً في ملكه أو حَطّاً من قدره، وقد ثبت في غير ما حديثٍ أن أهل الجنة يتزاورون. وادعى بعضهم أن لا تزاور مع رؤية كل واحد الآخر، وذلك لأن عالم الأنوار لا تمانع فيها ولا تدافع فينعكس بعضها على بعض كالمرايا المجلوة المتقابلة. وإلى ذلك الإشارة بقوله: ﴿إِخْوَٰنًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ﴾.

وقال بعض المحققين: إن الظاهر من الأحاديث الشريفة في أحوال أهل الجنة هو أن ليس الرؤية ثابتة لكل شخص بحيث يرى باقي أهلها وذلك لأن اختلاف درجات الأنبياء والمرسلين وسائر أهل الجنة من السابقين المقربين ومن

سائر أصناف المسلمين محقق لا شبهة فيه. وإدراك كل منهم لمراتب كل منهم في كل وقت بعيد عن الواقع. وإنما هو جواز الزيارات واللقاءات لكل أحد متى شاء على الأصول المقررة في عالم الجنة، إذ فيها ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين فإذا تمنى شخص منهم رؤية شخص يجوز أن يمكنه الله تعالى من ذلك بحيث لا تكون الجنة محل الحسرة على فوات مقصود أو فناء موجود. وتفصيل ذلك موكول إلى عالم الآخرة التي خير للمسلم بدرجات من الأولى.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ خُذُواْ حِذْرَكُمْ فَٱنفِرُواْ ثُبَاتٍ أَوِ ٱنفِرُواْ جَمِيعًا ﴿٧١﴾ وَإِنَّ مِنكُمْ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ فَإِنْ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَالَ قَدْ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُن مَّعَهُمْ شَهِيدًا ﴿٧٢﴾ وَلَئِنْ أَصَٰبَكُمْ فَضْلٌ مِّنَ ٱللَّهِ لَيَقُولَنَّ كَأَن لَّمْ تَكُۢنۢ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُۥ مَوَدَّةٌ يَٰلَيْتَنِى كُنتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧٣﴾ ۞ فَلْيُقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يَشْرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَمَن يُقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٧٤﴾ وَمَا لَكُمْ لَا تُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا ﴿٧٥﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱلطَّٰغُوتِ فَقَٰتِلُوٓاْ أَوْلِيَآءَ ٱلشَّيْطَٰنِ ۖ إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا ﴿٧٦﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ الآية هذه الآيات الكريمة أمر من الله تعالى ونداء إلى المسلمين أن يستعدوا لمجابهة الأخطار ومجاهدة الكفار، فإن كل نبي معه جماعة يعاديهم أهل الكفر والضلال ويعارضونهم بكل ما أمكن، فيجب على الطرف الأول أن يستعدوا للدفاع عنهم وعن مبدئهم لمقدس الإلهي بكل ما في وسعهم. فيقول تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ خُذُواْ حِذْرَكُمْ﴾ أي عدتكم من السلاح الذي تحترزون به عن شر الأعداء، وهو في الأصل مصدر كالحذَر أي الاحتراز عما يخاف منه، ويراد به هنا ما به الحذر، أعني الأسلحة والمعدات ﴿فَٱنفِرُواْ ثُبَاتٍ﴾ أي أخرجوا إلى الجهاد جماعات ﴿أَوِ ٱنفِرُواْ جَمِيعًا﴾ أي جماعة واحدة. والجماعات المتمايزة كل منها كتيبة، والجماعة الموحدة المركبة من الجماعات جيش.

﴿وَإِنَّ مِنكُمْ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ﴾ وإن منكم أيها المسلمون لَمَنْ لَيتثاقل في التحرك مع الجيش ويتأخر عن الجهاد، وهو عبد الله بن أبي بن سلول وأتباعه من المنافقين فإنهم يعدون إذ ذاك من المسلمين في ظاهر الحال ﴿فَإِنْ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ﴾ من جانب العدو كقتل أو جرح أو هزيمة ﴿قَالَ﴾ حامداً لرأيه الخطأ ﴿قَدْ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيَّ﴾ بتأخري عن الحركة معهم ﴿إِذْ لَمْ أَكُن مَّعَهُمْ شَهِيدًا﴾ حاضراً، فلم يصبني ما أصابهم. ﴿وَلَئِنْ أَصَٰبَكُمْ فَضْلٌ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ من فتح وغنيمة ﴿لَيَقُولَنَّ﴾ تندماً على تأخره ﴿كَأَن لَّمْ تَكُنۢ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُۥ مَوَدَّةٌ﴾ مزعومة: ﴿يَٰلَيْتَنِي كُنتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ بأخذ الغنيمة لدنياي ونيل كرامة في الجيش لِمرآى. وقوله: كأن لم تكن بينكم وبينه مودة كلام الباري معترض بين القول والمقول، والمودة المنفية مودة صورية، وإلا فليس الآن ولم تكن في الماضي بينه وبينهم مودة واقعية. فيعود الباري تعالى ويأمر الرسول معنى بدعوة المؤمنين المخلصين للجهاد، ويأمرهم بالحضور له لفظاً، ويقول: ﴿فَلْيُقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يَشْرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْءَاخِرَةِ﴾ أي يبيعون متاع الحياة الدنيا وملاذها بجزاء من الله في دار الآخرة ذلك الجزاء الذي يعد به في قوله: ﴿وَمَن يُقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي في سبيل مرضاته ولإعلاء كلمته ﴿فَيُقْتَلْ﴾ ويفدي بحياته في طريق مرضاته ﴿أَوْ يَغْلِبْ﴾ على أعدائه ﴿فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ لا بد منه في الحالتين غالباً أو مغلوباً.

ثم ينادي الباري مستفهماً ومحرضاً للمؤمنين ومعرضاً للكافرين: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَٰتِلُونَ﴾ الكفار ﴿فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ وإعلاء كلمته [و] في سبيل إنقاذ ﴿ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ﴾ من أيدي الكفار ﴿مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ﴾ الباقين في مكة ولا يقدرون على الهجرة إليكم ﴿ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا﴾ وهي مكة، ﴿وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا﴾ يتولى أمورنا ﴿وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا﴾ ينصرنا ويمنع تعرض الأعداء لنا! فاستجاب الله دعاءهم وأيد رسوله محمداً ﷺ ففتح مكة وجعل بذلك الفتح المبين أذلة الناس أعزة على الكافرين، ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱلطَّٰغُوتِ﴾ المتمرد وهو الشيطان وأتباعه الكفرة، ﴿فَقَٰتِلُوٓا۟ أَوْلِيَآءَ ٱلشَّيْطَٰنِ إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا﴾.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوٓا۟ أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ ٱلنَّاسَ كَخَشْيَةِ ٱللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُوا۟

رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا ٱلْقِتَالَ لَوْلَآ أَخَّرْتَنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ ۗ قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧٧﴾ أَيْنَمَا تَكُونُوا۟ يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِى بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ ۗ وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا۟ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا۟ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِكَ ۚ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ فَمَالِ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا ﴿٧٨﴾ مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ ۚ وَأَرْسَلْنَٰكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿٧٩﴾ مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ ۖ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ﴿٨٠﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ﴾ الآية اختلف في موردها: قال بعض: إن هذه الآية نزلت في عبد الرحمن بن عوف، والمقداد بن أسود، وقدامة بن مظعون، كانوا مع النبي قبل أن يهاجروا إلى المدينة ويلقون من المشركين أذى شديداً فيشكون ذلك إلى رسول الله ﷺ ويقولون: إئذَنْ لنا في قتالهم، ويقول لهم رسول الله ﷺ: ﴿كُفُّوٓا۟ أَيْدِيَكُمْ﴾ فإنّي لم أُومَر بقتالهم واشتغلوا بإقامة دينكم من الصلاة والزكاة، فلما هاجر رسول الله ﷺ إلى المدينة وأمروا بقتالهم في وقعة بدر كرهه بعضهم، فأنزل الله تعالى هذه الآية. واحتج الذاهبون إلى هذا القول بأن الذين يحتاج الرسول أن يقول لهم كفوا عن القتال هم الراغبون في القتال، والراغبون في القتال هم المؤمنون فدل هذا على أن الآية نازلة في حق المؤمنين! ويمكن الجوب عنه بأن المنافقين كانوا يظهرون من أنفسهم أنا مؤمنون وإنا نريد قتال الكفار ومحاربتهم، فلما أمر الله بقتالهم الكفار أحجم المنافقون عنه، وظهر منهم خلاف ما كانوا يقولونه.

القول الثاني: إن الآية نازلة في حق المنافقين، واحتج الذاهبون إلى هذا القول بأن الآية مشتملة على أمور تدل على أنها مختصة بالمنافقين.

فالأول: أنه تعالى قال في وصفهم: يخشون الناس كخشية الله أو أشدّ خشية، ومن المعلوم أن هذا الوصف لا يليق إلا بالمنافق لأن المؤمن لا يجوز أن يكون خوفه من الناس أزيدَ من خوفه من الله تعالى.

الثاني: أنه تعالى حكى عنهم أنهم قالوا: ربنا لم كتبت علينا القتال؟ والاعتراض على الله ليس إلا من صفة الكفار والمنافقين.

الثالث: أنه تعالى قال للرسول: قل متاع الدنيا قليل والآخرة خير لمن اتقى. وهذا الكلام يذكر مع من كانت رغبته في الدنيا أكثر من رغبته في الآخرة. وذلك شأن المنافقين. وأجاب القائلون بالأول عن هذه الوجوه بحرف واحدٍ هو أن حب الحياة والنفرة عن القتال من لوازم الطباع، فالخشية المذكورة في هذه الآية محمولة على هذا المعنى. وقولهم: لم كتبت علينا القتال محمول على التمني لتخفيف التكليف لا على وجه الإنكار لإيجاب الله تعالى.

وقوله تعالى: ﴿قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ﴾ مذكور لا لأن القوم كانوا منكرين لذلك بل لأجل إسماع الله لهم هذا الكلام ما يهون على القلب أمر هذه الحياة فحينئذ يزول عن قلبهم نفرة القتال وحب الحياة، ويقدمون على الجهاد بقلب قوي. والأولى حمل الآية على المنافقين لأنه تعالى ذكر بعد هذه الآية قوله: ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا۟ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا۟ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِكَ﴾ ولا شك أن هذا من كلام المنافقين.

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ﴾ فيه تعجيب الرسول وغيره ممن يمكن منه ذلك عن أحوال أولئك الناس، حيث كانوا في الزمان السابق على حال وفي الزمان اللاحق على حال آخر مخالف للأول. فقول: ألم تر يا رسولي إلى الذين ﴿قِيلَ لَهُمْ﴾ سابقاً: ﴿كُفُّوٓا۟ أَيْدِيَكُمْ﴾ عن القتال ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ واشتغلوا بما ينفعكم وهم كانوا راغبين في الجهاد ﴿فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ ٱلنَّاسَ كَخَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾ أي يخشون الكفار الذين يقاتلون كما يخشون الله تعالى أن ينزل بهم بأسه ويميتهم ﴿أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً﴾ معطوف على قوله كخشية الله بتقدير مضاف وهو الأهل، أي يخشون الناس كأهل خشية الله أو كأهل يكون أشدَّ منهم خشيةً من الله. فإذا للمفاجأة وفريق مبتدأ ومنهم صفته، وجملة يخشون الناس خبره. وقوله كخشية الله حال من فاعل يخشون. وقوله ﴿أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً﴾ معطوف عليه، فيكون في مقام الحال أيضا ﴿وَقَالُوا۟﴾ على سبيل تمني التخفيف لا على وجه الإنكار إذا كان القائلون مؤمنين صادقين: ﴿رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا ٱلْقِتَالَ﴾ في هذا الوقت؟ ﴿لَوْلَآ أَخَّرْتَنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ﴾ أي منتظر مستقبل. فإن كل آتٍ قريب! ﴿قُلْ﴾ يا رسولي تزهيداً لهم عن آمال الدنيا ونعيمها: ﴿مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ﴾ ولو استمر لكم زماناً طويلاً ﴿وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ﴾ متاعاً وراحة ودواماً ﴿لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ﴾ ربه، فتجزون فيه جزاء وافياً جليلاً جميلاً ﴿وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾ مقدار ما على نواة التمرة.

﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ﴾ لأنه مربوط بالوقت المحدد له في العلم الأزلي ﴿وَلَوْ كُنتُمْ فِى بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ﴾ أي ولو كنتم في قصور عالية مطليّة بالشيد وهو الجصّ ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾، أي وإن تصبهم نعمة من الخصب ورخص السعر وتتابع السنة بالأمطار يقولون: جاءتنا هذه النعم من عند الله لما علم فينا من الخير، ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ﴾ أي بلية ونقمة من القحط والجدب والشدة وغلاء الأسعار ﴿يَقُولُوا هَٰذِهِۦ﴾ البلايا جاءتنا ﴿مِنْ عِندِكَ﴾ أي من شؤمك. وهذه الفقرة شاهد صدق على أن مورد النزول كان جمعاً من المنافقين كعبد الله بن أبي بن سلول وأتباعه الذين تخلفوا عن القتال يوم أحد، وقالوا للذين قتلوا: ﴿لَّوْ كَانُوا عِندَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا﴾، فهم كانوا داخلين في عداد المؤمنين صورة ومن الكافرين سيرةً، وإذا أصابتهم غنيمة قالوا: هي من عند الله تعالى أعطانا لأهليتنا لها، وإن تصبهم هزيمة أو بلية قالوا: هذه من سوء تدبيره، أي الرسول ﷺ. ﴿قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ تعالى. أمر الله سبحانه وتعالى رسوله أن يقول لهم: كل من النعم والنقم، ومن النصر والهزيمة يأتيكم من عند الله، فلا خالق إلا هو ﴿فَمَالِ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا﴾ كلام سيق لبيان سوء مشربهم والتعجيب من حالهم أي أيّ شيء حصل لهؤلاء حال كونهم بمعزل من أن يفقهوا نصوص القرآن الناطقة بأن الكل فائض من عند الله تعالى، أو ماذا منعهم أن يفهموا كلاماً يوعظون به؟

﴿مَّآ أَصَابَكَ﴾ أيها الإنسان ﴿مِنْ حَسَنَةٍ﴾ علمية أو عملية مالية أو حالية ﴿فَمِنَ ٱللَّهِ﴾ تفضيلاً وكرماً، فإنه هو الموجد لكل شيء وكل حسنة ناشئة منك فبتوفيقه وتيسير الأسباب منه، وكل نعمة وردت إليك إذا لم تكن بمباشرة أسباب منك فهو بمحض الفضل والجود أو بمباشرتها، فالتيسير للأسباب من الله الفياض بالكرم والجود ﴿وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ﴾ أي نقمة وبلية ﴿فَمِن نَّفْسِكَ﴾ بمباشرة أسبابها أو بارتكاب معاص جلبتها وتسببت في نزولها؛ فإن المآسِيَ من المعاصي، مع أن كلاً من الحسنة والسيئة مخلوقة لله؛ إذ لا مؤثر في الوجود إلى الله، فإضافة الأشياء إليك من أي باب إنما هي لمباشرتك للأسباب فقط ﴿وَأَرْسَلْنَٰكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا﴾ هادياً إلى الصراط المستقيم من العلم السليم والعمل القويم ولا يضرّك أحقاد الكفار والمنافقين ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾ على رسالتك وجلالة قدرك. ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ﴾ في ما أمر به أو نهى عنه ﴿فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ لأنه هو المبدأ للأمر والنهي والرسول مبلغ ﴿وَمَن تَوَلَّىٰ﴾ عن طاعتك ﴿فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾ تحفظ أعمالهم وتحاسبهم

عليها. قال تعالى: إنما عليك البلاغ وعلينا الحساب، والمراد من ذلك تطمين الرسول ﷺ بأنه أدى رسالته وبلغ أمانته.

﴿وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُوا مِنْ عِندِكَ بَيَّتَ طَآئِفَةٌ مِّنْهُمْ غَيْرَ الَّذِي تَقُولُ وَاللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴿٨١﴾ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾﴾؟!

قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ﴾ أي ويقول المنافقون إذا كانوا عندك أمرنا سَمعٌ وطاعة ﴿فَإِذَا بَرَزُوا مِنْ عِندِكَ﴾ أي خرجوا من مجلسك ﴿بَيَّتَ طَآئِفَةٌ مِّنْهُمْ غَيْرَ الَّذِي تَقُولُ﴾ أي دبرت وزورت طائفة منهم وهي رؤساؤهم غير ما قالت من القبول والرضا، والإطاعة في حضورك ﴿وَاللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ﴾ يعني والله يثبت في صحائف أعمالهم ما يدبرونه ويزورونه ويحاسبهم عليه ﴿وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾ قائماً بما هو من شؤونه من مراعاة الحقائق ومحاسبة العباد عليها، فلا يهمنك عداؤهم وأحقادهم وبغضاؤهم. ويظهر من أعمال وأحوال أولئك المنافقين أنهم لم يؤمنوا برسالة محمد ﷺ إلى العالم من الإنس والجن ولم يؤمنوا بأن الكتاب المنزل عليه كلام الله ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ﴾ حتى يتبين خطأهم في ذلك ﴿وَلَوْ كَانَ﴾ القرآن ﴿مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ في آياته بعضها مع البعض. وإيضاحه أن في القرآن الكريم آيات تبحث عن الكواكب وحركاتها، والرسول لم يكن فلكياً، ولم يدرس علم الفلك، فكان اللازم على تقدير كونه كلامه أن يكون بعضه صادقاً وبعضه كاذباً، وفيه حكايات عن أحوال الأمم السابقة ورسلها وكلام كذلك مع طوله لا يخلو عادة عن مخالفة بعضها لبعض، وفيه إخبار عن حدوث أمور في المستقبل، وليس الرسول عالماً بالغيب، فلو كان القرآن كلامه لظهرت المخالفة في بعضها إلى غير ذلك من الأحوال التي لو كان الذاكر لها غير علّام الغيوب لوقع فيها الاختلاف، ويعلم ذلك أهل العقل والإنصاف. وما دام لم يجدوا فيه الاختلاف كان الواجب عليهم أن يؤمنوا بأنه كلام الله الأزلي الأبدي يعلم الكائنات وما فيها، ولا يغيب عنه منها شيء والذي نزل عليه ذلك الكلام هو الرسول المبعوث إلى الأنام لتبليغه وتطبيقه باعتبار أنه شريعة وأساس يبقى على مرّ الأيام.

﴿وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ الْأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ

وَإِلَىٰٓ أُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ ۗ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَٱتَّبَعْتُمُ ٱلشَّيْطَٰنَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٣﴾ فَقَٰتِلْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ ۚ وَحَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَكُفَّ بَأْسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ وَٱللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا وَأَشَدُّ تَنكِيلًا ﴿٨٤﴾ مَّن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً حَسَنَةً يَكُن لَّهُۥ نَصِيبٌ مِّنْهَا ۖ وَمَن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً سَيِّئَةً يَكُن لَّهُۥ كِفْلٌ مِّنْهَا ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقِيتًا ﴿٨٥﴾.

عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: لما اعتزل النبي ﷺ دَخَلْتُ المسجد فإذا الناس ينكتون بالحصى ويقولون: طلق رسول الله ﷺ نساءه، فلم أصبر حتى استأذنت على رسول الله فقلت له: أطلقتَ نساءك؟ قال: لا فقلت: الله أكبر. فقمت على باب المسجد فناديت بأعلى صوتي: لم يطلق نساءه. فنزلت هذه الآية فكنت أنا استنبطت ذلك الأمر.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا جَآءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ ٱلْأَمْنِ أَوِ ٱلْخَوْفِ﴾ أي وإذا جاء المنافقين أو ضعفاءَ المسلمين أمر مما يوجب الأمن والطمأنينة لقلوب الناس أو يوجب الخوف والفزع وانزعاج قلوبهم ﴿أَذَاعُوا۟ بِهِۦ﴾ ونشروه بين الناس فيسمعه المؤمن والكافر والصادق والمنافق، وربما يحصل من انتشاره بعض أضرار على المؤمنين، فهذه الإذاعة إضاعة لأسرار المؤمنين، ولا يجوز بأيّ حال من الأحوال إفساح المجال لهم، ويجب لمن سمع شيئاً من هذه الأمور أن يتوقف ويتريث حتى تظهر الحقيقة ويردّه إلى أهله كالرسول وخواصه ﴿وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ﴾ مثل كبار الصحابة المطلعين على الحقائق وأسرارها ﴿لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ﴾ أي لعلم حقيقته وعلى أيّ وجه يذكر الذين يستنبطونه ويستخرجون تدابيره بتجاربهم وأفكارهم، ولم يكن ذكرها على وجه يورث الخطر على المسلمين ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ﴾ بإرسال الرسول وإنزال الكتاب وإيضاح ما في طيات آياته من الحقائق، وتثبيت قلوب المؤمنين بالإرشاد والبيان المفيد ﴿لَٱتَّبَعْتُمُ ٱلشَّيْطَٰنَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ منكم خصه الله بمزيد عقل وعلم راجح ناجح اهتدى به إلى الحق والصواب كعمر بن الخطاب وسائر أهل الفكر والصواب ﴿فَقَٰتِلْ﴾ الكفار ﴿فِي سَبِيلِ﴾ إعلاء كلمة ﴿ٱللَّهِ﴾ تعالى ﴿لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ﴾ ولست مسؤولاً محاسباً إلا على فعل نفسك ﴿وَحَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ على القتال، ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَكُفَّ بَأْسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ من قريش وسائر المشركين بإلقاء الرعب في قلوبهم ﴿وَٱللَّهُ أَشَدُّ

بَأْسًا﴾ من أعداء الدين ﴿وَأَشَدُّ تَنكِيلًا﴾ وتعذيباً وتأثيراً بالتحطيم للكافرين منهم لكم وتحريضك للمؤمنين على الجهاد في سبيل الله ليجاهدوا فيخلصوا من شر الأعداء وإيذاء الناس لاسيما المستضعفين والفقراء من قبيل الشفاعة لهم عند الله تعالى لتخليصهم بواسطة المجاهدة عن اتباع الهوى الموجب للانهيار والدمار واستحقاق عذاب النار. و﴿مَّن يَشْفَعْ﴾ لأي فرد أو جماعة أو أمة ﴿شَفَٰعَةً حَسَنَةً﴾ راعى بها الحق المحترم ﴿يَكُن لَّهُۥ﴾ أي لهذا الشفيع ﴿نَصِيبٌ﴾ كبير ﴿مِّنْهَا﴾ وهو ثوابها لأنه كان دليلاً على نيل الخير والدال على الخير كفاعله ﴿وَمَن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً سَيِّئَةً﴾ تحلل حراماً أو تحرم حلالاً، أو يوصل الإنسان الغير المستحق لدرجة إليها بأن يجعل له تصرفاً في الأمة وهو سيىء الإدارة، أو مدرساً لطلاب وهو غير قادر على الإفادة والإنارة.. ﴿يَكُن لَّهُۥ كِفْلٌ مِّنْهَا﴾ أي نصيب من وزرها. ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقِيتًا﴾ أي قادراً مقتدراً من أقات على الشيء إذا قدر عليه. وقال ـ عليه الصلاة والسلام ـ: «**من دعا لأخيه المسلم بظهر الغيب استجيب له، وقال له الملك: ولك مثل ذلك**».

﴿وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا۟ بِأَحْسَنَ مِنْهَآ أَوْ رُدُّوهَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَسِيبًا ﴿٨٦﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ ۗ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا ﴿٨٧﴾﴾.

قوله: ﴿وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ﴾ الآية الجمهور على أن المراد بالتحية هنا هو السلام. والمعنى أنه إذا سلم عليكم بسلام فردّوا السّلام وأدّوا الجواب بوجه أحسن منها في كمية الكلمات، وفي كيفية أدائها من إكرام وابتسام ومحبة واحترام ﴿أَوْ رُدُّوهَآ﴾ بمثلها. والجمهور على أن ابتداء السلام سنةُ عينٍ للفرد وكفاية للجماعة، وأن الجواب للمسلم فرض عين للفرد وكفاية للجماعة، إلا في موارد استثنيت من الابتداء به أو الجواب عنه. ومنها السلام على من على قضاء الحاجة، أو في الحمام أو من يقرأ القرآن، أو يؤذن أو يشتغل بالأكل. ويسلم الماشي على القاعد، والراكب على الماشي والصغير على الكبير، والأقل على الأكثر. وفي الكشاف من قال لآخر: إقرأ السلام على فلان وجب عليه أن يفعل، كما يجب على من قرىء عليه رده بعبارة صريحة، وأحسنها علينا وعليك وعليه السلام ورحمة الله. ويجوز السلام على النساء الأجنبيات إلا عند خوف الافتتان كأن كانت امرأة

جميلة. ولا يسن السلام على كافر وذمي أو غيره إلا عند خوف الفتنة، وإذا سلم كافر على مسلم رد الجواب بعبارة وعليكم، ولا يسلم عليهم في كتاب إلا بمثل والسلام على من اتبع الهدى. ونقل السيوطي أن الأصح من مذهب الإمام الشافعي رضي الله عنه وجوب الرد حال الخطبة. وقيل: مستحب، وقيل: إنه مباح. وأما القارىء ففي روضة النووي أن الأولى ترك السلام عليه فإن سلم عليه كفاه الرد بالإشارة. وفي تفسر البيضاوي: إن وجوب الردّ حيث السلامُ مشروع، فلا يردّ في الخطبة، وقراءة القرآن، وفي الحمام. ولعل هذا هو الراجح في مذهب الإمام الشافعي رضي الله عنه.

وفي الأنوار: لو ناداه من وراء حائط أو ستر بالسلام أو كتب كتاباً أو أرسل رسولاً به وجب الرد.

وصيغة السلام أن يقول: السلام عليكم، أو سلام عليكم، ولو قال: السلام عليك حصلت السنة. ويستحب صيغة الجمع وإن كان المسلَّم عليه واحداً خطاباً له ولملائكته. وصيغة الجواب: وعليكم السلام. أو وعليك السلام للواحد، ولو ترك الواو كفى. ولو قال: وعليكم لا يكون جواباً. وكمال السلام أن يقول المسلّم: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته. وكمال الجواب: وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته. ويستحب لمن دخل داره أن يسلم على أهله، ولمن دخل مسجداً أو بيتاً ليس فيه أحد أن يقول: السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين. والسلام عند القيام ومفارقة القوم دعاء وليس بتحية. فيستحب الجواب ولا يجب. وقيل: يجب لأن ابتداء السلام سنة لخبر: إذا انتهى أحدكم من المجلس فليسلم، فليست الأولى بأحق من الآخِرة رواه الترمذي.

ثم: المراد بأحسن أنه إذا قال المسلِّم: السلام عليكم تقول في جوابه: وعليكم السلام ورحمة الله، وإذا زاد المسلم ورحمة الله تزيد في الجواب وبركاته، وإذا زاد وبركاته لا يبقى مجال للرد بالأحسن بل رده بمثله. روي أن رجلاً قال لرسول الله ﷺ: السلام عليك فقال: وعليك السلام ورحمة الله. وقال آخر: السلام عليك ورحمة الله، فقال: وعليك السلام ورحمة الله وبركاته. وقال آخر: السلام عليك ورحمة الله وبركاته، فقال: وعليك. فقال الرجل: نقصتني فأين ما قال الله تعالى وتلا الآية؟ فقال ﷺ: إنك لم تترك لي فضلاً فرددت عليك مثله.

وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَسِيبًا﴾ تقرير لمراقبته تعالى لأعمال

المكلفين ويدخل فيها ما أمروا به من التحية دخولاً أولياً حسب السياق. وقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ مبتدأ وخبر. وقوله: ﴿لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ جواب قسم مقدر تقديره: والله ليجمعنكم إلى يوم القيامة. والمعنى: والله ليحشرنكم من قبوركم في يوم القيامة. والقيامة كالطلابة قيام الناس من القبور، أو قيامهم للحساب. وقوله: ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ أي في جمعكم أو في يوم القيامة، فهو حال من اليوم أو صفة لمصدر محذوف. أي جمعاً لا ريب فيه. وقوله: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا﴾؟ إنكار لوجود شخص يكون أصدق من الله حديثاً؛ لأن الله لا يتطرق الكذب إلى خبره، لأنه نقص والنقص محال على الله تعالى شرعاً وعقلاً؛ لأنه إما لحاجة أو لغيرها وهو الغني المطلق. والغير إما عدم العلم، وهو العليم الذي لا يعزب عن علمه مقدار ذرة، وإما قصداً وهو لا يليق بجنابه تقدس وتعالى.

﴿فَمَا لَكُمْ فِى ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِئَتَيْنِ وَٱللَّهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُوٓا۟ أَتُرِيدُونَ أَن تَهْدُوا۟ مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا ﴿٨٨﴾ وَدُّوا۟ لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا۟ فَتَكُونُونَ سَوَآءً فَلَا تَتَّخِذُوا۟ مِنْهُمْ أَوْلِيَآءَ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَخُذُوهُمْ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَلَا تَتَّخِذُوا۟ مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٨٩﴾﴾.

عن زيد بن ثابت أن رسول الله ﷺ خرج إلى أُحُد فرجَعَ ناسٌ خَرَجُوا مَعَه فكان أَصْحابُ رَسولِ اللهِ فيهم فرقَتَين: فرقة تقول: نقتلهم، وفرقة تقول: لا. فأنزل الله الآية. أخرجه الشيخان وغيرهما.

وعن أبي سلمة بن عبد الرحمن عن أبيه أن قوماً من العرب أتوا رسول الله ﷺ فأسلموا وأصابوا وباء بالمدينة وحماها فأركسوها، فخرجوا من المدينة فاستقبلهم نفر من أصحاب رسول الله ﷺ، فقالوا: ما لكم رجعتم؟ فقالوا: أصابنا وباء المدينة فاجتويناها. فقالوا: مالكم في رسول الله أسوة؟ فقال بعضهم: نافقوا. وقال بعضهم: لم ينافقوا وهم مسلمون. فأنزل الله الآية. وقال مجاهد في هذه الآية: هم قوم خرجوا من مكة حتى جاؤوا المدينة يزعمون أنهم مهاجرون ثم ارتدوا بعد ذلك فاستأذنوا النبي ﷺ إلى مكة ليأتوا ببضائع لهم يتجرون فيها. فاختلف فيهم المؤمنون فقائل يقول: هم منافقون وقائل يقول: هم مؤمنون. فبين الله تعالى نفاقهم، وأنزل هذه الآية وأمر بقتلهم في قوله: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَخُذُوهُمْ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ﴾ فجاءوا ببضائعهم يريدون هلال بن عويمر الأسلمي وبينه

وبين النبي ﷺ حلف وهو الذي حصر صدره أن يقاتل المؤمنين فرفع عنهم القتل بقوله تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَىٰ قَوْمٍ﴾ الآية.

قوله تعالى: ﴿فَمَا لَكُمْ فِى ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِئَتَيْنِ﴾ الآية الاستفهام إنكاري، وما مبتدأ ولكم خبره، وفئتين حال من ضمير المخاطب، ومعناه: ماذا يحصل أو حصل لكم حال كونكم متفرقين إلى فرقتين في أولئك الناس المنافقين؟ ولماذا ما اتفقتم على كفرهم ونفاقهم؟ ﴿وَٱللَّهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُوٓا۟﴾ أي والله تعالى ردهم إلى الكفر أو أضلهم بما كسبوا من المعاصي وسوء النية. ﴿أَتُرِيدُونَ أَن تَهْدُوا۟ مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ﴾ وتجعلوهم من المهتدين بعد إبرام القضاء بضلالهم؟ ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا﴾ إلى الرّشاد. وإن لم تعرفوا بواطنهم فاعلموا أنهم ﴿وَدُّوا۟ لَوْ تَكْفُرُونَ﴾ أنتم ﴿كَمَا كَفَرُوا۟ فَتَكُونُونَ﴾ أنتم وهم ﴿سَوَآءً﴾ في الضلال، فما دامت بواطنهم كذلك ﴿فَلَا تَتَّخِذُوا۟ مِنْهُمْ أَوْلِيَآءَ﴾ أصدقاء وأحباباً ﴿حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ وتتحققوا إيمانهم بتلك الهجرة. ﴿فَإِن تَوَلَّوْا۟﴾ عن الإيمان وعن إثباته بحجة الهجرة ﴿فَخُذُوهُمْ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَلَا تَتَّخِذُوا۟ مِنْهُمْ وَلِيًّا﴾ توالونه ﴿وَلَا نَصِيرًا﴾ تناصرونه.

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَىٰ قَوْمٍۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ أَوْ جَآءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَن يُقَٰتِلُوكُمْ أَوْ يُقَٰتِلُوا۟ قَوْمَهُمْ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَٰتَلُوكُمْ ۚ فَإِنِ ٱعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْا۟ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَمَ فَمَا جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا ﴿٩٠﴾﴾.

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَىٰ قَوْمٍۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ﴾ ويلتجئون إليهم ويدخلون في عداد المعاهدين ﴿أَوْ جَآءُوكُمْ﴾ حال كونهم ﴿حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ﴾ أي ضاقت عن ﴿أَن يُقَٰتِلُوكُمْ﴾ لأنكم مسلمون ﴿أَوْ يُقَٰتِلُوا۟ قَوْمَهُمْ﴾ لأنهم من أقاربهم ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ﴾ بأن قوى قلوبهم لذلك ﴿فَلَقَٰتَلُوكُمْ فَإِنِ ٱعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ﴾ ولم يتعرضوا لكم بسوء ﴿وَأَلْقَوْا۟ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَمَ﴾ أي الاستسلام والانقياد ﴿فَمَا جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا﴾.

عن الحسن البصري: أن سراقة بن مالك المدلجي حدثهم قال: لما ظهر النبي ﷺ على أهل بدر وأحد وأسلم من حولهم قال سراقة بلغني أنه يريد أن يبعث خالد بن الوليد إلى قومي بني مدلج فأتيته فقلت: أنشدك النعمة؟ فقال الحاضرون: صه. فقال النبي ﷺ: دعوه، ما تريد؟ قال: بلغني أنك تريد أن تبعث إلى قومي وأنا أريد أن توادعهم فإن أسلم قومك أسلموا ودخلوا في الإسلام، وإن لم يسلموا

لم تخش قلوب قومك عليهم. فأخذ رسول الله ﷺ بيد خالد بن الوليد فقال: اذهب معه فافعل ما يريد. فصالحهم خالد على أن لا يعينوا على رسول الله ﷺ وإن أسلمت قريش أسلموا معهم فأنزل الله الآية أخرجه ابن أبي حاتم.

﴿سَتَجِدُونَ ءَاخَرِينَ يُرِيدُونَ أَن يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُوا۟ قَوْمَهُمْ كُلَّ مَا رُدُّوٓا۟ إِلَى ٱلْفِتْنَةِ أُرْكِسُوا۟ فِيهَا ۚ فَإِن لَّمْ يَعْتَزِلُوكُمْ وَيُلْقُوٓا۟ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَمَ وَيَكُفُّوٓا۟ أَيْدِيَهُمْ فَخُذُوهُمْ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكُمْ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا ﴿٩١﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿سَتَجِدُونَ ءَاخَرِينَ﴾ الآية نزلت في أناس كانوا يأتون النبي ﷺ فيُسلِمون رياءً ثم يرجعون إلى قريش فيرتكسون في الأوثان يبتغون بذلك أن يأمنوا قومَهم فأبى الله تعالى ذلك عليهم، قاله ابن عباس ومجاهد. وقيل: الآية في حق المنافقين. فيقول الباري سبحانه وتعالى لحبيبه محمد ﷺ ومن معه: ﴿سَتَجِدُونَ ءَاخَرِينَ﴾ من الكفار غير المنافقين السابقين ﴿يُرِيدُونَ أَن يَأْمَنُوكُمْ﴾ بالإتيان إلى النبي ﷺ وإظهار الإيمان ليأمنوا منكم ﴿وَيَأْمَنُوا۟ قَوْمَهُمْ﴾ من مشركي مكة إذا رجَعوا إليهم بالاشتغال بأمور الوثنية المعتادة بينهم ﴿كُلَّ مَا رُدُّوٓا۟ إِلَى ٱلْفِتْنَةِ﴾ أي دُعوا للاشتراك كما قال السدي ﴿أُرْكِسُوا۟ فِيهَا﴾ أي قُلِبُوا فيها أقبَح قلبٍ وأشنعه ﴿فَإِن لَّمْ يَعْتَزِلُوكُمْ وَيُلْقُوٓا۟ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَمَ وَيَكُفُّوٓا۟ أَيْدِيَهُمْ﴾ أي فإن لم يعتزلوكم بالكف عن التعرّض لكم ولم يُلْقُوا إليكم الصلح والمهادنة ولم يكفوا أيديهم عن قتالكم ﴿فَخُذُوهُمْ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ﴾ أي حيث وجدتموهم وتمكنتم منهم ﴿وَأُو۟لَٰٓئِكُمْ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا﴾ أي وأولئك الناس الكافرون الموصوفون بما ذكر من الصفات القبيحة قررنا لكم عليهم حجة واضحة فيما أمرناكم به من قتلهم متى ظفرتم بهم وتمكنتم منهم.

تنبيه: علم من ترتب قوله تعالى: ﴿فَخُذُوهُمْ وَٱقْتُلُوهُمْ﴾ على ما سبقه من الشروط أن قوله تعالى: ﴿وَيُلْقُوٓا۟ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَمَ﴾ وقوله: ﴿وَيَكُفُّوٓا۟ أَيْدِيَهُمْ﴾ معطوفان على المنفي فيما قبل ويستولى عليهما النفي، والتقدير: فإن لم يعتزلوكم ولم يلقوا إليكم السلم ولم يكفوا أيديهم فخذوهم.

في روح المعاني ما نصه: وعن بعض المحققين أن هذه الآية مقابلة للآية الأولى فقوله سبحانه: ﴿فَإِن لَّمْ يَعْتَزِلُوكُمْ﴾ مقابل لقوله تعالى: ﴿وَأَلْقَوْا۟ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَمَ﴾ وقوله تعالى: ﴿وَيَكُفُّوٓا۟ أَيْدِيَهُمْ﴾ مقابل لقوله: ﴿فَلَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ﴾ والواو لا تقتضي الترتيب؛ فالمقدم مركب من ثلاثة أجزاء في الآيتين. وهي في الآية الأولى

الاعتزال وعدم ا لقتال وإلقاء السَّلَم فبهذه الأجزاء الثلاثة تم الشرط. وجزاؤه عدم التعرض لهم بالأخذ والقتل كما يشير إليه قوله تعالى: ﴿فَمَا جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا﴾. وفي الآية الثانية عدم الاعتزال وعدم إلقاء السلم وعدم الكف عن القتال، فبهذه الأجزاء الثلاثة تم الشرط، وجزاؤه الأخذ والقتل المصرح به بقوله سبحانه: ﴿فَخُذُوهُمْ وَٱقْتُلُوهُمْ﴾ إنتهى باختصار.

﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَـًٔا ۚ وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَـًٔا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَصَّدَّقُوا۟ ۚ فَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ عَدُوٍّ لَّكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ ۖ وَإِن كَانَ مِن قَوْمٍۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ فَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ ۖ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٩٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَـًٔا﴾ الآية شروع في بيان حال المؤمنين بعد بيان حال الكافرين والمنافقين. ومعنى الآية الكريمة: ما صح وما ينبغي لمؤمن وليس من شأنه المناسب له أن يقتل مؤمناً بغير حق، فإن الإيمان بالله ورسوله والشعور بالمسؤولية يوم القيامة وأخوة الإسلام كل ذلك زاجر له أن يقتل مؤمناً بغير حق إلا إذا كان القتل خطأ فإنه مما لا يحترز عنه بالكلية، ﴿وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَـًٔا﴾ عليه ﴿تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ﴾ أي إعتاقها، ودية مسلّمة إلى أهله أي مؤداة إلى ورثة القتيل يقسمونها بينهم على حسب الميراث.

أخرج أصحاب السنن الأربعة عن الضحاك بن سفيان الكلابي قال: كتب إليّ رسولُ الله ﷺ يأمرني أن أرِثَ امرأةَ أشيم الضبابي مِنْ عَقْلِ زَوجها ويقضي منها الدين وتنفذ الوصية، ولا فرق بينها وبين سائر التركة. وتجب الرقبة في مال القاتل والدية تتحملها العاقلة عنه، فإن لم تكن فهي في بيت المال، فإن لم يكن ففي ماله ﴿إِلَّآ أَن يَصَّدَّقُوا۟﴾ أي إلا أن يتصدق أهله عليه ويعفونه عنها. وذكر بعنوان الصدقة حثاً وترغيباً في العفو وقد أخرج الشيخان عن النبي ﷺ: «**كل معروفٍ صَدَقة**».

مهمة يجب الانتباه لها هي: أن الله سبحانه وتعالى ذكر في كتابه المجيد العمد والخطأ ولم يذكر شبه العمد وقد اختلف العلماء في القول به، فقال ابن المنذر: أنكر ذلك مالك وقال: ليس في كتاب الله إلا العمد والخطأ. وقال أبو

عمر: أنكر مالك والليث ابن سعد شبه العمد فمن قتل عندهما بما لا يقتل مثله غالباً كالعَضّة واللطمة وضربة السوط والقضيب وشبه ذلك... فإنه عمد وفيه القود، قال أبو عمر: وقال بقولهما جماعة من الصحابة والتابعين. وذهب جمهور فقهاء الأنصار إلى أن هذا كله شبه العمد، وممن أثبت شبه العمد الشعبي والحكم وحماد والنخعي وقتادة وسفيان الثوري وأهل العراق والشافعي. ورُوي ذلك عن عمر بن الخطاب وعليّ ابن أبي طالب ﷺ. وهذا هو الصحيح فإن الدماء أَحَقّ ما احتيط لها، إذ الأصل صيانتها فلا تستباح إلا بأمرٍ بَيّنٍ لا إشكال فيه، وإذا كان أمراً متردداً بين العمد والخطأ حكم له بشبه العمد، فالضرب مقصود والقتل غير مقصود، وإنما وقع بغير القصد فيسقط القود وتغلظ الدية، وبمثل هذا جاءت السّنة.

روى أبو داود من حديث عبد الله بن عمرو أن رسول الله ﷺ قال: «**ألا إنّ ديةَ الخطأ شبه العمد ما كان بالسوط والعصا مأةٍ من الإبل، منها أربعون في بطونها أولادُها**». وروى الدارقطني عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «**العَمدُ قَوَد اليَدِ. والخطأ عقل لا قود فيه، ومَنْ قُتل في عِمِّيّةٍ بحجر أو عصا أو سوط فهو دية مغلظة في أسنان الإبل**» وروي أيضاً من حديث سليمان بن موسى عن عمر بن شعيب عن أبيه عن جده قال: قال رسول الله ﷺ: «**عقل شبه العمد مغلظ مثل قتل العمد ولا يقتل صاحبه**». وهذا نَصٌّ.

وإذا علمت أن العراقيين والشافعي قائلون بشبه العمد فاعلم أن القتل عند الفقهاء العراقيين أي أبي حنيفة وأتباعه خمسة أنواع:

الأول: عمد وهو أن يتعمد ضربه بسلاح ومحدد من خشب وحجر وليطة ونار، وموجبة الإثم والقود عيناً، فلا يصير مالاً إلا بالتراضي لا الكفارة، لأن القتل كبيرة محضة وفي الكفارة معنى العبادة ولا يناط بها.

والثاني: شبهة وهو أن يقصد ضربه بغير ما ذكر، وموجبه الإثم والكفارة ودية مغلظة على العاقلة لا القود لشبهه بالخطأ نظراً إلى آلته، وهو في ما دون النفس من الأطراف عمد موجب للقصاص، فليس في ما دون النفس شبه عمد.

والثالث: خطأ وهو نوعان لأنه إما خطأ في ظن الفاعل كأن يرمي شخصاً ظنه صيداً، أو حربياً فإذا هو مسلم. وإما خطأ في نفس الفعل كأن يرمي غرضاً أو

صيداً فأصاب آدمياً، أو رمى غرضاً فأصابه ثم رجع عنه، أو تجاوز عنه إلى ما وراءه فأصاب رجلاً، أو قصد رجلاً فأصاب غيره.

والرابع: ما جرى مجراه كنائم انقلب على رجل فقتله، وموجبه الكفارة والدية على العاقلة.

والخامس: قتل بسبب كحافر البئر وواضح حجر في غير ملكه من غير إذن من لاسلطان، وكذا واضع خشبة على قارعة الطريق ونحو ذلك. وموجبه الدية على العاقلة لا الكفارة. وكل ذلك يوجب حرمان الإرث إذا كان الجاني مكلفاً، إلا هذا الأخير.

وأما عند الشافعي رضي الله عنه ففي منهاج الإمام النووي وشرحه لابن حجر رضي الله عنهما: الفعل المزهق ثلاثة لمفهوم الخبر الصحيح: «**ألا إن في قتل عمد الخطأ كقتيل السوط والعصا مائة من الإبل**»: عمد، وخطأ، وشبه عمد. ولا قصاص إلا في العمد وهو قصد الفعل وعين الشخص بما يقتل غالباً جارح أو مثقل. فإن فقد قصدهما أو قصد أحدهما بأن وقع عليه فمات أو رمى شجرة فأصابه فخطأ. وإن قصدهما بما لا يقتل غالباً فشبه عمد ويسمى خطأ عمد، وعمد خطأ وخطأ شبه عمد. سواء أقتل كثيراً أم نادراً كضربة يمكن عادة إحالة الهلاك عليها. ومنه الضرب بسوط أو عصا، فلو غرز إبرةً بمقتل فعمدٌ، وكذا بغيرها إن تورّم وتألّم حتى مات. فإن لم يظهر أثر ومات في الحال فشبه عمد، وقيل عمد وقيل لا شيء ولو غرزها فيما لا يؤلم كجلدة عقب فلا شيء بحال.

أما الدية: فدية شبه العمد عند الإمام أبي حنيفة وأتباعه: مائة من الإبل أرباعاً من: بنت مخاض، وبنت لبون، وحقة إلى جذعة. وهي المغلظة لا غيرها. وفي الخطأ أخماس منها ومن بنت مخاض أو ألف دينار من الذهب أو عشرة آلاف درهم من الوَرِق أي الفضة. والدية على العاقلة على حسب ما ذكر في المدوّنات. والعاقلة: أهل الديون وهم العسكر فتؤخذ من عطاياهم في ثلاث سنين وإن لم يكن أهل الديوان فعاقلته قبيلته، وتقسم عليهم في ثلاث سنين، فإن لم تسع القبيلة لذلك ضم إليهم أقرب القبائل نسباً على ترتيب العصبات، والقاتل أحدهم. ولا تَعْقِلُ عاقلةُ جنايةِ عمدٍ في النفس[1] أو الطرف فإن العمد لا يوجب التخفيف، ولا ما لزم

(١) هذا إذا عفا القاتل المتعمد على المال.

بصلح أو اعتراف فإنه على القاتل حالاً إلا إذا أُجّل. وإذا لم يكن للقاتل عاقلةً فالدية في بيت المال إذا كان القاتل مسلماً. ومن له وارث معروف ولو بعيداً لا يعقله بيت المال.

ودية المرأة على النصف من دية الرجل في دية النفس وما دونها. روي ذلك عن علي ﷺ موقوفاً ومرفوعاً. وأما كفارة شبه العمد والخطأ فعتق عبد مؤمن، فإن عجزعنه صام شهرين ولاءً ولا إطعام فيهما إذ لم يرد به النص. وأما عند الإمام الشافعي فالدية في قتل الحر المسلم الذكر المعصوم غير الجنين مائة بعير إجماعاً وهي مثلثة في العمد وعلى نفس القاتل معجلة مثلثة في شبه العمد أيضاً لكنها على العاقلة مؤجّلةً وهي ثلاثون حقة وثلاثون جذعة وأربعون خَلِفَةً، أي حاملاً لخبر الترمذي بذلك ومخمسة في الخطأ: عشرون بنت مخاض وكذا بنات لبون وبنو لبون وحِقاق وجِذاع من الإناث فإن قتل خطأ في حرم مكة أو في الأشهر الحرم الأربعة أو محرماً ذا رحم كأم وأخت فهي مثلثة ولكنها على العاقلة أيضاً. ولو عدمت الإبل فالقديم أن الواجب ألف دينار أو إثنا عشر ألف درهم، والجديد أن الواجب قيمة الإبل المأة بالغة ما بلغت. ودية المرأة والخنثى كنصف دية رجل نفساً وجرحاً وأطرافاً إجماعاً في نفس المرأة وقياساً في غيرها.

وأما كفارة القتل عمداً أو شبه عمد أو خطأ فهي ككفارة الظهار لكن لا إطعام هنا، فهي تحرير رقبة فإن عجز فصيام شهرين متتابعين. وهي فورية في العمد وشبهه تداركاً لإثمهما بخلاف الخطأ فلا تجب الفورية فيها كما يظهر من قوله تعالى: ﴿فَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ عَدُوٍّ لَّكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ﴾ أي وإن كان المؤمن المقتول من قوم كفار محاربين أو في تضاعيفهم ولم يعلم إيمانه فعلى قاتله الكفارة دون الدية لأهله، إذ لا وراثة بينه وبينهم لأنهم محاربون ﴿وَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ فَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰ أَهْلِهِ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ﴾ أي وإن كان المقتول من قوم كفرة معاهدين أو أهل ذمة فحكمه حكم المسلمين في وجوب الكفارة والدية. ﴿فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِّنَ اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ فيما شرعه من الأحكام.

﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا ﴿٩٣﴾﴾.

أجمعوا على أن الآية نزلت في مَقْيَسِ بنِ ضبابة، وذلك أنه كان قد أسلم هو وأخوه هشام بن ضبابة فوجد هشاماً قتيلاً في بني النجار فأخبر بذلك النبي ﷺ، فكتب له إليهم أن يدفعوا إليه قاتل أخيه وأرسل معه رجلاً من بني فهر. فقال بنو النجار: والله ما نعلم له قاتلاً، ولكنا نُؤدي الدِّيةَ، فَأَعْطَوْهُ مأةً من الإبل ثم إنصرفا راجعين إلى المدينة. فعدا مقيس على الفهري فقتله بأخيه وأخذ الإبل وانصرف إلى مكة كافراً مرتداً. فقال رسول الله ﷺ: «**لا أؤَمِّنُهُ في حَلٍّ ولا حَرَم**» وأمر بقتله يوم فتح مكة وهو متعلق بالكعبة، ولما ثبت هذا بنقل أهل التفسير وعلماء الدين فلا ينبغي أن يحمل على القاتل المسلم قطعاً. ثم ليس الأخذ بظاهر هذه الآية بأولى من الأخذ بظاهر قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ﴾ وقوله تعالى: ﴿وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ والأخذ بالظاهرين تناقض فلا بد من التخصيص. ثم إن الجمع بين آية الفرقان وهذه الآية ممكن فلا نسخ ولا تعارض. وذلك أن يحمل مطلق آية النساء على مقيد آيةِ الفرقان فيكون معناه فجزاؤه كذا إلّا من تاب لا سيما وقد اتحد الموجِبْ وهو القتل والموجَبُ وهو التواعد بالعقاب.

وأما الأخبار فكثيرة كحديث عبادة بن الصامت الذي قال فيه: «**تبايعوني على ألّا تشركوا بالله شيئاً ولا تزنوا ولا تسرقوا ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق، فمن وفّى منكم فأجره على الله، ومن أصاب شيئاً من ذلك فعوقب به فهو كفارة له، ومن أصاب من ذلك شيئاً فستره الله عليه فأمره إلى الله إن شاء عفا عنه وإن شاء عذبه**» رواه الأئمة. ولحديث أبي هريرة عن النبي ﷺ في الذي قتل مائة نفس أخرجه مسلم في صحيحه وابن ماجه في سننه وغيرهما إلى غير ذلك من الأخبار الثابتة.

ثم إنهم قد أجمعوا معنا في الرجل يشهد عليه بالقتل ويقرّ بأنه قتل عمداً ويأتي السلطانَ الأولياءُ فيقام عليه الحد ويقتل قوداً. فهذا غير مُتبع في الآخرة، والوعيد غير نافذ عليه إجماعاً على مقتضى حديث عُبادة. فقد انكسر عليهم ما تعلقوا به من عموم قوله تعالى ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ﴾، ودخله التخصيص بما ذكرنا. وإذا كان كذلك فالوجه أن هذه الآية مخصوصة كما بينا، أو تكون محملةً على ما حكي عن ابن عباس أنه قال متعمداً معناه مستحلاً لقتله. فهذا أيضاً يؤول إلى الكفر إجماعاً أو أن المراد بالخلود المكث الطويل فإن

الدلائل متظاهرة على أن عصاة المسلمين لا يدوم عذابهم. وكأنه لما في الآية الكريمة من التهديد العظيم قال ابن عباس رضي الله عنهما لا تقبلُ توبةُ قاتل المؤمن عمداً. ولعله أراد به التشديد إذ روي عنه خلافه، أو أنه حملها على من قَتَل المؤمن لكونه مؤمناً. وذلك يوجب الكفر بلا شبهة ويكون مآل هذا التوجيه وقوله السابق مستحلاً واحداً لابتنائهما على كفر ذلك القاتل. والله أعلم.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا ضَرَبْتُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَتَبَيَّنُواْ وَلَا تَقُولُواْ لِمَنْ أَلْقَىٰٓ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَٰمَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فَعِندَ ٱللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبْلُ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿٩٤﴾﴾.

عن ابن عباس قال: مرّ رجل من بني سليم بنفر من أصحاب النبي ﷺ وهو يسوق غنماً، فسلم عليهم فقالوا: ما سلم علينا إلا ليتعوذ منا فعمدوا إليه فقتلوه وأتوا بغنمه إلى النبي ﷺ فنزلت الآية أخرجه البخاري والترمذي والحاكم. وفي غير البخاري: وحمل رسول الله ﷺ ديته إلى أهله ورد عليه غنيماته.

واختلف في تعيين القاتل والمقتول في هذه المنازلة فالذي عليه الأكثر وهو في سير ابن إسحاق ومُصَنَّف أبي داود والاستيعاب لابن عبد البرّ: أن القاتل مُحَلِّم ابنُ جَثامة والمقتول عامر بن الأضبط. فدعا ﷺ على محلّم فما عاش بعد ذلك إلا سبعاً ثم دُفِنَ فلم تقبله الأرض، ثم دفن فلم تقبله، ثم دفن ثالثة فلم تقبله! فلما رأوا أن الأرض لا تقبله أَلْقَوه في بعضِ تلك الشعاب. وقال عليه السلام: «**إن الأرض لتقبل من هو شرّ منه**». قال الحسن: أما أنها تحبِسُ مَن هو شر منه ولكنه وعظ القومَ ألّا يَعُودُوا أي إلى مثل ذلك العمل.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ الآية شروع في التحذير عما يوجب الندم من قتل من لا ينبغي قتله. فيقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا ضَرَبْتُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي سافرتم للغزو ﴿فَتَبَيَّنُواْ﴾ أي فاطلبوا بيان الأمر ووضوحه في كل ما تفعلونه أو تتركونه، ولا تعملوا شيئاً من غير تدبر وبصيرة ﴿وَلَا تَقُولُواْ لِمَنْ أَلْقَىٰٓ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَٰمَ لَسْتَ مُؤْمِنًا﴾ أي ولا تقولوا لمن حياكم بتحية الإسلام وهي السلام عليكم لَسْتَ مؤمناً وإنما سلمت علينا خوفاً من القتل والأسر وأخذ الأموال بل أقبلوا منه ما أظهره وعاملوه معاملة الأخ لأخيه المؤمن. ﴿تَبْتَغُونَ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾

حال كونكم عند ذلك القول تطلبون أسره أو قتله لتستولوا على متاع الحياة الدنيا مما عنده من السلب والأموال والمواشي وغيرها، فلا تطلبوا ذلك ﴿فَعِندَ ٱللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ﴾ في الدنيا ومواهب كثيرة في الآخرة تنالونها ﴿كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبْلُ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾ فمثل ذلك الإنسان الذي ألقى إليكم السلام كنتم في مبادىء الإسلام أي لم يكن منكم إلا كلمات كانت تدل على الإسلام والانقياد له مثل كلمة التوحيد والشهادتين والسلام المعتاد في البين، وما اطلع أحد على حقيقة ما في قلوبكم مع أن الرسول ﷺ اقتنع منكم بذلك ولم يقل لأيّ واحد منكم لست مؤمناً ﴿فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾ بقبول الإيمان ولم يأمر بالتوقف عن القبول حتى يظهر توافق القلب مع اللسان واضحاً ﴿فَتَبَيَّنُوٓاْ﴾ هذا الأمر ولا تستعجلوا ولا تبادروا بإيذاء أمثال ذلك فضلاً عن قتله وأخذ أمواله. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿٩٤﴾﴾ ولم يزل كذلك فيعاقبكم على الهجوم والاستعجال قبل بيان حقيقة الحال وهذا وعظ للاستقبال.

﴿لَّا يَسْتَوِي ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُوْلِي ٱلضَّرَرِ وَٱلْمُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٩٥﴾ دَرَجَٰتٍ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٩٦﴾﴾.

عن البراء بن عازب لما نزلت ﴿لَّا يَسْتَوِي ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ قال النبي ﷺ: «أُدْعُ فلاناً» أي زيد بن ثابت، فجاء ومعه الدّواة واللوح والكتف، فقال: «اكتب لا يستوي القاعدون من المؤمنين والمجاهدون في سبيل الله» وخلفَ النبي ابنُ أم مكتوم، فقال: يا رسول الله أنا ضرير. فنزلت مكانها: ﴿لَّا يَسْتَوِي ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُوْلِي ٱلضَّرَرِ﴾ أخرجه البخاري وأحمد والنسائي.

قوله تعالى: ﴿لَّا يَسْتَوِي . .﴾ الآية شروع في الحث على الجهاد ليأنفوا من تركه وليرغبوا عما يوجب خللاً فيه. والمراد بالقاعدين الذين أذن لهم في القعود عن الجهاد اكتفاء بغيرهم. روى البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما: هم القاعدون عن بدر، وهو الظاهر الموافق للتأريخ على ما قيل. وقال أبو حمزة. إنهم المتخلفون عن غزوة تبوك.

وروي أن الآية نزلت في كعب بن مالك من بني سلمة ومرارة بن الربيع من بني عمرو بن عوف. وهلال بن أمية من بني واقف حين تخلفوا عن رسول الله ﷺ في تلك الغزوة.

ومعنى الآية الكريمة: ﴿لَّا يَسْتَوِي ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ الذين أذن لهم بالقعود في بيوتهم وعدم خروجهم إلى الجهاد ﴿غَيْرُ أُوْلِي ٱلضَّرَرِ﴾ من الذين ابتلاهم الله بنحو العمى والعرج مما يمنع الإنسان عن الاقتحام في الحروب، ﴿وَٱلْمُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ﴾ إنفاقاً بلا حيف وتضحية بها أمام السيف. فليسوا سواء في الأجر يوم القيامة؛ لأنه ﴿وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ﴾ في سبيله ﴿بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ﴾ عن القتال من المؤمنين غير أولي الضرر ﴿دَرَجَةً﴾ مبهمة الأمر مجهولة القدر لا يعلم مداها إلا الله، لأنهم من الصابرين المحتسبين لله، وإنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب ﴿وَكُلًّا﴾ من القاعدين والمجاهدين ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ﴾ المثوبة ﴿ٱلْحُسْنَىٰ﴾ لكن ﴿وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٩٥﴾ دَرَجَٰتٍ﴾ في كل كرامات وبركات ثابتة ﴿مِّنْهُ﴾ تعالى لا من غيره لأنها من اختصاص فيض رحمته وشمول نعمته، وتلك الدرجات ارتقاءات في مواهب الحسنات، وزاد عليها ﴿وَمَغْفِرَةً﴾ للذنوب والسيئات ﴿وَرَحْمَةً وَكَانَ ٱللَّهُ﴾ ولم يزل ولا يزال ﴿غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ بعباده المؤمنين المسيئين فضلاً عن القاعدين والمجاهدين لإعلاء كلمة الحق والدين. وأما أولو الضرر المهتمون بالجهاد المكفوفون الممنوعون عن السير في العباد فلهم عين الدرجات على موازين الإيمان وحسن النيات، والله أعلم.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِيٓ أَنفُسِهِمْ قَالُوا۟ فِيمَ كُنتُمْ قَالُوا۟ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي ٱلْأَرْضِ قَالُوٓا۟ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿٩٧﴾ إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴿٩٨﴾ فَأُو۟لَٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿٩٩﴾﴾.

عن ابن عباس قال: كان قوم من أهل مكة أسْلَموا وكانوا يَسْتخفون بالإسلام فأخرجهم المشركون معهم يوم بدر، فأصيب بعضهم وقُتِل البعضُ. فقال المسلمون: قد كان أصحابنا هؤلاء مُسلمين وأُكرِهوا، فاستغفروا لهم. فنزلت فيه هذه الآية. فكتب إلى من بقي من المسلمين بمكة بهذه الآية وإنه لا عذر لهم

فخرجوا فلحقهم المشركون فأعطوهم الفتنة فنزلت فيهم الآية. ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِىَ فِى ٱللَّهِ﴾ العنكبوت فكتب المسلمون إليهم بذلك فحزنوا وأيسوا من كل خير ونزلت فيهم ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا۟﴾ النحل، فكتبوا إليهم بذلك إن الله قد جعل لكم مخرجاً فاخرجوا فخرجوا، فأدركهم المشركون فقاتلوهم حتى نجا من نجا وقتل من قتل. أخرجه البيهقي في سننه وابن المنذر. وأخرجه البخاري مختصراً حيث يقول عن ابن عباس إن أناساً من المسلمين كانوا مع المشركين يكثرون سوادَ المشركين على رسول الله ﷺ فيأتي السهم يرمي به فيصيب أحدهم فيقتله أو يضرب فيقتل. فأنزل الله الآية.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾ الآية بيان لحال القاعدين عن الهجرة إثر بيان القاعدين عن الجهاد، أو بيان لحال القاعدين عن نصرة رسول الله ﷺ والجهاد معه من المنافقين بعد بيان حال القاعدين من المؤمنين، يعني إن الذين توفاهم الملائكة أي قبضت الملائكة أرواحهم وماتوا حال كونهم ظالمي أنفسه بترك الهجرة عن مكة واختيار جوار الرسول ﷺ، أو بنفاقهم وتقاعدهم عن نصرة رسول الله ﷺ ﴿قَالُوا۟ فِيمَ كُنتُمْ﴾؟ أي قالت الملائكة لهم: في أي شيء كنتم من الشغل الشاغل عن إطاعة أمر الله من الهجرة أو المعونة والنصرة ﴿قَالُوا۟ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ فقالوا في جوابهم: كنا مستضعفين في الأرض، ومقهورين تحت أيدي الجبابرة ولم نقدر على الهجرة أو المعونة والنصرة، أو عملنا ما عملنا من الأعمال المضرة بالإسلام مضرين مكرهين. ﴿قَالُوٓا۟ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا﴾؟ أي قالت الملائكة لهم: إن عذركم ذلك باطل، إذ كان يمكنكم حل تلك العقدة بالارتحال عن بلدكم إلى بلد لآخر تقدرون فيه على إقامة الدين ونصره. فكلام الملائكة هذا معارضة لمعذرة أولئك المستضعفين. وحاصلها: قد كان لكم وسيلة الخلاص لو كان عندكم شيء من الإخلاص. ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ﴾ الناس المتقاعدون عن الهجرة أو أولئك المتقاعدون عن النصرة ﴿مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ﴾ لتركهم فريضة الهجرة والجهاد مع سيد العباد، أو لنفاقهم وتقاعدهم عما يؤدي إلى إعلاء كلمة الله. ﴿وَسَآءَتْ مَصِيرًا﴾ جهنم. ﴿إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ﴾ كعياش ابن أبي ربيعة وسلمة بن هشام والوليد ابن الوليد ﴿وَٱلنِّسَآءِ﴾ كأم الفضل لبابة بنت الحارث أم عبد الله ابن عباس، ﴿وَٱلْوِلْدَٰنِ﴾ كعبد الله المذكور وغيرهم رضي الله عنهم. حال كونهم ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً﴾ أي لا يتمكنون من أسباب الحركة والهجرة من الدليل والنفقات والحراسة

لهم حتى يخرجوا من أيدي الأعداء، ﴿وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا﴾ إلى المقصود بالمعنى العام أو الخاص ﴿فَأُولَٰئِكَ عَسَى اللَّهُ أَن يَعْفُوَ﴾ لعدم قدرتهم الكاملة على الوفاء بالواجب ﴿وَكَانَ اللَّهُ﴾ ولم يزل ﴿عَفُوًّا غَفُورًا﴾ وهذه الجملة للتقرير والاستثناء منقطع لأن الموصول المبحوث عنه قيد بقوله: ﴿ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ﴾ وأولئك الرجال والنساء الضعاف ما لم تكن لهم حيلة ولا اهتداء إلى سبيل لم يكلّفوا بالهجرة، فلم يظلموا أنفسهم بالبقاء في أماكنهم.

﴿وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَاغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً ۚ وَمَن يَخْرُجْ مِن بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ ۗ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٠٠﴾﴾.

عن ابن عباس قال: كان سمرة بن جندب أو ابن العيص بمكة، وكان مسلماً فلما نزلت إلا المستضعفين قال إني لغني وإني لذو حيلة وإني لدليل في الطريق ومالي من عذر، وكان مريضاً فتجهز يريد النبي ﷺ فأدركه الموت بالتنعيم قبل أن يصلَ إلى رسول الله ﷺ فنزلت هذه الآية: ﴿وَمَن يَخْرُجْ مِن بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ الآية. أخرجه ابنُ أبي حاتم وأبو يَعْلى.

قوله تعالى: ﴿وَمَن يُهَاجِرْ﴾ الآية ترغيب في الهجرة وتحسين لها. والمراغم اسمُ مكان من باب المفاعلة بمعنى المتحول والمُهاجَر. وفي تعبير الباري به تأكيد للترغيب في المهاجرة لدلالته على أن ذلك المتحول الذي يجده المهاجر يكون سبباً لرغم أنف قومه الذين هاجرهم. وقيل: المراد بالمراغم طريق يراغم قومه بسلوكه فيه. أي يفارقهم على رغم أنوفهم والرغام التراب. وأصله لصوق الأنف بالرغام. والمراد به هنا الذل والهوان. ومعنى الآية: ﴿وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ﴾ نصرة دين ﴿اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ﴾ التي يسافر إليها ﴿مُرَاغَمًا﴾ واسعاً ومتحولاً نافعاً ﴿كَثِيرًا وَسَعَةً﴾ في المكان لسهولة لإسكان ﴿وَمَن يَخْرُجْ مِن بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ﴾ قبل أن يصل إلى المقصد ويحط الرحالَ ﴿فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ ۗ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾.

﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا ۚ إِنَّ الْكَافِرِينَ كَانُوا لَكُمْ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴿١٠١﴾ وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ فَلْتَقُمْ طَائِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ وَلْيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ ۖ فَإِذَا سَجَدُوا فَلْيَكُونُوا

مِن وَرَآئِكُمْ وَلْتَأْتِ طَآئِفَةٌ أُخْرَىٰ لَمْ يُصَلُّوا۟ فَلْيُصَلُّوا۟ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا۟ حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ ۗ وَدَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَٰحِدَةً ۚ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ أَوْ كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَن تَضَعُوٓا۟ أَسْلِحَتَكُمْ ۖ وَخُذُوا۟ حِذْرَكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿١٠٢﴾ فَإِذَا قَضَيْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ ۚ فَإِذَا ٱطْمَأْنَنتُمْ فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ۚ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتْ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ كِتَٰبًا مَّوْقُوتًا ﴿١٠٣﴾ وَلَا تَهِنُوا۟ فِى ٱبْتِغَآءِ ٱلْقَوْمِ ۖ إِن تَكُونُوا۟ تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ ۖ وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٠٤﴾

عن علي قال: سأل قوم من بني النجار رسول الله ﷺ فقالوا: يا رسول الله إنا نضرِب في الأرض فكيف نصلي؟ فأنزل الله: ﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ الآية... ثم انقطع الوحي فلما كان بعد ذلك بحولٍ غزا رسول الله ﷺ فصلى الظهر فقال المشركون: لقد أمكنكم محمد وأصحابه من ظهورهم هلا شددتم عليهم فقال قائل منهم: إن لهم أخرى مثلها في إثرها، فأنزل الله بين الصّلاتين ﴿إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟﴾ إلى قوله: ﴿عَذَابًا مُّهِينًا﴾ فنزلت صلاة الخوف أخرجه ابن جرير.

وعن ابن عياش الزرقي قال: كنا مع رسول الله ﷺ بعسفان فاستقبلنا المشركون عليهم خالد بن الوليد وهم بيننا وبين القبلة فصلى بنا النبي الظهر، فقالوا: قد كانوا على حال لو أصَبْنا غرتهم! ثم قالوا: يأتي عليهم الآن صلاة هي أحب إليهم من أبنائهم وأنفسهم وهي العصر. فنزل جبريل بهذه الآية بين الظهر والعصر: ﴿وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ﴾ الآية رواه أحمد والبيهقي والحاكم وأبو داود والنسائي.

وعن ابن عباس قال: نزلت ﴿وَلَا جُنَاحَ﴾ الآية في عبد الرحمن بن عوف كان جريحا. رواه البخاري.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ أي سافرتم، ﴿فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ﴾ أي ذنب ﴿أَن تَقْصُرُوا۟ مِنَ ٱلصَّلَوٰةِ﴾ بتنصيف ركعاتها ﴿إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟﴾ أي يوقعكم الكفار في الفتنة بالقتل أو الجرح أو سائر وجوه الإيذاء ﴿إِنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ كَانُوا۟ لَكُمْ عَدُوًّا مُّبِينًا﴾ وهم متربصون بكم الدوائر فأباح الله لكم القصر لتفرغكم لمحاربتهم.

وهنا أمور ينبغي التعرض لها: **الأول** وهي: إن قوله تعالى: ﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ بمعنى سافرتم ودخلتم في السفر، ولكن هذا السفر لم يتحدد بالنص ولم يذكر حد السفر الذي يقع به القصر لا في القرآن ولا في السنة. وإنما كان كذلك لأن السفر لفظ عربي استقر علمه عند العرب الذين خاطبهم الله تعالى بالقرآن، فمن المعلوم أن من برز عن الدور لبعض الأمور أنه لا يكون مسافراً لغة ولا شرعاً، وإن مشى مسافراً ثلاثة أيام فإنه مسافر قطعاً كما أنه يحكم على من مشى يوماً وليلة إنه مسافر لقوله ﷺ: «**لا يحل لامرأة تؤمن بالله واليوم الآخر أن تسافر مسيرة يوم إلا مع ذي محرم منها**». وهذا هو الصحيح لأنه وسط بين الحالين، وعليه عوّل الإمام مالك، ولكنه لم يجد هذا الحديث متفقاً عليه. وروى مرة يوماً وليلة، ومرة ثلاثة أيام. فجاء إلى عبد الله بن عمر فعوّل على فعله فإنه كان يقصر الصلاة في السفر أربعة بُرُدٍ، لأن ابن عمر كان كثير الاقتداء بالنبي ﷺ. وكافة العلماء على أن القصر إنما شرع تخفيفاً وإنما يكون في السفر الطويل الذي تلحق به المشقة غالباً. فالإمام أبو حنيفة اعتبر المسافة مقدرة بالزمن وهو ثلاثة أيام من أقصر أيام السنة، ويكفي أن يسافر في كل يوم منها من الصباح إلى الزوال.

والإمام الشافعي اعتبر أربعة بُرُد أي ستة عشر فرسخاً، وبما أن كل فرسخ ثلاثة أميال تبلغ ثمانية وأربعين ميلاً، والميل ستة آلاف ذراع بذراع اليد، وهذه المسافة تساوي ثمانين كيلو متراً ونصف كيلو متر ومائة وأربعين متراً.

و ظاهر قوله تعالى: ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ﴾ أن القصر جائز لا واجب، ويؤيده أنه ﷺ أتم في السفر وأن عائشة رضي الله عنها اعتمرت مع رسول الله ﷺ وقالت: يا رسول الله قصرت وأتممت وصمت وأفطرتُ. فقال: أحسنتِ يا عائشة. ولكن القصر أفضل عند الشافعي من الإتمام إن بلغ سفره ثلاث مراحل، فإن كان السفر أقل من الثلاث فالإتمام أفضل. وأوجب الإمام أبو حنيفة القصر في السفر مطلقاً لما ثبت عنده.

ثم ظاهر الآية الكريمة أن جواز القصر مشروط بالخوف من الكفار ولكن العلماء لم يعتبروا مفهوم هذا القيد لأنه ورد حسب رعاية الواقع أو أنه مبني وجارٍ على موافقة الغالب كما في قوله تعالى: ﴿وَرَبَٰٓئِبُكُمُ ٱلَّتِي فِي حُجُورِكُم﴾ ومنهم من قال: إن هذه الآية الكريمة بيّنت حكم صلاة الخوف، وأما القصر في السفر وقت

الأمن فثابت بالسنة. وقد تظاهرت السنن على جوازه في الأمن فقد قال الشافعي رضي الله عنه: القصر في غير الخوف بالسنة. وأما في الخوف مع السفر فبالقرآن والسنة. ومن صلى أربعاً فلا شيء عليه ولا أحب لأحد أن يتم في السفر رغبة عن السنة.

وقال أبو بكر الأثرم: قلت لأحمد بن حنبل: للرجل أن يصلي في السفر أربعاً؟ قال: لا، ما يعجبني، السنة ركعتان. وقصر رسول الله ﷺ من أربع إلى اثنتين إلا المغرب في أسفاره كلها آمِناً لا يخاف إلا الله تعالى.

ثم إن صلاة الخوف كانت مشروعة في زمن النبي ﷺ له ولكل مسلم من أهل عصره معه ﷺ أو منفردين عنه. واستمرت مشروعيتها إلى الآن، وهي مستمرة إلى آخر الزمان وأما شروط الصلاة وأركانها وسننها وعدد ركعاتها فهي في الخوف كالأمن بمعنى أنه إذا كانت في السفر تقصر أو في الحضر تكمل، إلا إذا اشتد الخوف ولم يبق مجال لإكمالها فعند ذلك تقصر، وإن لم يبق مجال لفعلها بالوجه المعتاد جازت كيف أمكن لقوله تعالى: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا﴾.

وهي جائزة في كل قتال ليس بحرام سواء كان واجباً كقتال الكفار والبغاة وقطاع الطرق إذا قاتلهم الإمام وكذا الصائل على حريم الإنسان من نفسه وأهله وعرضه وماله وأولاده سواء أوجبنا الدفاع أو كان مباحاً مستوي الطرفين كقتال من قصد مال غيره.

وفي كيفية صلاة الخوف في قتال الكفار وجوه مروية. منها ما في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَوٰةَ فَلْتَقُمْ طَآئِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ﴾ في الصلاة، وليحرس طائفة أخرى منهم حذراً عن هجوم الأعداء ﴿وَلْيَأْخُذُوٓاْ﴾ أي المصلون معك ﴿أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُواْ﴾ أي الذين قاموا للصلاة معك ﴿فَلْيَكُونُواْ مِن وَرَآئِكُمْ﴾ أي فلينصرفوا للحراسة من العدو يقوموا مقام الطائفة التي حرست المصلين عند اشتغالهم بالصلاة ﴿وَلْتَأْتِ طَآئِفَةٌ أُخْرَىٰ لَمْ يُصَلُّواْ﴾ بعد وهي التي كانت تحرس ﴿فَلْيُصَلُّواْ مَعَكَ﴾ الركعة الباقية من صلاتك. ﴿وَلْيَأْخُذُواْ حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ﴾ كالطائفة الأولى عند الصلاة حتى يكونوا في كمال الأهبة والاستعداد لرد هجوم المعاندين. والمراد بالحذر هو التنبيه واليقظة، اعتبره كآلة يتحصن بها الغازي فجمع بينه وبين الأسلحة في وجوب الأخذ بتضمين الأخذ معنى الاستيلاء، أي وليستولوا على كل

ما لديهم من المعنويات كالتنبه واليقظة، والماديات كالأسلحة نظير قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ﴾. ﴿وَدَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَٰحِدَةً﴾ أي تمنوا أن ينالوا منكم غفلة في صلاتكم فيهجمون عليكم هجوماً مباغتاً. وهذه الجملة بيان سرّ الأمر بأخذ الحذر والأسلحة. ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ أَوْ كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَن تَضَعُوٓا۟ أَسْلِحَتَكُمْ﴾ في مدة الصّلاة، لأنها ثقيلة متعبة، لا سيما للمرضى، أو مع وجود عوارض أخرى كالمطر المبلل للثياب المثقل لها ﴿و﴾ لكن ﴿خُذُوا۟ حِذْرَكُمْ﴾ إذا وضعتموها كي لا يهجم عليكم الأعداء ﴿إِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا﴾ وفي هذا وعد بنجاح المؤمنين ووعيد بهلاك الكافرين ﴿فَإِذَا قَضَيْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ أي فإذا أديتم صلاتكم في الخوف ﴿فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ﴾ فاستمروا على ذكر الباري سبحانه في كل حال لأن الذكر أخو الصلاة ﴿فَإِذَا ٱطْمَأْنَنتُمْ﴾ أي سكنت قلوبكم من الخوف ﴿فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ فعدّلوها وأدوها كاملة غير مقصورة مع رعاية شرائطها وأركانها وسننها ومن جملة الإقامة أداء كل صلاة في وقتها المحدد. ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتْ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ كِتَٰبًا مَّوْقُوتًا﴾ فرضاً محدود الأوقات لا يجوز أداؤها قبلها ولا إخراجها بلا عذر مشروع ﴿وَلَا تَهِنُوا۟ فِى ٱبْتِغَآءِ ٱلْقَوْمِ﴾ أي لا تضعفوا عن طلب الكفار للقتال. ﴿إِن تَكُونُوا۟ تَأْلَمُونَ﴾ أنتم بالمطالبة واللقاء وبالقتال ﴿فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ﴾ أيضاً ﴿كَمَا تَأْلَمُونَ ۖ وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ﴾ تعالى الجزاء الأوفى في الآخرة عند اللقاء ﴿مَا لَا يَرْجُونَ﴾ ه، ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا﴾ بأعمالكم وأحوالكم ﴿حَكِيمًا﴾ في ابتلائكم واعتلائكم بالانتصار في الدنيا والافتخار في الآخرة.

﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ ۚ وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا ﴿١٠٥﴾ وَٱسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٠٦﴾ وَلَا تُجَٰدِلْ عَنِ ٱلَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا ﴿١٠٧﴾ يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ ٱلْقَوْلِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا ﴿١٠٨﴾ هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ جَٰدَلْتُمْ عَنْهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فَمَن يُجَٰدِلُ ٱللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَم مَّن يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴿١٠٩﴾ وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١١٠﴾ وَمَن يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُۥ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا

حَكِيمًا ﴿١١١﴾ وَمَن يَكْسِبْ خَطِيٓـَٔةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِۦ بَرِيٓـًٔا فَقَدِ ٱحْتَمَلَ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا
مُّبِينًا ﴿١١٢﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُۥ لَهَمَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ
وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَىْءٍ وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ
وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴿١١٣﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا﴾ أنزلت كلها في قصة واحدة، وذلك أن رجلاً من الأنصار يقال له: طعمة ابن أبيرق، أحد بني ظفر ابن الحارث، سرق درعاً من جار له يقال له قتادة ابن النعمان، وكانت الدرع في جراب فيه دقيق فجعل الدقيق ينتشر من خرق في الجراب حتى انتهى إلى الدار، وفيها أثر الدقيق، ثم خبأها عند رجل من اليهود يقال له: زيد ابن السمين فالتمِسَتِ الدرعُ عند طعمة فلم توجد عنده، وحلف لهم: والله ما أخذها وما له من علم! فقال أصحاب الدرع: بلى والله قد أدلج علينا فأخذها وطلبنا أثرها حتى دخل داره فرأينا أثر الدقيق. فلما أن حلف تركوه واتبعوا أثر الدقيق حتى انتهوا إلى منزل اليهودي فأخذوه، فقال: دفعها إلى طعمة ابن أبيرق، وشهد له أناس من اليهود على ذلك فقالت بنو ظفر، وهم قوم طعمة: انطلقوا بنا إلى رسول الله ﷺ، فكلموه في ذلك فسألوه أن يجادل عن صاحبهم، وقالوا: إن لم تفعل هلك صاحبنا وافتضح وبرىء اليهودي، فهمَّ رسول الله أن يفعل، وكان هواه معهم، وأن يعاقب اليهودي فأنزل الله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ﴾ الآية وهذا قول جماعة من المفسرين.

وعن قتادة ابن النعمان كان أهل بيت منا يقال لهم: بنو أبيرق، وهم ثلاثة أخوة بشر وبشير ومبشر، وكان بشر رجلاً منافقاً يقول الشعر يهجو أصحاب رسول الله ﷺ، ثم يَنْحله بعض العرب، ثم يقول: قال فلان كذا، وقال فلان كذا، فإذا سمع أصحاب رسول الله ﷺ ذلك الشعر قالوا: والله ما يقول هذا الشعر إلا هذا الخبيث فقال:

أو كلما قال الرجال قصيدة نحلت، فقالوا: ابن الابيرقِ قالها!

قال قتادة: وكانوا أهل بيت حاجة وفاقة في الجاهلية والإسلام، وكان الناس إنما طعامهم بالمدينة التمر والشعير، وكان الرجل إذا كان له يسار فقدمت ضافطة (قافلة من الإبل) حمولة من الشام من الدرمك (دقيق الحواري) ابتاع الرجل منها

فخصَّ بها نفسه، وأما العيال فإنما طعامهم التمر والشعير. فقدمت ضافطة من الشام فابتاع عمي رفاعة ابن رافع حملاً من الدرمك فجعله في مشربة (أي غرفة الأكل) وفي المشربة سلاح له: درعان وسيفاما باداتهما وما يصلحهما فعدا عليه ليلاً، فنقبت المشربة وأخذ الطعام والسلاح، فلما أصبح أتاني عمي رفاعة، فقال: يا ابن أخي تعلم أن قد عُدي علينا في ليلتنا هذه، فنقبت لنا: قد رأينا بني أُبَيْرِقَ استوقدوا ناراً في هذه الليلة ولا نرى فيما نرى إلا على بعض طعامكم، قال: وكان بنو أُبَيْرِقَ قالوا: ونحن نسأل في الدار والله ما نرى صاحبكم إلا لبيد بن سهل، رجلاً منا ذا حسب ونسب وفيه صلاح وإسلام! فلما سمع ذلك لبيد اخترطَ بسيفه. ثم أتى بني أبيرق وقال: أنا أسرق؟! فوالله ليخالطنكم هذا السيف أو لَتُبَيِّنُنَّ هذه السرقة! قالوا: إليك عنا أيها الرجل فوالله ما أنت بصاحبها. فسألنا في الدار حتى لم تشك أنهم أصحابها.

فقال لي عمي: يا ابن أخي لو أتيت رسول الله ﷺ فقلت له ذلك! قال قتادة: فأتيت رسول الله ﷺ فقلت: يا رسول الله إن أهل بيت منّا أهل حفاء عمَدوا إلى عمي رفاعة بن زيد فنقّبوا مشربة له وأخذوا سلاحه وطعامه فليردوا علينا سلاحنا. وأما الطعام فلا حاجة لنا فيه. فقال رسول الله ﷺ: سأنظر في ذلك. فلما سمع ذلك بَنُو أُبَيْرق أَتَوْا رجلاً منهم، ابن عم لهم، يقال له أسير بن عروة، فكلموه في ذلك واجتمع إليه ناس من أهل الدار. فأتوا رسول الله ﷺ فقالوا: يا رسول الله إن قتادة بن النعمان وعمه عمدا إلى أهل بيت منا هم أهل إسلام وصلاح يرمونهم بالسرقة من غير بينة ولا ثَبَت! قال قتادة: فأتيت رسول الله ﷺ فكلمته وغضب علي وعلى عمي وجادل عن بشير ومن معه. ثم قال: عمدت إلى أهل بيت ذُكِرَ منهم إسلامٌ وصلاحٌ ترميهم بالسرقة على غير بينة ولا ثَبَت؟! قال قتادة: فرجعت ولوددت أني خرجت من بعض مالي ولم أكلم رسول الله ﷺ في ذلك. فأتاني عمي رفاعة فقال لي: يا ابن أخي ما صنعت؟ فأخبرته بما قال لي رسول الله ﷺ فقال: الله المستعان. فلم نلبث أن نزل القرآن ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ..﴾ الآيات إلى عظيماً. فلما نزلت هذه الآيات أتى رسول الله ﷺ بالسلاح فردّه إلى رفاعة. وقال قتادة: فلما أتيت عمي بالسلاح وكان شيخاً قد كبر في الجاهلية وكنت أرى إسلامه مدخولاً فلما أتيته بالسلاح قال: يا ابن أخي هو في سبيل الله، فعرفت أن إسلامه كان صحيحاً. ثم لحق بشير بالمشركين مرتداً. أخرجه الترمذي وابن المنذر والحاكم.

قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا﴾: أي إنا أنزلنا إليك الكتاب ملابساً ببيان الحق وبطريق الحق لتحكم بين الناس بَرهم وفاجِرهم بما أراك الله أي بما عرفك به وأوحى به إليك ولا تكن لأجل الدفاع عن الخائنين خصيماً، ومخاصماً للبراء المبتعدين عن الخيانة ﴿وَٱسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ﴾ تعالى مما قلت لقتادة، أو ما هممت به في براءة طعمة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾.

ومما ينبغي التنبيه عليه أن ما قاله ﷺ لقتادة أو ما هم به من براءة طعمة لم يكن ذنباً وإثماً حتى يستغفر منه الرسول ﷺ، لكن لعلوّ مقامه عن بيان شيء قبل الوحي أمر بالاستغفار، فليس ذلك استغفاراً من الذنب عند المولى بل استغفار عنده من خلاف الأولى.

﴿وَلَا تُجَٰدِلْ عَنِ ٱلَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ﴾ أي لا تجادل بعض الناس من أجل الدفاع عن الذين يخونون ويعود وبال خيانتهم إلى أنفسهم فهم باعتبار العاقبة خانوا أنفسهم لعود ضرر خيانتهم إليهم ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا﴾ مبالغاً في الخيانة متعوداً لها ﴿أَثِيمًا﴾ كثير الإثم متعمقاً فيه. والإتيان بصيغة المبالغة وتعليق النّفي به لموافقة الواقع لأن بني أبيرق كانوا كذلك وإلا فالباري تعالى لا يحب أهل الخيانة مطلقاً سواء كانوا خائنين أو خوّانين.

ثم استأنف في ذمهم بقوله: ﴿يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ أي يريدون إخفاء عيوبهم من الناس كي لا يطلعوا على عيوبهم ﴿وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱللَّهِ﴾ العليم العلام ﴿وَهُوَ مَعَهُمْ﴾ معية علم وإدراك ﴿إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ ٱلْقَوْلِ﴾ في زمان كانوا يُدَبِّرونَ ما لا يرضى به الباري تعالى من رمي البريء من السرقة بها وشهادة الزور ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ من الأعمال الظاهرة والخفية ﴿مُحِيطًا﴾ أي مستوعباً بالعلم لا يعزب عنه شيء منها.

﴿ها﴾ حرف تنبيه ﴿أنتم﴾ مبتدأ و﴿هَٰٓؤُلَآءِ﴾ خبره، وجملة ﴿جَٰدَلْتُمْ عَنْهُمْ﴾ جملة مبينة لوقوع أولاء خبراً، أو أنتم مبتدأ وهؤلاء منادى بحذف حرف النداء، وجملة جادلتم خبرٌ. يعني أنتم أيها الناس جادلتم عن الخائنين ودافعتم عنهم ﴿فِى﴾ دار ﴿ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فَمَن يُجَٰدِلُ ٱللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾؟ أي فمن الذي يتكلم مع الباري سبحانه وتعالى يوم القيامة عند شهادة جوارحهم عليهم؟ ﴿أَم مَّن يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا﴾؟ بل من الذي يكون حافظاً لهم ومحامياً حتى يخلصوا من عذاب الله في

دار الآخرة؟ ومع ذلك كلّه فالأمر سهل، والسماح مرجو، والعفو منتظر ﴿وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا﴾ مما دون الشرك، ﴿أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ﴾ بالإشراك ﴿ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ﴾ بتوبة نصوح ﴿يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا﴾ لما صدر عنه مطلقاً ﴿رَّحِيمًا﴾ متفضلاً عليه بالإحسان ﴿وَمَن يَكْسِبْ إِثْمًا﴾ صغيراً أو كبيراً ﴿فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُۥ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ﴾، ولا يتعدى ضرره إلى غيره ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا﴾ بالمكاسب ﴿حَكِيمًا﴾ في ترتيب الجزاء على الأعمال ورعاية الحق. ﴿وَمَن يَكْسِبْ خَطِيٓـَٔةً﴾ صغيرة ﴿أَوْ إِثْمًا﴾ أي كبيرة ﴿ثُمَّ يَرْمِ بِهِۦ بَرِيٓـًٔا﴾ أي يرم إنساناً بريئاً من تلك الخطيئة أو الإثم ﴿فَقَدِ ٱحْتَمَلَ بُهْتَٰنًا﴾ أي كذباً على الغير ﴿وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾ أي واضحاً لا شبهة فيه أبداً. ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُۥ﴾ بإعلامك بحقيقة الأمر ﴿لَهَمَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ﴾ يعني أسير بن عروة وأتباعه ﴿أَن يُضِلُّوكَ﴾ عن القضاء بالحق مع اطلاعهم على حقيقة الأمر ﴿وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ﴾ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَىْءٍ﴾ لأن الله كان ولا يزال يوحي إليك الكتاب ويبين لك الصواب، ولا يتركك حتى تحكم بخلاف الصواب ﴿و﴾ قد ﴿أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ الجامع لمبادىء الأمور ومقاصدها، ﴿و﴾ أنزل عليك ﴿ٱلْحِكْمَةَ﴾ أي العلم بالأمور والعمل بالدستور حسب الواقع، ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ﴾ اعتقاداً وعملاً من خفيات الأحكام، ومزيلات الأوهام ﴿وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ من كل جانب من الجوانب من المواهب والمكاسب وتبقى كذلك إلى لقاء رب العالمين.

﴿لَّا خَيْرَ فِى كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَىٰهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَٰحٍۭ بَيْنَ ٱلنَّاسِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١١٤﴾ وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿١١٥﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿لَّا خَيْرَ فِى كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَىٰهُمْ﴾ أي لا خير في كثير من نجوى الذين يختانون أو الناس على الإطلاق ﴿إِلَّا مَنْ أَمَرَ﴾ أي إلا نجوى من أمر ﴿بِصَدَقَةٍ﴾ وإحسان إلى محتاج، وإن قلت ﴿أَوْ﴾ أمر بـ ﴿مَعْرُوفٍ﴾ أي بما عرفه الشرع واستحسنه من الأقوال والأعمال كالإرشاد إلى الخير وأعمال البرّ وإغاثة الملهوف وإعانة المنكوب وإيواء المسكين ﴿أَوْ﴾ أمر بـ ﴿إِصْلَٰحٍۭ بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾ المتخاصمين في الأموال وسائر الأحوال ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ﴾ المذكور من فعل الصدقات ونحوها ﴿ذَٰلِكَ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ﴾ لا لشيء آخر ﴿فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا

عَظِيمًا﴾ لا يحيط به البيان ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ﴾ ويخالف أوامره ونواهيه ويقع على الشق المخالف له، ﴿مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ العالمين العادلين أي غير ما هم استمروا عليه من العقائد والأعمال ﴿نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ﴾ أي نجعله صاحباً والياً لما اتخذه وتولاه ونخليه على ما هو يريده ويتبعه من الضلال ﴿وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ﴾ وندخله جهنم ليعذب فيها أبداً ﴿وَسَآءَتْ﴾ جهنم ﴿مَصِيرًا﴾ لأولئك الضالين.

واستدل بهذه الآية الكريمة على أن الإجماع حجة، وتقرير الدليل: أن الحكم الذي أجمع عليه المؤمنون واستمروا عليه سبيلهم، وما هو سبيلهم يجب اتباعه ولا يجوز اتباع غيره.. فالحكم الذي أجمع عليه المؤمنون يجب اتباعه ولا يجوز اتباع غيره. أما الصغرى فظاهرة، وأما الكبرى فلأن الله تعالى توعد الناس على اتباع غير سبيل المؤمنين، وكل ما وقع التوعد على اتباع غيره فهو مرغوب وواجب الاتباع.

واعترض بأن سبيل المؤمنين هو الإيمان ومن اتبعه فقد فاز ومن اتبع غيره فقد انحرف، وليس هناك دليل على اتباع غيره. وأجيب عنه بأن سبيل المؤمنين ما اتخذوه منهجاً ومسلكاً يمشون عليه، وهذا بظاهره شامل لكل عقيدة اعتقدوها ولكل عمل صالح عملوه بدون فرق بين ذاك وذلك، ولا مرجع لعقيدة على أخرى ولعمل على آخر ما داما من سبيلهم واستمروا عليه. لا سيما إذا كانوا مؤمنين عالمين عادلين كما قيّدناه به سابقاً. وسر ذلك أن الله سبحانه وتعالى أنزل الكتاب وبلغه رسوله وخوّله بيانه، وقد بينه بعد أنْ بلغه وأطاعه المؤمنون في ذلك وما يحتوي عليه من الجزئيات واستمروا على تطبيقه، فالظاهر من أحوالهم وهم مؤمنون عالمون عادلون السير على ذلك المنهج السليم فسبيلهم قويم وصراط مستقيم وغيره سبيل مُعْوَجّ وصراط غير مستقيم، وبالأخص إن المؤمنين جمع معرف وهو للاستغراق واستغراقه معناه كل المؤمنين فالخروج عن سبيلهم اتخاذ سبيل غير المؤمنين هذا في كون الإجماع منهم حجة بشرائطه.

وأعتقد أن آراء الأكثرية الساحقة هو أيضاً كالإجماع فإذا كان في حكم شرعي اختلاف وهناك أكثرية ساحقة في جانب وأقلية في آخر يجب اتباع الأكثرية، لأن كلا الطرفين من المؤمنين، ورعاية الأكثرية أوفر فائدة ولذلك روى عنه ﷺ: «**وإذا رأيتم الخلاف فعليكم بالسواد الأعظم**».

عن المزني قال: كنت عند الشافعي يوماً فجاءه شيخ عليه لباس صوف وبيده عصا، فلما رآه ذا مهابة استوى جالساً، وكان مستنداً لإسطوانة وسوى ثيابه فقال له: ما الحجة في دين الله تعالى؟ قال: كتابه. قال: وماذا؟ قال: سنة نبيه ﷺ. قال: وماذا؟ قال: اتفاق الأمة. قال: من أين هذا الأخير أهو في كتاب الله تعالى: فتدبر ساعة ساكتاً فقال له الشيخ: أجّلتك ثلاثة أيام بلياليهن، فإن جئت بآية وإلا فاعتزل الناس. فمكث الشيخ أيام لا يخرج، وخرج في اليوم الرابع بين الظهر والعصر وقد تغير لونه فجاءه الشيخ وسلم عليه وجلس، وقال: حاجتي. فقال: نعم أعوذ بالله من الشيطان الرجيم بسم الله الرحمن الرحيم قال الله عز وجل: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصۡلِهِۦ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا﴾ لم يصله جهنم على خلاف المؤمنين إلا واتباعهم فرض. قال: صدقت وقام وذهب.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدۡ ضَلَّ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا ﴿١١٦﴾ إِن يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ إِنَٰثٗا وَإِن يَدۡعُونَ إِلَّا شَيۡطَٰنٗا مَّرِيدٗا ﴿١١٧﴾ لَّعَنَهُ ٱللَّهُۘ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنۡ عِبَادِكَ نَصِيبٗا مَّفۡرُوضٗا ﴿١١٨﴾ وَلَأُضِلَّنَّهُمۡ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمۡ وَلَأٓمُرَنَّهُمۡ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلۡأَنۡعَٰمِ وَلَأٓمُرَنَّهُمۡ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلۡقَ ٱللَّهِۚ وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيۡطَٰنَ وَلِيّٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَقَدۡ خَسِرَ خُسۡرَانٗا مُّبِينٗا ﴿١١٩﴾ يَعِدُهُمۡ وَيُمَنِّيهِمۡۖ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ مَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُ وَلَا يَجِدُونَ عَنۡهَا مَحِيصٗا ﴿١٢١﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَنُدۡخِلُهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۖ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٗاۚ وَمَنۡ أَصۡدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلٗا ﴿١٢٢﴾﴾.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ﴾ لأن من أشرك به وهو يعتبر من أهل التكليف اعترف بموجود غيره في الكائنات له سلطة وتأثير في شيء بدون إرادة الله تعالى وبذلك أبطل اعترافه الصحيح به؛ لأن الاعتراف به يوجب الاستغناء عن كل ما سواه. وهذا منتهى ما تهبط إليه عقول البشر وأفكارهم، ونفوسهم، ومنه تتولد جميع الرذائل النفسية والأعمال الدنيئة، فلا يبقى معنىً بربوبية الرب وألوهيته لجميع الموجودات فلو غفر ذلك لم يبق فائدة للتشريعات والحرام والحلال. هذا

ما قاله العلماء في سر عدم غفران الشرك، ومع ذلك فقد قال المحققون: إن غفران الكفر من الشرك وأمثاله ممكن لأن الله غني عن العالمين وعبادتهم له وسائر المعارضات لأنها لا تضره ولا تنفعه لكن لا يغفره لإخباره به دون التقييد بشيء إلا الندم عنه والرجوع إلى التوحيد ﴿وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾. وهذه الآية الكريمة تكرار ما نزل سابقاً لتأكيدها وتكميل قصة من سبق من الذين يختانون أنفسهم وقد ذكر أن لها سبباً في النزول كما أخرج الثعلبي عن ابن عباس ﷺ أن شيخاً من العرب جاء إلى رسول الله ﷺ فقال: إني شيخ منهمك في الذنوب إلا أني لم أشرك بالله تعالى منذ عرفته وآمنتُ به، ولم أتخذ من دونه ولياً ولم أوقع المعاصي جراءة، وما توهمت طرفة عين أني أعجز الله تعالى هرباً، وإني لنادم تائب فما ترى حالي عند الله تعالى؟ فنزلت الآية.

﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ﴾ شيئاً من الشرك بأن أسند الإيجاد والخلق إلى غيره معه سواء كان الغير من العلويات أو السلفيات، ومن الموجودات الثابتة كالشمس وسائر الكواكب المصنوعة التي لا دخل للعباد في خلقها كالإنسان، أو المكتسبات له كالهياكل المنحوتة، ﴿فَقَدْ ضَلَّ﴾ عن الطريق الحق ﴿ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا﴾ لا يعودون إلى الصراط المستقيم إلا بتوفيق الله تعالى وهدايته. ويدل على معنى إشراك المشركين اهتمامهم بذلك الشريك واعتبارهم له كركن لإفادة الوجود للمقصود.

قوله تعالى: ﴿إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ إِنَٰثًا﴾ أي ما يدعون أولئك المشركون وما ينادون لحوائجهم من دون الله إلا أصناماً يعتبرونها إناثاً لما روي عن الحسن أنه كان لكل حي من أحياء العرب صنم يعبدونه ويسمونه أنثى بني فلان لأنهم يجعلون عليه الحلي وأنواع الزينة كما يفعلون بالنساء، أو لأنهم اعتبروها ممثلة لبعض الملائكة وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثاً، أو لأنهم كانوا يسمون الأصنام بأسماء الإناث على ما قيل. ﴿و﴾ في الحقيقة ﴿إِن يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَٰنًا مَّرِيدًا﴾ إذ هو الذي أضلهم بالوساوس الفارغة المضللة والمريد هو المارد المتنفر عن الإطاعة ﴿لَّعَنَهُ ٱللَّهُ﴾ طرده عن ساحة رحمته الواسعة، ﴿وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا﴾ مقرراً في العلم المتعلق بمن يصرف طاقاته في شهواته ﴿وَلَأُضِلَّنَّهُمْ﴾ عن طريق الحق بإلقاء الوساوس الفاسدة المفسدة للعقول ﴿وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ﴾ أي وألقي إلى قلوبهم الأماني الباطلة كإلقاء أن لا حساب عليكم ولا عتاب ولا عذاب ﴿وَلَءَامُرَنَّهُمْ﴾ بأعمال فاسدة لا أصل لها في الواقع ويفسر ذلك

بقوله: ﴿فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلْأَنْعَٰمِ﴾ إذا ولدت خمسة أبطن وجاء الخامس ذكراً حتى يكون قطع آذانهن دليلاً على تحريم ركوبها والحمل عليها. والبتك قطع الأذن من أصلها أو شقها ﴿وَلَأٓمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ ٱللَّهِ﴾ آثار خلقه وإبداعه كخصاء العبد، والوشم والوشر وأمثالها من كل ما لم يرد به دليل شرعي، كحلق الرأس والعانة وقص الشوارب ونتف العانة والإبط، فإن ما ورد فيها دليل يكون من سنة الدين. ﴿وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيْطَٰنَ وَلِيًّا﴾ متولياً وآمراً مطاعاً من دون الله العلي العظيم ﴿فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا﴾ ظاهراً لا حاجة إلى بيانه عند أصحاب العقول السليمة. ﴿يَعِدُهُمْ﴾ الشيطان ما لا يفي به ﴿وَيُمَنِّيهِمْ﴾ الأماني الفارغة الفاسدة ﴿وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا﴾ أشياء توجب ﴿غُرُورًا﴾ وذلك يوجب غروراً في الدنيا في الأهواء الباطلة وفي الآخرة في نار جهنم خالداً فيها وبئس المصير ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ﴾ الذين اتخذوا الشيطان ولياً من دون الله ﴿مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا﴾ أي مفراً ومهرباً. ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا﴾ أي وعدهم الله وعداً وحق حقاً. ثم ذيل الأخبار السابقة بقوله الحق: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا﴾؟ والقيل مصدر قال، ومثله القول والقال. وعن ابن السكيت: أن القيل والقال اسمان لا مصدران أي أنهم اسما مصدرٍ وليسا بمصدرين لِقالَ.

﴿لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِىِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ۗ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدْ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٢٣﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا ﴿١٢٤﴾ وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۗ وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا ﴿١٢٥﴾ وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ مُّحِيطًا ﴿١٢٦﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ﴾ الآية عن ابن عباس قال: قالت اليهود والنصارى: لا يدخل الجنة غيرُنا! وقالوا: لَن تَمَسَّنا النار إلا أيّاماً مَعْدُودات! وقالت قريش: إنا لا نُحاسَب ولا نُبعث! فأنزل الله الآية رواه ابن أبي حاتم.

وعن قتادة: جلس أناس من اليهود وأناس من النصارى وأناس من المسلمين وتفاخرت كل طائفة على غيرها، وقالت: نحن أفضل من غيرنا. فقال أهل الكتاب

من اليهود والنصارى للمسلمين: نبينا قبل نبيكم، وكتابنا قبل كتابكم، فنحن أحق بالله منكم. وقال المسلمون: نبينا خاتم النبيين، وكتابنا يقضي على سائرالكتب فنزلت الآية... أخرَجه ابن جرير.

قوله: ﴿لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ﴾ الخطاب للمؤمنين، والأماني بتشديد الياء جمع أمنية على وزن أُفعولة، وأصله أُمْنوية كأعجوبة وأضحوكة، اجتمعت الواو والياء، والسابقة منهما ساكنة، فقلبنا الواو ياء وأدغمناها في الياء صار أُمنيّة. وقال الراغب: هي الصورة الحاصلة في النفس من تمني الشيء أو تقديره في النفس وتصويره فيها إنتهى.

قلت: والأماني هي من المشتهيات تقع أولاً قريبة أو بعيدة. ومعنى الآية الكريمة: ليس الأمر الذي تتحاورون فيه من دخول الجنة وعدم دخولها مربوطة بالخيالات والاشتهاء النفسي لكم ولا لأحد. فليس دخولها وعدم دخولها بأمانيكم أيها المؤمنون حتى تدخلوها أنتم لا غيركم. ولا بـ ﴿أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ حتى يدخلوها هم لا أنتم، بل ذلك مربوط بنظام إلهي مُحْكَم عَدْلٍ قرره لجميع المكلفين وهو أنه ﴿مَن يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ﴾ عاجلاً أو آجلاً إن لَم يَعْفُ عنهُ الله تعالى ﴿وَلَا يَجِدْ لَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ أي لا يجد من جانب غير الله تعالى ولياً يُحامي عنه ويدفع عنه ما ينزل عليه من العقوبة، ولا نصيراً. أو لا يجد له ولياً محبّاً يكفيه بالستر والإيواء ولا نصيراً قوياً يدفع عنه العذاب بالقوة والاستيلاء.

وأخرج مسلم وغيره عن أبي هريرة قال: لما نزلت هذه الآية شق ذلك على المسلمين وبلغت منهم ما شاء الله تعالى فشكوا ذلك إلى رسول الله ﷺ فقال: سدّدوا وقاربوا فإن في كل ما أصاب المسلم كفارة حتى الشوكة يُشاكُها والنكبة ينكبها. والأحاديث على هذا المعنى كثيرة. ثم مورد النزول يدل على أن الكلام المقدس والآية الشريفة نزلت لرد أهل الكتاب في دعاويهم الباطلة الفارغة، ولذلك قدم حكم عامل السوء وعمل السوء على عامل الخير وعمله.

ومن المعلوم سابقاً ولاحقاً أن الله لا يغفر الكفر بسائر أصنافه عمن استمر عليه حتى مات، ولذلك نفى الولي والنصير على الإطلاق وإلا فالأدلة متضافرة ومتظاهرة على أن الشفاعة ثابتة يوم القيامة على تفصيلها المقرر في محله ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ لأن تحقق الإيمان شرط لمثوبة

الحسنات، وإلا فهي حابطة ساقطة. ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ﴾ العاملون للصالحات والعاملات لها مع مقارنة الإيمان ﴿يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ﴾ فضلاً ورحمة على وعده سبحانه وتعالى ﴿وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا﴾: أي لا ينقصون حتى شيئاً حقيراً من ثواب أعمالهم. والنقير مأخوذ من النقرة، وهي نقرة في ظهر النواة منها تنبت النخلة. ثم قرر الإيمان والإسلام والأعمال المقرونة بالإخلاص فقال: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ﴾ أي أخلص ذاته له ولم يعترف برب سواه ﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ أي عامل للحسنات وتارك للسيئات، ﴿وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ﴾ أي واتّبع دين الخليل إبراهيم عليه السلام في الإخلاص له تعالى بدون أي شائبة ﴿حَنِيفًا﴾ أي وحال إبراهيم أنه كان مائلاً ومبتعداً عن جميع الأديان الباطلة والأهواء العاطلة؟! وهذا الاستفهام الإنكاري جوابه أنه ليس هناك شخص هو أحسن ديناً ممن أسلم وجهه لله على ما تقرر وتقيد ﴿وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا﴾. جملة جيء بها تذييلاً لما تقدم، ذكرت للترغيب في اتباع عقيدة إبراهيم عليه السلام ﴿وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ مُّحِيطًا﴾ علماً وقدرة وتصرفاً.

﴿وَيَسْتَفْتُونَكَ فِى ٱلنِّسَآءِ ۖ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِى ٱلْكِتَٰبِ فِى يَتَٰمَى ٱلنِّسَآءِ ٱلَّٰتِى لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلْوِلْدَٰنِ وَأَن تَقُومُوا۟ لِلْيَتَٰمَىٰ بِٱلْقِسْطِ ۚ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِهِۦ عَلِيمًا ﴿١٢٧﴾﴾.

عن عائشة رضي الله عنها قالت: هو الرجل تكون عنده اليتيمة هو وليّها ووارثها قد شركته في ماله حتى في العذق فيرغب أن ينكحها، ويكره أن يزوِّجها رجلاً فيشركه في ماله فيعضلها. فنزلت الآية رواه البخاري. وعن السدي كان لجابر بنت عم دميمة ولها مال ورثته عن أبيها، وكان جابر يرغب عن نكاحها ولا ينكحها غيره خشية أن يذهب الزوج بمالها، فسأل النبي ﷺ عن ذلك فنزلت الآية أخرجه ابن أبي حاتم. وروي أنه إذا كانت الجارية يتيمة دميمة لم يعطوها ميراثها وحَبَسوها من التزويج حتى تموت فيرثوها فنزلت الآية. رواه عبد بن حميد وابن جرير.

قوله تعالى: ﴿وَيَسْتَفْتُونَكَ فِى ٱلنِّسَآءِ﴾ أي يستفتونك في ميراثهن والقرينة عليه ما ذكرنا من المورد، وما روي عن عبد بن حميد عن مجاهد أن أهل الجاهلية ما كانوا

يُورثون النساء والصبيان شيئاً ويقولون: لا يغزون ولا يغنمون خيراً. فنزلت: ﴿قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ﴾ ويبين حكمه فيهن ﴿وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِي ٱلْكِتَٰبِ﴾ إما معطوف على اسم الجلالة على التجوز أي وما يتلى عليكم في الكتاب أي القرآن يفتيكم ويبين لكم. أو أن ما يتلى مبتدأ، وقوله في الكتاب خبره والمراد بالكتاب اللوح المحفوظ فتكون جملة معترضة بين متعلقات الفعل السابق. وقوله: ﴿فِي يَتَٰمَى ٱلنِّسَآءِ﴾ بدل من قوله فيهن ووجه اختصاصهن بالذكر الاهتمام بهن. وقوله: ﴿وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ﴾ معطوف على يتامى النساء. وقوله: ﴿وَأَن تَقُومُوا۟﴾ معطوف عليه أيضاً، أو مفعول لفعل مقدر أي ويبين لكم أن تقوموا. وحاصل المعنى: قل الله تعالى يفتيكم فيهن وما يتلى عليكم في الكتاب أي ثابت في اللوح المحفوظ. وإفتاؤه في النساء ﴿فِي يَتَٰمَى ٱلنِّسَآءِ ٱلَّٰتِي لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ﴾ وفرض من الإرث ﴿وَتَرْغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ﴾ للاستيلاء على حقوقهن لا للمعاملة المشروعة معهن في الزواج. أو ﴿وَتَرْغَبُونَ﴾ عن ﴿أَن تَنكِحُوهُنَّ﴾ أي تمنعونهن الحقوق وتعرضون عن نكاحهن فيبقين محبوسات كأسرى في البيت ﴿و﴾ كذلك يفتيكم في حق ﴿ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلْوِلْدَٰنِ﴾ اليتامى أن تؤتوهم حقوقهم ولا تمنعوهم من الميراث بحجة أنهم ليس فيهم قوة الغزو وأخذ الغنيمة ﴿و﴾ يأمركم ﴿أَن تَقُومُوا۟ لِلْيَتَٰمَىٰ﴾ المذكورين ﴿بِٱلْقِسْطِ﴾ والعدل. أو يفتيكم في قيامكم لليتامى بالقسط ويبين لكم أن ذلك القيام واجب عليكم وإذا وفيتم بما يفتيكم الله تعالى به فالأجر عائد إليكم ﴿وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِهِۦ عَلِيمًا﴾ فيجازيكم عليه.

﴿وَإِنِ ٱمْرَأَةٌ خَافَتْ مِنۢ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ أَن يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا وَٱلصُّلْحُ خَيْرٌ وَأُحْضِرَتِ ٱلْأَنفُسُ ٱلشُّحَّ وَإِن تُحْسِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١٢٨﴾ وَلَن تَسْتَطِيعُوٓا۟ أَن تَعْدِلُوا۟ بَيْنَ ٱلنِّسَآءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلَا تَمِيلُوا۟ كُلَّ ٱلْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَٱلْمُعَلَّقَةِ وَإِن تُصْلِحُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٢٩﴾ وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ ٱللَّهُ كُلًّا مِّن سَعَتِهِۦ وَكَانَ ٱللَّهُ وَٰسِعًا حَكِيمًا ﴿١٣٠﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَإِنِ ٱمْرَأَةٌ خَافَتْ﴾ الآية أخرج الترمذي عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: خشيت سودة رضي الله عنها أن يطلقها رسول الله ﷺ فقالت: يا رسول الله لا تطلقني واجعل

يومي لعائشة، ففعل ونزلت الآية. وعن سعيد بن المسيب أن ابنة محمد بن مسلمة كانت عند رافع بن خديج فكره منها أمراً إما كبراً أو غيره. فأراد طلاقها، فقالت: لا تطلقني واقسم لي ما بدا لك. ونزلت الآية فاصطلحا. وجرت السنة بذلك رواه سعيد بن منصور والشافعي والبيهقي. وعن سعيد بن جبير قال: جاءت امرأة حين نزلت هذه الآية قالت: إني أريد أن تقسم لي من نفقتك وقد كانت رضيت أن يدعها فلا يطلقها ولا يأتيها فأنزل الله تعالى: ﴿وَأُحْضِرَتِ ٱلْأَنفُسُ ٱلشُّحَّ﴾ رواه ابن جرير.

وعن عائشة ـ رضي الله تعالى عنها ـ قالت: نزلت هذه الآية في المرأة تكون عند الرجل فلا يستكثر منها ويريد فراقها. ولعلها أن تكون لها صحبة ويكون لها ولد فيكره فراقها وتقول له: لا تطلقني وَأَمْسِكني وأنت في حلّ من شأني فنزلت هذه الآية. رواه البخاري ومسلم.

قوله تعالى: ﴿وَإِنِ ٱمْرَأَةٌ﴾ أي وإن خافت امرأة ﴿خَافَتْ مِنۢ بَعْلِهَا﴾ أي زوجها ﴿نُشُوزًا﴾ أي إرتفاعاً ﴿أَوْ إِعْرَاضًا﴾ عنها لسبب من الأسباب ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ أَن يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا﴾ بأن تترك المرأة له يومها أو تضع عنه بعض ما يجب لها من نفقة أو كسوة ﴿وَٱلصُّلْحُ خَيْرٌ﴾ من الفرقة وسوء العشرة. ﴿وَأُحْضِرَتِ ٱلْأَنفُسُ ٱلشُّحَّ﴾ أي إن الشح واللؤم والبخل جعل حاضراً لها لا يغيب عنها أبداً. فلا تكاد المرأة تسمح بإعراض الزوج عنها وتقصيره في حقها أو تسمح ببعض الحقوق الواجبة لها فتهبها له. ولا الرجل يسمح بأن يمسكها ويقوم بحقها على ما ينبغي ﴿وَإِن تُحْسِنُوا۟﴾ في المعاشرة ﴿وَتَتَّقُوا۟﴾ النشوز وسوء الخلق ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١٢٨﴾ وَلَن تَسْتَطِيعُوٓا۟ أَن تَعْدِلُوا۟ بَيْنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ أي لا تقدرون على تطبيق العدالة بين الزوجات بحيث لا يقع ميل إلى جانب من الجوانب في شؤونهن كالقسم والنفقة والمجاملة والمفاكهة والمؤانسة وغيرها مما لا يكاد يعد.

وأخرج البيهقي عن عبيدة أنه قال: لن تستطيعوا ذلك في الحب والجماع ﴿وَلَوْ حَرَصْتُمْ﴾ على العدل وبالغتم فيه ﴿فَلَا تَمِيلُوا۟ كُلَّ ٱلْمَيْلِ﴾ أي فلا تنحرفوا عن العدل المشروع كثيراً بحيث تمنعوها حقها من غير رضاها ﴿فَتَذَرُوهَا كَٱلْمُعَلَّقَةِ﴾ أي فتجعلوا المرغوب عنها كالمعلقة، وهي كما قال ابن عباس رضي الله عنهما: من ليست مطلقة ولا ذات بعل أي صارت مهملة الحقوق محتارة في شأنها ليست مطلقة فتبين وتتزوج، ولا ذات بعل تتمتع به وتبتهج ﴿وَإِن تُصْلِحُوا۟﴾ ما في قلوبكم

من الرذائل الموجبة للميل والإعراض فتصلحوا ما أفسدتم من الأعمال معها ﴿وَتَتَّقُوا﴾ وتحترزوا عن الجور الذي نهاكم الله عنه ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ لما فرط منكم قبل نزول الآية. أو لما وقع من بعض اللّمم في ما بينكم، وراحماً يزيدكم في الأجر والخير. ﴿وَإِن يَتَفَرَّقَا﴾ أي المرأة وبعلها بالطلاق ﴿يُغْنِ ٱللَّهُ كُلًّا﴾ منهما فيتزوج الرجل بامرأة أخرى والمرأة بزوج آخر وذلك الإغناء ﴿مِّن سَعَتِهِۦ﴾ وبسط قدرته وفيض نعمته ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ﴾ ولم يزل ولا يزال ﴿وَٰسِعًا﴾ بالنعمة والبذل ﴿حَكِيمًا﴾ في رحمته لعباده بالكرم والفضل لا يعمل عملاً إلا وفيه إتقانٌ وإحكام.

﴿وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ وَإِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا ﴿١٣١﴾ وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿١٣٢﴾ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا ٱلنَّاسُ وَيَأْتِ بِـَٔاخَرِينَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ قَدِيرًا ﴿١٣٣﴾ مَّن كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا فَعِندَ ٱللَّهِ ثَوَابُ ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴿١٣٤﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ﴾ فيسهل عليه القبض والبسط من نعمه بالنسبة إلى كل ذي حياة فلا يتعذر عليه الإغناء للزوجين بعد الفراق ولا الإيناس بعد الوحشة والشقاق ﴿وَلَقَدْ وَصَّيْنَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ من اليهود والنصارى ﴿وَإِيَّاكُمْ﴾ أي وصيناكم بعد توصيتهم ﴿أَنِ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ﴾ فإن التقوى ملاك السعادة للعباد ووسيلة القرب بعد الابتعاد ﴿وَإِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا﴾ والوكيل هو الذي يتوكل عليه، والجملة تذييل لما قبله ﴿إِن يَشَأْ﴾ أي إن يرد إذهابكم وإبادتكم ﴿يُذْهِبْكُمْ﴾ ويهلككم كما أهلك كثيراً من الأمم البائدة أيها الناس ﴿وَيَأْتِ بِـَٔاخَرِينَ ۚ﴾ أي بأناس آخرين ممتازين في الأفكار والآثار ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ﴾ ولم يزل ﴿عَلَىٰ ذَٰلِكَ﴾ وعلى أبدع من ذلك ﴿قَدِيرًا﴾ فإن الكائنات من آثار خالق البريات.

﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ﴾ بأعماله وأقواله ﴿ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا﴾ من مال أو منصب أو متاع فليطلبه من الله وليعمل ابتغاء مرضاته حتى يجازيه بما يريده ﴿فَعِندَ ٱللَّهِ ثَوَابُ ٱلدُّنْيَا

وَٱلْآخِرَةِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ ﴾ ولم يزل ﴿سَمِيعًا﴾ لأقوالكم ﴿بَصِيرًا﴾ بأفعالكم. وفي مسند الإمام أحمد عن زيد بن ثابت رضي الله عنهما سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**من كان همّه الآخرة جمع الله تعالى شمله وجَعَل غناه في قلبه وأتته الدنيا وهي راغمة، ومن كانت نيته الدنيا فرق الله تعالى عليه ضيعته وجعل فقره بين عينيه، ولم يأته من الدنيا إلا ما كتب به**».

﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ ۚ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا ۖ فَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُوا۟ ۚ وَإِن تَلْوُۥٓا۟ أَوْ تُعْرِضُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١٣٥﴾﴾

عن السدي نزلت في النبي ﷺ اختصم إليه غني وفقير وكان خُلقه مع الفقير رأى أن الفقير لا يظلم الغني فأبى الله إلا أن يقوم بالقسط في الغني والفقير، فأنزل هذه الآية كلها. ذكره الواحدي في الأسباب والخازن في اللّباب.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ﴾ أي قائمين جد قيام بتطبيق العدالة بين الناس ومواظبين عليه بالدوام حال كونكم ﴿شُهَدَآءَ لِلَّهِ﴾ أي مبينين الحق ومراعين له لابتغاء مرضات الله سواء كنتم شهداء لهم أو شهداء عليهم، أو حاكمين بين المتخاصمين منهم: ﴿وَلَوْ﴾ كانت الشهادة ﴿عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ﴾ على ﴿ٱلْوَٰلِدَيْنِ﴾ أو على ﴿ٱلْأَقْرَبِينَ﴾ أي على أقرب الناس إليكم كأبنائكم وبناتكم وإخوتكم وأخواتكم ﴿إِن يَكُنْ﴾ المشهود عليه أو كل منه ومن المشهود له ﴿غَنِيًّا﴾ يرجى نعمته أو يخشى سطوته، ﴿أَوْ فَقِيرًا﴾ يترحم عليه أو لا يهتم به ولا ينظر إليه ﴿فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا﴾ أي فالله أولى وأحق بحالهما ورعاية أمورهما لا أنتم. فإن كان حالهما تقتضي الشفقة فالله تعالى أشفق من كل أحد بكل أحد وإن كانت تقتضي غيرها فالله أولى برعايتها ﴿فَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُوا۟﴾ أي فلا تتبعوا هوى أنفسكم لأن تَعدِلوا وتتجاوزوا عن الحق أو كراهة أن تعدلوا بين المتخاصمين وتطبقوا العدالة بينهما على أن يكون المصدر مفعولاً له وعلة لاتباع الهوى المنهي عنه. ولو **جعل** علة للنهي قدر المضاف إذا كان من العدول، ولم يقدر إذا كان من العدل على العكس مما سبق. أي أنهاكم عن اتباع الهوى كراهة العدول والتجاوز عن الحق أو للعدل بين الناس. ﴿وَإِن تَلْوُۥٓا۟﴾ وتعطفوا ألسنتكم عن الشهادة ولا تأتوا بها على الوجه الحق ﴿أَوْ تُعْرِضُوا۟﴾ عن أدائها وتتركوا إقامتها رأساً ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ

كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ من اللّي والإعراض ﴿خَبِيرًا﴾ به وبأسبابه فيجازيكم حسب نظامه القائم بالعدل والحق وفيه تهديد لهم بأيّ تهديد!

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِى نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِن قَبْلُ ۚ وَمَن يَكْفُرْ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿١٣٦﴾﴾.

عن ابن عباس قال جاء مؤمنو أهل الكتاب إلى رسول الله ﷺ وهم عبد الله بن سلام وأصحابه فقالوا: يا رسول الله إنا نؤمن بك وبكتابك وبموسى والتوراة وعزير، ونكفر بما سوى ذلك من الكتب والرسل. فقال لهم رسول الله: بل آمِنوا بالله وبرسوله محمد وبالقرآن وبكل كتاب كان قبله. فأنزل الله الآية. ذكره البغوي والواحدي فقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟﴾ خطاب لمؤمني أهل الكتاب أو للمؤمنين كافة. فقوله: ﴿ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِى نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِن قَبْلُ﴾ معناه اثبتوا على الإيمان بذلك وداوموا عليه. وإذا كان الخطاب للمنافقين المؤمنين ظاهراً فمعناه أخلصوا وأصدقوا في الإيمان بالله إلى آخر ما ذكره في الآية الشريفة. ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا﴾ أي ومن يكفر بمجموع ذلك أو ببعض منه فقد ضل ضلالاً بعيداً. والضلال البعيد هو الضلال البعيد عن المقصد الأسنى وهو الإيمان لأن الكفر والإيمان على طريقى الإيجاب والسلب متناقضان وهما متباعدان غاية البعد. وأما من آمن بما ذكر وانحرف عن دأب جمهور المسلمين في بعض المسائل الدينية فهو يسمى مبتدعاً ولا يكفر وضلاله قريب.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ثُمَّ كَفَرُوا۟ ثُمَّ ءَامَنُوا۟ ثُمَّ كَفَرُوا۟ ثُمَّ ٱزْدَادُوا۟ كُفْرًا لَّمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًۢا ﴿١٣٧﴾ بَشِّرِ ٱلْمُنَٰفِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣٨﴾ ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلْعِزَّةَ فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴿١٣٩﴾ وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلْكِتَٰبِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا۟ مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦٓ ۚ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ جَامِعُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْكَٰفِرِينَ فِى جَهَنَّمَ جَمِيعًا ﴿١٤٠﴾ ٱلَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِن كَانَ لَكُمْ

فَتْحٌ مِّنَ ٱللَّهِ قَالُوٓاْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ وَإِن كَانَ لِلْكَٰفِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوٓاْ أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُم مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا ﴿١٤١﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ الآية عن مجاهد وابن زيد أنهم أناس منافقون أظهروا الإيمان ثم ارتدوا، ثم أظهروا، ثم ارتدوا، ثم ماتوا على كفرهم. وجعلها ابن عباس رضي الله عنهما عامة لكل منافق في عهده ﷺ في البر والبحر. وعن الحسن أنهم طائفة من أهل الكتاب أرادوا تشكيك أصحاب رسول الله فكانوا يظهرون الإيمان بحضرتهم ثم يقولون: قد عرضت لنا شبهة فيكفرون ثَمَّ وثُمَّ حتى ماتوا. وقال بعض: معنى الآية: إن الذين آمنوا بموسى عليه السلام من أهل الكتاب ثم كفروا حين عَبَدوا العجل ثم آمنوا بعد عوده من الطور إليهم، ثم كفروا بعيسى عليه السلام ثم ازدادوا كفراً بمحمد ﷺ. وهذا المعنى خلاف الظاهر المستفاد من السياق لأن أولئك الناس المذكورين في ذلك أناس مختلفون. والظاهر أن المحكوم عليهم بالأوصاف المتناقضة المتكررة جمع معينون. فالظاهر أن المعنى ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ﴾ ترددوا في أحوالهم فـ ﴿ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ ٱزْدَادُواْ كُفْرًا﴾ وأخذت قلوبهم القسوة أزيد مما كان أولئك ﴿لَّمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ﴾ لأنه تبين من أحوالهم أنهم لم يكن لهم إيمان أساساً وإنما هم أظهروا الإيمان رعاية لبعض المصالح الدنيوية في فترة معينة وعند تبدلها بدلوا إيمانهم بالكفر وأظهروا الكفر وتقلبوا على هذه الأحوال مدة ثم غلبت عليهم القساوة فأعلنوا الكفر وأصروا عليه إلى الموت.

والخلاصة: إن أولئك الجمع لم يكن الله ليغفر لهم ﴿وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًا﴾ سالماً لأنهم كانوا معاندين ومتعمقين في الكفر، ولم يبق عندهم ذوق الإيمان والرغبة فيه. والله سبحانه وتعالى لا يهدي أمثالهم من المنافقين الفاسدين بل إنهم منافقون ويستحقون الإنذار النازل في قوله تعالى: ﴿بَشِّرِ ٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾ أي أنذرهم ﴿بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ وكانوا يتخذون الكافرين أولياء من دون المؤمنين.

ويقول الله سبحانه: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ﴾ أي أصدقاء من دون المؤمنين ﴿أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلْعِزَّةَ﴾؟ أي القوة والمَنَعة. فإن كانوا يريدونها فليرجعوا إلى الإيمان وتولي المؤمنين دون الكافرين ﴿فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ ومن آمن به ورجع إليه صار من أوليائه ويؤتيه الله العزة والمنعة في الدنيا والدرجات العالية في الدين

ثم تحول الباري تعالى عن الحكاية عنهم إلى الخطاب معهم، وقال على طريقة الالتفات: ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلْكِتَٰبِ﴾ أيها المنافقون ﴿أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا۟ مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦٓ﴾، أي غير ما ذكر من الكفر والاستهزاء ﴿إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ﴾ في الإثم لأنكم قادرون على الإنكار وعلى الإعراض، فما دمتم غير معرضين وغير منكرين عليهم فقد قررتم أعمالهم المنكرة، وصرتم شركاء لهم في الإثم المترتب على الكفر والاستهزاء بالدين. ولذلك قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ جَامِعُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْكَٰفِرِينَ فِى جَهَنَّمَ جَمِيعًا﴾ يعني إن الأحبار الكافرين والمستهزئين بالدين والمنافقين الذين قعدوا معهم وشاركوهم في ذلك هم يجمعهم الله معاً في جهنم، فمصيرهم واحد وبئس المصير.

قوله: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ﴾ الخطاب فيه للمؤمنين الصادقين. والموصول عبارة عن المنافقين وهو مع ما في حيزه مبتدأ، وخبره قوله تعالى: ﴿فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ أي يحكم بينكم ويخول كل إلى مصيره. ومعنى الآية الكريمة: المنافقون الذين يتربصون بكم وينتظرون عواقب أموركم؛ ﴿فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ لموضع من المواضع، وظفر بالمقصود، ﴿قَالُوٓا۟﴾ لكم: ﴿أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ﴾ نجاهد الأعداء؟ فأعطونا نصيبنا من الغنائم. ﴿وَإِن كَانَ لِلْكَٰفِرِينَ نَصِيبٌ﴾ متاع دنيوي حاصل من الحرب ﴿قَالُوٓا۟﴾ للكفار: ﴿أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ﴾؟ أي ألم نغلب عليكم ونتمكن من قتلكم فسامحناكم ﴿وَنَمْنَعْكُم مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾؟ أي من صولتهم فاعرفوا لنا هذا الحق عليكم، وهاتوا نصيبنا مما أصبتم. ﴿فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ فيثيب أحبابه ويعاقب أعداءه على سنّته في الأمم ﴿وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾ أي: إستيلاء يوم القيامة، وحين الحكم، وإن وقع ذلك في الدنيا استدراجاً وابتلاء. روي ذلك عن علي وابن عباس ﷺ. أو لن يجعل الله لهم عليهم سبيلاً بالإبادة والاستئصال في الدنيا، روي هذا عن السدي. أو لن يجعل الله لهم عليهم استيلاء بالحجة والبرهان فإن قواعد العقائد الإسلامية وأحكامها إما بديهية أو نظرية مثبتة بالبراهين القاطعة والأدلة اللامعة وكل دين كذلك وأهله غالبون لا مغلوبون. وقال بعض: إن الجعل رضائي واستحبابي أي إن الله تعالى لا يستحب أن يكون للكافرين على المؤمنين سبيل وإن أراده على سنته الاعتيادية من جعله الحرب سجالاً، وللأعداء مجالاً. واحتج الشافعية بهذه الآية على فساد شراء الكافر للعبد المسلم وتزويج المرأة المسلمة من الكافر.

وقال بعض: إن الآية مبنية على قيد وهو أنه إذا عمل المسلمون بما أمر الله به من إخلاص النية وتعلم العلوم النافعة والبراهين الساطعة وترك حظوظ النفس والمصالح الشخصية استحال أن يكون للكافرين سبيل على المؤمنين لأن الطرفين كلاهما إنسان وهما يتكافآن في المعدات وللمسلمين نور ساطع من الإيمان وعقيدة راسخة بالفوز بالجنان فتزيد معنويات المؤمنين. ووسيلة الفوز والغلبة إما وجود المعدات أو الاعتقاد المبني على الأساس، وكلاهما موجودان في المؤمنين الذين كانوا على المنهج المقرر وكل ما وقع من ضرر في الإسلام من الأول إلى الأخير فهو نتيجة الإخلال بذلك النظام كمخالفة أمر الرسول ﷺ في واقعة أحد، والإعجاب بالنفس والغرور في حنين، وأمثال ذلك في سائر المهالك عصمنا الله تعالى منها بمنه وفضله آمين.

﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوٓا۟ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُوا۟ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٤٢﴾ مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا ﴿١٤٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ أَتُرِيدُونَ أَن تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا ﴿١٤٤﴾ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴿١٤٥﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ وَأَصْلَحُوا۟ وَٱعْتَصَمُوا۟ بِٱللَّهِ وَأَخْلَصُوا۟ دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَسَوْفَ يُؤْتِ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٤٦﴾ مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا ﴿١٤٧﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ﴾ أي إنهم يفعلون ما يفعله الإنسان الحيال المخادع فيظهرون الإيمان عند الرسول وأصحابه ويضمرون الكفر، وغايتهم من هذا أن يعدوا من المؤمنين فتصان دماؤهم ويبذل لهم نصيبهم من الغنائم ﴿وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ﴾ والله تعالى يعاملهم معاملة المخادع أي يقبل منهم الإيمان إلى أن يعملوا ما يضر بكيان الإسلام، وعند ذلك يظهر سرّهم على حبيبه ﷺ فيفتضحون بين المؤمنين. ﴿و﴾ من علامات نفاقهم أنهم ﴿إِذَا قَامُوٓا۟ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُوا۟ كُسَالَىٰ﴾ متثاقلين متباطئين حال كونهم ﴿يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ﴾ أي ليس صلاتهم على أساس أداء الواجب حق الأداء، بل يظهرون للناس أنهم يصلون ﴿وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾،

أي لا يصلون إلا في أوقات معلومة وهي أوقات حضور الناس الكبار. ﴿مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ﴾ أي مترددين بين ذلك المذكور من الكفر والإيمان ﴿لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ أي لا منسوبين بالوجه الصحيح الثابت إلى المؤمنين ولا إلى الكفار. فأولئك قد أضلهم الله ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا﴾ مستقيماً يمشي عليه. ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ﴾ وأحباء وناصرين ﴿مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿أَتُرِيدُونَ أَن تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا﴾؟ حجة واضحة على كفركم واستحقاقكم العذاب ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ أي في الطبقة السافلة منها لأن لها طبقات سبعاً ﴿وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا﴾ يخرجهم منها يوم القيامة ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟﴾ عن النفاق ﴿وَأَصْلَحُوا۟﴾ ما أفسدوه من النيات والاعتقادات والأعمال بأن أخلصوا نيتهم لله في كل ما يفعلون ويتركون ويعتقدون بجميع ما جاء به الرسول ﷺ من الله تعالى، ﴿وَٱعْتَصَمُوا۟ بِٱللَّهِ﴾ أي وتمسكوا بكتاب الله واعتمدوا عليه ﴿وَأَخْلَصُوا۟ دِينَهُمْ لِلَّهِ﴾ في مستقبل أمرهم لا يريدون بطاعته إلا وجهه ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ الصادقين في الدرجات الدنيوية والأخروية ﴿وَسَوْفَ يُؤْتِ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ لا يعلم مقداره إلا الله ثم ذكر الله سبحانه وتعالى أن مدار تعذيبهم في الآخرة والتنفير عنهم في الدنيا هو كفرهم ونفاقهم وقال: ﴿مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ﴾؟ أي قابلتم نعم الباري سبحانه بما يكافئها أو يقاربه أو يشبهه ﴿وَءَامَنتُمْ﴾ وصدقتم بوجود الفياض لتلك النعم المختار في إفاضتها عليكم تفضلاً وإحساناً. ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ﴾ ولم يزل ﴿شَاكِرًا﴾ مثيباً على شكر الشاكرين ﴿عَلِيمًا﴾ بإيمان المؤمنين. وقدم الشكر على الإيمان مع أنه لا يعتد به بدونه لأن الشكر وسيلة للإيمان حيث إن الشكر على النعمة يقتضي الاعتراف بالنعمة وبوجود المنعم. وللشكر درجات أعلاها صرف العبد جميع ما أنعم الله به عليه فيما خلق لأجله وهذا مقام كُمَّلِ عباد الله ولذلك قال تعالى: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ﴾ [سبأ: ١٣]. جعلنا الله تعالى من الشاكرين بمنه إنّه أرحم الراحمين.

الجزء السادس

﴿لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلْجَهْرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلْقَوْلِ إِلَّا مَن ظُلِمَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا ﴿١٤٨﴾ إِن تُبْدُوا۟ خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُوا۟ عَن سُوٓءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا ﴿١٤٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا۟ بَيْنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ

نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿١٥١﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ أُولَٰئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْ ۗ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٥٢﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿لَّا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ﴾ أخرج ابن جرير عن مجاهد أن رجلاً ضاف قوماً فلم يطعموه فاشتكاهم، فعوتب عليه، فنزلت. ومعلوم أن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب. ومعنى الآية: لا يحب الله الجهر بالسوء من القول إنه يغضب على من جهر بالقول السيىء على الناس ﴿إِلَّا مَن ظُلِمَ﴾ فإن جهره بالقول السيىء على من ظلمه غير مسخوط عليه عنده تعالى ﴿وَكَانَ اللَّهُ﴾ ولم يزل ﴿سَمِيعًا﴾ لجميع المسموعات ﴿عَلِيمًا﴾ بجميع المعلومات، ومن جملتها عمل الظالم وقوله، وقول المظلوم، وجهره بالقول السيىء عليه.

﴿إِن تُبْدُوا خَيْرًا﴾ أي تظهروه بحيث يعلم به الناس ﴿أَوْ تُخْفُوهُ﴾ لا يعلم به غير الله تعالى ﴿أَوْ تَعْفُوا عَن سُوءٍ﴾ أيّا كان هذا وذاك، ونص عليه مع اندراجه في ما سبق للاهتمام به. والجمل الثلاث شروط والجزاء محذوف وهو فقد اقتديتم بسنة الله تعالى، ويدل عليه قوله: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا﴾ وما يقال إن إبداء الخير وإخفاءه لو كانا هنا مقصودين بالشرط لم يحسن الاقتصار على كون الله تعالى عفواً قديراً... يعارضه أن العفو عن المسيء مع الاقتدار على الانتقام من أهم مهمات الخيرات الجهرية والسرية. وبذلك تتناسب الجمل الشرطية مع نائب الجزاء المقدر كما لا يخفى. قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ﴾ مربوطة بالآيات السابقة عن المنافقين. ولا شك أن الآيات تنزل من لدن حكيم خبير بالعالمين، ولا تنزل إلا لمعالجة الواقع. وقد كان بين أولئك المنافقين أناس ملحدون كافرون بالله وبجميع رسله، ولكنهم ينافقون المؤمنين بسيدنا محمد ﷺ بشكل، وينافقون اليهود بشكل آخر؛ فيأتون إلى المؤمنين بإعلان الإيمان بالله وبرسوله محمد ﷺ وبما جاء به من عند الله ويأتون إلى اليهود بإظهار الإيمان بالله وببعض الرسل أي بموسى ومن سبقه ومن لحقه من أنبياء بني إسرائيل ما عدا سيدنا عيسى، وقد يلتقون بالمسيحيين فيجاملونهم ويرضونهم بأفواههم، وإذا لقوا الكفار المشركين بالغوا في المدح والثناء عليهم وقالوا لهم: أنتم أهدى من محمد ومن معه، ومشوا لا على حبلين بل على حبال.

فالباري سبحانه وتعالى كشف سترهم وأظهر سرهم وأعلن أنهم هم الكافرون بالله وجميع رسله ولا يؤمنون بمقدس قطعاً، وهم الملاحدة الوجودية الكافرة بكل الشرايع والأديان، ولكنهم يتسترون عند المؤمنين بإظهار الإيمان بسيدنا محمد وما جاء به، وعند اليهود بإظهار الثبات على دين اليهود والإيمان بالله وبموسى والأنبياء الذين كانوا على شريعته، ﴿وَيُرِيدُونَ﴾ بهذا النفاق ﴿أَن يُفَرِّقُوا۟ بَيْنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ﴾ بسبب إعلان الإيمان بالله وببعض الرسل كموسى ومن وافقه دون بعض آخر كعيسى وسيدنا محمد ﷺ. وإذ أعلنوا ذلك فقد فرقوا بين الله ورسله لأن الأنبياء والمرسلين كلهم جمعية مُوحَّدةٌ موحِّدة قدسية مربوطة بالله سبحانه في تبليغ شرائعه إلى الأمم كل في زمانه، فإذا رفض الملحدون رسالة بعض منهم فقد فرقوا بين الله ورسله، ولم يخلوا الرسل على اجتماعهم متصلين برباط الرسالة من الله ﴿وَيَقُولُونَ﴾ لليهود وفي مجتمعهم: ﴿نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ﴾ من الرسل الذين نحن على شريعته ﴿وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ﴾ منهم، وهم الذين لسنا على دينهم وملتهم، ﴿وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا۟ بَيْنَ ذَٰلِكَ﴾ المذكور من الإيمان بالله ورسله ﴿سَبِيلًا﴾ ليس هو الإيمان بالكل ولا الإنكار للكل، بل هو الإيمان بالله وببعض منهم ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ﴾ المنافقون الملحدون المتسترون بالستارات المتنوعة ﴿هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ حَقًّا﴾ إذ لم يخلوا شيئاً من المقدسات يؤمنون به ﴿وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا﴾ شديداً يُهانُون به.

وهنا طريق ثان لبيان أن الذين يفرقون بين الله ورسله أي يؤمنون بالله تعالى وببعض دون بعض هم الكافرون بالله وبجميع رسله، وهو أن الدليل الدال على صدق بعض الرسل الذي يؤمن به ليس إلا المعجزة، وإذا كانت دليلاً على صدق الرسول لزم القطع بأنه حيث ظهرت المعجزة ثبت صدق صاحبها، فإن جوزنا في بعض المواضع ظهور المعجزة بدون صدق صاحبها امتنع الاستدلال بها على صدق الرسول الذي يؤمن به، وكذا على صدق سائر الرسل فحينئذ يلزم منه الكفر بجميع الرسل، وإذا لزم الكفر بجميع الرسل لزم الكفر بالله تعالى أيضاً، لأن دليل الإيمان بالله تعالى لغير الأنبياء والرسل الذي يوحى إليهم هو تبليغ الرسل وبيانهم لوجود ذاته الواجب الوجود وصفاته الكمالية، وإذا كفر الشخص بجميع الرسل لزم الكفر بالله تعالى أعاذنا الله تعالى منه آمين. فثبت أن الذين يفرقون بين الله ورسله هم الكافرون بالله تعالى وبجميع الرسل حقاً.

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ﴾ الآية... يعني وكل الذين آمنوا بالله

ورسله ﴿وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ﴾ أي لم يفرقوا بعضهم عن بعض بأن آمنوا بالجميع ولم يؤمنوا ببعض مع الكفر بالآخرين ﴿أُولَئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْ﴾ الموعودة لهم كاملة غير منقوصة ﴿وَكَانَ اللَّهُ﴾ ولم يزل ﴿غَفُورًا﴾ لمن كانت صفتهم ما تقدم. و﴿رَّحِيمًا﴾ بهم فيزيد على أجورهم زيادة وهي لقاء وجهه الكريم.

﴿يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِّنَ السَّمَاءِ ۚ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَىٰ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ فَقَالُوا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ۚ ثُمَّ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ فَعَفَوْنَا عَن ذَٰلِكَ ۚ وَآتَيْنَا مُوسَىٰ سُلْطَانًا مُّبِينًا ﴿١٥٣﴾ وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطُّورَ بِمِيثَاقِهِمْ وَقُلْنَا لَهُمُ ادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا فِي السَّبْتِ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا ﴿١٥٤﴾ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِآيَاتِ اللَّهِ وَقَتْلِهِمُ الْأَنبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ ۚ بَل طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥٥﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ﴾ الآية عن محمد بن كعب القرظي قال: جاء ناس من اليهود إلى رسول الله ﷺ فقالوا: إن موسى جاءنا بالألواح من عندنا فأتنا بالألواح من عند الله حتى نصدّقك! فأنزل الله الآية أخرجه ابن جرير. وعن ابن جُريج قال: إن اليهود والنصارى قالوا لرسول الله ﷺ: لن نبايعك على ما تدعونا إليه حتى تأتينا بكتاب من عند الله وصحف مكتوبة من السماء إلى فلان وفلان إنك رسول الله! فنزلت الآية أخرجه ابن جرير وابن المنذر. ومعنى الآية الكريمة: ﴿يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ﴾ الآية يسألك يا رسولي أهل الكتاب الذين يعاندون الحق الأبلج ويتعنتون ﴿أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِّنَ السَّمَاءِ﴾ أي أن تطلب من خالق الأرض والسماء أن ينزل عليهم كتاباً مقدساً. فإن سمعت سؤالهم هذا فلا تعجب من جهالتهم وتعنتهم وغفلتهم في تقدير القدسية واستغناء الباري تعالى وإنه مختار في شؤونه فإن ذلك دأب المتعنتين منهم ﴿فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَىٰ﴾ - عليه السلام - شيئاً ﴿أَكْبَرَ﴾ وأبعد ﴿مِن ذَٰلِكَ﴾ الذين طلبوه منك ﴿فَقَالُوا﴾ له: يا موسى ﴿أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً﴾ أي مجاهرين معاينين، ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ﴾ أي فأهلكت أولئك الناس نار نزلت من السماء فأماتهم الله بها ﴿بِظُلْمِهِمْ﴾ أي بتعدّيهم وتعنتهم وسؤالهم ما لا يناسبهم في تلك الحالة التي كانوا عليها، وقوله: ﴿ثُمَّ اتَّخَذُوا﴾ كلمة ثم للتراخي الذكري أي

وهم قوم لهم بدائع من المنكرات، وعجائب من المخالفات، وصنائع من المخترعات واتخذوا ﴿ٱلْعِجْلَ﴾ وعبدوه بعد ذهاب موسى إلى الطور ﴿مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ﴾ من المعجزات التي أظهرها الله من العصا واليد البيضاء وإنجاء بني إسرائيل من النيل وإغراق فرعون وأشياعه فيه. وتلك البينات كانت من المعجزات الباهرة ﴿فَعَفَوْنَا﴾ هم ﴿عَن ذَٰلِكَ﴾ الصنيع الشنيع الفظيع ﴿وَءَاتَيْنَا مُوسَىٰ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا﴾ أي قوة قاهرة وغلبة ظاهرة على إكمال رسالته وإبلاغ شريعته ﴿وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ ٱلطُّورَ﴾ أي رفعنا الجبل الذي سكنوا عنده على رؤوسهم كأنه مظلة، وذلك ﴿بِ﴾ سبب ﴿مِيثَٰقِهِمْ﴾ أي بسبب امتناعهم عن قبول الميثاق بالعمل بالتوراة فقبلوه، ﴿وَأَخَذْنَا مِنْهُم﴾ بواسطة رسولهم موسى عليه السلام ﴿مِّيثَٰقًا غَلِيظًا﴾ محكماً مؤكداً، ﴿وَقُلْنَا لَهُمُ﴾ على لسان يوشع بن نون عليه السلام فيه: ﴿ٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا﴾ أي بابَ بيتِ المقدس سُجَّداً خاضعين مطمئنين ﴿وَقُلْنَا لَهُمْ﴾ على لسان داود عليه السلام: ﴿لَا تَعْدُوا۟ فِى ٱلسَّبْتِ﴾ أي لا تتعدوا حدود الله باصطياد الحيتان ﴿وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا﴾ أي عهداً وثيقاً مؤكداً بأن يطيعوا الله بامتثال أوامره واجتناب مناهيه؛ فخالفوا أوامره واحتالوا، ونقضوا الميثاق، فجعلنا منهم القردة والخنازير ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ﴾ أي نقض بني إسرائيل ميثاقهم الذي تقرر مع الله تعالى على لسان رسولهم، ﴿وَكُفْرِهِم بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ أي بالحجج الدالة على صدق الرسل ﴿وَقَتْلِهِمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ﴾ كزكريا ويحيى عليهما السلام ﴿بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ﴾ جمع غلاف بمعنى الظرف، وأصله غلف بضمتين أي أوعية للعلم، فنحن مستغنون عن تعليماتكم، وهذا على وجه التكبر، أو قلوبنا مغطاة ومستورة بستائر تمنعها عن استماع كلامكم، وهذا على وجه التعنّت، وقولهم هذا كان في مقابلة الرسول ﷺ عند إرادته تعليمهم القرآن.

وقوله: ﴿بَل طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ﴾ إضرابٌ عمّا ادعوه من كون قلوبهم غلفاً يعني أنه لا أصل لقولهم ذلك وليس المانع من قبولهم الحق ذلك بل المانع أن الله طبع على قلوبهم، أي جعلها الله كصناديق ختم عليها وذلك بسبب استمرارهم على الفساد والإفساد والمعارضة للرسول واستكبارهم عن قبول الحق، وكفرهم المستمر ﴿فَلَا يُؤْمِنُونَ﴾ أي أهل الكتاب ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ كعبد الله بن سلام ومن هداهم الله إلى الحق.

﴿وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَٰنًا عَظِيمًا ﴿١٥٦﴾ وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟

فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا ﴿١٥٧﴾ بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٥٨﴾ وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا ﴿١٥٩﴾﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَبِكُفْرِهِمْ...﴾ الآية يعني وبكفرهم الخاص البالغ إلى المستوى الأفسَدِ وهو المخلوط بالرذائل والافتراء والبهتان ولذلك عَطَفَ عليه قولَه الكريم ﴿وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ﴾ بنت عمران التي شهد الله على عفتها وحصانتها ﴿بُهْتَٰنًا عَظِيمًا﴾ ترتجف منه قلوب المؤمنين حيث نسبوها إلى ما لا يناسب قدرها ولا يوافق عفتها ﴿وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ﴾ وذكروه في ما ادّعوه بعنوانِ الرسالة تهكماً واستهزاء منهم وحكاه الله بعين الوصف تشريفاً وإعلاءً منه تعالى لقدره ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ﴾: أي أوقع شبهه على واحد آخر للالتباس عليهم، وكان ذلك الواحد رجلاً من المنافقين يصاحب عيسى عليه السلام.

روي عن ابن عباس رضي الله عنهما أن رهطاً من اليهود سَبُّوهُ عليه السلام وأمَّهُ فدعا عليهم فابتلوا بعاهات، فبلغ ذلك (يهوذا) رأس اليهود فخاف منه فجمع اليهود فاتفقوا على قتله فساروا إليه ليقتلوه فأدخله جبريل عليه السلام بيتاً ورفعه منه إلى السماء ولم يشعروا بذلك، فدخل عليه طيطانوس ليقتله فلم يجده وأبطأ عليهم، وألقى الله شبه عيسى عليه السلام عليه، فلما خرج قتلوه وصلبوه ﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ﴾ أي اختلفوا في شأن عيسى عليه السلام ﴿لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ﴾ أي في ترددٍ في قتل عيسى عليه السلام ﴿مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ﴾ أي ما لهم بحاله قتلاً وتركاً إدراك إلا اتباع الظن فالاستثناء متصل. أو ما لهم به من علم يقيني لكن لهم اتباع الظّن و﴿إِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا﴾، ﴿وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا﴾ أي وما قتلوا عيسى قتلاً متيقناً بل قتلوه بزعمهم قتلاً مظنوناً، أو ما قتلوه وتيقنوا أيها السامعون هذا النفي، فنفي قتله حكم سلبي قطعي ﴿بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ﴾ أي بل رفعه الله سبحانه وتعالى بجسده وروحه إلى مقام خَصَّهُ الله به في سمائه.

وفي هذا الكلام رد وإنكار لقتله عليه السلام وإثبات لرفعه بالجسد والروح وذلك لأن الضمائر المتوالية السابقة في قوله تعالى ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ﴾ إلى قوله ﴿وَمَا قَتَلُوهُ﴾ كلها راجع إلى عيسى عليه السلام باعتبار جسده وروحه، فيكون الضمير في قوله تعالى: ﴿بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ﴾ كذلك. وروي رَفعُه إلى السماء الثانية وهو حيّ مرزوق هناك، وقد صحّ عن النبي صلى الله عليه وسلم في حديث المعراج، وهو هنالك

مقيم حتى ينزل إلى الأرض يقتل الدجال ويملؤها عَدلاً كما مُلئت جوراً، ثم يحيا فيها أربعين سنة، أو تمامها من سنّ رفعه وكان إذ ذاك ابن ثلاث وثلاثين سنة، ويموت كما يموت سائر الناس ويدفن في حجرة النبي ﷺ أو في بيت المقدس ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ﴾ ولم يزل ﴿عَزِيزًا﴾ غالباً على أمره ﴿حَكِيمًا﴾ في كل شؤونه. ﴿وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ﴾ أي وليس من أهل الكتاب اليهود والنصارى أحد إلا ليؤمنن به. فقوله ﴿لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ﴾ جملة قسمية وقعت صفة لأحد أي لا يبقى أحد من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به بعد نزوله وقبل موته ومعلوم أن السيد المسيح بعد نزوله يتبع دينَ الإسلام، فتكون جميعُ الأمم على ملة واحدة هي الإسلام ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكُونُ﴾ عيسى عليه السلام ﴿عَلَيْهِمْ﴾ أي على أهل الكتاب ﴿شَهِيدًا﴾ فيشهد على اليهود بتكذيبهم إياه وعلى النصارى بقولهم فيه إنه ابن الله وإنه بريء من كل ما افتري عليه واعتقده فيه وفي أمّه مما يخالف حقيقة العبودية والانقياد والإطاعة لله ربّ العالمين.

﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرًا ﴿١٦٠﴾ وَأَخْذِهِمُ ٱلرِّبَوٰا۟ وَقَدْ نُهُوا۟ عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦١﴾ لَّٰكِنِ ٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ مِنْهُمْ وَٱلْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَٱلْمُقِيمِينَ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱلْمُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٦٢﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟﴾ معناه وبعدما ذكرنا من سيئات أهل الكتاب المنحرفين الذين تابوا من عبادة العجل اعلموا أنه بظلم أيّ ظلم كان مما حدث منهم ﴿حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ﴾ ولمن قبلهم ﴿وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرًا﴾ أي وبمنعهم أناساً كثيرين عن اتباع الحق والإيمان به ﴿وَأَخْذِهِمُ ٱلرِّبَوٰا۟ وَقَدْ نُهُوا۟ عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ﴾ أي بالرشوة والحيلة الدقيقة في الأحوال العارضة على الناس، والمعاملات والمحاكمات وغيرها.

والحاصل أن بني إسرائيل كانوا أمة كسائر الأمم، وكان فيهم الصالح والطالح والمطيع والعاصي، لكنه يوجد فرق كثير بين الأمة التي لم يكن فيها نبوة ورسالة وعلم، والأمة التي فيها ذلك، وكان بنو إسرائيل من القسم الثاني وكان فيهم رسل كثيرون ومواعظ وإرشادات قيمة، وأحكام نازلة، ومع ذلك رأوا براهين

قاطعة ومعجزات لامعة دالة على صدق موسى ومن قبله من الرسل ومن بعده، وبالرغم من ذلك لم يثبتوا على الأحكام ولم يطمئنوا إلى إرشادات الرسل وكانوا يباشرون السيئات العظيمة التي لا تعبير عنها إلا بالظلم المظلم، وقد تكرر منهم ذلك في كل عصر وزمان واستمر فيهم إلى آخر الزمان، ومن أجل ذلك كلما أذنبوا ذنباً حَرَّمنا عَلَيهم نوعاً من طيباتٍ أحِلّت لهم ولمن سبق، وذلك بصدهم ومنعهم النّاس عن سلوك سبيل الله وهو دين الإسلام صدّاً كثيراً لا مرة ومرتين بل مرّات ومرّات. وكأخذهم الربا وقد نهوا عنه على لسانِ أنبيائهم. وبأكلهم أموال الناس بالوجه الباطل بدون عوض مشروع في مقابلة ولا هبة حسبية.. فبذلك كلِّه حَرَّمْنا عليهم ما حرمناه، واعتبرناهم من الكافرين ﴿وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ﴾ منهم ﴿عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦١﴾ لَّٰكِنِ ٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ مِنْهُمْ وَٱلْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ من القرآن الكريم ﴿وَمَآ أُنزِلَ﴾ نا ﴿مِن قَبْلِكَ﴾ على الرسل من التوراة والإنجيل وسائر الصحف ﴿وَٱلْمُقِيمِينَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ منصوب على المدح أي وأخصّ المقيمين للصلاة ﴿وَٱلْمُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ للمستحقين ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾ وحده لا شريك له ﴿و﴾ المؤمنون بـ ﴿ٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾ أي يوم القيامة ﴿أُوْلَٰٓئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ لا يعلم مقداره إلا الله وأما ما اقترحوا من إنزال كتاب من السماء عليهم فأجيب عنه بأنه خارج عن سنة الباري بل سنته ما طبقها للرسل كما قال:

﴿إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيْمَٰنَ ۚ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴿١٦٣﴾ وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَٰهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ۚ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴿١٦٤﴾ رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٦٥﴾ لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشْهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيْكَ ۖ أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ ۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَشْهَدُونَ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿١٦٦﴾﴾.

فهذه الآيات جوابٌ وأيّ جواب عن اقتراح أهل الكتاب، وحاصلها: إن الله سبحانه وتعالى يقول: ﴿إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ﴾ الكتاب وهو القرآن الكريم بتدريج وإمهال حسب الوقائع ومقتضى الحال، وكنا متفضلين بذلك الإيحاء ولم نذكر

الناس الذين يبلغهم الرسل، فإن التبليغ شأنهم وهم مخولون به، و﴿كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ﴾ أولئك الرسل كذلك أرسلنا ﴿رُسُلًا﴾ آخرين، منهم من ﴿قَدْ قَصَصْنَٰهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ﴾ أي من قبل هذا الوقت ﴿وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ﴾ وخصّ بعضاً منهم بمزايا وعطايا ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا﴾ يليق بكبرياء ذاته وعلو صفاته، حال كونهم ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ﴾ أهل الطاعة والإحسان ﴿وَمُنذِرِينَ﴾ أهل العناد والعصيان وإنما أرسلناهم ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ﴾ فيقولوا: يا ربنا لولا أرسلت إلينا رسولاً، وشرعت لنا شريعة؟ فيبينها الرّسول ويُرشدنا إلى طريق الوصول فنحن إن علمنا شيئاً فقد جهلنا أشياء. فعند ذلك يظهر أنهم جهلاء غافلون عن الأحكام والغافلون لا يكلفون ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا﴾ أي ذا عزة وغلبة على أمره ﴿حَكِيمًا﴾ لا يعمل شيئاً إلا بحكمة.

ومن أنصف علم على ضوء هذه الآية الشريفة أن لا حكم قبل ورود الشرع وإرسال الرسل وإيضاح السبل، وأن العقل، وإن كان يدرك بعض الأمور والمصالح العامة والخاصة، لكن لا يدرك جهة الحرمة والوجوب والكراهة والندب والإباحة، وإن أدركها فلا يدرك جزاء عالم الآخرة ودرجات العقوبة والمثوبة، هذا إذا كان العقل سليماً. أما إذا كان سقيماً وغلب عليه الأهواء والشهوات النفسية والمطامع الدنيوية فيكون أبعد عن إدراكها بمراحل. وإذا كان كذلك فمن لم تبلغه الدعوة لإسلامية كأهل الفترة، لا سيما أهل الثلث الأخير من زمانها، فلا مجال للقول إنهم معذبون في الآخرة أو مثابون قطعاً.

وقوله تعالى: ﴿لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشْهَدُ﴾ الآية استدراك مما استنبط من الآيات السابقة وهو أن أهل الكتاب ما عدا الراسخين في العلم منهم لا ينصفون ولا ينقادون للحق ولا يشهدون بأن الكتاب الذي يبلغه الرسول يبلغه من الله تعالى فتقدير الكلام فتبين لكم أن أهل الكتاب لا يشهدون بما أنزل إليك، لكن الله سبحانه وتعالى يشهد ﴿بِمَآ أَنزَلَ إِلَيْكَ﴾ وهو القرآن الكريم، أي يشهد بأنه كلام الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه أبداً. أنزله بعلمه: أي أنزله الله إليك بسبب علمه الخاص به الذي لا يشاركه فيه غيره، ولذلك ﴿أَنزَلَهُۥ﴾ على تأليف خاص وأسلوب عجيب معجز للبلغاء، أو أنزله إليك ﴿بِـ﴾ سبب ﴿عِلْمِهِۦ﴾ بأنك قابل لذلك الكتاب لقيامك بحجق تلاوته وتبليغه والعمل به وتطبيقه، أو أنزله متلبساً

بما علمه الباري من مصالح العباد التي اشتمل عليها بحيث استوعب أسباب سعادة الدارين، أو أنزله مع علمه المحيط به حرفاً وكلمة كلاماً المقتضي لصيانته من مبدأ نزوله إلى وقت من الإلقاءات والتبديلات للحروف أو الكلمات كما قال: إنا نحن ﴿نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ [الحجر: ٩] ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَشْهَدُونَ﴾ بما شهد الله تعالى به ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾ وكل ما زاد على شهادته فقد كان تأييداً معززاً مجيداً.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ قَدْ ضَلُّوا۟ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿١٦٧﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَظَلَمُوا۟ لَمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا ﴿١٦٨﴾ إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿١٦٩﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلرَّسُولُ بِٱلْحَقِّ مِن رَّبِّكُمْ فَـَٔامِنُوا۟ خَيْرًا لَّكُمْ ۚ وَإِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٧٠﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ الآية أي إن أهل الكتاب الذين كفروا برسالة محمد ﷺ وصدوا ومنعوا الناس عن سلوك سبيل الله والإيمان بما أنزله على رسوله ﴿قَدْ ضَلُّوا۟ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا﴾ عن طريق الاهتداء والكمال، لأنهم جمعوا بين الضلال والإضلال ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَظَلَمُوا۟﴾ أنفسهم وأنفس أهليهم وأتباعهم بأن ظلموا محمداً ﷺ وأنكروا نبوته ورسالته وجلالة قدره ونعوته المذكورة في الكتاب السابقة الدالة على رسالته واستمروا على ذلك ﴿لَمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا ﴿١٦٨﴾ إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾ وجرى حكمه بذلك لعلمه بسوء نياتهم وإصرارهم على المهالك. ﴿وَكَانَ ذَٰلِكَ﴾ الأمر ﴿عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿١٦٩﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ إن الله رؤوف رحيم بكم وناصح لكم ﴿قَدْ جَآءَكُمُ ٱلرَّسُولُ﴾ لدين ﴿ٱلْحَقِّ﴾ والمجيء الحق والتلبس بالحق ﴿مِن رَّبِّكُمْ فَـَٔامِنُوا۟﴾ بالله ورسوله الذي بعثه رحمة للعالمين وختم به النبيين، وإرساله من القوم الأميين إيماناً ﴿خَيْرًا لَّكُمْ﴾ ولمن تبعكم مما أنتم عليه ﴿وَإِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ﴾ الله غني عنكم وعن إيمانكم، حيث إن ﴿لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ يعلم السر وأخفى وله الحكمة في السموات والأرض وله المثل الأعلى.

﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ

﴿إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۖ وَلَا تَقُولُوا۟ ثَلَٰثَةٌ ۚ ٱنتَهُوا۟ خَيْرًا لَّكُمْ ۚ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ سُبْحَٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٌ ۘ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿١٧١﴾ لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ۚ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا ﴿١٧٢﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ ۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْتَنكَفُوا۟ وَٱسْتَكْبَرُوا۟ فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٧٣﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ﴾: خطاب لأهل الكتاب من اليهود والنصارى، وينهاهم عن الغلو في الدين حيث غلت اليهود في شأن عزير فقالوا: هو ابن الله. وفي شأن عيسى حيث حطّوا من قدره، ونشروا في شخصه الكريم ما لا يناسب مقامه، وغلت النصارى فيه بأن جعلوه إلهاً وسموه ابن الله! ﴿وَلَا تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ﴾ ولا تقولوا إن عزيراً وعيسى ابن الله، ولا تنسبوا إلى الله الصاحبة وهو بريء من هذه العلاقة الفاسدة، ولا يناسب البشر مطلقاً، ولم يلد ولم يولد، وهذه الأكاذيب من مفتعلات الأوهام الباطلة والعقائد العاطلة ﴿إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ﴾ أرسله إلى بني إسرائيل مبشراً برسول يأتي من بعده اسمه أحمد ﴿وَكَلِمَتُهُۥٓ﴾ أي ونتيجة كلمته وهي كلمة كن، فكل وليد يحصل فله سبب قريب محسوس وهو النطفة، وسبب غريب معقول وهو كلمة كن المنشأ لولادته بعد وجوده وعلوق الرحم به، ولما كان عيسى بعيداً من السبب القريب انحصر أمره في السبب الغريب وهو كلمة كن، والمراد بها الأمر التنفيذي أو سرعة حصول المراد بالقدرة والإرادة ﴿أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ﴾ أي ألقى ووجّه تلك الكلمة إليها، أي أراد وجود الولد منها ﴿وَرُوحٌ﴾ أي ذو روح حاصل وناشىء ﴿مِّنْهُ﴾ أي من الله سبحانه حصول الأثر من المؤثر. وخص باستعمال الروح له لأنه كان ناتجاً من نفخة نَفَخَها جبريل في درع مريم عليها السلام بأمره سبحانه ﴿فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ﴾ من آدم إلى الخاتم، ومن جملتهم: موسى، وعزير، وعيسى، ومحمد ـ عليهم الصلاة والسلام ـ. ﴿وَلَا تَقُولُوا۟ ثَلَٰثَةٌ﴾ أي: لا تعتقدوا بالقلب ولا تنطقوا باللسان بأن هناك آلِهَةً ثلاثة الله، ومريم، وعيسى! ﴿ٱنتَهُوا۟﴾ عن أوهام التثليث واقصدوا عقيدة

التوحيد ﴿خَيْرًا لَّكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ﴾ لا مثل له لا في الذات ولا في الصفات ولا في الأفعال، فلا يساوي الممكنُ واجب الوجود ولا يماثله شيء ولا يشاركه شيء في صفاتِه الذاتيةِ الإزليةِ الأبدية ولا الفعليةِ، وليس الله تعالى مادة قابلة للتجزي، وليست صفاته قابلة للإنفكاك عنه، وكل ما جرى بخيال النفس فهو بعيد عن حضرة ذي القدس. وحاصل ما هنالك تجليات رحمة وأنوار منه تعالى على عباده المصطفين الأخيار، ولكل نبي ورسول وعبد مطيع حظ منها فأشعة رحمته لا نهاية لها، وتبقى إلى أبد الآبدين ﴿سُبْحَانَهُ أَن يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ﴾ أي نسبحه تسبيحاً وننزه ذاته عن أن يكون له تجانس مع الممكنات، واحتياج إلى التناسل للبقاء فيكون له ولد. ﴿مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ خلقاً وملكاً، ﴿وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾ يتوكل عليه ويراجع إليه.

﴿لَّن يَسْتَنكِفَ الْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ﴾، أي لا يتنحى ولا يترفع ولا يعدّه عاراً أن يكون عبداً لله ويعلن عبوديته له؛ فإن عبودية الإنسان للباري شرف جارٍ يتباهى به كل آدمي شريف النفس، وإنما الاستنكاف له من عبودية غيره ﴿وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ﴾ أي ولا يستنكف الملائكة المقربون أن يكونوا عباد الله تعالى؛ فإن حملة العرش مسخرون لحمله، والباقي كل له مقام وخدمة؛ فجبريل لتنزيل الكتاب، وميكائيل على أرزاق العباد، وعزرائيل لقبض الأرواح، وإسرافيل لنفخه في الصور مرتين، الأولى للتدمير والثانية للبعث والنشور. والمسخر عبد مطيع لمولاه، والعبودية الخضوع والتذلل له في امتثال الأوامر واجتناب المناهي ﴿وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ﴾ ولا يعبده ويعد العبادة عاراً له ﴿فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا﴾ فيجازيهم بما يستحقونه من الجزاء ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ﴾ على قدر الاستحقاق ﴿وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِ وَأَمَّا الَّذِينَ اسْتَنكَفُوا وَاسْتَكْبَرُوا﴾ عن عبادتنا ولم يعترفوا بعبوديتهم لنا بصدق ﴿فَيُعَذِّبُهُمْ﴾ الله ﴿عَذَابًا أَلِيمًا﴾ ولا يجدون لهم من دون الله ولياً يتولى أمورهم، ولا نصيراً ينصرهم فتنشرح صدورهم.

روي في مورد نزول آية ﴿لَّن يَسْتَنكِفَ الْمَسِيحُ﴾ الآية أن وفد نجران قالوا: يا محمد إنك تعيب صاحبنا فتقول إنه عبد الله ورسوله. فقال لهم النبي ـ ﷺ: إنه ليس بعار لعيسى عليه السلام أن يكون عبداً لله تعالى، ولن يأنف عيسى ولن يتعاظم على عبادة ربه. فنزلت الآية ذكره البغوي والواحدي.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُم بُرْهَٰنٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا ﴿١٧٤﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱعْتَصَمُوا۟ بِهِۦ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِى رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿١٧٥﴾﴾.

قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ خطاب لكافة المكلفين إثر بيان بطلان ما عليه اليهود والنصارى وسائر الكفار، فيقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُم بُرْهَٰنٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ أي حجة قطعية الدلالة على رسالة محمد ﷺ إلى جميع المكلفين، يعني المعجزات المتوالية التي ظهرت على أيدي الرسول ﷺ ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا﴾ وهو القرآن الكريم الذي هو نور قلوب المؤمنين ووسيلة هداية المهتدين، ووصفه بالمبين أي الواضح لأنه يتبين حقيته بنفسه وأنه من الله تعالى، وليس كلام الإنس والجن فإن إعجازه لهما أن يأتوا بمثله أو بمثل عشر سور منه، أو سورة.. دليل على أنه نازل من عند الله وكذلك كشفه لأمور وقعت أو ستقع في المستقبل دليل آخر على حقيته. وأخرج ابن عساكر عن سفيان الثوري أن المراد بالبرهان هو نفس الرسول ﷺ فهو برهان على وجود ذات الواجب وقدرته الباهرة بأنه خلقه ضعيفاً وقد رباه وأدّبه وحفظه وقوّاه واستنبأه وأظهر له دعواه وأيّده على أعدائه مع كثرتهم وشدتهم وعنادهم المتزايد، حتى فتح البلاد وأرشد العباد وأثبت عقيدة المبدأ والمعاد، وذلك دليل على ذات واجب الوجود الموصوف بالكرم والجود الغالب على أمره في كل غائب ومشهود، وبرهانٌ على رسالة نفسه بأخلاق من صدقه وصبره وتوكله واعتماده على الله في أمره وشجاعته وعفوه وسماحته وتقواه وزهده وصلاحه ووفائه بالوعد وثباته على العهود واعتماده على ربه في السراء والضراء واستقامته على حاله في جميع أعماله.. وكل ذلك على أنه رسول الله أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله وقد أيده ونشر دينه وأبده، فكل من تبعه فقد أمدّه بإمدادات روحية وأنوار قدسية ظاهرة على المتبصرين ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ﴾ إيماناً صافياً عن التردد والاشتباه ﴿وَٱعْتَصَمُوا۟ بِهِۦ﴾ أي بالله تعالى بالثقة والانتباه ﴿فَسَيُدْخِلُهُمْ فِى رَحْمَةٍ مِّنْهُ﴾ أي ثواب عظيم ﴿وَفَضْلٍ﴾ أي إحسان جسيم لا يقدر قدرهُ ﴿وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ﴾ أي إلى ذاته ﴿صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا﴾.

﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِى ٱلْكَلَٰلَةِ ۚ إِنِ ٱمْرُؤٌا۟ هَلَكَ لَيْسَ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَهُۥٓ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ ۚ وَهُوَ يَرِثُهَآ إِن لَّمْ يَكُن لَّهَا وَلَدٌ ۚ فَإِن كَانَتَا ٱثْنَتَيْنِ

﴿فَلَهُمَا ٱلثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ ۚ وَإِن كَانُوٓا۟ إِخْوَةً رِّجَالًا وَنِسَآءً فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۗ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّوا۟ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌۢ ﴿١٧٦﴾﴾.

عن جابر قال: اشتكَيتُ فدخل عَلَيَّ رسول الله ﷺ وعندي سَبْعُ أَخَوات، فقلت: يا رسولَ اللهِ أُوصي لأخواتي بالثلث؟ قال: أحسن. قلت: بالشطر؟ قال: أحسن. ثم خَرَجَ. ثم دخل عليّ قال: أراك لا تموت في وجعك هذا. إن الله أنزل فبينَ ما لأخواتك وهو الثلثان، فكان جابر يقول: نَزَلَتْ هذه الآيةُ فِيَّ رواه النسائي وأبو داود.

وعن عمر رضي الله عنه: كيف يورث الكلالة؟ فأنزل الله الآية. أخرجه ابنُ مَردَويه وابنُ راهويه.

قوله تعالى: ﴿يَسْتَفْتُونَكَ﴾ يعني يستفتونك في كيفية توريث تركة الميت الذي مات حال كونه (كلالة) أي لم يكن له والد ولا ولد كما سبق تفسيرها سابقاً فافتهم أنه ﴿إِنِ ٱمْرُؤٌا۟ هَلَكَ لَيْسَ لَهُۥ وَلَدٌ﴾ أي ولا والد، ﴿وَلَهُۥٓ أُخْتٌ﴾ واحدة ﴿فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ ۚ﴾ المتوفى الكلالة، وهذه هي الأخت لأبوين أو لأب لأنه تقرر أن الأخت للأم حكمها غير ذلك ﴿وَهُوَ يَرِثُهَآ إِن لَّمْ يَكُن لَّهَا وَلَدٌ ۚ﴾ أي والأخ للأبوين أو لأب يرثها أي يرث أختها المذكورة إن لم يكن لها ولد حاجب له، وأما إذا كان لها ولد ذكر فلا إرث للأخ حينئذ أو بنت أو بنات، فله ما بقي من فرضها أو فرضهما ﴿فَإِن كَانَتَا ٱثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا ٱلثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ ۚ﴾ وكذا إن كانت الأخوات أكثر من ثنتين ﴿وَإِن كَانُوٓا۟ إِخْوَةً رِّجَالًا وَنِسَآءً فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۗ﴾ على قاعدة اجتماع العصبات المتساوية الدرجة من الذكور والإناث، ﴿يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّوا۟ ۗ﴾ أي يبين الله لكم الأحكام كراهة أن تضلوا عن طريق الحق ومعرفة الأصول الإسلامية ﴿وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌۢ﴾ ويعلم أحكامه جميع المسلمين، ويستفيد منها من كان له قلب سليم. نسأل الله تعالى سلامة قلوبنا وستر عيوبنا وكشف كروبنا وغفران ذنوبنا بمنه.

فرغت من تفسير سورة النساء ضحوة الخميس الخامس والعشرين من شهر ربيع الأول سنة ١٤٠٤ ألف وأربعمائة وأربع هجرية. على هاجرها الصلاة والسلام.

❀ ❀ ❀

سورة المائدة

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

مدنية وهي مائة وثلاث وعشرون آية. إلا قوله: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ فإنها نزلت بمكة. وتعقب هذا بأن العرف جرى على أن كل ما نزل بعد الهجرة يسمى مدنياً، وإن نزل بمكة. فعلى هذا جميع آيات السورة مدنية.

وأخرج أبو عُبيد عن محمد القرظي قال: نزلت سورة المائدة على رسول الله ﷺ في حجة الوداع فيما بين مكة والمدينة وهو على ناقته، فانصدعت كتفها، فنزل عنها رسول الله ﷺ وذلك من ثقل الوحي.

وأخرج أبو عبيد عن ضمر بن حبيب وعطية بن قيس قالا: قال رسول الله ﷺ: **«المائدة من آخر القرآن تنزيلاً فَاحِلّوا حلالها وحَرّموا حرامها»**.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَوْفُوا۟ بِٱلْعُقُودِ ۚ أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلْأَنْعَٰمِ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّى ٱلصَّيْدِ وَأَنتُمْ حُرُمٌ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ ﴿١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَوْفُوا۟ بِٱلْعُقُودِ ۚ﴾ الوفاء حفظ ما يقتضيه العقد والقيام بموجبه. ويقال: وفى من الباب الثاني، ووفّى من باب التفعيل، وأَوْفى من باب الإفعال. والكل بمعنى واحد غير أن المزيد مبالغة ليست في المجرد.

والعقود جمع العقد وأصله الربط محكماً، ثم تجوز به عن العهد الموثق. والفرق بين العقد والعهد أن العقد لا يكون إلا بين اثنين. والعهد قد ينفرد به واحد. واختلفوا في المراد بالعقود على أقوال:

أحدها: أن المراد بها العهود التي أخذها الله على عباده بالإيمان به، وطاعته فيما أحلّ لهم أو حرم عليهم.

وثانيها: العقود التي يَتعاقَدُها الناس بينهم كعقد البيع والنكاح ونحوهما.

الثالث: العهود التي كانت تؤخذ في الجاهلية على النصرة والمؤازرة على مَنْ ظُلم.

الرابع: العهود التي أخذها الله تعالى على أهل الكتاب بالعمل بما في التوراة والإنجيل مما يقتضي التصديق بالرسول محمد ﷺ وبما جاء به.

وقوله تعالى: ﴿أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلْأَنْعَٰمِ﴾ تفصيل للعقود التي أمر بالوفاء بها. والبهيمة: من ذوات الأرواح ما لا عقل له مطلقاً. وقال كثيرون: البهيمة لكل ذي أربع من دواب البر والبحر. وسميت بهيمة لأنه أبهم أمرها على الخلق، وإضافتها إلى الأنعام للبيان. وهي الأزواج الثمانية المذكورة في سورة الأنعام. وقوله: ﴿إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ مجمل للجهل بمعناه قبل نزول بيانه. وقوله: ﴿غَيْرَ مُحِلِّي ٱلصَّيْدِ وَأَنتُمْ حُرُمٌ﴾ حال من الضمير في لكم على قول الأكثرين. والمعنى: أُحِلَّتْ لكم بَهيمةُ الأنعام لا مُحِلّينَ الصّيدَ في الإحرام يعني أحلت لكم بهيمة الأنعام من: المَعْز، والضّأن، والبَقَرة، والثور، والناقة، والجمل، وما ألحق بها قياساً مثلها. ولكِنْ لا تُحِلّوا الصيدَ في الإحرام. فإن كنتم غير مُحْرِمين فكلوا من بهيمة الأنعام وما ألحق بها. وإن كنتم مُحْرمين فكلوا منها ولا تتعرضوا للصيد. والمراد به صيد البر، لأن صيد البحر حلال للمحرم والحلالِ لقوله تعالى: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ ٱلْبَحْرِ وَطَعَامُهُۥ مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ﴾ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ﴾ يعني يفعل ما يريد ويحكم به حسبما تقتضيه الحكمة الإلهية.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُحِلُّوا۟ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ وَلَا ٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ وَلَا ٱلْهَدْىَ وَلَا ٱلْقَلَٰٓئِدَ وَلَآ ءَآمِّينَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّن رَّبِّهِمْ وَرِضْوَٰنًا ۚ وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَٱصْطَادُوا۟ ۚ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ أَن تَعْتَدُوا۟ ۘ وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٢﴾﴾.

عن عكرمة قال: قدم الحطم بن هندي البكري المدينة في عير له يحمل طعامه فباعه، ثم دخل على النبي ﷺ فبايعه وَأَسْلَمَ، فلما ولّى خارجاً نظر إليه فقال لمن عنده: لقد دخل على وجه فاجر، وولّى بقفا غادر! فلما قدم اليمامة ارتد عن الإسلام وخرج في عير له يحمل الطعام في ذي القعدة يريد مكة، فلما سمع به

أصحاب رسول الله ﷺ تهيأ للخروج إليه نفر من المهاجرين والأنصار ليقتلوه في عيره. فأنزل الله الآية. فانتهى القوم. رواه ابن جرير.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ لما بين سبحانه حرمة إحلال الحرم الذي هو من شعائر الحج عقب ذلك ببيان إحلال سائر الشعائر، وهي جمع شعَرْة لِما أشعر أي جعل شعاراً وعلامة للنسك من: مواقف الحج. ومرامي الجمار، والطواف، والسعي، والأفعال التي هي علامات الحاج يعرف بها من: الإحرام، والطواف، والسعي، والحلق، والنحر. وإضافتها إلى الله تعالى لتشريفها وتهويل الخطب في إحلالها ﴿وَلَا ٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ﴾ أي ولا تحلوا الشهر الحرام، ولا تقاتلوا أعداءكم فيه، إلا إذا كان القتال لدفع الصائل. والمراد به رجب، وقيل: ذو القعدة، وقيل: الأشهر الأربعة الحرم: ذو القعدة، وذو الحجة، ومحرم، ورجب. وإنما ذكر مفرداً لإرادة الجنس ﴿وَلَا ٱلْهَدْىَ﴾ أي ولا تتعرضوا للهدي بالغصب أو المنع من وصوله إلي محله. والمراد به ما يهدى إلى الكعبة من إبل أو بقر أو شاء ﴿وَلَا ٱلْقَلَٰٓئِدَ﴾ أي ولا تتعرضوا لذوات القلائد والقلائد: جمع قلادة بمعنى ما يقلد به الهَدْيُ من نعل ونحوه ليعلم أنه هدي فلا يتعرض له ﴿وَلَآ ءَآمِّينَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ﴾: أي ولا تحلوا أناساً قاصدين البيت الحرام بإحصارهم ومنعهم عن السير إليه بأي وجه من الوجوه المُحَرَّمَةِ حال كون أولئك الناس ﴿يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّن رَّبِّهِمْ وَرِضْوَٰنًا﴾ ﴿وَإِذَا حَلَلْتُمْ﴾ أي من الإحرام ﴿فَٱصْطَادُواْ﴾ والأمر للإباحة أي وإذا خلصتم من المناسك فلا جناح عليكم في الاصطياد لزوال الإحرام المانع منه ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ﴾ أي ولا يحملنكم ﴿شَنَـَٔانُ قَوْمٍ﴾ أي عداوتكم معهم من ﴿أَن صَدُّوكُمْ﴾ ومَنعوكم ﴿عَنِ﴾ زيارة ﴿ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ وطوافه على أن تعتدوا عليهم ﴿وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ﴾ بالعفو عن الأعداء والإغضاء وغمض العين وصرف النظر عنهم ﴿وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ﴾ هذا النهي يعم النهي عن كل ما هو من مقولة الظلم والمعاصي ويندرج فيه النهي عن التعاون على الاعتداء والانتقام. وروي عن ابن عباس رضي الله عنهما تفسير الإثم بترك ما أمرهم الله به وارتكاب ما نهاهم عنه. والعدوان بمجاوزة ما حدّه الله لعباده في دينهم وفرضه عليهم في أنفسهم ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ في جميع الأمور ﴿إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ لمن لا يتقيه فيه.

﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحْمُ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ وَٱلْمُنْخَنِقَةُ وَٱلْمَوْقُوذَةُ وَٱلْمُتَرَدِّيَةُ وَٱلنَّطِيحَةُ وَمَآ أَكَلَ ٱلسَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ

عَلَى ٱلنُّصُبِ وَأَن تَسْتَقْسِمُوا۟ بِٱلْأَزْلَٰمِ ۚ ذَٰلِكُمْ فِسْقٌ ۗ ٱلْيَوْمَ يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِ ۚ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ۚ فَمَنِ ٱضْطُرَّ فِى مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ ۙ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ﴾ الآية شروع في بيان المحرمات التي استثناها قبل بقوله ﴿إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ فقال: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ﴾ وهي ما فارقه الروحُ حَتْفَ أنفِهِ من غير سبب خارج ﴿وَٱلدَّمُ﴾ والمراد به: الدم المسفوح منه، وكان أهل الجاهلية يجعلونه في المبَاعِرِ وَيَشْرونه، وهذا القيد احتراز عن الدم غير المسفوح كالكبد والطحال فمباح. ﴿وَلَحْمُ ٱلْخِنزِيرِ﴾ يعني وحرّم عليكم أكل لحم الخنزير، ﴿وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ﴾ يعني وحرم عليكم أكل لحم كل حيوان رفع الصوت لغير الله تعالى عند ذبحه. والمراد بالإهلال هنا: ذكر ما يذبح له كاللّات والعزّى. ﴿وَٱلْمُنْخَنِقَةُ﴾ أي ولحم الحيوانات المنخنقة التي ماتت بالخنق بأي وجه كان؛ سواء اختنق بحبل الصياد، أو بوقوع رقبتها بين شعبتين من شجرة، أو نحوها. وكان أهل الجاهلية يخنقون البهيمة ويأكلون لحومها. ﴿وَٱلْمَوْقُوذَةُ﴾ التي تضرب على رأسها أو غيره من أعضائها حتى تموت. ﴿وَٱلْمُتَرَدِّيَةُ﴾ أي التي تقع من مكان عال أو في حفرة أو بئر حتى تموت. ﴿وَٱلنَّطِيحَةُ﴾ وهي التي ينطحها غيرها فتموت. ﴿وَمَآ أَكَلَ ٱلسَّبُعُ﴾ أي وحرم لحم حيوان أكل منه السبع حتى مات ﴿إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ﴾ أي إلا ما أدركتموه وله حياة مستقرة فذبحتموه. وتعرف بانفجار دمه بقوة، أو باضطرابه عند الذبح كذلك. ﴿وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ﴾ يعني وحرم عليكم أكل لحم حيوان ذبح على النصب أي على الحجارة التي كانت حول الكعبة البالغ عددها ثلاثمائة وستين حجراً، وكان المشركون يذبحون عليها تقرباً إلى الأصنام. والنصب عل وزن عنق جمع نصاب كحمر وحمار. وقيل إنه مفرد الأنصاب كطنب وأطناب ﴿وَأَن تَسْتَقْسِمُوا۟ بِٱلْأَزْلَٰمِ﴾ أي وحرم عليكم أن تطلبوا علم ما قسم لكم بالأزلام كما تفعل الجاهلية. والأزلام جمع زلم كفرس بمعنى القدح. وكانت للعرب في الجاهلية ثلاثة أقداح مكتوب على أحدها: أمرني ربّي، وعلى الثاني نهاني ربّي، والثالث باق بلا كتابة. فإن خرج الأمر مضَوْا لحاجتهم، وإن خرج النهي تركوها، وإن خرج الأخير أجالوها ثانياً ﴿ذَٰلِكُمْ فِسْقٌ﴾ أي الاستقسام بالأزلام فسق وذنب

عظيم وخروج من طاعة الله تعالى، وذلك لأنهم إذا إرادوا ذلك أتوا بيت أصنامهم، وفعلوا ما فعلوا. وفي ذلك ابتعاد عن الله تعالى والتوكل عليه إلى الاعتماد على الأصنام وقبول ما خرج من الأزلام في بيوتها. وكذلك فيه افتراء على الله تعالى لأنه ينسب ظهور ذلك المكتوب إلى صدور أمر من الله أو نهي منه تعالى. ويجوز أن يكون ذلكم إلى جميع المحرمات يعني أن تعاطي هذه الأمور كلها فسق وخروج عن طاعة الله تعالى.

والمسلم يكتفي بأمر الله تعالى في إقدامه على المأمور به وبنهيه في الامتناع عن المنهي عنه، وقد تتطلب النفس في نحو هذه الأمور سبباً معقولاً. وقد قال العلماء: إن منشأ تحريم المطعومات المذكورة إما الاستقذار من الطبيعة السليمة أو الابتلاء بأمراض حسية أو نفسية من تناولها. أو ورود خلل على العقيدة الإسلامية منها فإن الإهلال بغير ذكر الله معناه الاعتماد على غير ذات الباري وتركه تعالى. وفي ذلك بلاء وأيّ بلاء فإن الإنسان مائل إلى الأطعمة اللذيذة، ومنها اللحوم فإذا ذكر اسم غير الله تعالى تشرب القلب ذلك الغير فيستدرج القلب إلى إيثار محبته على محبة غيره، وإذا ذكر اسم الله تعالى وحده عليه خرج عن تلك المحنة الاعتقادية سواء كان الذبح للوفاء بمقتضيات الطبيعة الإنسانية كالذبائح اليومية من جهة القصابين، أو تكريماً لضيف، أو إحياءً لذكرى الرسول ﷺ في شهري المولود والمعراج، أو استبشاراً بولادة ولد، أو بإبادة عدوّ لدود للإسلام... أو نحو ذلك فكله عمل مبارك واجب أو مندوب أو مباح. وليس في شيء منها شيء من الفساد.

﴿ٱلْيَوْمَ يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن دِينِكُمْ﴾ أي هذا الزمان الحاضر العرفي الذي نزلت فيه هذه الآية وهو عصر يوم الجمعة المصادف ليوم عرفة من سنة حجة الوداع العاشرة من الهجرة، أو يوم دخوله ﷺ مكة لثمانٍ بقين من رمضان سنة ثمان، وقيل تسع، يئس الذين كفروا وانقطع رجاؤهم من إبطال دينكم وإجلال دينهم ﴿فَلَا تَخْشَوْهُمْ﴾ أي فلا تخشوا أيها المسلمون من أولئك الكفار المشركين أن يظهروا عليكم ﴿وَٱخْشَوْنِ﴾ أن أنزل عليكم عقابي إن خالفتم أمري وارتكبتم المحرمات. ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ تشريعاً بإنزال الآيات التي تكون مبادىء للأحكام الاعتقادية والعملية وغيرها يؤخذ منها نصاً أو استنباطاً أو قياساً على المعلوم. أو أكملته بفتح أم القرى ودخول الناس في دين الله أفواجاً أفواجاً. ﴿وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى﴾ بعلمكم بالسيطرة الكاملة على مكة، وهدم منار الجاهلية، والنهي عن حج

المشركين، وطواف العريان ﴿وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾: أي اخترته من بين الأديان ديناً لكم تستمرون عليه عقيدة وعملاً قلباً وقالباً، وذلك هو الإسلام بالمعنى الخاص المفسر في قوله ﷺ «الإسلام أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، وتقيم الصلاة وتؤتي الزكاة وتصوم رمضان، وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلاً». لا الإسلام بالمعنى العام وهو الانقياد لله الثابت من لدن آدم إلى عهد الخاتم عليهم الصلاة والسلام، فإنه وإن كان قدراً مشتركاً بين الأنبياء والرسل كلهم إلا أنه ليس بمراد هنا، لأن الإسلام في دين سيدنا محمد ﷺ مقرون بأحكام عملية لم تكن في الأديان السابقة. ثم الجملة معطوفة على جملة اليوم أكملت لكم دينكم لا على جملة أكملت حتى لا تتقيد باليوم؛ لأن دين الإسلام كان مرضياً ومختاراً وسابقاً ولاحقاً لا في هذا اليوم فحسب، اللهم إلا أن يراد به مجموع ما شرع من الأحكام إلى يوم نزول الآية فالاختيار الوارد عليه لم يكن قبله لأن اختيار الخمسة غير اختيار الأربعة وهو ظاهر.

﴿فَمَنِ ٱضْطُرَّ فِى مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ﴾ يعني فمن عرض عليه الاضطرار في مَجاعة حال كونه غير مائل وغير منحرف لإثم بأن لا يأكل فوق ما يحتاج إليه، أو لا يكون متعدياً على آخر بأن يغصب منه ما يتقوت به أو لا يكون في سفر معصية ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ أي لا يؤاخذه بما تناوله من تلك المحرمات المذكورة قبلُ.

﴿يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَآ أُحِلَّ لَهُمْ ۖ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ ۙ وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ ٱلْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ ٱللَّهُ ۖ فَكُلُوا۟ مِمَّآ أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَٱذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهِ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٤﴾﴾.

عن أبي رافع قال: جاء جبريل إلى النبي ﷺ فاستأذن عليه فَأذِن له فَأبطأ فأخذ رداءه فخرج إليه وهو قائم بالباب، فقال: قَدْ أَذِنّا لك، قال: أَجَل، ولكنا لا ندخل بيتاً فيه صورةٌ ولا كلب. فنظروا فإذا في بعض بيوتهم جَرْوٌ. فأمر أبا رافع: لا تَدَعْ كلباً بالمدينة إلا قَتَلْتَه! فأتاه ناس فقالوا: يا رسول الله ماذا يحل لنا من هذه الأمة التي أمرتَ بقتلها؟ فنزلت الآية أخرجه الطبراني والحاكم والبيهقي.

وعن سعيد بن جبير أن عدي بن حاتم وزيد بن المهلهل الطائيين سألا رسول الله ﷺ فقالا: يا رسول الله إنا قوم نصيد الكلاب والبُزاةِ وإن كلاب آل ذريح تصيد

البقر والحمير والظباء، فمنه ما ندرك ذكاته، ومنه ما يقتل فلا ندرك ذكاته، وقد حرّم اللهُ الميتة فماذا يحلّ لنا منها؟ فنزلت هذه الآية رواه ابن أبي حاتم.

وفي رواية قال ﷺ لهم: «**يحل لكم ما علمتم من الجوارح مُكَلبين تعلمونهن مما علمكم الله فكلوا مما أمْسكنَ عليكم واذكروا اسم الله عليه ثم قال: ما أرسلتَ من كلب وذكرتَ اسم الله عليه فكل مما أمسك عليك. قلتُ: وإن قتل؟ قال: وإن قتل ما لم يأكل**».

قوله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَآ أُحِلَّ لَهُمْ﴾: شروع في بيان المحللات التي ذكر بعضها على وجه الإجمال بعد بيان المحرمات ﴿قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ﴾ يعني أحل لكم أكل لحم كل حيوان استطابته الطبائع السليمة، أي لم يستخبثه بقرينة قوله تعالى في سورة الأعراف: ﴿وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ﴾ [الأعراف: ١٥٧]. والمراد من الطبائع السليمة طبائع صنف من الإنسان لم يكونوا على البذخ والإسراف من سعة ذات اليد، ولا على تَخَشُّن وتَقَشُّفٍ من الفقر وضيق ذات اليد، حتى أكلوا كل ما دبّ وهب. أو المراد طبائع صنف من الإنسان معتدلين في ملاحظة المأكولات والمشروبات أو المراد من الطيبات ما لم يدل نص من الكتاب والسنة ولا إجماع ولا قياس جلي على حرمته.

والإنسان المسلم العاقل العالم إذا أدرك الطبائع السليمة فالحكم سهل عليه، وإلا فلينظر إلى أصناف المحرمات المذكورة في أول السورة، فيعلم أنه يحرم أكل كل حيوان ميتة وما شابهها، وكل حيوان سبع ضار، وطير عاد، وكل ذبيحة ذبحت للتقرب والتعبد إلى الأصنام فالعلة الجامعة ما أخل بالدين أو البدن من جهة من الجهات المذكورة، فيحرم أكل لحم كل حشرة، ودابة سامة، وكل حيوان يعيش على أكل القاذورات، وكل ذي ناب أو مخلب يصيد بهما، وما اشتبه فيه فالأصل الحل، والورع تركه. وتفصيل البحث في الفروع الفقهية المدونة.

﴿وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ ٱلْجَوَارِحِ﴾ أي وأحل لكم لحم صيد ما علمتموه على الإصطياد ﴿مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ ٱللَّهُ﴾ ومعنى مكلبين: معلمين إياه الاصطياد. فإن المكلب اسم فاعل من باب التفعيل بمعنى مؤدب الجوارح ومغريها بالصيد وتعلمونهن مما علمكم الله أي تدربونهن بطرق التأديب والتعليم الذي حصلتم عليها بإلهام من الله أو باكتساب عقلي حسب المعتاد بين الناس ﴿فَكُلُوا۟ مِمَّآ أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ﴾ أي فكلوا من لحوم الصيد الذي اصطادته إذا أمسكتها على صاحبها ولم تأكل منها. هذا ما عليه

جمهور الفقهاء. وقال بعضهم: لا يشترط ذلك في سباع الطير لأن تأديبهن إلى هذه الدرجة متعسر أو متعذر. وقال بعض: لا يشترط ذلك مطلقاً لأن مخالفة الجوارح لطبعها إلى هذه الدرجة نادرة ﴿وَٱذْكُرُواْ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهِ﴾ أي على إرسال ما علمتموه من الجوارح أو على إمساكها للصيد أي اذكروا اسم الله عند إمساكها. فكأنها سكينة وإمساكها له ذبح منكم للصيد ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ في رعاية الآداب المذكورة امتثالاً واجتناباً. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ أي إنه تعالى يؤاخذكم على جميع الأفعال.

﴿ٱلْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ ۖ وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ حِلٌّ لَّكُمْ ۖ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ ۖ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِىٓ أَخْدَانٍ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُۥ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٥﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ﴾ إعادة هذه الجملة للتأكيد والتوطئة لما بعده. وهذا الخطاب للمؤمنين لأن غيرهم مكلفين بفروع الشريعة ﴿وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ حِلٌّ لَّكُمْ﴾ يتناول الذبائح وغيرها، والمراد بالذين أوتوا الكتاب اليهود والنصارى. لكن في تحقيق كون الشخص من أهل الكتاب اختلاف وجهة النظر بين الأئمة المجتهدين. واستثنى الإمام علي رضي الله عنه نصارى بني تغلب، وقال: ليسوا على النصرانية، ولم يأخذوا منها إلا شرب الخمر. ولا يلحق بهم المجوس في ذلك وإن ألحقوا بهم في التقرير على الجزية، لقوله ﷺ: «**سُنّوا بهم سنة أهل الكتاب غير ناكحي نسائهم ولا آكلي ذبائحهم**». ﴿وَطَعَامُكُمْ﴾ أيها المؤمنون ﴿حِلٌّ لَّهُمْ﴾ فلا بأس عليكم أن تُطعِموهم وتبيعوه منهم، ولو حرم عليهم لم يجز ذلك ﴿وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ أي وأحلت لكم الحرائر العفائف من المؤمنات ﴿وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ أي وأحلت لكم الحرائر العفائف من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم من اليهود والنصارى، لا ممن لهم شبهة الكتاب كالمجوس ﴿إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾ أي مهورهنّ والتقييد بذلك لتأكيد وجوبها والترغب في تسليمها، وإلا فليس تسليمها شرطاً لصحة نكاحهن، كما أن ذكر المحصنات في الصورتين للترغيب في نكاحهن، وإلا فنكاح الفاسقات جائز. ﴿مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِىٓ أَخْدَانٍ﴾ أي حال كونكم أعِفّاء بالنكاح غير مجاهرين بالزنا ولا مُسرّين به. والخدن: الصديق يقع على الذكر والأنثى ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُۥ﴾ أي

ومن يكفر بما يتعلق به الإيمان وهو شرائع الإسلام وأحكامه الاعتقادية والعملية فَقَد حَبِطَ عَملُه أي فقد ضاع عمله الذي عمله واعتقد أنه قربة إلى الله تعالى ﴿وَهُوَ فِي ٱلْآخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ يعني من الهالكين.

واعلم أنه لا فرق بين المناكحة والذبيحة حلاً وحرمة، فحيث حلت إحداهما حلت الأخرى، وحيث لا فلا. وإذا علمت ذلك فاعلم أن الإمام الشافعي رضي الله عنه اشترط في حل ذبيحة الكتابي أن يكون خالصاً من علاقة غيره من المجوس ونحوه من المشركين. وأنه إذا كان من نسل إسرائيل أي يعقوب عليه السلام أن لا يعلم دخول أول آبائه في ذلك الدين بعد بعثة ناسخة كأن يدخل في دين اليهود أو النصارى بعد بعثة محمد ﷺ، بأن يعلم دخوله فيه قبلها أو كان الدخول وعدمه مشكوكاً فيه، وإن علم دخوله فيه بعد تحريفه أو بعد بعثة لا تنسخه، كبعثة بعض الرسل بين موسى وعيسى عليهما السلام وذلك لشرف نسبها إذ ذاك. وإذا كان من نسل غير إسرائيل فشرط حل ذبيحته أن يعلم دخول أول آبائه في ذلك الدين قبل بعثة تنسخه، ولو بعد تحريفه إن تجنبوا المحرف، بخلاف ما إذا علم دخوله فيه بعدها وبعد تحريفه، أو بعدها وقبل تحريفه أو بعدها ولم يتجنبوا المحرف أو شك في ذلك لسقوط فضيلته حينئذ. وهذه الشروط المذكورة في حل ذبائح أهل الكتاب معتبرة في حل نكاح الكتابية. فلا يحل أكل ذبائح أهل الكتاب عند الشافعي كما لا يجوز نكاحه لأن تحقق الشروط المذكورة منتف فيه.

ونقل عن تاج الدين السبكي القول بحل ذبيحة الكتابي الذي علم دخول أول أصولهم وشك: هل هو قبل نسخ أو تحريف أو بعدهما؟ ولكن الرملي ضعف قوله وردّه. وفي حاشية الجمل على شرح المنهج ما نصه: وهو وإن كان ضعيفاً عند الرملي فليس ضعيفاً الكلية، بل يجوز الإفتاء به، لأن السبكي لم ينفرد به، فقد أفتى به غيره من أئمة المذهب كالحافظ العسقلاني. وعبارته في شرحه على البخاري نصها: وقد استنبط شيخنا شيخ الإسلام البلقيني منه، أي من حديث هرقل أن كل من دان بدين أهل الكتاب كان في حكمهم في المناكحة والذبائح لأن هرقل هو وقومه ليسوا من بني إسرائيل بل ممن دخل في النصرانية بعد التبديل، وقد قال لهم النبي ﷺ: يا أهل الكتاب، فدل على أن لهم حكمهم خلافاً لمن خص ذلك بالإسرائيليين أو بمن علم أن سلفه دخل اليهودية أو النصرانية قبل التبديل. إنتهى.

وأما عند الإمام الأعظم فتحل ذبيحة الكتابي يهودياً أو نصرانياً عربياً أو

تغلبياً، لأن الشرط عنده قيام الملة، وكذا الصابئة لأنهم يقرون بعيسى عليه السلام ويدخل في النصارى الأفرنج والأرمن. وكل ذلك مشروط بالتسمية عند الذبح، ولو تركها عمداً حرمت ذبيحته بخلاف ما إذا تركها ناسياً فتؤكل الذبيحة عند نسيانه لها، وكذا تحل ذبيحة من ترك التسمية جاهلاً بأنّ التسمية شرط.

بقي الكلام في ذبيحة جاءت من بلد فيه الكتابي كثير والمسلم قليل وغيرهما من سائر الكفار أكثر أكثرية ساحقة. فمقتضى ما في رد المحتار على الدر المختار شرح تنوير الأبصار حل أكلها، ففيه على قول المصنف لا تحل ذبيحة غير كتابي ما نصه: وكذا الدروز كما صرح الحصني من الشافعية حتى قال: لا تحل القريشة المعمولة من ذبائحهم، وقواعدنا توافقه إذ ليس لهم كتاب منزل ولا يؤمنون بنبي مرسل، والكتابي من يؤمن بنبي ويقر بكتاب (رملي).

أقول وفي بلاد الدروز كثير من النصارى فإذا جيء بالقريشة أو الجبن من بلادهم لا يحكم بعدم الحل ما لم يعلم أنها معمولة بأنفحة ذبيحة دُرْزيّ، وإلا فقد تعمل بغير أنفحة، وقد يذبح الذبيحة نصراني. وسيأتي عن المصنف آخر كتاب الصيد أن العلم بكون الذابح أهلاً للزكاة ليس بشرط. وخلاصته: أنه يحرم أكل ذبيحة كل كافر لا يقر بكتاب منزل أو نبي مرسل، وأما الكتابي فيحرم عند الشافعي أكل ذبيحته إلا بالشروط المذكورة ولا تكاد تتحقق. نعم قال بحل أكل ذبيحته بعض الأئمة الشافعية كالسبكي والبلقيني وغيرهما، فمن أكلها فليقلد قول الأئمة القائلين بحل ذبائح الكتابيين. وأما الحنفية فيحل عندهم أكل ذبائح الكتابي بشرط التسمية. وإذا جهلنا أنهم سموا أو لا فالظاهر عندهم حل الأكل لأن العلم يكون الذابح أهلاً للزكاة عند الذبح ليس بشرط. وأما الذبح فهو إما اضطراري أو اختياري. أما الأول: فهو جَرْحٌ وطَعْنٌ وإنهارُ دَم في أيّ موضع وقع من البدن. وأما الثاني فهو ذبح بين الحلق واللّبّة أي من العقدة إلى مبدأ الصّدر وعروقه: الحُلقوم، والمريء، والوَدجان؛ فالحلقوم مجرى النفس، والمريء مجرى الطعام والشراب، والودجان عرقان عظيمان في جانبي قدام العنق بينهما الحلقوم والمريء. وعند الإمام الشافعي يجب قطع الحلقوم والمريء كليهما. وعند الإمام أبي حنيفة يجب قطع ثلاث منها أي الودجان والحلقوم أو المريء أو أحد الودجين وجميع الحلقوم والمريء. وعند أبي يوسف يشترط قطع الأولين أو أحد الودجين. وعند محمد يكفي قطع أكثر كل منها. ويكره الذبح من القفا والنخع أي إيصال الذبح إلى النخاع وهو عرق أبيض

في جوف عظم الرقبة، وهذا القطع جائز بأي قاطع يجري الدم ما عدا السن والظفر. ويجب مقارنة القطع لوجود الحياة المستقرة في الحيوان وعلامتها انفجار الدم أو الحركة الشديدة بعد نهاية القطع. ويحرم إتعاب الحيوان وإيلامه قبل الذبح الشرعي بضرب رأسه أو قطع قوائمه أو إحداها فإن ذلك تعذيب ليس له عذر مشروع، بخلاف شد القوائم بحيث لا يمكن معه قيامها ونفورها حتى يذبح ذبحاً **مشروعاً**.

وأما ذبح الحيوانات المتسلسلة المصفوفة بجهاز كهربائي بحيث تقطع الأوداج بحركة واحدة وسرعة خاطفة فهو جائز بشرط التسمية عند استعمال الجهاز وإسالة دمائها عنده.

ويجوز الاصطياد بالكلاب والطيور المعلّمة تعليماً كاملاً بحيث تصطاد بأمر أصحابها ولا تأكل من لحومها. وتجب التسمية عند إرسالها عند الإمام أبي حنيفة. وتسن عند الإمام الشافعي وتعتبر تلك الحيوانات كآلات الذبح.

وأما الاصطياد بالبندقية؛ فالعمل نفسه حرام لأن فيه تعذيباً للحيوان بالنار. وأما أكل لحم الحيوان فإن أدركه المصطاد بعد الرمي بلا فتور وقصور وذبحه في حال الحياة المستقرة بأن ينفجر دم الصيد أو به قوة حركة للأعضاء بعد الذبح وعنده فهو حلال، وإلا فحرام. وهذا هو التحقيق سلفاً وخلفاً. وما عدا هذا القول يعتبر باطلاً وعلى المسلم رعاية الأحكام الشرعية حتى الإمكان والله المعين.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغْسِلُواْ وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى ٱلْمَرَافِقِ وَٱمْسَحُواْ بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى ٱلْكَعْبَيْنِ ۚ وَإِن كُنتُمْ جُنُبًا فَٱطَّهَّرُواْ ۚ وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمْ تَجِدُواْ مَآءً فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدًا طَيِّبًا فَٱمْسَحُواْ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُم مِّنْهُ ۚ مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٦﴾ وَٱذْكُرُواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَٰقَهُ ٱلَّذِى وَاثَقَكُم بِهِۦٓ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٧﴾﴾.

عن أم المؤمنين عائشة ـ رضي الله تعالى عنها ـ قالت: سقطت قلادة لي

بالبيداء ونحن داخلون المدينة، فأناخ رسول الله ﷺ، ونزل فثنى رأسَه في حجري راقداً، فأقبل أبو بكر فلكزني لكزة شديدة، وقال: حَبَسْتِ الناس في قلادة؟! فَتَمنَّيْتُ الموتَ لمكان رسولِ اللهِ ﷺ مني، وقد أَوجَعَني. ثم إن النبي ﷺ استيقظ وقد حضرت الصبح فالتمسَ الماءَ فلم يوجد. فنزلت هذه الآية من أولها إلى آخرها. فقال أُسَيْدُ بن حُضَيْر: لقد بارك الله للناس فيكم يا آل أبي بكر، ما أنتم إلا بركة لهم. أخرجه البخاريّ.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ شروع في بيان بعض أحكام الدين بعد بيان بعض من أحكام الدنيا فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ﴾ أي إذا أردتم القيام لأداء الصلاة والاستعداد لها وكنتم محدثين ﴿فَٱغْسِلُواْ وُجُوهَكُمْ﴾ أي أسيلوا عليها الماء حيث يعم كلها من منابت شعر الرأس إلى منتهى اللّحيين. ومن وتد الأذن إلى وتدها الآخر بما فيها من الشعر والبشرة مع مراعاة المعاطف وأطراف العيون وما أقبل على الشوارب من الأنف. وإذا علمتم أن الماء لم يصل إليها لدرن أو دسم أو نحوهما فادلكوها ليتحقق الغسل ﴿وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى ٱلْمَرَافِقِ﴾: أي واغسلوا أيديكم من رؤوس الأصابع وما بينها والكف والساعد إلى المنتهى مع المرافق لتناول اليد لهما ولاتباع الرسول ﷺ في غسلها، ومن اليدين ما تحت الأظفار فيجب إخراج الأوساخ عنه حتى يصل الماء إليه ﴿وَٱمْسَحُواْ بِرُءُوسِكُمْ﴾ قالوا: الباء مزيدة لأن المسح متعد بنفسه، أو أدخلت على المفعول بتضمين معنى الإلصاق، وإلصاق المسح بالرأس يحتمل مسح البعض والكل ولا دلالة على أحدهما فحملت الباء على معنى التبعيض لتيقنه. وقيل: إن الباء تفيد التبعيض كما نقله ابن مالك سواء دخلت على آلة المسح نحو مَسَحْت وجهي بالمنديل، أو على المحل نحو مسحت برأس اليتيم، وعليه الإمام الشافعي رضي الله عنه حيث قال في الأم: إذا مسح الرّجل بأيّ رأسه شاء إن كان لا شعر عليه وبأي شعر رأسه شاء بأصبع واحدة أو بعض أصبع أو بطن كفه، أو أمر من يمسح له أجزأه ذلك. إنتهى. وبيّن فيه أن أظهر معنى الآية أن من مسح من رأسه شيئاً فقد مَسَح برأسه وأن مقابل الأظهر مسح الرأس كله. ولكن دلت السنة على أنه غير مراد فتعين الأول وذكر من السنة حديث المغيرة في المسح على الناصية والعمامة. ومذهب الإمام أبي حنيفة رضي الله عنه على إرادة البعض لكنه أوجب أن يكون البعض ربع الرأس لأن المسح إنما يكون باليد وهي تستوعب مقدار ربع الرأس في الغالب فوجب تعينه. وذهب

مالك إلى وجوب مسح كله وهو إحدى الروايتين عن أحمد ﷺ. وقيل: إن منشأ ما قاله هو قوله بزيادة الباء في قوله تعالى برؤوسكم، وقوله تعالى وامسحوا رؤوسكم ظاهره استيعاب جميع الرأس بالمسح، والأذنان من الرأس عند مالك وأحمد، فيجب مسحهما أيضاً.

﴿وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى ٱلْكَعْبَيْنِ﴾ قرأ نافع وابن عامر وحفص والكسائي ويعقوب وأرجلكم بالنصب أي أغسلوا أرجلكم إلى الكعبين وهما العظمان الناتئان عند مفصل الساق من الجانبين. وقرأها ابن كثير وحمزة وأبو عمرو وعاصم بالجر. والظاهر أنه عطف على الرأس، أي وامسحوا بأرجلكم إلى الكعبين. ومن هنا اختلف المسلمون في غسل الرجلين ومسحهما، فالجمهور على أن الواجب هو الغسل وحده، والإمامية أنه المسح. وقال داود بن علي والناصر للحق الزيدية يجب الجمع بينهما. أما القائلون بالجمع فأرادوا العمل بالقراءتين معاً للاحتياط ولأنه المقدم في التعارض إذا أمكن، وأما القائلون بالمسح فقد أخذوا بقراءة الجر وأرجعوا قراءة النصب إليها. وذكر الرازي عن القفال أن هذا قول ابن عباس وأنس بن مالك وعكرمة والشعبي وأبي جعفر محمد بن علي الباقر.

وقال الحافظ ابن حجر في فتح الباري عند ذكر مذهب الجمهور: ولم يثبت عن أحد من الصحابة خلاف هذا، إلا عن علي وابن عباس وأنس، وقد ثبت عنهم الرجوع عن ذلك. وأما الجمهور فأخذوا بقراءة النصب وأرجعوا قراءة الجر إليها وأيدوا ذلك بالسنة الصحيحة وإجماع الصحابة. ويزاد على ذلك أنه هو المنطبق على حكمة الطهارة. وادعى الطحاوي وابن حزم أن المسح منسوخ.

وعمدة الجمهور في هذا الباب عمل الصدر الأول وما يؤيده من الأحاديث القولية، وأصحها حديث ابن عمر في الصحيحين قال: تخلف عنا رسول الله في سفرة فأدركنا وقد أرهقنا العصر فجعلنا نتوضأ ونمسح على أرجلنا. فنادى بأعلى صوته: «**ويل للأعقاب من النار**» مرتين أو ثلاثاً.

وقال بعض العلماء: المراد بقراءة الجر المسح. ولكن النبي ﷺ بين أن ذلك المسح لا يكون إلا على الخف، وعليه فالآية تشير إلى المسح على الخف في قراءة الخفض والمسح على الخفين إذا لبسهما طاهراً متواتر عن رسول الله ﷺ لم يخالف فيه إلا من لا عبرة به. والقول بنسخه بآية المائدة يبطل بحديث جرير أنه بال ثم توضأ ومسح على خفيه فقيل له: تفعل هكذا؟ قال: نعم رأيت رسول

الله ﷺ بال ثم توضأ ومسح على خفيه. قال إبراهيم: فكان يعجبهم هذا الحديث لأن إسلام جرير كان بعد نزول المائدة. متفق عليه. ويوضح عدم النسخ أن آية المائدة نزلت في غزوة المريسيع، ولا شك أن إسلام جرير بعد ذلك مع أن المغيرة بن شعبة روى المسح على الخفين عن رسول الله في غزوة تبوك وهي آخر مغازيه ﷺ.

وأجمع العلماء على جواز المسح على الخف الذي هو من الجلود واختلفوا في ما كان من غير الجلد إذا كان صفيقاً ساتراً لمَحَلّ الفرض، فقال مالك وأصحابهُ: لا يمسح على شيء غير الجلد، فاشترطوا في المسح أن يكون الممسوح خفاً من جلود أو جورباً مجلداً ظاهره وباطنه، يعنون ما فوق القدم وما تحتها لا باطنه الذي يلي القدم. واحتجوا بأن المسح على الخف رخصة، وأن الرخص لا تتعدى محلها، وقالوا إن النبي ﷺ لم يمسح على غير الجلد، فلا يجوز تعديه إلى غيره وهذا مبني على شطر قاعدة أصولية مختلف فيها وهي: هل يلحق بالرخص ما في معناها أو يقصر عليها ولا تتعدى محلها؟ وجمهور العلماء، منهم الشافعي وأبو حنيفة وأحمد وأصحابهم، على عدم اشتراط الجلد لأن سبب الترخيص الحاجة إلى ذلك، وهي موجودة في المسح على غير الجلد، ولما جاء عن النبي ﷺ من أنه مسح على الجوربين والموقين. وقال في المهذب: وإن لبس جورباً جاز المسح عليه بشرطين: أحدهما أن يكون صفيقاً لا يشف. والثاني: أن يكون مُنعّلاً فإن اختل أحد الشرطين لم يجز المسح عليه إنتهى. يعني أن الثابت عن الإمام الشافعي رضي الله عنه اعتبار الشرطين في الجورب، وما ورد من الآثار في المسح المطلق فمحمول على المسح على الخف من الجلود أو اللبود أو الجورب المنعل القابل لمتابعة المشي عليه.

وخلاصة الخلاصة: إن غسل الرجلين المكشوفتين، ومسح المستورتين، هو الثابت بالسنة المتواترة المبينة للقرآن والموافق لحكمة هذه الطهارة، ولا تعارض بين القراءتين، ومن سرى إليه شيء من قراءة الجر في الصدر الأول رجع عنه لبيان النبي ﷺ وهذا هو الطريق الأسلم.

وأما وجوب النية في الوضوء فاختلف فيه الفقهاء فقال الحنفية: ليس بواجب لأن ظاهر الآية لا يقتضيه. والشافعي ذهب إلى وجوبه فقال بعض الشافعية مستدلاً على وجوبه: إن معنى الآية: إذا أردتم القيام للصلاة وأنتم محدثون والغسل وقع

جزاء لذلك والجزاء مسبب عن الشرط فيفيد وجوب قصد الغسل لإرادة الصلاة، ويكون الجزاء وفق الشرط في القصد. وقال آخرون: وجه الاقتضاء أن الوضوء مأمور به فيها وهو ظاهر، وكل مأمور به يجب أن يكون عبادة وإلا لما أمر به، وكل عبادة لا تصلح بدون النية لآية: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ والإخلاص لا يحصل إلا بالنية الصافية. ولقوله ﷺ: «**إنما الأعمال بالنيات**» الحديث. وأما وجوب الترتيب فيه فلأن الفاء في قوله تعالى: ﴿فَٱغۡسِلُواْ وُجُوهَكُمۡ﴾ للتعقيب، فيفيد وجوب تعقيب إرادة القيام إلى الصلاة بغسل الوجه، فيلزم من هذا وجوب الترتيب بين الوجه وغيره، فيلزم في الكل لعدم القائل بالفرق. وقالت الحنفية: لا يجب الترتيب لأن المأمور به بعد إرادة القيام للصلاة عدة أمور عطف بعضها على بعض بالواو وهي لمطلق الجمع. ويعارض بأنه إذا كان غسل الوجه وهو غسل الأيدي واجباً حسب توالي الفقرات فيكون المسح بعد غسل الأيدي وغسل الرجلين بعد مسح الرأس واجباً. وقد يقال: إن الدليل على الوجوب عمل الرسول بالآية، وإذا كان عمله على ذلك الترتيب بياناً لأداء الواجب كان الترتيب واجباً والله أعلم. وليس المدار على وجود الواو واقتضائه الجمع المطلق أو المرتب. على أنه لو لم يكن ذلك الترتيب كان يعمل ﷺ بخلافه ولو مرة واحدة بياناً للجواز، ولم يقع ذلك.

هذا ما ترتب على إرادة القيام للصلاة مع وجود الحدث الأصغر وأما ما يترتب على إرادة القيام لها مع الحدث الأكبر فهو ما أداه بقوله: ﴿وَإِن كُنتُمۡ جُنُبٗا فَٱطَّهَّرُواْ﴾ أي وإن كنتم عند إرادة القيام لها مجنبين فاطهروا أي بالغسل كما بينه الشارع. ثم شرع في بيان حكم من عرض عليه الحدث الأصغر أو الأكبر وكان مريضاً لا يقدر على استعمال الماء، أو مسافراً لا يجده، أو جاءه أحد أسباب الحدث ولا ماء عنده، فقال: ﴿وَإِن كُنتُم مَّرۡضَىٰٓ﴾ أي مرضاً تخافون به الأذى الشديد من استعمال الماء ﴿أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٍ﴾ ولم تجدوا الماء، أو لم تقدروا على استعماله لما مر ﴿أَوۡ جَآءَ أَحَدٞ مِّنكُم مِّنَ ٱلۡغَآئِطِ﴾ أي من المحل الذي تقضى فيه الحاجة، أو كناية عن قضائها ﴿أَوۡ لَٰمَسۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾ أي لمستموها أو جامعتموها ﴿فَلَمۡ تَجِدُواْ مَآءٗ﴾ لرفع الحدث الأصغر أو الأكبر ﴿فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدٗا طَيِّبٗا﴾ أي فاقصدوا نقل تراب طيب أي طاهر غير مخلوط بالنجس وطهوراً بأن لم يستعمل قبل ذلك في إباحة ما يحتاج إليه ﴿فَٱمۡسَحُواْ بِوُجُوهِكُمۡ﴾ كلها ﴿وَأَيۡدِيكُم مِّنۡهُۚ﴾ أي من هذا الصعيد الطيب، وانووا به إباحة الصلاة أو غيرها، واكتفوا بذلك عن رفع

الحدث الأصغر أو الأكبر بالماء ﴿مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ﴾، يعني ما يريد الله تعالى بتشريع الوضوء لرفع الحدث الأصغر، والاغتسال لرفع الحدث الأكبر وبالتيمم عند وجود الموجب ليجعل عليكم من ضيق في الامتثال وتعب في الأفعال ﴿وَلَٰكِن يُرِيدُ﴾ بذلك ﴿لِيُطَهِّرَكُمْ﴾ وينظفكم بالوضوء والغسل من درن الأوساخ ودنس الذنوب، ولا سيما إذا كان هناك موجب للتيمم فإن في استعمال التراب في الوجه واليدين لمرضاة الله تعالى درجات وبركات. فقد أخرج مالك ومسلم وابن جرير عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «إذا توضأ العبد المسلم فغسل وجهه خرج من وجهه كل خطيئة نظر إليها بعينيه مع الماء أو مع آخر قطر الماء، فإذا غسل يديه وخرج من يديه كل خطيئة بطشتها يداه مع الماء أو مع آخر قطر الماء، فإذا غسل رجليه خرجت كل خطيئة مشتها رِجلاه مع الماء أو مع آخر قطر الماء حتى يخرج نقياً من الذنوب» فإذا كان هذا جزاء للوضوء فكيف يكون جزاء الاغتسال والتعب في غسل جميع البدن؟ أو كيف يكون الجزاء عند تمريغ الوجه واليدين بالتراب لامتثال أمر ذي الجلال؟ ﴿وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ﴾ يعني وليتم بتشريع ما هو مطهر لأبدانكم من الأوساخ ولقلوبكم من سواد المعاصي نعمته عليكم بإلحاق رخصة التيمم بعزيمة الوضوء والغسل ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ هذه النعم الجسام ليزيدكم الكرم والرحمة والإنعام. ﴿وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ بإخراجكم من ظلمات الكفر إلى أنوار الإسلام ﴿وَمِيثَٰقَهُ ٱلَّذِى وَاثَقَكُم بِهِۦٓ﴾ أي عهده الذي أخذه عليكم وربطكم به في ﴿إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ حين بايعكم رسول الله ﷺ على السمع والطاعة في العسر واليسر والمنشط والمكره ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ في إهمال العهد ونسيان النعم التي لا تحصى، وترك الشكر عليه ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ أي بالخفيات الموجودة فيها فضلاً عن الجليات.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ۚ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٩﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٠﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ مفاده يا أيها الذين آمنوا حق الإيمان بالله

ورسوله ﴿كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ﴾ كونوا قائمين بالعدل ورعايته في أقصى ما يمكن لكم لأجل مرضاة الله تعالى الأمر برعايته، ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟﴾ يعني ولا يحملنكم شدة بغضكم وكراهيتكم لقوم من المشركين على أن لا تراعُوا العدلَ معهم حتى لا تشهدوا في حقوقهم بالعدل أو ترتكبوا ما لا يحل من الأعمال كالمثلة وقتل الشيوخ والنساء والصبيان ونقض العهد ﴿ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ أي اعدلوا لأصدقائكم وأعدائكم فإن العدل أقرب وأكثر مناسبة للتقوى، وإيضاح الجملة أن التقوى عبارة عن اتقاء الشرك ليكون صاحبها مؤمناً، واتقاء الكبائر ليكون صاحبها عادلاً، واتقاء الدنيا وملابساتها ليكون صاحبها من الواصلين إلى المستوى الرفيع بين المؤمنين، ولكل طاعة مناسبة وقرب من حقيقة التقوى، ولكن أقربها إليها وأنسبها بها هو العدل في الأمور والاتصاف به، فهو أقرب الطاعات إليها، وكأنه من الجزء الأخير عن علل التقوى. ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ أي اتقوا مخالفة أمره ونهيه ﴿إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ ولا تفوتونه فيجازيكم بما تستحقونه. وفي هذا وعد ووعيد للمطيعين والعاصين.

﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ يعني وعد الله الذين آمنوا حق الإيمان بالله تعالى وملائكته وكتبه ورسله وباليوم الآخر وبالقدر خيره وشره، وأظهروا إيمانهم بالأعمال الصالحات من الواجبات والمندوبات، ومارس فيها حتى حصلت له ملكة التقوى ﴿لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ أي بأن لهم مغفرة من الله عما صدر منهم مما يعد ذنباً بالنسبة إليهم وأجر عظيم، في الآخرة من الجنان والرضوان والنظر إلى وجه الكريم المنان ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ بما يجب الإيمان به ﴿وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ﴾ القرآنية ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ﴾ وملابسو النار الشديدة الإلتهاب.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَن يَبْسُطُوٓا۟ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾﴾.

عن عكرمة أن النبي ﷺ خرج ومعه أبو بكر وعمر وعثمان وعلي وطلحة وعبد الرحمن بن عوف حتى دخلوا على كعب بن الأشرف ويهود من بني النضير يستعينهم في عقل أصابه. فقالوا: نعم اجلس حتى نطعمك ونعطيك الذي تسألنا. فجلس فخلا بعضهم ببعض فقال حيي ابن أخطب لأصحابه: لا ترونه أقرب منه

الآن، اطرحوا عليه حجارة فاقتلوه فنستريح منه! ولا ترون شرا أبداً. فجاؤوا إلى رحى عظيمة ليطرحوها عليه، فأمسك الله عنها أيديهم حتى جاء جبريل فأقامه من ثمة فأنزل الله الآية. رواه ابن جرير وابن أبي حاتم.

وعن جابر بن عبد الله: أن رجلاً من محارب يقال له: غورث بن الحارث قال لقومه: أقتل لكم محمداً، فأقبل إلى رسول الله ﷺ وهو جالس وسيفه في حجره فقال: يا محمد أنظر إلى سيفك هذا؟ قال: نعم. فأخذه فاستلّه وجعل يهزّه ويهمّ به فيكبته الله تعالى. فقال: يا محمد أما تخافني؟ قال: لا. قال: أما تخافني والسيف في يدي؟ فقال: لا ويمنعني الله منك. ثم أغمد السيف ورده إلى رسول الله ﷺ. فأنزل الله الآية. رواه أبو نعيم في دلائل النبوة.

وأخرج مسلم وغيره من حديث جابر أن المشركين رأوا أن رسول الله ﷺ وأصحابه رضي الله عنهم بعُسْفان قاموا إلى الظهر معاً، فلما صلوا ندموا إلّا كانوا أكبّوا عليهم وهموا أن يوقعوا بهم إذا قاموا إلى صلاة العصر، فرد الله تعالى كيدهم بأن أنزل الله صلاة الخوف.

وقيل: إشارة إلى ما أخرجه أبو نعيم في الدلائل من طريق عطاء والضحاك عن ابن عباس ـ رضي الله تعالى عنهما ـ أن عمرو بن أمية الضمري حيث انصرف من بئر معونة لقي رجلين كلابيين معهما أمان من رسول الله ﷺ فقتلهما ولم يعلم أن معهما أماناً فودّاهما رسول الله ﷺ ومضى إلى بني النضير ومعه أبو بكر ـ رضي الله تعالى عنه ـ وعمر وعلي فتلقوه فقالوا: مرحبا يا أبا القاسم لماذا جئت؟ قال: رجل من أصحابي قتل رجلين من كلاب معهما أمان مني طلب مني ديتهما، فأريد أن تعينوني. قالوا: نعم: أقعد حتى نجمع لك، فقعد تحت الحصن وأبو بكر وعمر وعلي. وقد تآمر بنو النضير أن يطرحوا عليه ﷺ حجراً؛ فجاء جبريل عليه السلام فأخبره فقام وقام من معه.

وقيل: إشارة إلى ما أخرجه غير واحد من حديث جابر أن النبي ﷺ نزل منزلاً فتفرق الناس في العضاة يستظلون تحتها فعلق النبي ﷺ سلاحه بشجرة فجاء أعرابي إلى سيفه فأخذه فسلّه، ثم أقبل على النبي ﷺ، فقال: من يمنعك مني؟ قال: الله تعالى. قاله الأعرابي مرتين أو ثلاثاً، والنبي ﷺ في كل ذلك يقول: الله تعالى، فشام الأعرابي السيف (أي غَمدهُ واستلّه، من الأضداد) فدعا النبي ﷺ أصحابه فَأخبرَهم بصنيع الأعرابي، وهو جالس إلى جنبه لم يعاقبه. ولا يخفى أن

سبب النزول يجوز تعدده. وأن القوم قد يطلق على الواحد كالناس في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ﴾.

ومعنى الآية: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ﴾ يعني قوم من اليهود أو بعض الناس ﴿أَن يَبْسُطُوٓاْ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ﴾ بالإهلاك والقتل، ﴿فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾.

﴿وَلَقَدْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ ٱثْنَىْ عَشَرَ نَقِيبًا ۖ وَقَالَ ٱللَّهُ إِنِّى مَعَكُمْ ۖ لَئِنْ أَقَمْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَيْتُمُ ٱلزَّكَوٰةَ وَءَامَنتُم بِرُسُلِى وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَّأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ فَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿١٢﴾ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً ۖ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَنَسُواْ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِۦ ۚ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَآئِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱصْفَحْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾: كلام مستأنف لبيان بعض ما صدر عن بني إسرائيل المفيدة للانتباه والحذر منهم، لأنهم كانوا ولم يزالوا على نقض العهود وتعدي الحدود. فيقول تعالى بالتأكيد: ﴿وَلَقَدْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ على لسان رسلهم ﴿وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ ٱثْنَىْ عَشَرَ نَقِيبًا﴾ للإرسال إلى حدود أرض العدو، والتفتيش عن قوتهم وشوكتهم، وكان كل نقيب من سبط، ﴿وَقَالَ ٱللَّهُ﴾ تعالى لبني إسرائيل ﴿إِنِّى مَعَكُمْ﴾ بالعلم بالنيات والأعمال في الأحوال ﴿لَئِنْ أَقَمْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ المفروضة عليكم ﴿وَءَاتَيْتُمُ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ لفقرائكم ﴿وَءَامَنتُم بِرُسُلِى وَعَزَّرْتُمُوهُمْ﴾ أي نصرتموهم وقويتموهم في تبليغ ما أمروا بتبليغه، وجهاد أعدائكم ﴿وَأَقْرَضْتُمُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ بالإنفاق في سبيل الخير من الجهاد وغيره ﴿لَّأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ فَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ﴾ أي بعد ذلك الشرط المعلق به الوعد بإدخال الجنات ﴿فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾ فقد تاه وترك وسط الطريق.

﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ﴾ أي بسبب نقضهم الميثاق المذكور لا لسبب شيء

آخر ﴿لَعَنَّٰهُمْ﴾ أي طردناهم عن رحمتنا عقوبة لهم ﴿وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً﴾ أي ياسبة غليظة تبعد عن قبول الحق بحيث ﴿يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ﴾ أي يبعدون الألفاظ عن معانيها المناسبة إلى غيرها مما لا يناسب الحق بتأويلات زائفة فاسدة، أو ينقلون بعض الحروف من الكلمات إلى غير محلها الأصلي بالتقديم والتأخير لتدل على معنى غير المعنى المقصود ﴿وَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟﴾ أي وأهملوا رِعايةَ قسم مما أُمِروا برعايته من التوراة حتى نسوه، أو حتى صاروا كأنهم نسوه ﴿وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَآئِنَةٍ مِّنْهُمْ﴾ أي لا تزال مطلعاً ومدركاً لبعض الخيانات بالنسبة إلى حفظ أمانة الكتاب السماوي والأحكام الإلهية ﴿إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ﴾ بَقَوا عَلَى الأمانة بلا خيانة ﴿فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱصْفَحْ﴾ عن أعمالهم ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ المتجاوزين عن السيئات.

﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّا نَصَٰرَىٰٓ أَخَذْنَا مِيثَٰقَهُمْ فَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ ٱللَّهُ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴿١٤﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّا نَصَٰرَىٰٓ﴾ شروع في بيان بعض قبائح النصارى بعد بيان قبائح اليهود، فقال: ﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ﴾ الآية يعني وأخذنا الميثاق من الذين قالوا إنا نصارى على يد رسولهم عيسى المسيح عليه السلام ﴿فَنَسُوا۟﴾ على أثر الميثاق ﴿حَظًّا﴾ أي نصيباً وافراً ﴿مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ﴾ في تضاعيف الميثاق، فأخذنا منهم الميثاق على توحيد الباري فجعلوه ثالث ثلاثة، وعلى نشر نعوت محمد المبشر به من جانب المسيح عليه السلام فكتموها وخالفوا أمره البيان وأمرناهم بتوحيد الصف وإطاعة الله تعالى فتفرقوا إلى اثنتين وسبعين فرقة، ﴿فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ﴾ لبعضهم مع بعض ﴿وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ ٱللَّهُ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ﴾ أي فسوف ينبئهم في الآخرة بما كانوا يصنعونه في الدنيا بتبعية أهوائهم ويجازون عليه، وتلك الفرق كالنسطورية والملكانية واليعقوبية وغيرهم كما في كتب الملل والنحل.

﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ ۗ قَدْ جَآءَكُم مِّنَ

﴿ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٦﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ خطاب مع الفريقين من اليهود والنصارى، ويقول ﴿قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا﴾ محمد ﷺ المنعوت في كتبكم بالنعوت الخاصة الممتازة المميزة، حال كونه ﴿يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ أي يشرح ويظهر عليكم كثيراً من الأحكام التي كنتم تخفونها عنه وعن سائر الناس كنعت النبي، وآية الرجم، وبشارة عيسى بأحمد عليه السلام ﴿وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ﴾ أي ويسامح ولا يظهر كثيراً مما كنتم تخفونه لعدم وجود داع إلى بيانه، فاستفيدوا منه. فإنه ﴿قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ﴾ عظيم وهو ـ محمد ـ ﷺ، وهو السراج الذي أضاء به العالم علوه وسفله ﴿وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ﴾ وهو القرآن الواضح الجلي الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، تنزيل من حكيم حميد ﴿يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ﴾ أي يهدي الله بهذا الكتاب المبين ﴿مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ﴾ أي من صرف إرادته في اكتساب مرضاته تعالى يهديه ﴿سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ﴾ أي إلى طرق توجب سلوكها لسالكها السلامة من كل مخافة يوم القيام، ﴿وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ ظلمات الجهالة والضلالة وأهواء النفس ﴿إِلَى ٱلنُّورِ﴾ أي نور العلم والرشاد وزكاء النفس الموجب للتحرك نحو القدس ﴿بِإِذْنِهِۦ﴾ أي وتلك الهداية والعناية تحصلان له بإرادته وتوفيقه. ﴿وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ وهو دين الإسلام وأحكامه لكافة الأنام.

﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ۚ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ ٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ۗ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَٰرَىٰ نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُاْ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ ۚ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم ۖ بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۚ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۖ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٨﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ﴾ شروع في رد مزاعم النصارى واليهود والاستدلال عليه، بحيث إذا نظر المنصف في الموضوع لم يبق له شبهة في أن ما هم عليه باطل فقال: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ﴾ لا غيره. القائلون بذلك هم اليعقوبية الذين يدعون أن الله سبحانه وتعالى قد يحل في جسد إنسان معين أو في روحه ﴿قُلْ﴾ يا حبيبي في إبطال قولهم: ﴿فَمَن يَمْلِكُ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ ٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾؟ أي من الذي يمنع قدرة الباري تعالى من شيء إن أراد ذلك؟ وبواقع الحال يظهر أن الجواب سلبي، أي لا أحد قادر على ذلك المنع. واحتج بذلك على فساد قولهم.

وتقرير الدليل: إن المسيح ضعيف أمام قدرة الباري وإرادته إهلاكه، وكل من هو ضعيف تحت القدرة والإرادة ليس بإله وبعيدٌ كل البعد عن الاتصاف بالألوهية؛ لأن الإله يجب أن يكون قادراً غير مقدور، وقاهراً غير مقهور، وواجب الوجود لا يتأثر بأي تأثير مهما كان منشؤه.

ثم أشار إلى دليل ثان وهو أن عيسى المسيح ولد من أم وحدث من العدم ونشأ من ضعف، وغير موصوف بالقدم، وكل من هو كذلك ليس بإله.

وإلى دليل ثالث هو أن أم عيسى التي هي أصله وأساس وجوده قابل للهلاك بإرادة الباري وكل قابل للهلاك لا يمكن أن يبعث منه إله. فمريم لا يمكن أن يحدث منها إله.

وإلى دليل رابع وهو أن عيسى مماثل لبعض أفراد نوع الإنسان وكذلك مماثل بالإمكان والحدوث لمن في الأرض من الممكنات الخاصة. وكل من هذا شأنه لا يمكن أن يكون إلها فعيسى لا يمكن أن يكون إلهاً.

وغاية شبهة الناس الفاسدين المفسدين لأولئك النصارى أن عيسى فيه لاهوتية، أي قوة معنوية قدسية. وفيه ناسوتية، أي قوة إنسانية. ولما كانت اللاهوتية موجودة فيه جاز التصادق بين عيسى واللاهوتية بأن يقال: عيسى لاهوت كما يقال الإنسان ناطق، ولم يعقلوا أن اللاهوتية الموجودة في عيسى عبارة عن تعلق أشعة أنوار محبة الباري تعالى بقلب عيسى أو بدنه وظهور آثار الشرف فيه وهي صفة وعرض، ولا تصادق بين الذات والصفة، وبين الذات والعرض أبداً.

وأقصى ما يقال إنه تجلى الباري تعالى عليه بأنوار الرحمة كما تجلى على سائر الأنبياء والمرسلين. بل وعلى سائر عباده الصالحين ولا سيما الأولياء الأصفياء الذين قال الله تعالى في مدحهم: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾﴾. كما أشار بقوله الكريم ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ إلى دليل خامس وهو أن عيسى المسيح عليه السلام شخص موجود من الموجودات التي هي بين السماء والأرض. وكل شخص كذلك مملوك للباري تعالى. وكل ممكن لا يمكن أن يكون إلهاً فعيسى المسيح لا يمكن أن يكون إلهاً.

وقوله تعالى: ﴿يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ﴾ إشارة إلى دليل سادس وهو أن عيسى من جملة المخلوقات التي خلقها الباري، فإنه يخلق ما يشاء وكل مخلوق يمتنع أن يكون إلهاً لوجوب أن يكون الإله قديماً فعيسى يمتنع أن يكون إلهاً ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَٰرَىٰ نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ﴾ الآية حكاية لما صدر عن اليهود والنصارى من الدعوى الباطلة لأنفسهم ورد الله سبحانه وتعالى تلك الدعوى بقوله: ﴿قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم﴾؟ على صورة المعارضة حاصلها أنتم وإن كنتم تدعون تلك الدعوى لكن عندنا ما يعارضها وهو أنه لو كنتم تدعون تلك الدعوى لكن عندنا ما يعارضها وهو أنه لو كنتم أبناء الله وأحباءه ما أذنبتم ذنوباً تعذبون عليها، ولكنه عذبكم عليها في الدنيا بالقتل والأسر والمسخ وفي الآخرة أيضاً على اعترافكم بأنكم تعذبون أياماً معدودة.

ويمكن تقريره بوجه آخر وهو أنه لو كنتم أبناء الله وأحباءه ما كان يعذبكم الذنوب لكنه يعذبكم على اعترافكم.

وقوله: ﴿بَلْ أَنتُم بَشَرٌ﴾ عطف على مقدر ينسحب عليه الكلام أي ليس الأمر كما تزعمون ﴿بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ﴾ أي خلقه الله ولا مزية لكم على أي فرد أو صنف أو نوع مما خلق، أي مما خلقه الله، ولستم بشيء إلا مثل سائر الناس، ومن الناس من يؤمن بالله ورسله ويطيعه، ومنهم من لا يطيعه ويكتسب المعاصي والذنوب. والله ﴿يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ﴾ من أولئك المخلوقين. ﴿وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ﴾ تعذيبه منهم. ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ﴾.

ومما ينبغي التنبيه عليه إن قولهم: ﴿نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ﴾ إما يراد به المقربون عند

الله، أي نحن المقربون عند الله قرب الأولاد من الآباء. أو المراد بالأبناء الخاصة وأهل العلاقة الكاملة كما يقال أولئك أبناء الدنيا. أو المراد نحن أشياع من وصف بالنبوة من الأنبياء. أي قالت اليهود: نحن أشياع ابنه عزير. وقالت النصارى: نحن أشياع ابنه المسيح عليه السلام. وإطلاق الأبناء على الأشياع والأتباع مجاز إما تغليباً أو تشبيهاً لهم بالأبناء في قرب المنزلة.

﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ قَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمۡ عَلَىٰ فَتۡرَةٖ مِّنَ ٱلرُّسُلِ أَن تَقُولُواْ مَا جَآءَنَا مِنۢ بَشِيرٖ وَلَا نَذِيرٖۖ فَقَدۡ جَآءَكُم بَشِيرٞ وَنَذِيرٞۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ١٩﴾.

عن ابن عباس قال: دعا رسول الله اليهود إلى الإسلام ورغبَهُم فيه فَأبَوا عَليه. فقال لهم معاذ بن جبل وسعد بن عبادة: يا معشر اليهود اتقوا الله، فوالله إنكم لتعلمون أنه رسول الله ولقد كنتم تذكرونه لنا قبل مبعثه وتَصِفونه لنا بصفته. فقال رافع بن حرملة ووهب بن يهوذا: ما قلنا لكم وما أنزل الله من كتاب من بعد موسى، ولا أرسل بشيراً ولا نذيراً بعده. فأنزل الله هذه الآية رواه ابن إسحاق.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ﴾: الخطاب لليهود ويقول الباري سبحانه وتعالى لهم يا أهل الكتاب الذي أنزل على موسى ﴿قَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولُنَا﴾ محمد العربي القرشي الهاشمي ﴿يُبَيِّنُ لَكُمۡ﴾ حسب ما يوحي إليه ربه سبحانه وتعالى الآيات أحكام الدين من الاعتقاديات والعمليات المفيدة لسعادة الدارين ﴿عَلَىٰ فَتۡرَةٖ مِّنَ ٱلرُّسُلِ﴾ في زمان انقطاع الوحي وعدم مجيء الرسول إلى الأمم. وكان ذلك بين سيدنا عيسى وسيدنا محمد ـ عليهما الصلاة والسلام ـ مدة خمسمائة وستين سنة لم يكن في تلك المدة رسول. وما قيل: إنه كان بعد سيدنا عيسى الرسل الذين أرسلهم عيسى إلى بعض بلاد الروم كما أشار إلى ذلك قوله تعالى: ﴿إِذۡ أَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡهِمُ ٱثۡنَيۡنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزۡنَا بِثَالِثٖ فَقَالُوٓاْ إِنَّآ إِلَيۡكُم مُّرۡسَلُونَ﴾ وواحد من العرب وهو خالد بن سنان من بني العبس عليه السلام يجاب عنه: بأن الثلاثة كانوا مرسلين من جانب سيدنا عيسى ونسبة إرسالهم إليه تعالى كانت بناء على أنه تعالى أمره أن يرسلهم إلى تلك البلاد. وخالد بن سنان لم يكن رسولاً وإنما كان نبياً بلا شريعة وكتاب. على أن بعضهم قال: إن خالد بن سنان عليه السلام كان قبل عيسى عليه السلام.

﴿أَن تَقُولُواْ مَا جَآءَنَا مِنۢ بَشِيرٖ وَلَا نَذِيرٖ﴾ تعليل لمجيء الرسول ﷺ بالبيان يعني

إنما جاءكم رسولنا بالبيان كراهة أن تقولوا معتذرين من تفريطكم في أحكام الدين يوم القيامة ما جاءنا من بشير ولا نذير حتى نفهم أحكام دين الله ونعمل بها. ﴿فَقَدْ جَآءَكُم بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ﴾ أي لا تعتذروا هناك فقد جاءكم رسول بشير للمطيعين ونذير للعاصين وانقطع عذركم ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنۢبِيَآءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٠﴾ يَٰقَوْمِ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِى كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِكُمْ فَتَنقَلِبُوا۟ خَٰسِرِينَ ﴿٢١﴾ قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا فَإِنَّا دَٰخِلُونَ ﴿٢٢﴾ قَالَ رَجُلَانِ مِنَ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمَا ٱدْخُلُوا۟ عَلَيْهِمُ ٱلْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَٰلِبُونَ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٣﴾ قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَآ أَبَدًا مَّا دَامُوا۟ فِيهَا فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ ﴿٢٤﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى لَآ أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِى وَأَخِى فَٱفْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٥﴾ قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِى ٱلْأَرْضِ فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٦﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ﴾: جملة مستأنفة لبيان أعمال بني إسرائيل بعد أخذ الميثاق عليهم، وبيان لكيفية نقضهم الميثاق، وانتفاء فترة الرسل ـ عليهم الصلاة والسلام ـ فيما بينهم.

يعني: واذكر إذ قال موسى لقومه في مقام النصح والإرشاد إلى واجباتهم: ﴿يَٰقَوْمِ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ بعدِّ النِّعَمِ الواردة عليكم وعلى آبائكم ﴿إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنۢبِيَآءَ﴾، وهم يوسف، وموسى، وهارون ﴿وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا﴾ أي حرركم ونجاكم من ظلم فرعون وبغيه وعدوانه وسلب الحرية عنكم وإخافتكم في بيوتكم وتسخيركم للأعمال الشاقة فجعلكم أحراراً آمنين مطمئنين لكم اكتفاؤكم الذاتي إدارة واقتصاداً، وذلك كنتم كالملوك أو ملوكاً على الحقيقة، إذ الملك من كان له بيت ومعيشة وخادم وأمان.

أخرج ابن أبي حاتم عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: كانت بنو إسرائيل إذا كان لأحدهم خادم ودابة وامرأة كتب مَلِكاً.

﴿وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ مِنْ انتصار رسولكم الذي أرسل إليكم بإخزاء فرعون عند جمعه السحرة، وإغراقه في البحر، وإنجائكم منه بغرقه، وإرسال الكتاب جملة واحدة، وعفوه عن سفهائكم. الذين قابلوا تلك النعم باتخاذ العجل إلهاً لهم ومعاصي أخرى.

﴿يَٰقَوْمِ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ﴾ المباركة باتخاذ الأنبياء والرسل إياها مسكناً لهم. أو المقدسة عن الفساد الناشىء من القحط والجوع لأهلها التي كتب الله لكم أنها تكون مسكناً لكم بعد خلاصكم من فساد فرعون ﴿وَلَا تَرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِكُمْ فَتَنقَلِبُوا۟ خَٰسِرِينَ﴾ يعني ولا ترجعوا عن مقصدكم خوفاً من الجبابرة فتنقلبوا خاسرين الظفر بذلك المقام المحترم. والأرض المقدسة بالذات هي جامع بيت المقدس وما وراءه صار مقدساً بتبعية العبادة فيه. فقيل إنها فلسطين والأردن ودمشق. ﴿قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ﴾ أشداء أقوياءَ بالعَدَد والعُدَد متغلبين لا تتأتى مقاومتهم. وكان ذلك القوم من العمالقة بقايا قوم عاد، وكانت لهم أجسام ضخمةٌ. ﴿وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا﴾ بسبب من الأسباب سواء كان قتال غيرنا لهم أو سبباً آخر ﴿فَإِن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا﴾ بسبب آخرَ أيّاً كان ﴿فَإِنَّا دَٰخِلُونَ ﴿٢٢﴾ قَالَ رَجُلَانِ مِنَ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمَا﴾ يعني قال رجلان من الذين يخافون الله تعالى وأنعم عليهما بالإيمان والتثبيت: ﴿ٱدْخُلُوا۟ عَلَيْهِمُ ٱلْبَابَ﴾ أي باب سور مدينتهم ﴿فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَٰلِبُونَ﴾ من غير حرب وضرب واستعمال سِلاحٍ ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ بالله تعالى حق الإيمان. واستفاد الشرطية من كلام سيدنا موسى ﴿ٱلَّتِى كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ أو من علمهم بضعف معنويات أعدائهم في ذلك الزمان. أو من استمرار موجة تأييد موسى عليه السلام بالمعجزات القاهرة وبقائه فيهم. أو من جريان سنة الله في الكون من قهر الظالمين إذا تمادوا في الظلم والطغيان. أو من فراسة المؤمن الخائف من الله تعالى، فإنه نعتهما بقوله: ﴿مِنَ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ﴾؛ فإن الخائف منه عارف ببعض ما عنده. وعلى الله تعالى لا على غيره فتوكلوا بعدما امتثلتم أمره بإعداد العدة وقولهما: ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ لم يكن من شكهما في إيمانهم بل من شكهما في قوة إيمانهم بحيث توجب الخوضَ في غمارِ المُسايَفَة ﴿قَالُوا۟﴾ أي بنو إسرائيل المخاطبون للرجلين متوجهين إلى موسى وغير مبالين بكلامهما: ﴿يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَآ أَبَدًا مَّا دَامُوا۟ فِيهَا﴾ يعني لا شبهة في أنا لن ندخل أرض الجبابرة فضلاً عن أن ندخل باب سور مدينتهم أبداً مدة حياتنا ما داموا فيها مع القوة

والمنعة الحاضرة. ﴿فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ﴾ ما دام الفتح أمراً معنوياً قدسياً ﴿فَقَٰتِلَآ﴾ الجبابرة ﴿إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ﴾ نَنتظر مآلَ الحالِ. فاستخف أولئك الجاهلون أمر موسى ومعجزةَ العصا ونَسُوا قوةَ المعجزة مِن ذلك النيل وفَلَق النيل وأساؤوا الأدبَ في ذكر الربّ وطلب القتال منه مع موسى كما كفروا به بإضافته إلى ضمير الخطاب الظاهر في الاختصاص الغير الصّواب.

ولما قابلوه بما قالوه ﴿قَالَ﴾ موسى عليه السلام: ﴿رَبِّ إِنِّي لَآ أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِيۖ﴾ أَملِكُ نفسي بسيطرة روحي عليها وتسخيرها لما أمر به ربنا تعالى. وأَمْلِك أخي على أصول التربية الزكية في العائلة المُحَلاَة بالفضائل والمخلّاة، عن الغائلة ﴿فَٱفْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ المتمردين فلا تهلكنا بالغضب الوارد عليهم فإنا عَبيدُك المطيعون. ﴿قَالَ﴾ تعالى جواباً لموسى في ندائه ودعائه وجزاء للقوم المتمردين في عناده: ﴿فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْۛ أَرْبَعِينَ سَنَةًۛ يَتِيهُونَ فِي ٱلْأَرْضِۗ﴾: أي فإن دخول الأرض المقدسة حرام وممنوع عليهم مدة أربعين سنة. فهي زمان يصير فيه الطفل كهلاً، والجاهل عاقلاً. والغافل منتبهاً متيقظاً.

وفي مسافة الأرض أقوال: منها: إنها كانت ما بين حدود مصر والشام وكان عدد بني إسرائيل ستمائة ألف مقاتل والله أعلم. وفي معنى التيه أقوال: منها أنهم كانوا حائرين فيها جاهلين بطريق الخلاص، وكانوا يسيرون في الأرض فيمسون حيث يصبحون، ويصبحون حيث يمسون. وذلك ابتلاء من الله لهم بما يناسب تمردهم على الرسول الجليل موسى بن عمران عليه السلام بعد كل ما رأوا منه من الإعجاز المعجز للبيان فالجزاء إذا لم يكافىء العصيان لم يرتدع العصاة من بني الإنسان. وقال بعض: ليس معنى التيه إلا أنهم بقوا محصورين في تلك الديار بين العمالقة الجبارين، وهم لهم بالمرصاد وبين الأقباط الباقين في مصر الذين هم كانوا أعدى الأعادي لهم وجناحهم الشمالي البحر الأبيض والجنوبي البحر الأحمر، فماذا كانوا يفعلون إلا بأن يوفقهم لاستعادة النشاط الروحي والقوة النفسية كما أعاده لهم ففتحوا الديار وخرجوا أحراراً؟

وفي مدة التيه توفي سيدنا هارون عليه السلام وتوفي سيدنا موسى بعده بسنة أو بستة أشهر. ووصى ليوشع ابن نون عليه السلام بالجهاد وبعد ثلاثة أشهر من وفاة موسى دخل يوشع بلدة (أريحاء) وكان قد نُبىء قبل ذلك وظهرت بوادر السعادة لبني إسرائيل، ثم استمرت الفتوحات ووصلوا إلى ما وصلوا إليه. وهذه سنة الله في عباده ينصر

العباد الصادقين ويدمر المتمردين الفاسقين ﴿فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ من هلاكهم.

﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱبْنَىْ ءَادَمَ بِٱلْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ ٱلْءَاخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾ لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَىَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِى مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٍ يَدِىَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾ إِنِّىٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثْمِى وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ ۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَطَوَّعَتْ لَهُۥ نَفْسُهُۥ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٣٠﴾ فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُرِيَهُۥ كَيْفَ يُوَٰرِى سَوْءَةَ أَخِيهِ ۚ قَالَ يَٰوَيْلَتَىٰٓ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا ٱلْغُرَابِ فَأُوَٰرِىَ سَوْءَةَ أَخِى ۖ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ ﴿٣١﴾ مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ ۛ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِى ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ۚ وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم بَعْدَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ ﴿٣٢﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ﴾ الآية عطف على مقدر مرتبط بقوله الكريم: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ﴾ من حيث إنه تمهيد لما سيذكره من جنايات بني إسرائيل بعدما جاءتهم الرسل. والمراد بـ ﴿ٱبْنَىْ ءَادَمَ﴾ إبنان له عليه السلام اسمهما قابيل وهابيل. روي أنه بعدما هبط آدم وحواء إلى الأرض وانتشر منهما الأولاد والبنات أوحى الله سبحانه إلى آدم. وكانت تلد حواء في كل بطن ولداً ذكراً وبنتاً توأمين. ولما جاء وقت زواجهم أوحى الله إلى آدم أن يزوج كل واحد منهما توأم الآخر، وكان له ولدان هابيل وقابيل. وكان هابيل صاحب ضرع أي صاحب المواشي، وقابيل صاحب الزرع. وكانت أخت قابيل أحسن من أخت هابيل. ولما طلب هابيل أن ينكح أخت قابيل حتى ينكح قابيل أخت هابيل لم يرض بذلك لأن أخته كانت أحسن من أخت هابيل. وقال: أنا أحق منك أن أتزوج بها فَأَمَره أبوه أن يزوجها هابيل فَأَبَى. فقال لهما: قَرِّبا قرباناً فمن أيكما قُبل تزوجها. وإنما أمره بذلك لعلمه أنه لا يقبل من قابيل لا أنه لو قُبِلَ جاز. ثم غاب عليه السلام عنهما إلى مكة وعند ذلك قربا قرباناً فَقَرب هابيلُ جذعةٌ وقيل كبشاً، وقرّب قابيلُ حزمةَ سنبلٍ، فوجد فيها سنبلة عظيمة فَفَركها

وأكلَها. فنزلت النار فأكلَتْ قربان هابيل وكان ذلك علامة القبول. وكان أكلُ القربان غير جائز في الشرع القديم وتركت قربان قابيل، فغضب وقال لهابيل: لأقتلنك فأجابه هابيل بما قصه الله تعالى بقوله الكريم: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱبْنَىْ ءَادَمَ بِٱلْحَقِّ﴾ أي تلاوة متلبسة بالصحة والمطابقة للواقع ﴿إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا﴾ ظرف متعلق بنبأ أي اتل عليهم نبأهم نبأ ذلك الوقت الذي قرّبا فيه قرباناً. والقربان ما يتقرب به إلى الله تعالى من ذبيحة وغيرها من الحلويات وسائر المطعومات. ﴿فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا﴾ وهو هابيل ﴿وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ ٱلْءَاخَرِ﴾ لأنه لم يرض بحكم الله تعالى وهو عدم جواز نكاح تَوْأَمَتِه ﴿قَالَ﴾ قابيل: ﴿لَأَقْتُلَنَّكَ﴾ أي والله لأقتلنك. قال هابيل: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ أي الذين يتقون مخافة الله. ﴿لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَىَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِى مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٍ يَدِىَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾: قيل: كان هابيل أقوى من قابيل، ولكنه تحرج عن قتله واستسلم له خوفاً من الله؛ لأن المدافعة لم تكن جائزة في ذلك الوقت وفي تلك الشريعة.

قال بعض المحققين: واختلف في هذا الأمر الآنَ على ما بسطه الإمام الجصاص. فالصحيح من المذهب أنه يلزم الرجل دفع الفساد عن نفسه وغيره وإن أدى إلى القتل. وقيل إنه لا يلزم ذلك بل يجوز واستدل بما أخرجه ابن سعد في الطبقات عن خباب بن الأرَتّ عنه ﷺ أنه ذكر فتنةً «**القاعد فيها خيرٌ من القائم، والقائم فيها خير من الماشي، والماشي فيها خير من الساعي، فإن أدركت ذلك فكن عبد الله المقتول ولا تكن عبد الله القاتِلَ**». ثم جاء هابيل بتعليل آخر وقال: ﴿إِنِّىٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثْمِى وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ﴾ يعني إني أريد باستسلامي وامتناعي عن التعرض لك أن ترجع بإثمي أي بتحمله لو بسطتُ يدي إليك حيث كنت السبب له وأنت الذي علمتني الضرب والقتل وإثمك حيث بسطتَ إليّ يَدَكَ. وهذا نظير ما أخرجه مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً: «**المُسْتَبّانِ ما قالا فعلى البادىء ما لم يَعْتدِ المظلومُ**» ﴿وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ وهذا من كلام هابيل على ما هو الظاهر، أو إخبار منه تعالى للرسول ﷺ ﴿فَطَوَّعَتْ لَهُۥ نَفْسُهُۥ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ﴾ أي فسهلت له نفسه قتل أخيه وَوَسَّعَته، مِن طاعَ له المَرْتعُ إذا اتّسَعَ ﴿فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ دنيا وآخرة. أخرج الشيخان وغيرهما عن ابن مسعود ـ رضي الله تعالى عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «**لا تقتل نفس ظلماً إلا كان على ابن آدم الأول كفل من دمها؛ لأنه أول من سَنَّ القتلَ**»!

قيل: قتل هابيل وهو ابن عشرين سنة عند عقبة حراء، وقيل بالبصرة. ولما قتل قابيل أخاه هرب إلى عدن من أرض اليمن فأتاه إبليس فقال: إنما أكلت النار قربان هابيل لأنه كان يخدمها ويعبدها. فإن عبدتها أيضاً حصل مقصودك فبنى بيت نار فعبدها فهو أول من عبد النار.

﴿فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُرِيَهُۥ كَيْفَ يُوَٰرِى سَوْءَةَ أَخِيهِ﴾ أخرج عبد بن حميد وابن جرير عن عطية قال: لما قتله ندم فضمه إليه حتى أرْوَحَ، وعكفت عليه الطير والسباع تنتظر متى يُرْمى بِهِ فتأكله، وكره أن يَأتي به آدمَ عليه السلام فيحزنه. وتحير في أمره إذ كان أول ميت من بني آدم عليه السلام. فبعث الله غرابين قتل أحدهما الآخر، وهو ينظر إليه ثم حفر له بمنقاره وبرجله حتى مكن له، ثم دفعه برأسه حتى ألقاه في الحفرة ثم بحث عليه برجله حتى واراه. ﴿قَالَ يَٰوَيْلَتَىٰٓ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا ٱلْغُرَابِ فَأُوَٰرِىَ﴾ أي أعجزت أن أهتدي إلى مثل ما اهتدى إليه ﴿فَأُوَٰرِىَ سَوْءَةَ أَخِى﴾؟ وقوله تعالى: ﴿فَأُوَٰرِىَ﴾ معطوف على أكون والناصب أن، وليس جواباً للاستفهام، لأن شرط هذا النصب أن ينعقد من الجملة الاستفهامية والجوابِ جملةٌ شرطية نحو أتزورُني فأُكرمَك؟ فإن تقديره إنْ تَزرْني أكْرمْكَ. ولا يصح ذلك السبك هنا لفساد قولك إن أعْجَز أن أكونَ مثلَ هذا الغراب أواري سوأةَ أخي. لأن المواراة مرتب على الاستطاعة لا على العجز وهو ظاهرٌ.

﴿فَأَصْبَحَ﴾ قابيل ﴿مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ﴾ على قتل هابيل لأمور:

الأول: أنه فكر في أن قتل أخيه كان على أخذ أخته، وكان يمكنه أن يمتنع عن تسليمها له بدون القتل ويفرّ إلى محل لا يستولي عليه أبوه.

الثاني: الاستحياء والانفعال إذا بقي عند أبيه وأمه، وألم الغربة والكربة وفراقهما وفراق العائلة إذا ذهب إلى محل بعيد.

الثالث: هياج الغريزة والمحبة الأخوية على نفسه وتأثره بالحادثة الرهيبة.

الرابع: حدوث الحيرة له وظهور نقصان عقله من أخس الطيور وهو الغراب. وكفى بذلك موجباً للندم.

قوله تعالى: ﴿مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ الأجل بفتح الهمزة في الأصل الجناية يقال أَجَلَ عليهم شراً إذا جَنى عليهم جنايةً. وفي معناه جَرَّ عليهم جَريرةً، ثم استعمل في تعليل الجنايات، ثم اتسع فيه فاستعمل لكل سبب. وكذلك

من جراء ذلك ممدوداً ومقصوراً. تقول من جرائك فعلتُ أي بسبب ما ذكرناه وما حكيناه من مأساة الواقعة ورهبة القتل ووخامة عاقبته في الدنيا والآخرة والمفاسد التي تترتب عليه من تمزق العوائل وتحقق الغوائل، وتركيز الأحقاد في القلوب، وندامة مباشره مما يتورط فيه من الكروب، كتبنا وحكمنا وقضينا على بني إسرائيل في الكتاب المختص لهم بالتنزيل ﴿أَنَّهُۥ﴾ أي الشأن ﴿مَن قَتَلَ نَفْسًۢا﴾ واحدة من النفوس الإنسانية ﴿بِغَيْرِ نَفْسٍ﴾ أي بغير قتل نفس منها يوجب الاقتصاص ﴿أَوْ فَسَادٍ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ موجب لهدر الدم كالارتداد عن الدين، أو الزنا بمرأة وهو من المحصنين ﴿فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا﴾ لأن المانع من قتل الإنسان للإنسان هو مخافة الله سبحانه ورعاية حدوده، فمن هتك هذه الشريعة لا تبقى عنده قدسية الشريعة، ولا يهمه أن يقتل سائر الناس. فمن هذه الجهة قاتل نفس واحدة وقاتل سائر النفوس على حد سواء. ﴿وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًا﴾ أي ومن تسبب لبقاء نفسٍ واحدة رعاية لهيبة الشريعة ومخافة من صاحبها كأنما راعى هيبتها في إحياء جميع النفوس البريئة.

ومما يحسن التنبيه عليه أن هنا أسئلة: الأول إن قتل أحد ابني آدمَ عليه السلام جنايةٌ وقعت في الزمان الماضي فما مناسبته بالسببية لأن يكتُبَ الله على بني إسرائيل أنه من قتل نفساً إلى آخر الآية؟ الثاني: أنّ القتل من الكبائر المحرمة في سائر الأديان السابقة واللاحقة فما وجه تخصيص هذا الحكم ببني إسرائيل؟ الثالث: أنه من البديهيات وجود الفرق بين قتل نفس واحدة وقتل نفسين فصاعداً وكلما زاد القتل زاد الإثم وكذلك الفرق بين التسبب لإحياء نفس أي لبقائها، والتسبب لبقاء أكثر من واحدة فكلما زاد السبب في الخير زاد الأجر المرتب عليه، فما معنى التشبيه في الفقرتين؟

وإذا علمت ذلك فاعلم أن الجواب عن السؤال الأول جوابان: أحدهما: أن اسم الإشارة ليس إشارة إلى قتل قابيل لهابيل فقط بل هو إشارة إلى ذلك وما ترتب عليه من المفاسد والخسارات الدنيوية والأخروية، وتفريق أولي الأرحام بعضهم عن بعض وإثارة الناس في الاقتصاص وتعدي الحدود. وهذه كلها موجودة في كل زمان ومكان. وأراد أن يُذكِّرَ الإسرائيليين بها فكتب على بني إسرائيل ما كتب. والجواب الثاني: أنه لما كانت الحادثة الواقعة بين ابني آدم عليه السلام ناشئة من الحسد وهو أكثر رذيلة حاصلة في بني إسرائيل ومن حسدهم على الناس شاع بينهم القتل

والهتك بالأرواح.. رَبَطَ تلك الحادثة بهم، وأفاد أنه لما كانت تلك الحوادث من الحسد القوي وذلك الحسد أقوى في بني إسرائيل كتبنا على بني إسرائيل أنه من قتل الآية حتى يحصل إنزجارهم عمّا هُمْ عليه.

وأما الجواب عن السؤال الثاني: فهو أنه وإن كان القتل محرماً في كل الأديان لكن كلما تطورت الأمم وتلاحقت وتجددت فيهم الذنوب فمن اللائق بأسرار الشريعة تجديد تشريع الأحكام المترتبة على تلك الذنوب لا سيما إذا كانت في أمة مغرورة جسورة لا تهتم بالحدود الإلهية فقوله كتبنا على بني إسرائيل معناه: جددنا ذلك التشريع على بني إسرائيل واعتنينا به أكثر مما كان لكثرة جسارتهم على الحدود وزيادة تمردهم على الدين.

وأما الجواب عن السؤال الثالث فهو أمور: الأول ما ذكرناه سابقاً في تفسير الآية.

والثاني: أن المراد من الناس جميعاً الذين يقتلون بعد ذلك القتل الأول من طرف الناس الآخرين العاملين بتلك الخصلة السيئة لأن من سن سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة، ومن أحياها فقد سن سنة حسنة، ومن سن سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة.

الثالث: أن المراد خلاصة الأجر وخلاصة الوزر لأن جزاء قتل النفس البريئة استحقاق دخول، ويحصل هذا لمن قتل واحداً أو آلافاً، وإن كانت درجات العذاب مختلفة.

الرابع: أن المراد بالنفس نفس محمد ﷺ لأن بني إسرائيل كانوا متعودين على قتل الأنبياء كما نطق به القرآن الكريم. ومعنى الآية حينئذ أن من قتل نفس محمد ﷺ فكأنما قتل الناس لأن قتل النبي كقتل الأمة. ومن تسبب في بقائها فكأنه تسبب في حياة الأمة كلها.

﴿وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ يعني والله لقد جاءتهم رسلنا بالآيات الواضحة الموضحة الناطقة بتقرير ما كتبنا عليهم تأكيداً لمراعاته والتزامه. ﴿ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم بَعْدَ ذَٰلِكَ﴾ الذي ذكرنا من الكتب والتأكيد على وجوبه في الأرض ﴿لَمُسْرِفُونَ﴾ أي لمسرفون ومجاوزون الحدود في الأرض بالقتل والجنايات على الأطراف والمعاني والسرقات والغش والخيانات وسائر وجوه الإفساد في الأرض مما لا تعد جزئياته ولا تحصى.

﴿إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسۡعَوۡنَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓاْ أَوۡ يُصَلَّبُوٓاْ أَوۡ تُقَطَّعَ أَيۡدِيهِمۡ وَأَرۡجُلُهُم مِّنۡ خِلَٰفٍ أَوۡ يُنفَوۡاْ مِنَ ٱلۡأَرۡضِۚ ذَٰلِكَ لَهُمۡ خِزۡيٞ فِي ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٣٣﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِن قَبۡلِ أَن تَقۡدِرُواْ عَلَيۡهِمۡۖ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٣٤﴾﴾.

عن زيد ابن أبي حبيب أن عبد الملك بن مروان لأَنَسٍ يسأله عن هذه الآية فكتب إليه أنس يخبره أن هذه الآية نزلت في العرنيين ارتدوا عن الإسلام وقتلوا الراعي واستاقوا الإبل رواه ابن جرير. وعن أنس بن مالك أن نفراً من عُكَل قبيلة مشهورة، وقيل من عرينة، وقيل: منهما، قدموا على رسول الله ﷺ فأسلموا واجتووا المدينة فأمرهم النبي ﷺ أن يأتوا إبل الصدقة ويشربوا من ألبانها. فقتلوا راعيها واستاقوها! فبعث النبي في طلبهم جمعاً فأتي بهم فقطع أيديهم وأرجلهم، وسمل أعينهم، ولم يحسمهم أي لم يقتلهم، وتركهم حتى ماتوا. فأنزل الله فيهم هذه الآية. أخرجه البخاري ومسلم وغيرهما.

إجتووا المدينة أي لم يوافقهم هواؤها واستوخموها. قال أنس: وإنما سمل النبي ﷺ أعين أولئك لأنهم سَمَلوا أعْيُنَ الرعاة أخرجه مسلم.

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ يعني إن الذين يحاربون أولياءَهما وهم المسلمون فالمحاربة مع المسلمين مباشرة، لا مع الله ورسوله لأن محاربتهما تكون بمعارضة التشريع والتبليغ، وذلك كفر وحكمه القتل لا ما ذكر في الآية. وإنما جعل محاربةُ المسلمين محاربتهما تعظيماً للمسلمين. وقيل المراد يحاربون رسول الله. وإنما ذكر الله للتمهيد والتنبيه على أن محاربة الرسول محاربة الله تنبيهاً على رفعة شأنه فيعم الحكم من يحارب الرسول ومن يحارب أمته بعد الرسول ولو بأعصار كثيرة بطريق[1] العبارة لا بطريق الدلالة أو القياس، كما يتوهم لأن ورود النص ليس بطريق خطاب المشافهة حتى يختص بالمكلفين حين النزول، ويحتاج في تعميمه إلى دليل آخر على ما تحقق في الأصول وذكره صاحب روح المعاني.

﴿وَيَسۡعَوۡنَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَسَادًا﴾ أي مفسدين ﴿أَن يُقَتَّلُوٓاْ﴾ قصاصاً من غير صلب

(١) هو العمل بظاهر ما سيق الكلام له.

إن أفردوا القتل ﴿أَوْ يُصَلَّبُوٓاْ﴾ مع القتل إن قتلوا وأخذوا المال ﴿أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلَٰفٍ﴾ فتقطع أيديهم اليمنى وأرجلهم اليسرى إن أخذوا المال ولم يقتلوا ﴿أَوْ يُنفَوْاْ مِنَ ٱلْأَرْضِ﴾ أي ينفوا من بلد إلى بلد بحيث لا يتمكنون من القرار في موضع، وهذا إن اقتصروا على الإخافة وفسر أبو حنيفة النفي بالحبس.

﴿ذَٰلِكَ لَهُمْ خِزْىٌ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٣٣﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِن قَبْلِ أَن تَقْدِرُواْ عَلَيْهِمْ ۖ فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

أما القتل قصاصاً في جزاء من قتل مؤمناً متعمداً فعائد إلى أولياء القتلى اقتصوا أو عفوا، مجاناً أو على الدية. ولا دخل لتوبة القاتل هناك. ولما كان الكلام في قطاع الطريق من المسلمين فتقييد التوبة بما قبل القدرة معناه أن توبتهم بعد التوبة لا تنفع في إسقاط الحد وإن أفاد عند الله. وأما إذا كان القطاع للطريق كافرين فإذا أسلموا، ولو بعد القدرة عليهم، سقط عنهم كل حد وشدّ، وهو ظاهر من النصوص.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱبْتَغُوٓاْ إِلَيْهِ ٱلْوَسِيلَةَ وَجَٰهِدُواْ فِى سَبِيلِهِۦ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣٥﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱبْتَغُوٓاْ إِلَيْهِ ٱلْوَسِيلَةَ﴾ آية جامعة لجهات الخير للمسلم الكاسب لرضاء الله سبحانه، فإن حقه أوّلاً أن يتقي ربه بالإيمان به والابتعاد عن الكفر وترك سائر المحرمات، ثم أداء الواجبات والمندوبات بقدر الاستطاعة. وثانياً: أن يبتغي الوسائل إلى الله سبحانه وتعالى فيتوسل بالعلماء لتعلم أحكام الدين من شتى الجهات اعتقاداً وعملاً وفعلاً وتركاً. ثم يتوسل بصحبة الصالحين المنورين لتنوير قلبه وسائر لطائفه وتخلية نفسه الأمارة عن الرذائل كالرياء والنفاق والحسد والكبر والعتو والعناد وحب السيطرة على العباد وغير ذلك من المهالك... فإذا لمس من مسلم خيراً واكتسب من صحبته نوراً واستفاد ثباتاً واطمئناناً لقلبه وانشراحاً لصدره فليلازمه بقدر الإمكان، فإنه خير وبركة ورزق روحي ساقه الله تعالى إليه، وينبغي له حينئذ أن يحترم ذلك الصاحب المبارك ويستدرّ من حُسنِ الأدب معه محاسنَ الأخلاق وفضائل الآداب، وإذا تُوفي ذلك الرجل ولحق مقامه الموعود أن يزوره ويدعو له ويطلبَ من الله سبحانه وتعالى

لنفسه هناك الخير والبركة والتوفيق لأن ذلك المقام مقام ومدفن لشخص مات في السعي لترويج دين الله ومقام شخص تنور قلبه بنور الله، فذلك المحل كعين ماء زلال لا تحتاج إلى أن تتكلم معه وتستفيد من معينه زلالَ الصفاءَ للقلب العاطش إلى فيض الكرم، أو كمحل قوة كهرباء مدفئة أو مبردة لا تحتاج أنت في الاستفادة منه إلى طلب منه فإنّ نور الشمس يُضيء أهلَ العالَم طالباً أو هارباً. وإذا توسل به إلى الله سبحانه وتعالى وقال: يا رب ببركات صاحب هذا الضريح الباذل حياته في رضاك ارحمني وسامحني فقد ابتغى إليه الوسيلة، ولم يعمل عملاً خارجاً عن إطلاق النصوص، ولم يأت بشيء منهي عنه أبداً. بل طبق الأمر بابتغاء الوسيلة في قوله تعالى: ﴿وَٱبْتَغُوٓاْ إِلَيْهِ ٱلْوَسِيلَةَ﴾ أي ما تتوسلون به إلى ثوابه والزلفى منه من فعل الطاعات وترك المعاصي، فمن فعل الطاعات: أداء الفرائض ولنوافل، ومنه احترام الأنبياء والمرسلين والأولياء والصالحين، واعتبار المنزلة لهم عند رب العالمين. وقال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٢١﴾﴾!.

وإذا علمت ذلك فاعلم أن الوسيلة كل ما يتوسل به إلى الثواب من الله تعالى من الطاعات وقد اتفق عليه المفسرون؛ فلنذكر الطاعات التي يتوسل بها إليه ولا شك أن منها الامتثال للأوامر مطلقاً، والاجتناب عن كل ما نهى عنه مطلقاً. ومن الطاعات محبة الله ورسوله وخيار أمته من الصحابة والتابعين والأئمة المجتهدين في أحكام الدين وسائر العلماء العاملين والصالحين. ومن الطاعة ملازمة الصادقين قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١١٩﴾﴾ وهم الذين إذا رُؤوا ذكر الله ولا شك أن الكينونة معهم كينونة بالمحبة والألفة الروحية سواء عند حضورهم أو غيابهم فإن الصحبة مع المحبة هي التي تنفع المسلم وتقويه على ما يبتغيه من الجهد في الدين لأن تلك الصحبة هي التي تورث الإنسان التخلق بالأخلاق الحسان. ومن الطاعة توسلك إليه بطلب العلم والتعلم من العلماء العاملين؛ لأن طلب العلم فريضة إن كان واجباً، ومستحب إن كان مندوباً، وكلاهما طاعة. ومن الطاعة التوسل بالصالحين الأصفياء لتزكية النفس عن الرذائل وتحليتها بالفضائل. قال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾ [الشمس: ٩ و١٠] ومن المعلوم أن ما توقف عليه الواجب واجب. فإذا لم تتيسر هذه التزكية إلا بصحبة الأصفياء الصادقين وجب على المسلم الصحبة والمجاورة، فإن كان

التداوي عن المرض الحسي مستحباً فالتداوي عن المرض النفسي واجب؛ لأن الكبر والعجب والرياء والنفاق وسائر الأمراض لا تدع الإنسان يتوجه إلى ربه توجهاً مناسباً لرب العالمين.

ومن الطاعة دعاؤك بنفسك لنفسك وللمسلمين وطلب دعائك من غيرك لخيرك وخير المسلمين سواء كان المطلوب منه مساوياً أو أدنى أو أعلى من الطالب فكل ذلك قد ثبت في الدين. ومن الطاعة التوسل بجاه الأنبياء والمرسلين. وإذا نظرنا إلى ذلك بعين الإنصاف وجدناه بلا أي مانع ولا أي نهيٍ واردٍ. وقد وجدنا الوسيلة في الآية الكريمة مطلقة مجردة عن القيود، وكل مطلق مسكوت عن تقييده الأصل فيه الإباحة.

وإذا نظرنا إلى الحديث الوارد في التوسل بحق نفسه وحق النبيين قبله كما جاء عندما نزل عليه السلام في قبر فاطمة بت أسد أم علي بن أبي طالب ثم خرج وقال: «الله الذي يحيى ويميت وهو حي لا يموت اغفر لأمي فاطمة بنت أسد ووسع عليها مدخلها بحق نبيك والأنبياء الذين من قبلي فإنك أرحم الراحمين» وإلى ما ورد من توسل الضرير بالرسول ﷺ والاستشفاع به لرد نور بصره وإجابة طلبه. وغير ذلك مما يطول ذكره هنا.. لم يبق أدنى شبهة في جواز ذلك التوسل بل في استحبابه إقتداء به ﷺ فيه.

والذي يفرق في جواز ذلك بين التوسل بالنبي سيدنا محمد ﷺ وغيره فأجاز التوسل به لا بغيره فمع أنه يرده ما قاله ﷺ في طلب عفو أم سيدنا علي ـ كرم الله وجهه ـ يجاب عنه بأن التوسل بغير الله تعالى حقيقة واحدة فإذا كان ممكناً في بعض العباد الصالحين مكن في سائر الصالحين، وإن كانت درجات صلاحهم متفاوتة. ومن فرق بين الحي والميت فقد انحرف عن الصراط المستقيم لأن التوسل به في الحياة هو الروح الإنساني المدبر لأمر الجسد وتلك الروح باقية في عالم البرزخ وقوتها قوة الشفاعة لا غير، فلا فرق بين حالي الحياة والممات، وإذا لم يرد نهي عن ذلك التوسل فهو باق على إباحته، والأمر موكول إلى النصوص لا إلى المجد والماجد والجمع والواحد؛ فإن الأمر بابتغاء الوسيلة مطلق والعامل بإطلاقه موفق.

فعلى تلك الأسس السليمة وعلى إطلاق الوسيلة في الآية الكريمة تتوسل إلى الله تعالى بأسماء الله الحسنى، وبصفاته العظمى، وبذوات الأنبياء والمرسلين،

وبجاههم عند رب العالمين. كما نتوسل يوم القيامة بصاحب المقام المحمود للشفاعة الكبرى في اليوم الموعود. ونتوسل بطلب الدعاء من الصالحين أحياء وأمواتاً، أما الأحياء فهم من الأولياء المرغوبين. وأما الأموات فهم من ركب الصديقين، والشهداء المحبوبين، والصالحين المحسوبين. وأقول عند التوسل: السلام عليك أيها العبد الصالح الصادق في عبوديته لربه ادع الله تعالى أن يدفع عني شر الأشرار، ويحفظني من فتنة المحيا والممات، ومن عذاب النار.

فإن قلت: لم لا تدعو أنت بنفسك لنفسك وتطلب الدعاءَ منه؟ قلت: أمرنا بابتغاء الوسيلة وأتوسل بدعاء نفسي وبدعاء أهل الفضيلة. فإن قلت: هو معدود من الأموات! قلت: روحه الطاهرة باقية تنزل عليه البركات. فإن قلت: هو ميت والميت غافل! قلت: الغافل هو الذي غفل قلبه في حياته عن ذكر الله لا الذي مات على الطاعة والذكر بأمر الله. فإن قلت: ما ورد التوسل بذلك! قلنا: لا نرى مانعاً منه هنالك. هذا ما أعتقده على ضوء نصوص الكتاب والسنة السنية، وعمل المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها في مدة أربعة عشر قرناً من الهجرة النبوية ﷺ.

وقوله تعالى: ﴿وَجَٰهِدُوا۟ فِى سَبِيلِهِۦ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾: الجهاد والمجاهدة استفراغ الوسع في مدافعة العدو، أي جدّوا وابذلوا وسعكم في شأننا وحقنا ولوجهنا خالصاً لعلكم تفلحون، لعلكم تفوزون بالفلاح والنجاة عن العذاب في الآخرة.

ومما يحسن علمه أن الله سبحانه كما أطلق الوسيلة ليحتمل طرق الوصول إلى ثوابه تعالى أطلق المجاهدة هنا ليحتمل طرق المجاهدة، ويعم جهاد الأعداء الظاهرة من الكفار المحاربين، والبغاة المعاقبين، والفساق المارقين، والمبتدعة المخربين، والأعداء الباطنة كجهاد الشيطان وأعوانه الشياطين، وجهاد النفس الأمارة بالسوء ومراكب بغيها وعنادها من الرذائل التي تمنع الاتصاف بالفضائل من الأنانية والعجب والكبر والحسد والبغي والأحقاد. وفي الحديث الشريف: «**جاهدوا أهواءكم كما تجاهدون أعداءكم**» ومعلوم أنه كما جهاد الإنسان في حرب الكفار لا يتحقق بدون الأسلحة السليمة، كذلك لا يتحقق جهاد النفس والشيطان بدون الأخلاق القويمة، وتلك الأخلاق منها ما هو وهبي كما أشير إليه في الأثر المشهور: «**نعم العبد صهيب لو لم يخف الله لم يعصه**» أي لسلامة فطرته وزكاء

طبعه بالموهبة الربانية. ومنها ما هو كسبي ولا يتحقق ذلك بالتجارب المكررة إلا بصحبة أهل الأنوار كصحبة الأصحاب للرسول ﷺ وصحبة التابعين للأصحاب، وصحبة تابعي التابعين للتابعين، وهلم... فلا يمكن كسب القوة للمجاهدة إلا بصحبة الصادقين. ولذلك قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١١٩﴾﴾ وأهل الصدق أهل اطمئنان القلب ولا يحصل اطمئنان القلب إلا بذكر الله. قال تعالى: ﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لِيَفْتَدُواْ بِهِۦ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٣٦﴾ يُرِيدُونَ أَن يَخْرُجُواْ مِنَ ٱلنَّارِ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنْهَا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٣٧﴾﴾.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾... الآية كلام مستأنف سيق لتأكيد وجوب التقوى وابتغاء الوسيلة إلى الله كي لا يدخل الإنسان في مهالك الكفر والشقاء الأبدي دون خلاص منه كما أفاده تعالى بقوله الكريم: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ من أصناف النقود والأموال وذخائرها وكنوزها، ﴿وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لِيَفْتَدُواْ بِهِۦ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ أي ليجعلوه فدية لأنفسهم لاستخلاصها من عذاب يوم القيامة ﴿مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ﴾ ذلك ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٣٦﴾ يُرِيدُونَ﴾ أي أولئك الكافرون ﴿أَن يَخْرُجُواْ﴾ بما يفتدون به ﴿مِنَ ٱلنَّارِ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنْهَا﴾ لكفرهم السابق منهم في الدنيا. وقد قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾. ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ أي عذاب دائم، لأن الكفر بالله خالق الكائنات جريمة من أقبح الجرائم فيكون جزاؤه جزاء من أشد الجزاءات، ولأن الكفر عقيدة مستمرة مر الدهور فعذاب صاحبه عذاب مستمر وويل وثبور. فنسأل الله تعالى أن يحفظنا منه برحمته إنه أرحم الراحمين.

﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓاْ أَيْدِيَهُمَا جَزَآءًۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلًا مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٣٨﴾ فَمَن تَابَ مِنۢ بَعْدِ ظُلْمِهِۦ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٩﴾ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤٠﴾﴾.

عن عبد الله بن عمرو أن امرأة سرقت في عهد رسول الله ﷺ فأراد قومها أن

يفدوها بخمسمائة دينار، فأبى رسول الله ﷺ فداءها، فقطع يدها اليمنى. فقالت: هل لي من توبة يا رسول الله؟ فأنزل الله الآية أخرجه الإمام أحمد. وفي رواية: إن رسول الله ﷺ قال لها بعد قطع يدها: «**أنت اليوم من خطيئتك كيوم ولدتكِ أمك**».

والكلام في الآية الكريمة من وجوه:

الأول: الإعراب وهو أنه يرفع الاسم الواقع هنا في صدر الكلام على أنه مبتدأ وخبره محذوف، أي فيما يتلى عليكم ﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ﴾ أي حكمهما. ثم يقول: إذا سمعت ذلك فاعلم أن الحكم قطع يده ويدها إذا سرقا. أو على أنه مبتدأ وخبره ما بعد الفاء ودخولها عليه لأن اللام الداخلة على الوصفين موصول بمعنى الذي والتي، ولإفادتهما العموم يشبهان اسم الشرط فصح دخول الفاء في الخبر. ويجوز أن ينصب الاسم على ما ذكره الفراء. وفي اختيار النصب على الرفع في أمثال هذه الآية الشريفة تفصيل ذكره النحاة.

الثاني: إن السرقة أخذ مال الغير خفية من حرز المثل والمأخوذ ربع دينار أو ما يساويه لقوله ﷺ: «**القطع في ربع دينار**» وفي قطع اليد بها شروط مفصلة في كتب الفقه.

الثالث: إن المراد بالأيدي الأيمان ويؤيده قراءة ابن مسعود رضي الله عنه ﴿فاقطعوا أيمانهما﴾ ومن المقرر أن كل جزأين أضيفا إلى الكل لفظاً أو تقديراً وكانا مفردين من صاحبهما كالرأس واليمين والظهر جاز فيهما ثلاثة أوجه: الجمع وهو الأفصح، ثم الإفراد، ثم التثنية. ولما كان المراد باليد هنا اليمين جمعت وأضيفت إليهما.

الرابع: إن اليد، وإن كانت اسماً لتمام العضو من رؤوس الأصابع إلى المنكب، لكن الجمهور على أن المقطع هو الرسغ لأنه ﷺ أمر بقطع يد السارق من الرسغ. ﴿جَزَآءًۢ بِمَا كَسَبَا﴾ منصوب على أنه مفعول له وكذا ﴿نَكَٰلًا مِّنَ ٱللَّهِ﴾ أي عقوبة منه تعالى ﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٌ﴾ أي غالب على أمره ﴿حَكِيمٌ﴾ آت به على وجه الحكمة: ﴿فَمَن تَابَ﴾ أي عن السرقة ﴿مِنۢ بَعْدِ ظُلْمِهِۦ﴾ أي سرقته ﴿وَأَصْلَحَ﴾ أي وأصلح حاله بأن عزم على أن لا يعود إليها، وعَمَلَه بأن رد المسروق أو بدله على تقدير ضياعه إلى صاحبه ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ﴾ لما سبق عنه ﴿رَّحِيمٌ﴾ لا يعذبه في الآخرة ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ﴾ كل ذنب إلا الشرك وما ساواه ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾؟ وفاعل مختار لا يخرج من قدرته ممكن من الممكنات.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحۡزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡكُفۡرِ مِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِأَفۡوَٰهِهِمۡ وَلَمۡ تُؤۡمِن قُلُوبُهُمۡۛ وَمِنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْۛ سَمَّٰعُونَ لِلۡكَذِبِ سَمَّٰعُونَ لِقَوۡمٍ ءَاخَرِينَ لَمۡ يَأۡتُوكَۖ يُحَرِّفُونَ ٱلۡكَلِمَ مِنۢ بَعۡدِ مَوَاضِعِهِۦۖ يَقُولُونَ إِنۡ أُوتِيتُمۡ هَٰذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمۡ تُؤۡتَوۡهُ فَٱحۡذَرُواْۚ وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتۡنَتَهُۥ فَلَن تَمۡلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيۡـٔٗاۚ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَمۡ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمۡۚ لَهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا خِزۡيٞۖ وَلَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٞ ﴿٤١﴾ سَمَّٰعُونَ لِلۡكَذِبِ أَكَّٰلُونَ لِلسُّحۡتِۚ فَإِن جَآءُوكَ فَٱحۡكُم بَيۡنَهُمۡ أَوۡ أَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡۖ وَإِن تُعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ فَلَن يَضُرُّوكَ شَيۡـٔٗاۖ وَإِنۡ حَكَمۡتَ فَٱحۡكُم بَيۡنَهُم بِٱلۡقِسۡطِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ ﴿٤٢﴾ وَكَيۡفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِندَهُمُ ٱلتَّوۡرَىٰةُ فِيهَا حُكۡمُ ٱللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوۡنَ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَۚ وَمَآ أُوْلَٰٓئِكَ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٤٣﴾ إِنَّآ أَنزَلۡنَا ٱلتَّوۡرَىٰةَ فِيهَا هُدٗى وَنُورٞۚ يَحۡكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسۡلَمُواْ لِلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلۡأَحۡبَارُ بِمَا ٱسۡتُحۡفِظُواْ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُواْ عَلَيۡهِ شُهَدَآءَۚ فَلَا تَخۡشَوُاْ ٱلنَّاسَ وَٱخۡشَوۡنِ وَلَا تَشۡتَرُواْ بِـَٔايَٰتِي ثَمَنٗا قَلِيلٗاۚ وَمَن لَّمۡ يَحۡكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴿٤٤﴾ وَكَتَبۡنَا عَلَيۡهِمۡ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفۡسَ بِٱلنَّفۡسِ وَٱلۡعَيۡنَ بِٱلۡعَيۡنِ وَٱلۡأَنفَ بِٱلۡأَنفِ وَٱلۡأُذُنَ بِٱلۡأُذُنِ وَٱلسِّنَّ بِٱلسِّنِّ وَٱلۡجُرُوحَ قِصَاصٞۚ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٞ لَّهُۥۚ وَمَن لَّمۡ يَحۡكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٥﴾ وَقَفَّيۡنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ مِنَ ٱلتَّوۡرَىٰةِۖ وَءَاتَيۡنَٰهُ ٱلۡإِنجِيلَ فِيهِ هُدٗى وَنُورٞ وَمُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ مِنَ ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَهُدٗى وَمَوۡعِظَةٗ لِّلۡمُتَّقِينَ ﴿٤٦﴾ وَلۡيَحۡكُمۡ أَهۡلُ ٱلۡإِنجِيلِ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فِيهِۚ وَمَن لَّمۡ يَحۡكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ﴿٤٧﴾﴾.

عن ابن عباس قال عن البراء بن عازب قال مُرَّ على النبي ﷺ بيهودي مُحَمَّم مَجلودٍ فدعاهم فقال لهم: «**هكذا تجدون حد الزاني في كتابكم؟**» **فقالوا: نعم. فدعا رجلاً من علمائهم فقال: «أنشدك باللهِ الذي أنزل التوراة على موسى أهكذا تجدون حد الزاني المحصن في كتابكم؟**» فقال: لا. ولولا أنك نشدتني بهذا لم أخبرك. نجدُ حدّ الزاني فِي كتابنا الرّجم، ولكنه كثر في أشرافنا فكنا إذا زنا الشريف تركناه وإذا زنا الضعيف أقمنا عليه الحد. فقلنا: تعالوا فلنجتمع على شيء

نقيمه على الشريف والوضيع. فاجتمعنا على التحميم والجلد وجعلناهما مكان الرجم. فقال النبي ﷺ: «**اللهم إني أول من أحيا أمرك إذا أماتوه**» فأمر به فرجم. فأنزل الله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ﴾ إلى قوله: ﴿إِنْ أُوتِيتُمْ هَٰذَا فَخُذُوهُ﴾ ويقولون: ائتوا محمداً فإن أفتاكم بالتحميم والجلد فخذوه، وإن أفتاكم بالرجم فاحذروا إلى قوله: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ رواه أحمد ومسلم وأبو داود.

وعن ابن عباس قال: أنزل الله هذه الآيات في طائفتين من اليهود قهرت إحداها الأخرى في الجاهلية حتى ارتضوا فَاصْطلحوا على أن كل قتيل تقتله العزيزة من الذليلة فَديته خمسون وسقاً، وكل قتيل تقتله الذليلة من العزيزة فديته مائة وسق! فكانوا على ذلك حتى قدم رسول الله ﷺ فقتلت الذليلة من العزيزة قتيلاً فأرسلت العزيزة إلى الذليلة: أن ابعثوا إلينا بمائة وسق فقالت الذليلة: وهل كان ذلك في حيين قط دينهما واحدٌ وبلدهما واحد ونسبتهما واحدة دية بعضهم نصف دية بعضٍ!؟ إنا أعطيناكم هذا ضيماً منكم لنا وخوفاً وفرقاً منكم، فأما إذا قدم محمد فلا نعطيكم. فكادت الحرب تهيج بينهما ثم ارتضوا على أن جعلوا رسول الله ﷺ بينهما. فأرسلوا إليه ناساً من المنافقين ليختبروا رأيه فأنزل الله هذه الآيات. أخرجه أحمد وغيره. وعن ابن عباس قال: كانت بنو النضير أشرف من بني قريظة. فكان إذا قتل رجل من بني النضير دفعت بنو قريظة لبني النضير دية كاملة، وإذا قتل رجل من بني قريظة دفعت بنو النضير لبني قريظة نصف الدية فتحاكموا في ذلك إلى رسول الله ﷺ فأنزل الله هذه الآيات في الفريقين فحملهم رسول الله على الحق فجعل الدية في ذلك سواء رواه ابن جرير. وقال ابن كثير: قوله تعالى ﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ﴾.. يقوي أن سبب النزول قضية القصاص والله سبحانه وتعالى أعلم.

المحمّم: هو الذي طُلِّيَ وجهه بالفحم.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ﴾ الآية خطاب للرسول ﷺ بصفته الواسطة المعتادة بين الله وبين المكلفين لدعوتهم إلى وجود الباري وتوحيده والتزام الأحكام العلمية والعملية. يعني: يا من شأنه هذا الشأن العظيم ﴿لَا يَحْزُنكَ﴾ صنع ﴿ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ﴾ أي يسرعون في الحركة النفسية برغبة وميل إلى الوقوع في الكفر ﴿مِنَ﴾ الكافرين المنافقين ﴿ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِأَفْوَٰهِهِمْ﴾ أي حاصل كلامهم وخلاصة مرامهم قولهم بأفواههم آمنا يا محمد ﴿وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ﴾ أي ولم توافق قلوبهم ألسنتهم في الإيمان.

وقوله: ﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ سَمَّٰعُونَ﴾ معطوف عى قوله من الذين آمنوا. فيكون المسارعون إلى الكفر قسمين: الأول المنافقون، والثاني اليهود وبينهما عموم وخصوص من وجه. والحاصل لا تهتم بأعمالهم وبأحوالهم فإنهم قوم خفاف لا وزنَ لهم والرسول في تبليغ رسالته يصادف كثيراً من الأصناف من المؤمنين الصادقين والكافرين المعاندين والكافرين المنافقين وهذه سنّة الله في العالمين.

وقوله: ﴿سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ﴾ خبر لمبتدأ محذوف، أي هم سماعون للكذب يعني قابلون وآخذون له لا سيما إذا تلقوه من جانب الأحبار المفترين. وكذلك ﴿سَمَّٰعُونَ لِقَوْمٍ ءَاخَرِينَ﴾ أي وهم سماعون لقوم آخرين غير الأحبار الذين حضروا مجلسك. وقوله: ﴿لَمْ يَأْتُوكَ﴾ صفة أولى للقوم. أي لم يأتوا إليك لحد الآن ولم يحضروا مجلسك تكبراً وعناداً. وقوله: ﴿يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ مِنۢ بَعْدِ مَوَاضِعِهِۦ﴾ صفة ثانية للقوم. أي يميلون الكَلِمَ عن المعاني التي وضعت هي لها بالتأويلات الفاسدة. أو يحرِّفون بعضَ حروف الكلمة إلى غير محلها بقلب المكان لأجل التشويه والتشويش أو يبعدونها عن مواضع التلفظ وهي الألسنة. أي لا ينطقون بها بل يهملونها. وقوله: ﴿يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ﴾ صفة ثالثة للقوم، أي يقولون لأتباعهم السماعين لهم: إن أوتيتم من جانب محمد مثل ﴿هَٰذَا﴾ الكلام الذي نحن نقوله لكم ﴿فَخُذُوهُ﴾ واقبلوه، ﴿وَإِن﴾ أوتيتم شيئاً يخالف ما نَقُولُه لكم فلا تقبلوه، واحذروا منه وإياكم وإياه. ومعلوم أن ما يُؤْتَوْنَ من جانب الرسول ﷺ نقيض أو ضد لما يؤتون من جانب أولئك الفاسدين، فإنهم يدّعون تأبيدَ دين موسى وسيدنا محمد ﷺ يقول: أنا رسولُ الله وخاتمُ النبيين وكتابي آخر الكتب، وشريعتي آخر الشرائع، أصدق برسالتي ورسالة جميع الرسل، وبرهاني قرآن أنزله الله عليَ فرقاناً بين الحق والباطل، والعامل والعاطل. فكيف هذان يلتقيان؟ ثم أخذ الباري يُسَلّي قلب حبيبه محمد ﷺ على معارضة أولئك الفاسدين المعاندين ويقول له: ﴿وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتْنَتَهُۥ﴾ ابتلاءه وعذابه وهلاكه في الدنيا أو في الآخرة ﴿فَلَن تَمْلِكَ لَهُۥ﴾ فلن تستطيع له ﴿مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾ قليلاً أو كثيراً في دفع فتنته ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَمْ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ﴾ من رجس الكفر والضلالة لأنهم اختاروا أن يبقوا على العناد مع صاحب الرسالة ﴿لَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ﴾ من فضيحتهم وهتك سترهم بإظهار نفاقهم بين الناس، وازدياد محنتهم بازدياد منحته للمسلمين ﴿وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ لا يعلم مداه إلا الله العليم. وسرُّ استحقاقهم لذلك أنهم

﴿سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ﴾ ومحبون له وراغبون في قبوله و﴿أَكَّٰلُونَ لِلسُّحْتِ﴾ أي للحرام الذي يوجب استئصال أهله من ساحة رحمة الله وفضله ﴿فَإِن جَآءُوكَ﴾ متخاصمين ومتحاكمين إليك فيما وقع بينهم من المخاصمات ﴿فَٱحْكُم بَيْنَهُمْ﴾ بما أراك الله تعالى ﴿أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ غير مبالٍ بهم غير ناظر إلى مضرتهم ومنفعتهم ﴿وَإِن تُعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ وقصدوا إضرارك ﴿فَلَن يَضُرُّوكَ شَيْـًٔا﴾ من الضرر ﴿وَإِنْ حَكَمْتَ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ﴾ يعني بشريعتك التي كلها عدل وقسط ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾ العادلين في الأحكام المهتمين بانتشار العدالة والراحة بين طبقات الأنام.

﴿وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ﴾ أي يجعلونك حكماً مرضياً مع أنهم لا يؤمنون بك وبشريعتك ﴿و﴾ الحل أن ﴿عِندَهُمُ ٱلتَّوْرَىٰةُ﴾ المنزلة من الله و﴿فِيهَا حُكْمُ ٱللَّهِ﴾ تعالى وهم يدعون الإيمان بها مع أنه لا ينقادون لحكمها ﴿ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ﴾؟ يعني ثم يُعرضون عن حكمك الموافق للحق المنصوص عليه في كتابهم ﴿وَمَآ أُوْلَٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ بكتابهم فضلاً عن أن يؤمنوا بك وبحكمك. والحاصل أنهم كافرون حتى بكتابهم ولا يصدقون في تحكيمك وحكمك بالعدل بينهم. فقد خسروا الأول والآخر ذلك الخسران المبين.

ثم أتى مستأنفاً بكلام سيق لتقرير فظاعة أحوالهم وأنهم براء من الحق وقال: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى﴾ أي فيها آيات وإصحاح تسبب في هداية المهتدين، ونور وإيضاح للأحكام المغلقة الموجودة فيها. أو أنها نور كاشف للظلمات وليس فيها ظلمة تحتاج إلى الكشف ﴿يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟﴾ أي كانت يحكم بها النبيون الذين أسلموا دينهم لله ﴿لِلَّذِينَ هَادُوا۟﴾ أي لبيان الحقائق وفصل الخصومات لإفادة الذين انتسبوا إلى دين اليهود ﴿وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ﴾ أي وكان يحكم بها عبادهم الزاهدون السالكون مسالك الحق، والأحبار من علمائهم الأمناء المتبعين طريقة أنبيائهم، وذلك ﴿بـ﴾ سبب ﴿مَا ٱسْتُحْفِظُوا۟ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾ وأمانتهم في العمل مما جعلوه أمناء حافظين له ﴿وَكَانُوا۟ عَلَيْهِ﴾ أي على ذلك الكتاب وهو التوراة ﴿شُهَدَآءَ﴾ رقباء حاضرين عليه حامين له من تعرض المحرفين، وقلنا لهم على ألسنة رسلهم ﴿فَلَا تَخْشَوُا۟ ٱلنَّاسَ﴾ ولا تغيروا حكم الكتاب خوفاً منهم ﴿وَٱخْشَوْنِ﴾ في التمرد عن أمري ﴿وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِى﴾ أي ولا تبدلوا آياتي أي العمل بها وتطبيقها في الحكم بين الناس ﴿ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ من الهدايا والرشايا ومتاع الدنيا الدنية ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ ولم يصدق به وأهمل حكمه ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ

﴿ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٤٤﴾ وَكَتَبْنَا﴾ عطف على أنزلنا أي إنا كتبنا في التوراة ﴿عَلَيْهِمْ﴾ أي على الذين هادوا ﴿فِيهَآ﴾ أي في التوراة ﴿أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ﴾ يعني أن نفس القاتل مقتصة بالنفس ومقتولة بها ﴿وَٱلْعَيْنَ بِٱلْعَيْنِ وَٱلْأَنفَ بِٱلْأَنفِ وَٱلْأُذُنَ بِٱلْأُذُنِ وَٱلسِّنَّ بِٱلسِّنِّ﴾ أي أن العين مأخوذة بالعين، والأنف مأخوذة بالأنف وهكذا. ﴿وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌ﴾ أي والجروح ذات قصاص. وهذا الحكم فيما إذا كانت بحيث تعرف المساواة، وإلا فالحكومة حتى لا يقع غدر في الجزاء ﴿فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ﴾ أي القصاص أي فمن عفا عنه ﴿فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُۥ﴾ أي فالتصدق به كفارة لخطيئاته. عن رسول الله ﷺ: «**من تصدق بدم فما دونه فهو كفارة له من يوم ولد إلى يوم يموت**». ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ أي الكافرون إذا كان عدم حكمه ناشئاً من عدم الإيمان به، أو المتعدون على حقوق الغير إذا كان عدم الحكم من البغي فقط لا من عدم الإيمان. ولما بين بعض أحكام التوراة شرع في بيان بعض أحكام الإنجيل فقال: ﴿وَقَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ﴾ يعني جئنا بعيسى ابن مريم على آثارهم قافياً لهم حال كونه ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ﴾ وهو حال مؤكدة لأن التصديق بالحقائق من لازم الرسول عليه السلام. ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ﴾ الكتاب المسمى بـ ﴿ٱلْإِنجِيلَ﴾ بكسر الهمزة، ﴿فِيهِ﴾ هدى للمهتدين ﴿وَنُورٌ﴾ للعابدين. ﴿وَمُصَدِّقًا﴾ هذا الإنجيل لما بين يديه من التوراة ﴿وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾ أي للساعين للاتصاف بالتقوى ﴿وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ ٱلْإِنجِيلِ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فِيهِ﴾ من الأمور التي تشهد برسالة سيدنا محمد ﷺ، وبما تتفق مع شريعته، فإن الرسل متفقون في الاعتقاديات وفي بعض العمليات فقط. ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾. الخارجون عن الإيمان على تقدير، وعن حكمه على تقدير آخر.

﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٤٨﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ يعني كما أنزلنا الكتب على الرسل والسابقن وأنزلنا التوراة على موسى والإنجيل على عيسى كذلك أنزلنا إليك وأنت

خاتم الرسل والنبيين الكتاب الكامل الحقيق بأن يسمى كتاباً، المعجز لفظاً ومعنى، الرصين حرفاً ومبنىً، إنزالاً متلبساً ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ والصدق ﴿مُصَدِّقًا﴾ ذلك الكتاب ﴿لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا﴾ ورقيباً ومحافظاً ﴿عَلَيْهِ﴾ أي على الكتاب السماوي يشهد على ما سلم بالصحة وعلى ما حرف بالتحريف ﴿فَٱحْكُم بَيْنَهُم﴾ أي بين أهل الكتاب إذا تحاكموا إليك ﴿بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ﴾ الزائغة عن ﴿ٱلْحَقِّ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ أي جعلنا لكل رسول منكم شريعة ومنهاجاً، فما دام الدين والشريعة باقية لأي واحد منكم وجب العمل بها، وما دام نسخ وجب العمل بالناسخ ولا يجوز لك أيها الحبيب الميل إلى ما هم عليه ويجب عليك الحكم بما نزل عليك ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ﴾ من آدم إلى الخاتم ﴿أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ على شريعة واحدة ﴿وَلَٰكِن﴾ ـه لم يشأ ذلك رعاية لحكمته في تطور الأمم وتجدد الشرائع ﴿لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ﴾ ليعاملكم معاملة المختبر فيما آتاكم من الشرائع هل تستقيمون على الحق بحسب تجدد الشرائع أو تبقون على ما أردتم حسب اقتضاء الطبائع؟ ﴿فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ﴾ فسارعوا إلى ما هو خير لكم من الشريعة الجديدة ﴿إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾.

﴿وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ لَفَٰسِقُونَ ﴿٤٩﴾ أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٥٠﴾﴾.

عن ابن عباس قال: اجتمع قوم من أحبار اليهود منهم كعب بن أسد، وعبد الله بن صوريا، وشاس، وقال بعضهم لبعض: اذهبوا بنا إلى محمد ﷺ لعلنا نفتنه عن دينه فإنما هو بشر. فجاؤوه، فقالوا: يا محمد إنك قد عرفت أنا أحبار اليهود وأشرافهم وسادتهم وأنا إن اتبعناك اتبعتنا اليهود ولم يخالفونا، وإن بيننا وبين قوم خصومة فنحاكم إليك فاقض لنا عليهم حتى نؤمن بك ونصدقك! فأبى رسول الله ﷺ ذلك وأنزل الله فيهم الآيتين. رواه ابن إسحاق والبيهقي وابن أبي حاتم.

قوله تعالى: ﴿وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم﴾ عطف على الكتاب، يعني وأنزلنا إليك والأمر

بالحكم بينهم ﴿بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ لا بما تهواه أنفسهم الفتانة ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ﴾ في أي حكم من الأحكام ﴿وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ﴾ مما يخالف أهواءهم فإن الحق أحق أن يتبع ﴿فَإِن تَوَلَّوْا﴾ وأعرضوا عن حكمك بما أنزل إليك وأرادوا غيره ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ﴾ يعني فاعلم أنهم كافرون ولهم ذنوب كثيرة عدا كفرهم وإن الاعراض عن حكمك ذنب آخر أضافوه إليها. ولا شك أن الله تعالى يعذبهم عليه كما يعذبهم على سائر الذنوب وإن ذنب التولي بعض منها.

ويظهر من هذه الآية أن الكفار كما يعذبون على نفس الكفر عذاب الخلود كذلك يشتد عذابهم على ذنوبهم الأخرى ودرجات شدة عذابهم الإضافية بقدر درجات ذنوبهم فيعلم أن الكافر المفسد بين الناس عذابه أشد من الكافر المسلم ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ لَفَٰسِقُونَ﴾ أي كثير من الناس الكافرين متجاوزون عن حدود الكفر المجرد ويضيفون إلى اعتقادهم الفاسد أعمالاً قبيحة يعذبون علها علاوة على عذاب أصل الكفر أعاذنا الله منها. ثم أنزل الله تعالى استنكاراً لما أرادوه من حكم الرسول ﷺ بما يريدونه وقال: ﴿أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ﴾ أي أيعرضون عن قبول حكمك بما أنزل الله ويطلبون حكم الجاهلية اللا دينية، وهو الحكم بالهوى إن هذا لشيء عجيب! ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾؟ أي ليس أحد أحسن وأعدل من الله حكماً. وهذا الأمر ثابت عند قوم يوقنون ويعلمون الحق بيقين. فمن أراد حكم الجاهلية الجهلاء لا شك أنه جاهل بل من أجهل الجاهلين لأن الباطل زاهق عند مجيء الحق.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ ۘ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَٰرِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ ۚ فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِىَ بِٱلْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِۦ فَيُصْبِحُوا۟ عَلَىٰ مَآ أَسَرُّوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ نَٰدِمِينَ ﴿٥٢﴾ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ ۙ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ ۚ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فَأَصْبَحُوا۟ خَٰسِرِينَ ﴿٥٣﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ خطاب يعم حكمه جميع المؤمنين من المخلصين وغيرهم فيقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ﴾ أي لا يتخذ

أحد منكم أحداً منهم ولياً، فلا تصافوهم مصافاة الأحباب ولا تعتمدوا عليهم، فإن اليهود والنصارى ﴿بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾ يعني إن اليهود متحابون فيما بينهم، والنصارى متحابون كذلك، وكل من الفريقين يعادونكم روحاً ولا فائدة في موالاتهم إلا الخسران. ﴿يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ﴾ إذا كان تولِّيهِ لهم من حيث أنهم يهود أو نصارى فيكون كافراً واقعياً، ولا يبقى له علاقة بالإسلام، وإذا كان توليه له لاشتراكه معه في تجارة أو صناعة فلا يحكم بكفره، ولكنه يخاف من اختلاطه بهم أن يسري إليه فساد الاعتقاد ويقال في حقه: إنه منهم. وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ تعليل آخر للنهي عن اتخاذهم أولياء يعني إن الله تعالى لا يهدي أولئك القوم الظالمين أنفسهم بالاستمرار على اليهودية والنصرانية إلى خير وفائدة حتى يستفيد الموالي له شيئاً من المنافع. وإنما هم واغلون في الضلال والموالي لهم يخاف عليه من ذلك.

ثم يستعرض الباري تعالى أحوال المنافقين الذين يوالون الكفار وأقوالهم في تبرير موقفهم من موالاتهم بقوله: ﴿فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ من النفاق كعبد الله بن أبيّ وأشباهه ﴿يُسَٰرِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ﴾ في الاعتذار عن موالاتهم لهم: ﴿نَخْشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ﴾ أي بلاء ومصيبة واردة علينا كالجدب والقحط أو نخشى أن تدور علينا دائرة من دوائر الدهر فينقلب الأمر للكفار وتكون الدولة لهم على المسلمين فنحتاج إليهم إذ ذاك ونحن بموالاتنا اليوم لهم نستعد للاستفادة منهم في ذلك الوقت. وبعد ذلك رد الله على المعتذرين وقطع خيالاتهم الباطلة وبشر المؤمنين بقوله الكريم: ﴿فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِىَ بِٱلْفَتْحِ﴾ أي بفتح مكة، أو فتح سائر بلاد الكفار فتكون الغلبة للمسلمين، ولا تبقى لهم حاجة إلى أولئك الكفار، وقد حقق الله تعالى ما بشر المسلمين به ﴿أَوْ﴾ أن يأتي بـ ﴿أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِۦ﴾ من قتل بني قريظة وإجلاء بني النضير عن الجزيرة ﴿فَيُصْبِحُوا۟﴾ أي أولئك المنافقون المعتذرون ﴿عَلَىٰ مَآ أَسَرُّوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾ من الكفر أو التردد في نصر النبي ﷺ ﴿نَٰدِمِينَ﴾ وقد جاء الباري بالأمر من عنده والنصر لجنده فاندحر المنافقون وأجلي اليهود. وقوله تعالى: ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟﴾ إما كلام مستأنف مسوق لبيان مقالة المؤمنين عند مجيء النصر والأمر من عند الله تعالى أو منصوب بالعطف على قوله: ﴿فَيُصْبِحُوا۟﴾ أي أن يقول المؤمنون بعضهم لبعض: ﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ﴾ المنافقون ﴿ٱلَّذِينَ أَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ﴾ وأقوى وأغلظ أحلافهم ﴿إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ﴾ أيها المؤمنون. وظهر سوء حالهم وفساد نيتهم مع الرسول وأصحابه

حتى دحرهم الله تعالى. أو يقول المؤمنون لليهود: أهؤلاء المنافقون الذين أقسموا بالله جهد أيمانهم إنهم لمعكم أيها اليهود فما بالهم ما أفادوكم شيئاً عند إجلائكم من الديار؟ وقولهم هذا بعضهم لبعض منهم أو لليهود الذين أخرجوا من الديار إما قد وقع إن كان بيان الباري سبحانه وإظهاره ذلك على حسب علمه بالوقوع أو مفروض ومقدر على معنى أنه مما يتصور ويفرض أن يقول المؤمنون ذلك الكلام بعضهم لبعض، أو بعضهم لليهود كما ذكرنا آنفاً. وقوله: ﴿حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فَأَصْبَحُوا۟ خَٰسِرِينَ﴾ إما من مقالة المؤمنين، أو مسوقة من جهته تعالى لبيان مآل ما صنعه المنافقون وهذا أظهر.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ ۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٤﴾ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَٰكِعُونَ ﴿٥٥﴾ وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٥٦﴾﴾.

عن عبادة بن الصامت قال: لما حاربت بنو قينقاع رسول الله ﷺ تشبث بأمرهم عبدُ الله بن أن سَلُول وقام دونهم، ومشى عبادة بن الصامت إلى رسول الله ﷺ وتبرأ إلى الله وإلى رسوله من حلفهم. وكان أحد بني عوف بن الخزرج وله من حلفهم مثل الذي لهم من عبد الله بن أبيّ، فخالفهم إلى رسول الله ﷺ وتبرأ من حلف الكفار وولايتهم، وقال: يا رسول الله أبرأ إلى الله ورسوله من حلفهم، وأتولى الله ورسوله والمؤمنين. قال عبادة: فَفِيَّ وفي عبد اللهِ بنِ أبيّ نزلت الآيات من ﴿يَٰٓأَيُّهَا﴾ إلى ﴿فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ رواه ابن إسحاق وابن جرير والبيهقي.

قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ شروع في بيان حال المرتدين على الإطلاق بَعْدَ نهيه تعالى عن موالاة اليهود والنصارى، وبين أنّ موالاتهم مستدعية للارتداد عن الدين.

وفي روح المعاني: وهذا من الكائنات التي أخبر عنها القرآن قبل وقوعها. فقد روي أنه ارتد عن الإسلام إحدى عشرة فرقة: ثلاث في عهد رسول الله ﷺ:

الأولى: بنو مدلج ورئيسهم ذو الحمار، وهو الأسود العنسي، كان كاهناً تنبأ باليمن واستولى على بلاده فأخرج منها عُمّالَ النبي ﷺ. فكتب ـ ﷺ إلى معاذ بن جبل وإلى سادات اليمن. فأهلكه الله تعالى على يدي فيروز الديلمي، بيّته فقَتَلَهُ

وأخبر رسول الله ﷺ بقتله ليلةَ قُتِلَ، فسُرَّ به المسلمون وقُبض ﷺ من الغد وأتى خبره في شهر ربيع الأول.

الثانية: بنو حنيفة قوم مسيلمة الكذاب بن حبيب تنبأ وكتب إلى رسول الله ﷺ من مسيلمة رسول الله إلى محمد رسول الله ﷺ: سلام عليك. أما بعد: فإني قد أُشرِكْتُ في الأمر معك، وإن لنا نصف الأرض ولقريش نصف الأرض. ولكن قريشاً قوم يعتدون. فقَدِمَ على رسولِ الله ﷺ رَسولان بذلك. فحين قرأ ﷺ كتابه قال لهما: «فما تقولان أنتُما؟» قالا: نقول كما قال. فقال ﷺ: «**أما والله لولا أَنَّ الرُّسلَ لا تَقْتُل لضربت أعناقكما**» ثم كتب إليه:

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

«من محمد رسول الله إلى مسيلمة الكذاب. السلام على من اتبع الهدى. أما بعد: ﴿إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾».

وكان ذلك في سنة عشر من الهجرة، فحاربه أبو بكر رضي الله عنه بجنود المسلمين وقُتِلَ على يَدَي وحشي قاتِل حمزة رضي الله عنهما وكان يقول: قتلت في جاهليتي خير الناس وفي إسلامي شر الناس. وقيل: اشترك في قتله هو وعبد الله بن زيد الأنصاري طعنه وحشي وضربه بسيفه عبد الله. وهو القائل في أبيات:

يسائلني الناسُ عن قتله ... فقلت ضربتُ وهذا طَعَنْ

الثالثة: بنو أسد قوم طليحة بن خويلد، تنبأ فبعث إليه أبو بكر رضي الله عنه خالد بن الوليد فانهزم بعد القتال إلى الشام، فَأَسْلَمَ وحَسُن إسلامه.

وارتدت سبع في عهد أبي بكر رضي الله عنه (فزارة) قوم عيينة بن حصن، و(غطفان) قوم قرة بن سلمة القشيري، و(بنو سليم) قوم الفجاءة ابن عبد ياليل، و(بنو يربوع) قوم مالك بن نُويرة، و(بعض بني تميم) قوم سجاح بنت المنذر الكاهنة تنبأت وزوجت نفسَها من مُسَيْلَمة في قصة شهيرة. وصح أنها أسلمت بعدُ وحَسُنَ إسلامُها. و(كنده) قوم الأشعث بن قيس. وبنو بكر بن وائل بالبحرين قوم الحطم بن زيد. وكفى الله تعالى أمرَهم على يدي أبي بكر رضي الله عنه. وفرقة واحدة في عهد عمر رضي الله عنه وهم غسان قوم جبلة بن الأَيْهم؛ تنصر ولحق بالشام ومات على رِدّته. وقيل أنه أسلَم.

ويروى أن عمر ﷺ كتب إلى أحبار الشام لما لحق بهم كتاباً فيه: إن جبلة وَرَدَ إليّ في سراة قومه فأسلم فأكرمته، ثم سار إلى مكة فطاف فوطأ إزاره رجل من بني فزارة، فَلَطَمهُ جبلةُ فهَشَمَ أَنْفَه وكَسَرَ ثناياه. وفي رواية: قلع عينه فاستعدى الفزاري على جبلة إلي، فحكمت إما بالعفو وإما بالقصاص. فقال: أتقتص مني وأنا ملِك وهو سَوَقَة؟ فقلتُ: شملك وإياه الإسلام فما تفضله إلا بالعافية. فسأل جبلة التأخير إلى الغد. فلما كان من الليل ركب مع بني عمه ولحق بالشام مرتداً. وروي أنه ندم على ما فعله وأنشد:

تنصرت بعد الحق عاراً للطمة ... ولم يك فيها، لو صبرت لها ضَرر
فأدركني منها لجاج حمية ... فبعت لها العين الصحيحة بالعور
فياليت أمي لم تلدني، وليتني ... صبرت على القول الذي قاله عمر!

واعترض القول بأنها من الكائنات التي أخبر الله تعالى عنها قبل وقوعها بأن مَنْ شرطية والشرط لا يقتضي الوقوع إذ أصله أن يستعمل في الأمور المفروضة! وأجيب: بأن الشرط قد يستعمل في الأمور المحققة تنبيهاً على أنها لا يليق وقوعها بل كان ينبغي أن يدرج في الفرضيات وهو كثير. وقد علم من وقوع ذلك بعد هذه الآية أن المراد هذا انتهى. ومعنى الآية: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ﴾ فإنما يعود الوبال عليه بالخزي في الدنيا والعذاب في الآخرة، ولا ضرر فيه على الإسلام والمسلمين، ﴿فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ﴾ تعالى مكانهم بعد إهلاكهم ﴿بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ﴾ الله تعالى محبة لائقة بذاته تعالى ﴿وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ بميلهم إلى إطاعته في الأوامر والنواهي بإخلاص ونشاط وذوق واشتياق تام وعلامة تحقق تلك المحبة أمور ظاهرة للعيان، وأمور خفية إلا على الأعيان، أما الأمور الظاهرة فهي موافقة أعمالهم وآدابهم وأخلاقهم لكتاب الله وسنة رسوله بلا إفراط ولا تفريط وإذا نظر الإنسان المنصف إلى من يتصف بتلك الأعمال والآداب علم أنهم الخاشعون في الأعمال المتواضعون المنكسرون إزاء المسلمين ضعافهم وأقويائهم الهادئون في الكلام والإرشاد الباذلون أموالهم في سبيل منفعة الإسلام والمسلمين، التاركون لسفاسف المطامع الدنية، المكتفون بما قسم الله تعالى. وأما الأمور الخفية التي تظهر للأعيان فهي أن مجالسهم مجالس الدعوة إلى الله، وكلامهم فيه جذب، وسيماهم فيها نور ورحمة، ومن رافقهم مدة من الزمان نال بغيته من التمكن في الإيمان

وسكينة القلب والاطمئنان. فهم بالحقيقة يشبهون المرايا في صدورهم سطور من الأدب والوقار. حشرنا الله معهم يوم القرار آمين.

ومن علاماتهم الظاهرة والباطنة ما أفاده الباري ـ جل شأنه ـ بقوله: ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ فإن من مظاهر الفقرة الأولى لطفهم ورحمتهم بالمسلمين لا سيما الضعفاء والمساكين، ومن خفاياه خدماتهم بمحبة كاملة، وإسعافهم للمحتاجين إلى المال أو إلى الإرشاد أو إلى الإسعاف، ورغبتهم في استخلاصهم عن المضايق مطلقاً. ومن مظاهر الفقرة الثانية قوة بأسهم وجهادهم وتغلبهم على الكافرين. ومن خفاياه التي تجلو على أهل المعرفة معنوياتهم وقوتهم الروحية ووقارهم ومهابتهم المعنوية على أهل البغي والعناد، فهم لا يهتمون بهم ولا يميلون إليهم، ويبعدون الناس عن موالاتهم، ويحبونهم في الله ورسوله وشريعته ودينه ﴿و﴾ إنهم ﴿لَا يَخَافُونَ﴾ في تطبيق ما هم عليه ﴿لَوْمَةَ لَآئِمٍ﴾ في ما يأتون من الجهاد والإرشاد والتصلب في بيان الحق، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بقدر المستطاع ﴿ذَٰلِكَ﴾ المذكور والصفات المفهومة منه ﴿فَضْلُ ٱللَّهِ﴾ أي لطفه وإحسانه ﴿يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ﴾، والله ذو الفضل العظيم يختص برحمته من يشاء ﴿وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ﴾ الرحمة ﴿عَلِيمٌ﴾ بمواقع الكرم والنعمة من هذه الأمة.

وإنما قلت وعلامة محبتهم وتحقق تلك المحبة؛ لأن المحبة أمر نفسي معنوي لا يعلم مداها ودرجاتها إلا الله، وليست هذه الأعمال الظاهرة أو الأحوال الباطنة فإنها تحصل وتنشأ منها، وذلك ظاهر لأهل البصيرة، ويدل قوله ﷺ في جواب الأعرابي: «**المرء مع من أحب**» مع أنه أفاد بصراحة أن ليست عنده الأعمال والمجاهدات والطاعات إلا أنه يحب الله ورسوله.

والمراد بهؤلاء القوم في المشهور أهل اليمن، فقد أخرج ابن أبي شيبة في مسنده والطبراني والحاكم وصححه من حديث عياض بن عمر الأشعري أن النبي ﷺ لما نزلت الآية أشار إلى أبي موسى الأشعري وهو من صميم اليمن وقال: «**هم قوم هذا**».

وعن الحسن وقتادة والضحاك أنهم أبو بكر وأصحابه رضي الله عنهم الذين قاتلوا أهل الردة. وعن السدي أنهم الأنصار. وقيل هم الذين جاهدوا يوم القادسية: ألفان من النخع، وخمسة آلاف من كندة وبجيلة، وثلاثة آلاف من أفناء الناس أي أخلاطهم، وهذا القول أشبه بالقبول لأن تصدير الفعل المضارع بسوف يدل على أن القوم لم يكونوا حاضرين في ذلك الوقت.

ومما يقرب من اعتقادي أن ذلك القوم ليسوا إلا القوم القائمين بأمر الدين ونصرته عند تعارض الأقوام وتبلبل الأفكار واضطراب المسلمين وحاجتهم إلى التعاون فيشمل ذلك جيش أبي بكر ﷺ في حروب الردة، وجيش عمر في فتح البلاد الشرقية والغربية والشمالية، والأئمة الاعتقادية المدافعين عن العقائد والدافعين لأهل الاعتقادات الزائفة، والمحدثين المحقين المحققين لأسانيد الأحاديث الشريفة، والأئمة المجتهدين المدونين لأحكام الإسلام، والمجاهدين في إعلاء كلمة الحق والدين كصلاح الدين الأيوبي الذي رد جيوش الصليبيين إلى ديارهم، والماحي لآثارهم، وكل من سعى في تثبيت العقيدة الإسلامية في قلوب المسلمين عند ظهور البدع والأهواء. وهذا الأمر وهذا الإتيان يستمر إلى يوم القيامة. ومعنى الآية حينئذ: يا أيها الذين آمنوا من يرتد منكم عن دينه فإن الله غني عنه، وإنه يأتي بقوم في كل زمان بحسب الحكمة والمصلحة في ترويج الإسلام يحبهم الله ويحبونه.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ مربوط بقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ﴾ ومعناه حينئذ لا تتخذوا أولئك الكافرين أولياء فليسوا أولياء لكم بل هم بعضهم أولياء بعض، وإنما وليكم الله الذي يتولى أموركم والرسول الذي بعثه الله تعالى رحمة لكم ويعز عليه هلاككم، والذين آمنوا من المتحدين معكم في مبدأ الإيمان بالله وبرسوله محمد ﷺ، والمتعاونين معكم في الجهاد والمتوافقين لكم في العبادة لله الواحد ﴿ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ بنشاط وخشوع ويؤتون الزكاة للمعتر والقنوع. وقوله: ﴿وَهُمْ رَٰكِعُونَ﴾ حال من فاعل الفعلين أي يعملون ما ذكر من إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة وهم خاشعون متواضعون لله في صلاتهم وزكاتهم ولا يريدون إلا وجهه تعالى ورضاه ولا ينظرون إلى أحد سواه. وقيل: هو حال مخصوصة بقوله تعالى: ﴿وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ أي يؤتون الزكاة في حال ركوعهم في الصلاة حرصاً على الإحسان ومسارعة إليه، وأنها نزلت في علي ﷺ حين سأله سائل وهو راكع في صلاته فطرح له خاتمه.

﴿وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾: أي ومن يتول من ذكر فهو من الغالبين على نفسه والشيطان وأعوانه، لأنه بتوليته لله ولرسوله وللمؤمنين يدخل في حزب الله المستعد للجهاد والكفاح في سبيله، وحزب الله هم الغالبون. ينتج من الشكل الأول البديهي الإنتاج أن من يتولى الله ورسوله والذين آمنوا هم الغالبون.

واستدل الإمامية بهذه الآية على إمامة علي ـ كرم الله وجهه ـ ووجه الاستدلال: أنهم يدعون الإجماع على أنها نزلت فيه، وكلمة إنما تفيد الحصر، ولفظ الولي بمعنى المتولي للأمور والمستحق للتصرف فيها، وظاهر أن المراد التصرف العام المساوي للإمامة بقرينة ضم ولايته بولاية الله تعالى ورسوله ﷺ فثبتت إمامته وانتفت إمامة غيره، وإلا لبطل الحصر، ولا إشكال في التعبير عن الواحد بالجمع فقد جاء في غير ما موضع من الكلام البليغ.

وقد أجيب عنه بوجوه:

الأول: منع الإجماع على نزولها فيه ـ كرم الله وجهه ـ، وكيف وقد اختلف علماء التفسير في ذلك؟ فروى أبو بكر النقاش صاحب التفسير المشهور عن محمد الباقر رضي الله عنه أنها نزلت في المهاجرين والأنصار. وقال قائل: نحن سمعنا أنها نزلت في علي ـ كرم الله وجهه ـ. فقال: هو منهم يعني أنه كرم الله تعالى وجهه داخل في المهاجرين والأنصار وواحد منهم. وهذه الرواية أوفق بصيغ الجمع في الآية. فإن قالوا الضرورة تدعو إلى القول بنزولها فيه ـ كرم الله وجهه ـ إذ التصدق على السائل في حال الركوع لم يقع من أحد غير الأمير ـ كرم الله وجهه ـ. قلنا: ليست الآية نصاً في كون التصدق واقعاً في حال ركوع الصلاة لجواز أن يكون الركوع بمعنى التخشع والتذلل لا بالمعنى المعروف في الصلاة. وقد استعمل في معنى الخشوع في القرآن الكريم كما في قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَٱرْكَعِى مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ﴾ إذ ليس في صلاة من قبلنا من أهل الشرائع ركوع واحد هو أحد الأركان بالإجماع. وكذا في قوله تعالى: ﴿وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ﴾ وليس حمل الركوع في الآية على غير معناه الشرعي بأبعد من حمل الزكاة المقرونة بالصلاة على مثل ذلك التصدق وهو لازم على مدعي الإمامية قطعاً.

الثاني: أنا لا نسلم أن المراد بالولي المتولي للأمور المتصرف فيها تصرفاً عاماً بل المراد بها الناصر لأن الكلام في تقوية قلوب المؤمنين وإزالة الخوف عنها من المرتدين.

الثالث: أنه لو كان المراد بالولي المتصرف للأمور والمالك لها لم ينطبق إلا على الله سبحانه وتعالى، ولو كان المراد به المبلغ للأحكام لم يجر إلا على الرسول بالذات.

الرابع: أنه لو كان المراد بالولي ما ذكروه لكانت الآية نصاً في نفي الإمامة عن السبطين ومن بعدهما من الأئمة الذين اعتبروهم أئمة للمسلمين.

الخامس: أنه وإن كان استعمال صيغة الجمع جائزاً للواحد مجازاً لكن في استعمال الصيغ الجمعية المتتالية في شخص واحد بُعدٌ غير مناسب لبلاغة القرآن الكريم.

السادس: أن الولاية بمعنى الإمامة إنما تكون بعد عهد النبوة والرسالة والولاية المتأخرة عن عهد الرسالة غير مشروطة بالاتصال بعهد الرسول، وإذا لم تتصل بعهده فلا يوجد مسلم يمنع أن تكون الولاية بهذا النمط ثابتة للإمام ـ كرم الله وجهه ـ.

السابع: أنه لو سلم جميع ما ادعوه لكن لا نسلم أن مورد النزول يخصص العام بنفسه، فلتكن الولاية ثابتة للإمام ـ كرم الله وجهه ـ ولغيره من سائر الخلفاء، والتقدم والتأخر لا يمنعان تحققها.

الثامن: أنه لو سلم ذلك كان الواجب على الإمام أن يجهر بدعوى الولاية بذلك المعنى حتى يبرأ من واجب أمانة الله ورسوله، واستمرار الحذر نحو قريب من ست وعشرين سنة لا يناسب شهامة ذلك الأسد الغيور، ولا غيره من المسلمين الكرام.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَٱلْكُفَّارَ أَوْلِيَآءَ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾ وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ ٱتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ ﴿٥٨﴾﴾.

عن ابن عباس قال: كان رفاعة بن زيد ابن التابوت، وسويد بن الحارث قد أظهرا الإسلام ونافقا، وكان رجال مِن المسلمين يُوادّونهما فأنزل الله الآيات ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ إلى ﴿بِمَا كَانُوا۟ يَكْتُمُونَ﴾. رواه ابن حبان وابن إسحاق. وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ﴾ إذا نادى مُنادِي الرسول وصلى المسلمون فركعوا وسجدوا ضحك اليهود منهم واستهزؤوا بهم فنزلت الآية رواه البيهقي في الدلائل.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ خطاب للمؤمنين وتحذير آخر لهم عن الاعتماد

على الكفار وموالاتهم في قالب التعليل على النهي بصفات فاسدة فيهم توجب الاحتراز عنهم يعني ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ بالله حق الإيمان ﴿لَا تَتَّخِذُوا ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا﴾ أي اتخذوه موضع سُخرية ولعب، أي مما يستخف به ولا يهتم به ولا يقدر شأنه. ﴿مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ أي اليهود والنصارى ﴿وَٱلْكُفَّارَ﴾ من غيرهم ﴿أَوْلِيَآءَ﴾ أصدقاء وأحباباً. فإن كل مؤمن يجب عليه رعاية دينه ومقدساته، وإذا صادف أناساً ناسين لحقوق دين الله ويسخرون ويلعبون به وبأهله يجب الابتعاد عنهم والنظر إليهم كأعداء مناوئين له فكيف يتخذونهم أولياء يوثق بهم ويعتمد عليهم في الأمور؟ ﴿وَٱتَّقُوا ٱللَّهَ﴾ في رعاية ذلك النهي، أو اتقوا الله في مباشرة المنهي عنه ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ حقاً، فإن الإيمان داع إلى محبة الدين وأهله ومتاركة الكفر وأهله. ثم بين الله سبحانه وتعالى بعضاً من سفاهة أولئك الناس الكافرين المستهزئين وقال: ﴿وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ﴾ أي أذن المؤذن منكم ودعا المسلمين إلى الصلاة ﴿ٱتَّخَذُوهَا﴾ أي الصلاة والمناداة ﴿هُزُوًا وَلَعِبًا﴾ و﴿ذَٰلِكَ﴾ الاتخاذ بسبب ﴿أَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ﴾ الحقائق؛ إذ لو كانوا يعقلونها لعلموا أن الدين حق، وأن أداء أحكامه واجب، وأن النداء لحضور الشعارات الإسلامية كالجماعة والجمعة وغيرهما من المهمات فما كانوا يسخرون منها. روي عن السدي قال: كان رجل من النصارى بالمدينة إذا سمع المنادي أشهد أن محمداً رسول الله قال: حرق الكاذب! فدخل خادمه بيته ذات ليلةٍ بنار وهو نائم وأهله نيام فسقطت شرارة فأحرقت البيت وأحرق هو وأهله. والكلام سوق لبيان استهزائهم بحكم خاص من أحكام الدين بعد بيان استهزائهم بالدين على الإطلاق إظهاراً لكمال شقاوتهم.

﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٥٩﴾ قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِ مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ ٱلْقِرَدَةَ وَٱلْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَ أُوْلَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴿٦٠﴾ وَإِذَا جَآءُوكُمْ قَالُوٓا ءَامَنَّا وَقَد دَّخَلُوا بِٱلْكُفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا بِهِۦ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُوا يَكْتُمُونَ ﴿٦١﴾﴾.

عن ابن عباس قال: أتى النبي ﷺ نفر من اليهود فسألوه عمن يؤمن به من

الرسل. فقال: أؤمن بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط، وما أوتي موسى وعيسى وما أوتي النبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون. فلما ذكر عيسى جحدوا نبوته وقالوا: لا نؤمن بعيسى ولا نؤمن بمن آمَنَ به. فأنزل الله الآية رواه ابن إسحاق وابن حبان.

قوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ توجيه الأمر إلى حبيبه محمد ﷺ يعني يا حبيبي قل لأولئك الناس الفاسدين المعاندين للحق يا أهل الكتاب النازل من الله الذي وجب على من يؤمن به رعاية الأدب مع الدين وشعائره ﴿هَلْ تَنقِمُونَ﴾ أي تنكرون وتعيبون ﴿مِنَّآ﴾ شيئاً ﴿إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا﴾ من القرآن المجيد ﴿وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلُ﴾ أي من قبل إنزال القرآن كالتوراة والإنجيل. وقوله: ﴿وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَٰسِقُونَ﴾؟ معطوف على قوله ﴿وما أنزل إلينا﴾ يعني هل تعيبون وتنكرون منا إلا هذه الحقيقة الواضحة وهي إيماننا بالله وبما أنزل إلينا من القرآن وبما أنزل من قبل على موسى وعيسى وإيماننا بأن أكثركم فاسقون خارجون عن آداب المؤمنين.

قوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم﴾ الخطابُ لأهل الكتاب لأن المقصود بيان وجبة أخرى من ذواتهم المتصفين بأفسد الأحوال والصفات. والمعنى قل يا حبيبي لهؤلاء المارقين من أهل الكتاب: هل أنبئكم ﴿بِـ﴾ جمع ﴿شَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ﴾ الجمع المذكورين سابقاً من حيث المثوبة والجزاء ﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾ تعالى وهم ﴿مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ﴾ وطرده من ساحة رحمته ﴿وَجَعَلَ مِنْهُمُ ٱلْقِرَدَةَ وَٱلْخَنَازِيرَ﴾ أي مسخ بعضهم قردة وهم شباب أصحاب السبت وبعضهم خنازير وهم شيوخهم. وقوله: ﴿وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ عطف على صلة مَن، وتقديره: ومَن عَبد الطاغوت، والمراد به الشيطان لأن المغضوبين منهم الممسوخ ومنهم الباقي لكن على الكفر والطغيان وعبادة الشيطان. ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ الموصوفون بتلك الصفات الذميمة ﴿شَرٌّ مَّكَانًا﴾ من القوم المتأخر منهم ﴿وَأَضَلُّ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ﴾ أي أكثر ضلالاً عن طريق الحق المستوي وهو دين الإسلام ﴿وَإِذَا جَآءُوكُمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا﴾ نزلت في ناس من اليهود كانوا يدخلون على رسول الله ﷺ ويظهرون الإيمان به نفاقاً ﴿وَقَد دَّخَلُواْ بِٱلْكُفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُواْ بِهِۦ﴾ أي بالكفر يعني كان الكفر ملازمهم وقرينهم عند الدخول والخروج ﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُواْ يَكْتُمُونَ﴾ في صدورهم من الشرور وفيه وعيد شديد.

﴿وَتَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٦٢﴾ لَوْلَا يَنْهَىٰهُمُ ٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ عَن قَوْلِهِمُ ٱلْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴿٦٣﴾﴾.

﴿وَتَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ﴾ في موضع الحال من كثيراً، أو مفعول ثان لترى أي وتعلم أن كثيراً من أهل الكتاب يبادرون إلى التقوّل والافتراء والعدوان مع الرسول وأصحابه ﴿و﴾ يبادرون في ﴿أَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ ۚ﴾ أي الحرام. ﴿لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٦٢﴾ لَوْلَا يَنْهَىٰهُمُ ٱلرَّبَّٰنِيُّونَ﴾ من علماء اليهود الذين يدعون الاختصاص بالله والاجتهاد في الطاعات ﴿وَٱلْأَحْبَارُ﴾ أي علماؤهم الممتازون بكثرة العلم والفضل ﴿عَن قَوْلِهِمُ ٱلْإِثْمَ﴾ في شأن الرسول ﴿وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ ۚ﴾ مع إطلاعهم على أحوالهم ﴿لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ﴾ أي اليهود الآثمون الكاذبون والآكلون للسحت، أو علماؤهم الربانيون وأحبارهم الأفاضل في تحسينهم سيئات أعمال أولئك الفاسدين.

وفي الآية الكريمة إشارة إلى أن أولئك الربانيين شيطانيون وأولئك الأحبار من حملة الأسفار. ولو كان عندهم حقيقة الإيمان ورعاية العهود والأيمان لآمنوا قبل الناس ثم أمروا سائر الأفراد بالتوجه إلى الله والإيمان به وبرسول الله، وما كانت تمنعهم الهدايا والرشايا وسائر الوجوه الفاسدة عن إرشاد الناس إلى الإيمان بسيد المرسلين ـ صلى الله عليه وعليهم أجمعين ـ.

﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ ۚ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا۟ بِمَا قَالُوا۟ ۘ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ ۚ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ۚ وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ كُلَّمَآ أَوْقَدُوا۟ نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا ٱللَّهُ ۚ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا ۚ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٦٤﴾﴾.

عن ابن عباس قال: قال رجل من اليهود يقال له النباش بن قيس: إن ربك بخيل لا ينفق ويده مقبوضة عنا في العطاء! فأنزل الله الآية. وقيل: نزلت في فنحاص رئيس يهود بني قينقاع رواه إبن إسحاق، والطبراني.

قوله تعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ ۚ﴾ القول فيها قول شخص معين، ولكنه

لما رضي الباقون به فكأنه قول الجميع. وقال: قالت اليهود يعني أن اليهود الخاسرين المتجاسرين تجاوزوا على منع الباري تعالى لبعض الأرزاق عن بعض منهم بكلام لا يناسب صدوره إلا من اللئام، وقالوا يد الله مغلولة ممنوعة عن الجود والسماح. فدعا الله عليهم بقوله ﴿غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ﴾ أي خلق الله في قلوبهم الفقر والشح حتى لا يخرج من أيديهم عطاء ولو للأقارب، أو غُلَّت أيديهم في جهنم وقيدت وألقيت في جهنم للتعذيب، ﴿وَلُعِنُوا﴾ وطردوا من رحمته ﴿بِمَا قَالُوا﴾ بشؤم تلك الجملة القبيحة ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾ أي كلا ليس الشأن كما زعموا بل يداه مبسوطتان. أي يدا إنعاماته المتتالية في الدنيا والآخرة، أو في السماوات والأرض، أو لإفاضة النعم المادية والمعنوية ﴿يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ﴾، ولكن ماذا نقول لقوم لا قائمة لهم في سجل السعداء، وكلما أنزلنا آية لإرشادهم إلى الخير جعلوها وسيلة لابتعادهم عنه واقترابهم من الشر ﴿وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم﴾ وهم علماؤهم ورؤساؤهم ﴿مَّا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ الموصول فاعل يزيد، وكثيراً مفعوله الأول، وقوله ﴿طُغْيَانًا وَكُفْرًا﴾ مفعوله الثاني برعاية العطف، ولاستمرارهم على فساد الأفكار والأقوال والأعمال فيما بينهم جازيناهم بسلب السلامة عن قلوبهم ﴿وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ﴾ بعضهم مع بعض ﴿الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ فلا تكاد تتسالم قلوب بعضهم مع بعض، ولا تخلو قلوبهم عن البغض والحقد للآخرين وعليهم، هذا فيما بينهم، وأما مع الرسول وأتباعه فـ ﴿كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِّلْحَرْبِ﴾ بالإفساد وإلقاء الفتن بين المسلمين سواء بين المهاجرين والأنصار أو بين غيرهم ﴿أَطْفَأَهَا اللَّهُ﴾ ولم تبلغ النار إلى حيث يشاؤون من إحراق كيان المؤمنين ﴿و﴾ لا يزالون ﴿يَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ﴾ إلى يوم القيامة بإثارة الكفار على المسلمين أو بإثارة بعض المسلمين على بعض ﴿فَسَادًا﴾ مصدر أي يسعون سعي فسادٍ، أو مفعول له، أي للفساد، أو حال عن فاعل يسعون أي يسعون مفسدين.

﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾ ومنهم اليهود أو المفسدين المعهودين لشدة إفسادهم.

تنبيه: أرجعنا ضمير بينهم إلى اليهود لأن المرجع القريب عبارة عنهم، ووجه ذلك مع أن الناس المجتمعين في العالم لا يزالون يضمرون بعضهم لبعض العداوة

والبغضاء حسب تدافع المصالح أنهم أشد الناس من هذه الناحية، فليس قوم في العالم أحمل للعداوة وأدعى لها مع أمته من اليهود، وذلك معلوم من التاريخ فمن أراد العلم بذلك فليراجع وليطالع. وأما اتفاقهم الصوري في هذا الزمان فليس عبارة عن اتفاق من جذر القلوب، ولكنه اتفاق إجباري فرضه عليهم المستعمرون المسيطرون على البلاد بدعوى أن الأرض هي الأرض المقدسة الموعودة لهم، ويجب أن يأتوا إليها من كل صوب وحد ويسكنوا فيها ويستوطنوها، وذلك لا لمنفعتهم وتربيتهم وتقويتهم، بل ليجعلوها مقراً هادئاً آمناً لهم على البحر الأبيض ليسيطروا بها على شؤونهم وإلقاء الفرقة والفتن بين دول آسيا وأفريقيا وسائر نقاط العالم الشمالي الذي يخافونه، وتلك البلاد أقرب نقطة إليها، أو كمركز دائرة بالنسبة لها. وإلا فلو تَرَكَهُم المستعمرون وامتنعوا عن إدارتهم ورعاية شؤونهم لعادُوا إلى ما كانوا عليه بل أشدّ وأفسد من حيث إظهارُ أحوالهم السيئة وعداوة بعضهم مع بعض، والمستقبل كشاف.

ومن ناحية أخرى: فاليهود مضطرون بطبيعة الحال في هذا الزمان وفي ذلك المكان، وإلا أكَلَهُمُ السّباع من كل جانب، وأما المسلمون فهم، وإن وقع بينهم عداء وبغضاء، ولا سيما في هذا اليوم لكن لم يصلوا إلى ما وصلت اليهود إليه، ولا تنس أن المستعمرين الذين أَجبروا اليهود على الوفاق هم الذين أَجبرُوا المسلمين على الخلاف بشتى الوسائل القوية التي يدركها العقلاء.

وأما قوله تعالى ﴿كُلَّمَآ أَوْقَدُوا۟ نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا ٱللَّهُ﴾ فالمراد بها تارة إثارة الاضطرابات والمخالفات بين القبائل العربية المشركة في مقابلة الرسول ﷺ ومعارضته بشتى الأسباب من شتى الجهات، ثم إثارة المهاجرين والأنصار، ثم إلقاء جذوات الفتن بينهم بعد الرسول، ولو لم تكن له اليد المباشرة في ذلك وإنما كانت لهم أضلاع ووسائط لمقاصدهم، ولا سيما في القرون الأخيرة، لما زادت ثرواتهم وترقت ماليتهم بحيث أثرت في اقتصاديات الدول حتى الدول الكبيرة. ولكن الله سبحانه وتعالى أطفأ نار الفتن المشتعلة منهم في عصر الرسول حتى عاد الأمر إلى إجلائهم من جزيرة العرب. نعم قد عادت لهم الكرة في هذا الدور الأخير بسبب تطور وتغير خريطة الكرة سياسة، واستولوا على بعض المقاصد وأظهروا ما في جعبتهم من المفاسد لكن ربك لهم بالمرصاد، وقد هددهم في سورة

الإسراء بقوله الكريم جل شأنه: ﴿وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا﴾ فقد ظهر الشرط (ومن شرط كل شرط جزاء).

ثم المسلمون اليوم وإن كانوا في تفرق صوري وخلافات، لكن قادتهم وسادتهم علماً وسياسة وكفاية منتبهون لما جاء منهم على المسلمين، وفي باكورة الاستعداد والحركة لتغيير ما جرى عليهم وسينتصرون بحول الله وقوته بشرط المزيد من الجهد حتى يسجلوا أنفسهم في قائمة جنود الله. وبشرنا الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿١٧٣﴾﴾.

﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَٰهُمْ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٦٥﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُوا۟ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَآءَ مَا يَعْمَلُونَ ﴿٦٦﴾﴾.

﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ أي اليهود والنصارى، فإن المراد بالكتاب الجنس الشامل للتوراة والإنجيل ﴿ءَامَنُوا۟﴾ بالله ورسوله محمد ﷺ وبما جاء به من عند الله ﴿وَٱتَّقَوْا۟﴾ ما حرم الله تعالى على لسان رسوله محمد، وتركوا تلك المعاصي التي باشروها ﴿لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ﴾ ولو كانت كبائر ترتجف منها القلوب والأبدان ﴿وَلَأَدْخَلْنَٰهُمْ﴾ في الآخرة ﴿جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾ ثم أنزل تعالى آية تشبه التفسير للآية الآنفة الذكر فقال: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ﴾ أي أهل الكتاب من اليهود والنصارى ﴿أَقَامُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ﴾ أي راعوها حق رعاية بأن تؤمن اليهود بنصوص التوراة وتصدق بها حق التصديق ﴿وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ﴾ ككتب أنبياء بني إسرائيل كشعيا، وحزقيل، وحيقوق، ودانيال، وآمنوا بما فيها من البشائر بتطور الأيام والأزمنة ومجيء عيسى ابن مريم وبعث محمد ﷺ وتأييده بالأصحاب الغُزاة الرُّماة الولاة الأصفياء الأوفياء بعهد الله وتؤمن النصارى بنصوص الإنجيل ومنها بشارة عيسى ابن مريم عليه السلام ببعث محمد خاتم الأنبياء والمرسلين الملقب بأحمد لكثرة حمده لربه ونشر ثنائه في العالم، ولكثرة حمد الناس العارفين له بأنه المبعوث رحمة للعالمين ﴿لَأَكَلُوا۟﴾ الأرزاق النازلة عليهم ﴿مِن فَوْقِهِمْ﴾ من السماء بإنزال مباديها منها ﴿و﴾ الأرزاق النابتة ﴿مِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ﴾ أي مما تحتها من الأراضي الخصبة المنبتة

المثمرة. وقيل: المراد المبالغة في بيان السعة والخصب لا تعيين الجهتين، أي أنهم أينما كانوا وكيفما أرادوا الثمار والخيرات أخذوها.

وهذا جار على سنة الله تعالى في الكون في أن كل أمة صالحة صادقة مخلصة في الاعتقاد والفعل والعهود يوفقهم الله سبحانه لنيل المراد ودفع المعاندين الطالبين للإفساد، ويرزقهم رزقاً واسعاً يعم البلاد والعباد، ولما كان في أهل الكتاب من آمَنَ بالله ورسوله وعمل صالحاً، ميزهم الله سبحانه بقوله الكريم ﴿مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ﴾ أي منهم جماعة عادلة حسنت أعمالهم ﴿وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَآءَ مَا يَعْمَلُونَ﴾.

﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٦٧﴾﴾.

عن عائشة قالت: كان رسول الله ﷺ يُحْرَسُ حتى نزل ﴿وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾. فأخرج رأسه من القبة فقال: يا أيها الناس انصرفوا فقد عصمني الله. رواه الترمذي والحاكم.

ولما ذكر الله سبحانه وتعالى أحوال أهل الكتاب ونوَّه بطرف من عدائهم للدين الإسلامي أمر حبيبه محمداً ﷺ بالثبات على ما أمر به وناداه نداء تشريف بلقب الشرف، أعني الرسالة من الله تعالى وقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ﴾ إلى الجن والإنس ﴿بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ أوصل ما أنزل الله عليك من الكتاب الهادي إلى طريق الصواب إلى من يمكنك الإيصال إليه وَأَوْصِ الشاهدين الغائبين وهكذا حتى يتم التبليغ ﴿وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ﴾ ما أُمِرْتَ به ﴿فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ﴾ أي وإن لم تبلغ شيئاً من الأحكام فما بلغت رسالته وما أديت شيئاً منها لما أن تبليغ كل جزء من أجزاء ما أنزل إليه ركن من أركان الرسالة كما أن كلَّ جزءٍ من أجزاء الشهادتين ركن من أركانهما، فَمَن تركَ ركناً من أركان ما أمر بالوفاء به فقد ترك تلك الحقيقة التي أمر برعايتها والقيام بها، ولا تخف في تبليغ الرسالة أيّ واحِدٍ ﴿وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ الذي يُخاف منهم لأنهم كافرون ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ إلى الإضرار بالمرسلين في التبليغ.

ويتبين من هذه الآية الكريمة ومِنْ عصمة الرسل الكرام عليهم السلام من الخيانة لا سيما في تبليغ الأحكام إلى الأنام أنّ سيدنا محمداً ﷺ بلغ رسالته وأدّى حق الأداء أمانته، ولم يترك من الواجبات الاعتقادية والعملية شيئاً إلا بلغها. فمن ادعى ذلك

فقد كذب على الله ورسوله، ومن دعاه على جمهرة الصحابة فهو أكذبُ لأن الله سماهم خير أمة، وخيرُ الأمة لا تجتمع على خصلة الكذب الذي لا يليق إلا بِدَنيِّ الهمة، والرسول بَيَّنَ عَدَمَ إجماعِهم عَلَى الضّلال بأحاديث لا تخفى على أهْلِ العلم بالدين.

﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ ۗ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ۖ فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٦٨﴾﴾.

عن ابن عباس قال: جاء رافع بن حارثة، وسلام بن حريملة، ومالك ابن الضيف فقالوا: يا محمد ألستَ تزعم أنك على ملة إبراهيم ودينه وتؤمن بما عنده من التوراة وتشهد أنها حق من عند الله تعالى؟ قال: بلى ولكنكم أحدثتم وجحدتم بما فيها وكتمتم ما أمرتم أن تبيّنوه للناس. قالوا: فإنا نأخذ بما في أيدينا فإنا على الهدى والحق! فأنزل الله الآية. أخرجه ابن أبي حاتم وابن جرير.

قوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ يراد بأهل الكتاب فيه اليهود والنصارى. وقال آخرون: المراد بهم اليهود على ما نقلناه من بيان مورد النزول. وحاصله أن الله سبحانه وتعالى يقول لأهل الكتاب: يا أهل الكتاب أنتم، وإن ادعيتم الثبات على الحق والصواب، لكنه ﴿لَسْتُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ﴾ من الدين السالم المعتبر عند الله ﴿حَتَّىٰ تُقِيمُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ﴾ وتعترفوا وتصدقوا بما فيهما من الأحكام وسائر الأمور التي من جملتها دلائل رسالة النبي محمد ﷺ ﴿و﴾ تؤمنوا بـ ﴿ما﴾ ﴿أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ﴾ من كتب أنبياء بني إسرائيل كالسادة شعيا وغيره المحتوي على نعوت نبي آخر الزمان محمد ﷺ وشمائل أصحابه فإن تلك الكتب هي التي أنزلت إليهم، وقيل: المراد بما أنزل إليهم هو القرآن المجيد لأنه أنزل لأجل أن يؤمن به أهل الكتب السابقة كسائر أمة الثقلين. فإذا أقمتم هذا الكتاب الجامع وهو القرآن المنزل على محمد ﷺ وآمنتم به حق الإيمان وعملتم بما يحتوي عليه من العقائد والأحكام فأنتم عند ذلك تعتبرون مسلمين على دين محمد ﷺ. ولكن أولئك الناس الفاسدين من أهل الكتاب لشدة عنادهم وعدم استماعهم للحق لا ينتفعون بقولك ولا بأحكام كتابك ﴿وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ فاعل الفعل ﴿مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا﴾ ولا شك أنهم يستمرون على فسادهم لفساد أفكارهم،

وأفكارُهم الزائفة وإن كانت مما توجب الأسى والأسف ﴿فلا تأس علي﴾هم لأنهم من ﴿ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلصَّٰبِـُٔونَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٩﴾﴾.

قد يتوهم الجاهل بالقرآن وآياته التي تنادي الجن والإنس للإيمان بسيدنا محمد ﷺ وأن من يبتغي ويطلب غير دين الإسلام لن يقبل منه ذلك وهو من الخاسرين الكافرين.. أن هذه الآية جمعت المؤمنين بدين الإسلام والنصارى والصابئين، وَجَعَلتْ أهْلَ ملّةِ اليهود والصابئين والنصارى مساوين للمسلمين في النجاة بشرط الإيمان بالله واليوم الآخر والإيمان برسلهم، وإن لم يؤمنوا بسيدنا محمد ﷺ وبما جاء به من عند الله تعالى وهذا التوهم باطل وكفر وضلال. بل المقصود من الآية الكريمة استواء الناس عموماً إذا آمنوا بسيدنا محمد ﷺ فمعناها كما أن الذين يؤمنون إيماناً صادقاً بسيدنا محمد وما جاء به من عند الله أهل النجاة كذلك سائر الناس إذا آمنوا به وبما جاء به من عند الله تعالى. وقد جمعت الآية الكريمة المنافقين المؤمنين بألسنتهم فقط مع الطوائف الثلاث. وتفسير الآية حينئذ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ بألسنتهم فقط وهم المنافقون ﴿وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟﴾ أي آمنوا بموسى عليه السلام ﴿وَٱلصَّٰبِـُٔونَ﴾ المؤمنون بالكواكب أو بنوح أو إبراهيم أو بغيرهما من الرسل ﴿وَٱلنَّصَٰرَىٰ﴾ المؤمنون بعيسى عليه السلام ﴿مَنْ ءَامَنَ﴾ منهم إيماناً صافياً عن الخلل والنفاق ﴿بـ﴾ ذات ﴿ٱللَّهِ﴾ عز وجل ﴿و﴾ بـ﴿ٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ﴾ على ما جاء به محمد ﷺ ومن حيث الأخذ منه ﴿وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾ من الأثر المشروع سواء كان فعل الواجب أو المندوب أو ترك المحرم أو المكروه ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ عليهم حين يخاف الكافر من العقاب ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ حين يحزن المقصرون على تضييع العمر وتفويت الثواب.

ويجوز أن يكون المراد من قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ من آمن إيماناً معتبراً في الشرع، خالياً عن كل خلل، وحينئذ تحتمل الآية إعرابين راجحين: الأول: أن يكون جملة من آمن بالله واليوم الآخر الآية خبراً عن إنّ[1]. ويكون

(١) والمراد بقوله (من آمن) من استقام وثبت على إيمانه بالله وبرسوله وبما جاء به من عنده.

خبر قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هَادُواْ﴾ إلى آخر المعطوفات محذوفاً بقرينة الخبر المذكور، فتكون الآية من قبيل الاستغناء بالسابق عن اللاحق. الثاني: أن تكون تلك الجملة خبراً عن قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هَادُواْ﴾ إلى آخر المعطوفات، ويكون خبر إن محذوفاً بقرينة ذلك فيكون الجملة من قبيل الاستغناء باللاحق عن السابق.

﴿لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ رُسُلًا ۖ كُلَّمَا جَآءَهُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُواْ وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ ﴿٧٠﴾ وَحَسِبُوٓاْ أَلَّا تَكُونَ فِتْنَةٌ فَعَمُواْ وَصَمُّواْ ثُمَّ تَابَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ثُمَّ عَمُواْ وَصَمُّواْ كَثِيرٌ مِّنْهُمْ ۚ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿٧١﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ كلام مستأنف سيق لبيان بعض آخر من جناياتهم المشعرة باستبعاد الإيمان منهم. فيقول تعالى: ولقد أخذنا ميثاق بني إسرائيل على لسان أنبيائهم في التوحيد والإيمان بالشرائع والأحكام، وفي الإيمان بمحمد ﷺ المنعوت عندهم بنعوته الواضحة. ﴿وَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ رُسُلًا﴾ أولي شأن ومناقب تناسبهم. ومع ذلك فـ ﴿كُلَّمَا جَآءَهُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُهُمْ﴾ أي أتوا بأحكام لا توافق أغراضهم وتصعب عليهم ﴿فَرِيقًا كَذَّبُواْ وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ﴾ أي خالفوهم وعصوهم وحصل بينهم المنافرة والعداء، فكذبوا فريقاً منهم واكتفوا بتكذيبه، وقتلوا فريقاً منهم، ولم يكتفوا بتكذيبه ﴿وَحَسِبُوٓاْ أَلَّا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾ أي وظن أولئك المكذبون والقاتلون أن لا يرد عليهم من الله عذاب وعقاب ﴿فَعَمُواْ﴾ عن إبصار الأدلة العينية ﴿وَصَمُّواْ﴾ عن استماع المواعظ السنية ﴿ثُمَّ﴾ انتبهوا وتابوا فـ ﴿تَابَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ثُمَّ عَمُواْ﴾ بعد ذلك وانحرفوا عن مقتضى توبتهم فلم يبصروا ما يعتبرون به من العبر ﴿وَصَمُّواْ﴾ ولم يستمعوا ما ورد عليهم من المواعظ والنصائح.

وقوله ﴿كَثِيرٌ مِّنْهُمْ﴾ بدل من الضمير في الفعلين ﴿وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ وسيحاسبهم على ما صدر منهم يوم الدين.

والحاصل: إن الإسرائيليين مضت عليهم أزمان وأدوار من الضعف والقوة وراعاهم الله سبحانه فنجاهم عن دور الضعف وأعانهم حتى رجعت لهم الكرة، ومع ذلك لم يتذكروا نعمة الله عليهم ولم يشكروا نعمته وقابلوا رسله بما لا يناسب

مقامهم؛ فكذبوهم كما كذبوك، وكذبوا عيسى، وقتلوا من الرسل من تمكنوا من قتله كزكريا ويحيى، وإن كان ثلثاه شراً، وطبيعتهم طبيعة نوعية يجوز أن يرد على كل فرد ما يرد على الآخر لكنه ظهر من أدوار الأيام أن بني إسرائيل لهم دور مهم في الأنانية والاستكبار وتكذيب الأنبياء والمرسلين ولذلك عاملهم الله بما عاملهم به.

﴿لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ۖ وَقَالَ ٱلْمَسِيحُ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۖ إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿٧٢﴾ لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ ۘ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۚ وَإِن لَّمْ يَنتَهُواْ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى ٱللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧٤﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ﴾ الآية شروع في بيان قبائح النصارى بعد بيان قبائح اليهود فقال: ﴿لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ﴾ أي تجسم وتحقق بشخصية عيسى. وهذا الرأي رأيُ بعض من الغالين منهم، وغلوا إلى درجة زال عنهم الشعور بالبديهيات ولم يتفكروا كيف يتحد الاثنان، وامتناع اتحاد الاثنين بديهي لا يحتاج إلى دليل، ثم كيف يتحد الذات الموجود الأزلي الأبدي بمادة منوية حادثة خارجة من مرأة، وأين الواجب من الممكن والقديم من الحادث والقادر من العاجز والغني عن الاحتياج من المحتاج إلى التنفس؟ والأكل والشرب والمكان والإعانة في العوارض والمحتاج إلى إخراج الفضلات منه. وعلاوة على ذلك قد عرضهم الشخص الذي قالوا فيه ما قالوا وغلوا فيه ما غلوا، وهو المسيح عليه السلام كما ذكر الله بقوله: ﴿وَقَالَ ٱلْمَسِيحُ﴾ عيسى: ﴿يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۖ﴾ ولا تشركوني به ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ﴾ في ذاته أو في صفاته الذاتية أو الفعلية، أو في استحقاق العبادة أو إسناد الخلق إليه شيئاً ﴿فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ﴾ لأنها دار الموحدين ﴿وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ﴾ لأنها مأوى المشركين ﴿و﴾ ليس له أحد ينصره أو يشفع له؛ لأنّه ﴿مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾ وبعد تكفير القائلين بالاتحاد وهم الطائفة اليعقوبية أعلن تكفير الفرق القائلة بالتعدد والإشراك، وهم النسطورية والملكانية. وقال: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ ۘ﴾ أي

أجد ثلاثة آلهة: الله، ومريم، وعيسى ﴿وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ واجب الوجود انحصر فيه الخالقية والمعبودية، وله مميزات وإنه هو الذي خلق الكائنات وأخرجها من العدم. وأخرج أبا البشر آدم، وأخرج من نسله عيسى ومريم: ﴿وَإِن لَّمْ يَنتَهُوا۟ عَمَّا يَقُولُونَ﴾ من الاعتراف بالآلهة ﴿لَيَمَسَّنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ وكذلك من وجد من نسلهم الثابت على عقيدة الأصل ﴿أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى ٱللَّهِ﴾ بالانتهاء عن تلك العقائد الزائفة الفاسدة ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَهُۥ﴾؟ عما صدر منهم من الذنوب ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ بالعباد.

﴿مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ ۖ كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ ۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلْءَايَٰتِ ثُمَّ ٱنظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٧٥﴾ قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ۚ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٧٦﴾﴾.

قوله: ﴿مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ﴾ شروع في تحقيق الحق ورد الباطل، فقال: ﴿مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ﴾ أي إذا كان العقل موجوداً عند الإنسان أياً كان عَلِم أن عيسى ابن مريم لم يكن إلهاً لأنه كان رسولاً من الرسل أرسله الله إلى بعض عباده لإرشادهم إلى القول بوجود الباري ووحدته واتصافه بالكمال ونزاهته عن النقص، فكانت الصفة المشتركة بينهم المميزة لهم عن سائر الرسالة من الله سبحانه، فلو كان عيسى إلهاً كان سائر الرسل مثله في الألوهية؛ لأن المميز لهم عن غيرهم عبارة عن الرسالة وهي موجودة فيه وفي غيره، ولكن ليس شيء من الرسل غيره إلهاً، فليس هو إلهاً. ومن جهة أخرى إنّه تقدم عليه الرسل في البعث فكان هو ورسالته حادثين، والحادث ذاتاً وصفة لا يكون إلهاً لأن من خواصه القدم؛ فلم يكن عيسى إلهاً.

وقوله تعالى: ﴿وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ﴾ إذا نظرنا إليه على سيرة ما قبله فالتقدير: وما أمه إلا صدّيقة، وصديقة صيغة مبالغة كشريب، ومعناها: إنها كثيرة الصدق. والمراد بالصدق صدق حالها مع الله تعالى وصدقها في براءة نفسها من الرذائل والأقذار. وإذا نظرنا إليه في ذاته فمعناه ما مر بلا ملاحظة الحصر. وعلى كل حال فهو إشارة إلى دليل آخر على أن عيسى لم يكن إلهاً لأنه ولد من امرأة صادقة والولادة معناها ومغزاها الحدوث بإرادة الخالق المحدث. وإلى دليل على أن أمه

لم تكن إلهاً لأنها ابتليت بأوجاع الحمل والولادة وأقذارها، وكل ما كان كذلك فهو غير لائق بالألوهية.

وقوله تعالى: ﴿كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ﴾ إشارة إلى دليل آخر على عدم استحقاقهما للألوهية، تقريره: هما كانا شخصين محتاجين في البقاء إلى أكل الطعام، وكل محتاج كذلك لا يكون إلهاً وهذا ظاهر. ويستفاد منها استدلال آخر من حيث أن أكل الطعام يوجب الحاجة إلى خروج الخارج والابتلاء بالأقذار وذلك لا يناسب الإله. ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلْآيَاتِ ثُمَّ ٱنظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾؟ معناها انظر يا حبيبي، أو انظر يا من يمكنه النظر كيف نبين لهم الدلائل القطعية الدلالة على بطلان ما كانوا يدعون عن ألوهية عيسى وأمه ثم انظر أنى يؤفكون أي كيف يصرفون عن الإصاخة إليها والتأمل فيها ثم صرف الأمر إلى أعم مما ذكر وقال لحبيبه ﷺ: ﴿قُلْ﴾ للناس المشركين كيفما كانوا سواء عبدوا الأصنام أو ألهوا البشر: ﴿أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾؟ أتفيدكم هذه العبادة شيئاً؟ وهل ما يعبدونه من دونه لهم قدرة على إبداع شيء وإيجاده. فهذه الآية فيها ترق من توبيخ النصارى على تأليه عيسى وعبادته إلى توبيخ كل من يعبد الأصنام ومن ينحو نحوهم، وكل ذلك ضلال وإضلال ﴿و﴾ الله خالق السماوات والأرض ﴿هُوَ ٱلسَّمِيعُ﴾ لكل ما يتكلم به ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ بكل المعلومات وهو الذي يَحِقّ أن يُعبد لأنه المسيطر على العالم وما فيه من الأعيان والأعراض وما سواه عيناً وعرضاً جامداً وحيّاً من مصنوعاته وذلك معلوم علم اليقين.

﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوٓا۟ أَهْوَآءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا۟ مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا۟ كَثِيرًا وَضَلُّوا۟ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴿٧٧﴾ لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُوا۟ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٧٩﴾ تَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِى ٱلْعَذَابِ هُمْ خَٰلِدُونَ ﴿٨٠﴾ وَلَوْ كَانُوا۟ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلنَّبِىِّ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا ٱتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَآءَ وَلَٰكِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٨١﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ أمر الرسول محمداً ﷺ أن يوجه الخطاب لجنس أهل الكتاب من اليهود والنصارى ويقول لهم ﴿لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ غَيْرَ ٱلْحَقِّ﴾ أي لا تجاوزوا الحد المقرر في شأن دينكم ومبلغه من الرسل، ولا ترفعوا مقامهم إلى مقام استحقاق العباد فإنهم قد أرسلوا لبيان الحق وإن الله هو رب العالمين وإن الرسل عباده المكرمون بالرسالة وتبليغ الكتاب وإرشادهم إلى الصواب، فإن الغلو باطل والغالي مبطل عاطل، وراعوا العدالة في حق الله وفي عباده من الرسل وغيرهم فإن الله هو القاهر فوق عباده والعباد مطلقاً عبيد خلقهم الله لعبادته والخضوع أمام هيبته. وقوله: ﴿غَيْرَ ٱلْحَقِّ﴾ صفة مصدر محذوف أي غلو غير الحق، وهذا المصدر تأكيدي وليس الغلو إلا باطلاً. وليس له قسمان باطل وغير باطل، كما قيل، فإنه عبارة عن التجاوز عن الحد المشروع فما عدّ غلواً فهو باطل.

﴿وَلَا تَتَّبِعُوٓا۟ أَهْوَآءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا۟ مِن قَبْلُ﴾ من اليهود الذين قالت عزير ابن الله، والنصارى الذين قالوا المسيح عيسى ابن الله، فإن ذلك أمر باطل، فإن الله لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد، إنما للعباد كرامة بالتقوى وأكرمهم أتقاهم. وأولئك المغالون السابقون ضلوا عن طريق العدل ﴿وَأَضَلُّوا۟ كَثِيرًا﴾ من الناس الذين اتبعوهم بالجهل أو بالعلم والعناد ﴿وَضَلُّوا۟ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ﴾ لأن المُضِلَّ لا يضِل أَحَداً إلا وهو ضال عن طريق الحق أو ضل أهل الكتاب الموجودون بعد بعث الرسول محمد ﷺ عن سواء السبيل الذي هو الإسلام والإيمان بمحمد ﷺ لأنهم علموا نعوته وتيقنوا نبوته، ومع ذلك عاندوا وانحرفوا وكتموا ما عندهم من الدليل وضلوا عن سواء السبيل. ﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ﴾ فإن أهل أيلة لما اعتدوا في السبت لعنهم الله على لسان داود عليه السلام وأصحاب المائدة لما كفروا دعا عليهم عيسى ولعنهم فأصبحوا خنازير ﴿ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ﴾ ويتجاوزون حكم الله تعالى وحدوده.

وقوله: ﴿كَانُوا۟ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ﴾: الظاهر أنه جاء لبيان اعتدائهم. ومعناه أنهم إذا أرادوا فعل منكر لم يكن فيهم من ينكر عليهم فعله، وذلك من غاية الاعتداء لأنه إذا أراد بعض القوم فعل منكر ولم يكن هناك رادع

يردعه فإما لرضاء غير الفاعلين بفعل ذلك، وذلك أسوأ أحوال القوم حيث لم يبق فيهم من ينكر المنكرات، وإما لخوفه من فاعل المنكر وذلك أيضاً من الأحوال السيئة لهم، لأنه إما من شدة بطش ذلك الفاعل للمنكرات بحيث لا يقدر أحدٌ على إنكاره أبداً، أو ليس الفاعل كذلك لكن الناس ضعاف الإيمان يتركون رفع المنكرات والنهي عن فعلها لأدنى مخافة، وذلك أيضاً اعتداء وتجاوز منهم على الحدود، وإما بيان لقسم مُهمٍّ من اعتدائهم هذا الذي ذكره بقوله: ﴿كَانُوا۟ لَا يَتَنَاهَوْنَ﴾ الآية... يعني أنهم كانوا يعتدون يفعلون المحرمات ويتركون الواجبات، وفوق ذلك كله كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه، ولا ينهى بعضهم بعضاً قبل فعله عنه أو لا ينهى بعضهم بعضاً عن معاودة مثله بعد فعله، أو لا ينتهون عن فعل المنكرات ويستمرون عليها، وكل هذه الوجوه تُعَدُّ من مَساوىء أعمالهم. ثم أعلن الباري التأكيد على سوء أعمالهم وقال: ﴿لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ﴾. وفي هذه الآية زجرٌ شديد لمن يترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وقد أخرج أحمد والترمذي وحسنه عن حذيفة ابن اليمان أن النبي ﷺ قال: «**والذي نفسي بيده لتَأمُرُنّ بالمعروف وَلتَنْهَون عن المنكر أو ليُوشِكَنَّ اللهُ تعالى أن يبعث عليكم عقاباً من عنده ثم لتدعنَّه فلا يستجيب لكم**». وأخرج أحمد عن عدي بن عُميرة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إن الله تعالى لا يعذب العامة بعمل الخاصة حتى يَرَوا المنكر بين ظهرانيهم وهم قادرون على أن ينكروه فلا ينكرونه، فإذا فعلوا ذلك عذب الله الخاصة والعامة**».

(و) من جملة مَساوئهم وأحوالهم البائسة أنه ﴿تَرَىٰ﴾ يا حبيبي ﴿كَثِيرًا مِّنْهُمْ﴾ أي من أهل الكتاب ﴿يَتَوَلَّوْنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ يوادون الجبارين والمفسدين والظالمين من الملوك أو الأمراء أو شيوخ القبائل لاستحصال مآربهم الفاسدة، ﴿لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ﴾ وهو ﴿أَن سَخِطَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ وهذا هو المخصوص بالذم ﴿و﴾ نتيجة ذلك أنهم ﴿فِى ٱلْعَذَابِ هُمْ خَٰلِدُونَ ﴿٨٠﴾ وَلَوْ كَانُوا۟﴾ أي أهل الكتاب المتولون للكافرين ﴿يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾ الذي أنعم عليهم والنبي الذي أرسل إليهم كسيدنا موسى وسيدنا عيسى وغيرهما عليهم السلام ﴿وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ﴾ أي إلى النبي المذكور كتوراة موسى وإنجيل عيسى، أو المراد بالنبي محمد ﷺ وبما أنزل إليه هو القرآن ﴿مَا ٱتَّخَذُوهُمْ﴾ أي الذين كفروا ﴿أَوْلِيَآءَ﴾ أي أحباء يعتمدون عليهم، فإن الإيمان على تقدير تحققه في قلوبهم لا يخليهم ينقلبون إلى أهل الكفر والبغي

والعدوان ﴿وَلَكِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ مارقون عن الإيمان بالله وبما جاء من عند الله، فهم خارجون عن الدين ومستمرون على البغي وسوء الأخلاق أو على التردد والنفاق.

الجزء السابع

﴿۞ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا ۖ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَىٰ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٨٢﴾ وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ ۖ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴿٨٣﴾ وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ ﴿٨٤﴾ فَأَثَابَهُمُ اللَّهُ بِمَا قَالُوا جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ ﴿٨٥﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴿٨٦﴾﴾.

عن عروة بن الزبير قال: بعث رسول الله ﷺ عمر بن أُمَيَّةَ الضَمريَّ وكتب معه كتاباً إلى النجاشي، فقدم على النجاشي، فقرأ كتاب رسول الله ﷺ، ثم دعا جعفر بن أبي طالب والمهاجرين معه وأرسَلَ إلى الرّهبان والقسيسين فجمعهم، ثم أمر جعفر بن أبي طالب فقرأ عليهم سورة مريم فآمنوا بالقرآن، وفاضت أعينهم من الدمع، فهم الذين نزلت فيهم الآية أخرجه النسائي وأبو داود.

وعن سعيد بن جبير قال: بعث النجاشي ثلاثين رجلاً من خيار أصحابه إلى رسول الله ﷺ فقرأ عليهم سورة (يس) فبكوا حين سمعوا القرآن وعرفوا أنه الحق فأنزل الله فيهم الآية. رواه ابن أبي حاتم.

قوله تعالى: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ﴾ جملة مستأنفة سيقت لتقرير ما قبلها من قبائح اليهود، وأكدت بالقسم للاعتناء بها. والمعنى والله لتجدنّ يا حبيبي أو يا من يتمكن من الرؤية تجدَنَّ أشدَّ الناس ﴿عَدَاوَةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾ وقيل: يهود المدينة والمشركون المجاورون للحرمين. وتوصيفهم بذلك لشدة شكيمتهم وتضاعف كفرهم، وإنهماكهم في التقليد، وفي تقديم اليهود على

المشركين إشعار بأن عداوتهم أشد من عداوة المشركين. فقد قيل: إن من مذهب اليهود أنه يجب عليهم إيصال الشر إلى من يخالفهم في الدين أي طريق كان.

﴿وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا الَّذِينَ قَالُوٓا إِنَّا نَصَٰرَىٰ ذَٰلِكَ﴾؟: أي ذلك المذكور من كونهم أقرب مودة للذين آمنوا ﴿بـ﴾ سبب ﴿أَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾: القسّيسون علماء النصارى وعبّادهم ورؤساؤهم. والقسيس: صيغة مبالغة مأخوذة من تقسس الشيء إذا تتبعه بالليل. سموا به لتتبعهم ومبالغتهم في طلب العلم بزعمهم. وقال قطرب: القس والقسيس العالم بلغة الروم. وقد تكلمت به العرب وأجروه مجرى كلماتهم. ورهبان: جمع راهب من الرهبة بمعنى المخافة، وكانوا يترهبّون بالتخلي عن أشغال الدنيا وترك ملاذها والزهد فيها والعزلة عن أهلها وتعمد تحمل مشاقها، حتى أن منهم من كان يخصي نفسه ويضع السلسلة في عنقه، ويبالغون في هذا النوع من المشاق! ولرفض هذا الأمر وعدم مناسبته للتقريب السليم إلى الله وعدم صلاحية أهله لمنفعة المجتمع حتى كأنه ميت في صورة الأحياء.. وقال ـ ﷺ: «**لا رهبانية في الإسلام**» بمعنى أنه ليس هذا النوع من الترهب في دين الإسلام، وإلا فقلة أكل الطعام، وقلة المنام، وتقليل الكلام إلا فيما هو خير للأنام من سنن دين الإسلام.

والحاصل: إن الرهبان غلوا في أمرهم والغلو مذموم في كل أمر كما هو المقرر. ويدل على ذلك بوضوح قوله تعالى: ﴿وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا﴾ فإنه ينادي ويعلن أنهم لو كانوا يرعونها ويأتون بها على الاعتدال كان مقبولاً عند الله وإن لم يكن واجباً.

ومما يجب أن يتنبه له أن البشر مخلوق ومجبول على حب ذاته ومن يتفرع منه أو يقرب نسبه إليه أو من يراعي ما يحبه وعلى كراهية من لا مناسبة له به لا سيما إذا كان ينازعه في رغباته ومطامعه وأهوائه، وعلى ذلك عداء الإنسان لبعض الحيوانات والإنسان بعضهم لبعض والقتال والمدافعات الدائرة في العالم.

وهذا الذي ذكرناه كأنه من لوازم ماهية البشر، أو من لوازم وجوده الخارجي غير أنه ليس كزوجية الأربعة وفردية الثلاثة، بل يختلف ميزانه في الأفراد قوة وضعفاً، ومما يؤثر في تخفيفها بعد المسافة بين فرد وفرد أو صنف وصنف، كما أنه يؤثر فيه التربية الأساسية. ويظهر من ذلك أن أقربية النصارى إلى المؤمنين

بعدهم عنهم بحيث لم تكن مصالحهم في ذلك الوقت معارضة لمصالح المؤمنين كاليهود الموجودين في المدينة المنورة وما حولها، والمشركين الموجودين في الحرمين وأطرافهما، وأن التربية الدينية للنصارى كانت على محبة الأمان والراحة، وكان من تعاليم سيدنا عيسى عليه السلام أن من ضرب الخد الأيمن منكم حولوا له الخد الأيسر، فالتزم بذلك القساوسة والرهابنة، لا سيما الرهبان الذين تربوا على الزهد عن الدنيا وشهواتها وقطع العلاقة عنها. وكان لتعليمات الكنائس للنصارى في الموضوع دور مهم فكانوا أقرب للذين آمنوا مودةً. وأما اليهود فبسبب اضطهادهم في حكم فرعون وأتباعه الأقباط تحولوا إلى أمة راعية لنفسها وقدسها وحافظة على إسرائيليتها، وبالغت في ذلك حتى ادعت أنها شعب الله المختار في العالم. هذا إذا نظرنا إلى تفسير الآية الكريمة مع رعاية العموم في اليهود والنصارى، وأما إذا قلنا إن المراد بعض منها كالنصارى الوافدين عليه ﷺ من الحبشة في مقابل يهود المدينة وما حولها فالأمر واضح. ويدل عل ما قلنا ما ظهر بعد ذلك العهد بعد توسع فتوحات الإسلام ومسها لمصالح النصارى، فتحولت النصارى إلى حالة غير الحالة السابقة فحاولوا بكل الوجوه ضرب الإسلام والمسلمين وتشبثوا بأنواع الأمور الحربية، ومنها نبعت الحروب الصليبية، والويلات المتتابعة في البلاد المقدسة، والقتال في الأندلس، والاستيلاء عليها، وتنصير المسلمين فيها، ثم تشريع أنواع الأفكار المضادة للدين، وبث سموم التفرقة بين المسلمين.

فترى العالم اليوم كما ترى والدواء النافع المفيد لنا اليوم هو الرجوع إلى تعاليم الإسلام المقدسة النازلة في أول آية نزلت من القرآن الكريم في العلم والتعليم حتى يلد منهما العمل الصالح فيتربى بتاج الاعتصام بحبل الله المتين، والسعي في استفادة العلوم على مستوى الأيام، وقلع بذور النفاق والشقاق من مزرعة الحياة الإسلامية، حتى تعود الأمة إلى أرقى درجات العزة والكرامة والحرية السليمة آمنين مطمئنين.

ويؤيد جانب الخصوص الذي ذكرنا قوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ﴾ وهذه الآية الكريمة واردة في بيان حال النصارى الوافدين من الحبشة إلى المدينة المنورة. وفي الحقيقة كانوا أناساً متواضعين غير مستكبرين، ويتأثرون بفيوضات أنوار الآيات عند قراءتها عليهم

﴿يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا﴾ بما أنزلته ومن أنزلت عليه ﴿فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ أي اجعلنا عندك من أمة محمد الذين يشهدون يوم القيامة على تبليغ الرسل ما أمرت بتبليغه، أو اجعلنا ممن يشهدون على رسالة محمد ﷺ وحقية كتابك الذي أنزلته إليه ﴿وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ أي أيّ نفع يحصل لنا غير مؤمنين بالله وبما جاءنا من الحق، أي كما يقولون ربنا آمنا الآية كذلك يقولون في ما بينهم: وما لنا لا نؤمن، فالواو عاطفة لجملة ما لنا على مقول القول السابق وقوله: ﴿وَنَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾؟ جملة حالية عن الضمير المتقدم، والتقدير أيّ شيء حصل لنا غير مؤمنين والحال أنا نطمع في صحبة الصالحين عند دخول الجنة؟ ﴿فَأَثَٰبَهُمُ ٱللَّهُ بِمَا قَالُوا۟ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ أبد الآبدين وذلك جزاء المحسنين. ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ﴾ وعطف قوله ﴿وَكَذَّبُوا۟﴾ على قوله ﴿كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ﴾ للتنصيص على بيان حال المكذبين ومآلهم المؤلم يومَ الدين.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُحَرِّمُوا۟ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٨٧﴾ وَكُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلًا طَيِّبًا ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾﴾.

عن ان عباس أن رجلاً قال للنبي ﷺ: يا رسول الله إني إذا أصبت اللحم انتشرت للنساء، وأخذتني شهوة فحرّمت عليّ اللحم! فأنزل الله الآية.

وعن ابن عباس أن رهطاً من أصحاب رسول الله منهم عثمان بن مظعون وعبد الله بن عمرو، وأبو ذر الغفاري، والمقداد بن الأسود، وسالم مولى أبي حذيفة توافقوا على أن يصوموا النهار ويقوموا الليل، ولا يناموا على الفرش، ولا يأكلوا من الطعام إلا قوتاً، وألا يأكلوا لحماً ولا دسماً، وأن يلبسوا المسوح، وأن يجبوا مذاكيرهم، ويعتزلوا النساء، ويسيحوا في الأرض، ويترهبوا ليتفرغوا للعبادة! فبلغ ذلك النبي ﷺ فأرسل إليهم فجمعهم وقال لهم: «**هكذا قلتم؟**» قالوا: نعم. فقال النبي ﷺ: «**أما أني أخشاكم لله، وأتقاكم له، لكني أصوم وأفطر، وأصلي وأرقد، وأتزوج النساء. فمن رغب في سنتي فهو مني، ومن رغب عن سنتي فليس مني**». ثم نزلت فيهم الآية رواه ابن جرير وابن أبي حاتم.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحَرِّمُواْ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ معناه لا تحرموا الأطعمة اللذيذة مما أحله الله تعالى لكم فإن تحريم الحلال جسارة وجراءة على حكم الله سبحانه وتعالى. أو لا تلتزموا تحريمها بنحو يمين حتى تحنثوا وتجب عليكم الكفارة؛ فإنه لما كان تحريم الحلال مبغوضاً لعدم نفاذه فالتزام تحريمه بنحو يمين أبغض إلى الله تعالى. أو لا تقولوا: حرمناها على أنفسنا مبالغة منكم في العزم على تركها؛ فإن ذلك القول لغو من الكلام لا يناسب لمن التزم قواعد الإسلام. فكلوا واشربوا والبسوا ﴿وَلَا تَعْتَدُوٓاْ﴾ أي لا تتجاوزوا في الاستفادة مما أحل الله لكم الحد كيلا يتحول إسرافاً ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾ المتجاوزين عن الحدود المقررة في دين الله ﴿وَكُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلًا طَيِّبًا﴾ أي كلوا ما حل وطاب مما رزقكم الله ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِيٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤْمِنُونَ﴾ فلا تخالفوا أحكامه ولا تحرفوا نظامه.

﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِيٓ أَيْمَٰنِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ ٱلْأَيْمَٰنَ فَكَفَّٰرَتُهُۥٓ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَٰكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ ذَٰلِكَ كَفَّٰرَةُ أَيْمَٰنِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ وَٱحْفَظُوٓاْ أَيْمَٰنَكُمْ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٨٩﴾﴾.

كانه هؤلاء الصحابة المشار إليهم في الآية السابقة قد حلفوا على ما اتفقوا عليه فأنزل الله تعالى: ﴿لَّا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِيٓ أَيْمَٰنِكُمْ﴾.

قوله تعالى: ﴿لَّا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِيٓ أَيْمَٰنِكُمْ﴾ اللغو في اليمين عند الإمام أبي حنيفة رضي الله عنه: أن يحلف على أمر مضى يظنه كذلك. فإن علمه على خلافه فاليمين غموس. وعند الإمام الشافعي رضي الله عنه: ما يسبق إليه اللسان من غير نية اليمين. ويؤيده ظاهر الآية الاستدراكية. أي لا يؤاخذكم الله تعالى في الأيمان التي تجري على ألسنتكم في العادة الدائرة بين الناس لا والله وبلى والله وأمثالهما ﴿وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ ٱلْأَيْمَٰنَ﴾ يعني بتعقيدكم الأيمان وتوثيقها بالقصد، وهي التي فيها الكفارة. فإذا عقدتم الأيمان وحنثتم فيها ﴿فَكَفَّٰرَتُهُۥٓ﴾ أي كفارة ذلك الحنث بعد عقد اليمين ﴿إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَٰكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ﴾ أي من أقصده في النوع أو المقدار، وهي عند الشافعي مُدّ لكل مسكين، وعند الحنفية نصف صاع من بر أو

صاع من شعير. وعن ابن سيرين قال: كانوا يقولون الأفضل الخبز واللحم، والأوسط الخبز والسمن، والأخسّ الخبز والتمر ﴿أَوْ كِسْوَتُهُمْ﴾ أي كسوة عشرة مساكين.

والمراد بالكسوة عند الحنفية ما يستر عامة البدن على ما روي عن الإمام الأعظم رضي الله عنه، وأبي يوسف فلا يجزيء عندهما السراويل؛ لأن لابسه يسمى عرياناً في العرف لكن ما لا يجزئه عن الكسوة يجزئه عن الإطعام باعتبار القيمة. وفي اشتراط النية حينئذ روايتان، وظاهر الرواية الإجزاء نوى أو لم ينو. وروي أيضاً أنه *إن أعطى السراويل المرأة لا يجوز، وإن أعطى الرجل يجوز لأن المعتبر رد العرى* بقدر الإمكان بما تجوز به الصلاة وذلك ما يحصل به ستر العورة والزائد تفضل للتجمل أو نحوه؛ فلا يجب في الكسوة كالإدام في الطعام. والمروي عن محمد أن ما تجوز فيه الصلاة يجزىء مطلقاً. والصحيح المعول عليه عندنا هو الأول. ويشترط أن يكون ذلك مما يصلح به للأوساط وينتفع به فوق ثلاثة أشهر وعند الشافعي رضي الله عنه يكفي ما يسمى كسوة مثل: قميص، أو عمامة، أو إزار، أو رداء، أو منديل، لا خُفٌّ، ومنطقة، وقفازين.

﴿أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ﴾ كيفما تكون. وشرط الشافعي الإيمان ﴿فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ﴾ متتابعات عند أبي حنيفة ﴿ذَٰلِكَ كَفَّٰرَةُ أَيْمَٰنِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ﴾ يعني وحنثتم، وإلا فالحلف بدون الحنث لا يوجب الكفارة ﴿وَٱحْفَظُوٓاْ أَيْمَٰنَكُمْ﴾ أي احفظوا أنفسكم من الحنث فيها وإن لم يكن الحنث معصية، إلا إذا كان الحنث فيه مصلحة أكيدة وصلت إلى درجة الوجوب أولاً لقوله ﷺ: «**من حلف على يمين ورأى غيرها خيراً فليحنث وليكفّر**» ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ ويجوز عند الشافعية تقديم الكفارة على الحنث إلا الصيام، والحنفية لا يجوزونها مطلقاً.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴿٩١﴾ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَٱحْذَرُواْ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٩٢﴾ لَيْسَ

عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوٓا۟ إِذَا مَا ٱتَّقَوا۟ وَّءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ثُمَّ ٱتَّقَوا۟ وَّءَامَنُوا۟ ثُمَّ ٱتَّقَوا۟ وَّأَحْسَنُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٩٣﴾.

عن أبي هريرة قال: قدم رسول الله ﷺ المدينة وهم يشربون الخمر ويأكلون الميسر، فسألوا رسول الله عنهما، فأنزلَ الله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ ۖ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ﴾ [البقرة: ٢١٩] فقال الناس: ما حرّم علينا إنما قال إثم كبير، وكانوا يشربون الخمر حتى كان يوم من الأيام أمّ رجل من المهاجرين أصحابه في صلاة المغرب، فخلط في قراءته، فأنزل الله آية أغلظ منها: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقْرَبُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ [النساء: ٤٣] ثم نزلت آية أغلظ منها: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ﴾ إلى ﴿مُّنتَهُونَ﴾ فقالوا: انتهينا رَبَّنا. فقال ناس: يا رسول الله ناس قتلوا في سبيل الله أو ماتوا على فراشهم وكانوا يشربون الخمر، ويأكلون الميسر وقد جعله الله رجساً من عمل الشيطان. فأنزل الله: ﴿لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ الآية أخرجه أحمد.

وفي رواية قال له النبي ﷺ: «**لو حرم عليهم لتركوه كما تركتم**» وعن ابن عباس إنما نزل تحريم الخمر في قبيلتين من قبائل الأنصار شربوا، فلما أن ثمل القوم عبث بعضهم ببعض، فلما صحوا جعل الرجل يرى الأثر في وجهه ورأسه ولحيته، فيقول: صنع بي هذا أخي فلان، وكانوا إخوة ليس في قلوبهم ضغائن فيقول: والله لو كان أخي بي رؤوفاً رحيماً ما صنع بي هذا حتى وقعت الضغائن في قلوبهم، فأنزل الله هذه الآية إلى ﴿مُّنتَهُونَ﴾ فقال ناس من المتكلفين: هي رجس، وهي في بطن فلان وقد قتل يوم أحد! فأنزل الله: ﴿لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ﴾ الآية أخرجه النسائي والبيهقي والحاكم. قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ﴾ وهو المسكر المتخذ من ماء العنب، أو كل ما يخامر العقل ويغطيه من الأشربة كما روي عن ابن عباس رضي الله عنهما ﴿وَٱلْمَيْسِرُ﴾: وهو القمار ﴿وَٱلْأَنصَابُ﴾ أي الأصنام المنصوبة للعبادة. وفرق بعضهم بينهما أن الأنصاب هي الحجارة المنصوبة للعادة، وكانوا يذبحون عندها، ولم يكن فيها صور، والأصنام: ما صور وعبد من دون الله تعالى ﴿وَٱلْأَزْلَٰمُ﴾: وهي الأقداح المذكورة سابقاً ﴿رِجْسٌ﴾ أي قذر تكرهه العقول والمراد أن تعاطي هذه الأشياء رجس ﴿مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ وإلا فكيف تعتبر الأعيان من عمل الشيطان؟

﴿فَٱجْتَنِبُوهُ﴾ أي الرجس أو عمل الشيطان. والاجتناب عن الشيء جعله في الجانب والمقصود أن لا يستقبل الإنسان هذه الأرجاس ويجعلها في جانب من الجوانب البعيدة.

ولا يتوهمن عاقل أن الآية الكريمة لا تدل على تحريم الخمر وما بعدها لانتفاء صيغة التحريم فيها. لأنه ليس عبارة التحريم هي العمدة في الحكم بحرمة الشيء، لأنه قد يكون أثراً للنهي عن الشيء وقد يستفاد من تعبيرات أخرى كالاجتناب بل نقول: إن الأمر بالاجتناب أقوى لأنه لم يستعمل في القرآن إلا للأشياء البعيدة عن الدين غاية البعد، كما في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱجْتَنَبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا﴾ وقوله: ﴿إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ﴾ وقوله: ﴿ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَ﴾ وقوله تعالى: ﴿فَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ وَٱجْتَنِبُوا۟ قَوْلَ ٱلزُّورِ﴾ وكما في هذه الآية التي نقرأها الآن. وقد يكون الاستفهام الإنكاري كما في قوله تعالى: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْ﴾؟ ويدل على تأكد حرمة تعاطي الأمور المذكورة ربط رجاء الفلاح تركها كما قال: ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ يعني إن الابتعاد عن هذه الأشياء من أسباب الفلاح والنجاة. ولو لم يكن حراماً لم يكن الفلاح مربوطاً بتركه. ومن عنده أدنى معرفة يعلم أن تعاطي الأمر الذي يعاند العقل والصحة والمال والكرامة ويقلل من أهمية الإنسان وأعيان الآدميين حرام وموجب للذنوب والآثام.

﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ﴾ أي بسبب تعاطيهما وشرب الخمر وعمل الميسر، لأن السكران يعمل أعمالاً قبيحة لها عواقب توجب الفتن والمحن والإحن بين الناس، والميسر يجعل الرجل مفلساً يعادي من أخذ ماله حتى يريد قتله أو غنياً بطران يعارضه الناس ﴿وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ﴾ لأن السكر يجعل الإنسان غافلاً عن أداء ما وجب عليه وعن ذكر ربه. والميسر يوجب للمغلوب الانقهار والأسف المزيد بحيث لا يقدر على التلذذ بغذائه وعشائه فضلاً عن التلذذ بالأمور الروحية، ويوجب للغالب بطراً وطغياناً يبعدانه عن ذكر الله وعن الصلاة وعن كل ما يقربه إليه تعالى ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾؟ عن تعاطي هذين الأمرين القبيحين الذين لا ثالث لهما في القباحة ووخامة العاقبة والعافية.

﴿وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ﴾ في جميع ما أمرا به ونهيا عنه ﴿وَٱحْذَرُوا۟﴾:

مخالفتهما ﴿فَإِن تَوَلَّيْتُمْ﴾ أي أعرضتم عن الحق ولم تسلكوا مسالكه ﴿فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾ ولم يقصر في ذلك توفيق الله فقامت عليكم الحجة وانتهت الأعذار وانقطعت العلل، وقد تم البلاغ والحمد لله رب العالمين.

وقوله تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ قالوا في سبب نزوله: لما نزل تحريم الخمر والميسر قالت الصحابة ﷺ: كيف بمن شربها من إخواننا الذين ماتوا وهم قد شربوا الخمر وأكلوا الميسر فأنزل الله تعالى هذه الآية. وهذا السبب أخرجه أحمد في مسنده عن أبي هريرة ﷺ وهو في الصحيحين عن أنس ﷺ وعلى ذلك فمعنى الآية الكريمة: ﴿لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوٓاْ﴾ من الخمر أو من محصولات الميسر قبل نزول الآية جناح ﴿إِذَا مَا ٱتَّقَواْ﴾ ما ارتكبوه سابقاً ولم يعيدوه لاحقاً ﴿وَّءَامَنُواْ﴾ بالله الذي حرمه، أي تركوه خوفاً من الله ﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ فيما فرض عليهم أو استحب لهم ﴿ثُمَّ ٱتَّقَواْ﴾ ذلك المحرم وغيره من المحرمات ﴿وَّءَامَنُواْ﴾ بالله الذي حرمهن ﴿ثُمَّ ٱتَّقَواْ﴾ علاوة على المحرمات غيرها من الشبهات ﴿وَّأَحْسَنُواْ﴾ أي وأخلصوا في إيمانهم وأعمالهم إلى درجة الإحسان المفسر بأن يعبد العبدُ ربه كأنه يراه، فإن لم يكن يراه فإن الله يراه بلا شك وشبهة، وعند ذلك يحبهم الله لأنهم يدخلون في عداد المحسنين ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾.

وبهذا التفسير الذي ذكرناه ظهر أن ليس المراد بالتكرار الوارد في الآية التأكيد لما قبله، بل التكرار استئناف وتأسيس لمعنى جديد لم يكن قبل، ومن قبيل ما فسرت به الآية ما قاله الطيبي رحمه الله المعنى: إنه ليس المطلوب من المؤمنين الزهادة عن المستلذات وتحريم الطيبات، وإنما المطلوب الترقي في مدارج التقوى والإيمان إلى مراتب الإخلاص، واليقين ومعارج القدس والكمال. وذلك بأن يثبتوا على الاتقاء عن الشرك وعلى الإيمان بما يجب الإيمان به، وعلى الأعمال الصالحة لتحصيل الاستقامة التامة التي يتمكن بها إلى الترقي إلى مرتبة المشاهدة والمعارج أن تعبد الله كأنك تراه، وهو المعنيّ بقوله تعالى: ﴿وَّأَحْسَنُواْ﴾ وبه ينتهي للزلفى عند الله ومحبته والله يحب المحسنين. وفي هذا النظم نتيجة من قوله ﷺ: «**ليست الزهادة في الدنيا بتحريم الحلال ولا إضاعة المال، ولكن الزهد أن تكون بما بيد الله أوثق منك بما في يديك**» وهذ دفع للتكرير وإنه ليس لمجرد التأكيد لأنه يجوز فيه العطف بثم، كما صرح به ابن مالك في قوله تعالى: ﴿كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٣ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٤﴾ بل به باعتبار تغاير ما علق به مرة بعد أخرى.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَيَبْلُوَنَّكُمُ ٱللَّهُ بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلصَّيْدِ تَنَالُهُۥٓ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ لِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَخَافُهُۥ بِٱلْغَيْبِ ۚ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٩٤﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقْتُلُوا۟ ٱلصَّيْدَ وَأَنتُمْ حُرُمٌ ۗ وَمَن قَتَلَهُۥ مِنكُم مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ ٱلنَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِۦ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ هَدْيًۢا بَٰلِغَ ٱلْكَعْبَةِ أَوْ كَفَّٰرَةٌ طَعَامُ مَسَٰكِينَ أَوْ عَدْلُ ذَٰلِكَ صِيَامًا لِّيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِۦ ۗ عَفَا ٱللَّهُ عَمَّا سَلَفَ ۚ وَمَنْ عَادَ فَيَنتَقِمُ ٱللَّهُ مِنْهُ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴿٩٥﴾ أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ ٱلْبَحْرِ وَطَعَامُهُۥ مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ ۖ وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ ٱلْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا ۗ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٩٦﴾ ۞ جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلْكَعْبَةَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ قِيَٰمًا لِّلنَّاسِ وَٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ وَٱلْهَدْىَ وَٱلْقَلَٰٓئِدَ ۚ ذَٰلِكَ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٩٧﴾ ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ وَأَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩٨﴾ مَّا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴿٩٩﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ نزل في أهل عمرة الحديبية حيث ابتلاهم الله تعالى بالصيد وهم محرمون، فكانت الوحوش تغشاهم في رحالهم، وكانوا يتمكنون من صيدها أخذاً بأيديهم وطعناً برماحهم. فنزلت الآية يعني ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ والله ﴿لَيَبْلُوَنَّكُمُ ٱللَّهُ﴾ وَلَيُعامِلَنكم مُعامَلَة المختبِرِ ﴿بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلصَّيْدِ تَنَالُهُۥٓ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ لِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَخَافُهُۥ بِٱلْغَيْبِ ۚ﴾ أي ليتعلق علمه سبحانه بمن يخافه غيباً فلا يتعرض للصيد ﴿فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ﴾ أي فمن تجاوز حد الله تعالى وتعرض للصيد ﴿فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ لأن المتعرض للصيد في الدنيا متعرض للقيد في الآخرة حيث إن المتجاوز من الحدود لا يهتم بأحكام الباري تعالى ومن لم يهتم بالأحكام إن لم يكن كافراً فهو آثم والآثم معذب.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقْتُلُوا۟ ٱلصَّيْدَ وَأَنتُمْ حُرُمٌ ۗ﴾ الصيد: وإن كان يشمل ما يؤكل لحمه وغيره إلا أن الشافعي خصه بالمأكول لأنه الغالبُ فيه عرفاً وأيّد ذلك بما رواه الشيخان: «خمس يقتلن في الحل والحرم: العقرب، والحدأة، والغراب، والفارة، والكلب العقور» وفي رواية لمسلم والحية بدل العقرب. وذكر القتل دون الذبح ونحوه للإيذان بأن الصيد وإن ذبح في حكم الميتة. وإلى ذلك ذهب الإمام الأعظم ومالك وأحمد وهو القول الجديد للشافعي رضي الله عنه ﴿وَمَن قَتَلَهُۥ مِنكُم مُّتَعَمِّدًا﴾ أي ذاكراً

لإحرامه عالماً بحرمة قتل ما يقتله، ومثله من قتله خطأ للسنّة ﴿فَجَزَآءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ﴾ أي فعليه جزاء مماثل لما قتله ﴿مِنَ ٱلنَّعَمِ﴾ وهذه المماثلة باعتبار الخلقة والهيئة عند مالك والشافعي، وباعتبار القيمة عند أبي حنيفة ﷺ. وقال يقوّم الصيد حيث صيدَ؛ فإن بلغت القيمة ثمن هدي تخير بين أن يهدي ما قيمته قيمته، وبين أن يشتري بها طعاماً، فيعطى كل مسكين نصف صاع من بر أو صاعاً من غيره، وبين أن يصوم عن طعام كل مسكين يوماً، وإن لم تبلغ، تخير بين الإطعام والصوم ﴿يَحْكُمُ بِهِۦ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾ صفة جزاء ﴿هَدْيًۢا بَٰلِغَ ٱلْكَعْبَةِ﴾ ومعنى بلوغه لها ذبحه بالحرم والتصدق به هناك ﴿أَوْ كَفَّٰرَةٌ طَعَامُ مَسَٰكِينَ﴾ والمعنى عند الشافعي أو أن يكفر بإطعام مساكين ما يساوي قيمة الهدي من غالب قوت البلد، فيعطى كل مسكين مداً. ﴿أَوْ عَدْلُ ذَٰلِكَ صِيَامًا﴾ أي أو ما ساواه من الصوم فَيَصوم عن طعام كل مسكين يوماً. وإنما قرر عليه الجزاء ﴿لِّيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِۦ﴾ أي لينال ثقل فعله وسوء عاقبته بهتكه لحرمة الإحرام أو الثقل الشديد على مخالفة أمر الله ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَمَّا سَلَفَ﴾ من قتل الصيد محرماً في عهد الجاهلية أو قبل التحريم في الإسلام، أو في هذه المرة ﴿وَمَنْ عَادَ فَيَنتَقِمُ ٱللَّهُ مِنْهُ﴾ علاوة على الكفارة المقررة ﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ﴾ ممن عاد إلى ما فعله من الذنوب. ولما ذكر تحريم صيد البر على المحرم ذكر حكم صيد البحر للمحرمين فقال: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ ٱلْبَحْرِ﴾ أي ما صيد منه، وهو عند الشافعي ما لا يعيش إلا في الماء على أي صورة كانت فخرج منه: الضفدع، والسلحفاة، والحية... وغيرها مما يعيش في البحر وفي البرّ لقوله ـ عليه الصلاة والسلام ـ في شأن البحر: «**هو الطهور ماؤه الحلّ ميتته**» وعند أبي حنيفة لا يحل منه إلا السمك. وقيل يحل السمك وما يؤكل نظيره في البرّ ﴿وَطَعَامُهُۥ﴾ أي وأحل لكم طعام البحر وهو ما قذفه البحر إلى الخارج، أو ما نضب عنه الماء فمات في الساحل ﴿مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ﴾ أي تمتيعاً لكم ولسيارتكم يتزودونه قديداً أي للمقيمين وللمسافرين ﴿وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ ٱلْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا﴾ والمراد بصيد البرّ ما يصطاده المحرم فلا يشمل ما صاده الحلال ولم يكن له دخل فيه. وعليه الجمهور. وقيل: يحرم على المحرم كل ما صيد في البر وإن لم يكن للمحرم دخل فيه. ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٩٦﴾ ۞ جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلْكَعْبَةَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ قِيَٰمًا لِّلنَّاسِ﴾ أي جعل الله الكعبة التي هي البيت الحرام وسيلة قيام وبقاء للناس واستفادتهم منها في الدين بركة وعبادة وصلاة وطوافاً واعتكافاً فيهما، وفي الدنيا

بأن جَعَلَها مأمناً لا يتعرض للناس فيه، ووسيلة توفير الرزق فيه من الحجاج والمعتمرين وسائر الوافدين عليها. ﴿وَٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ﴾ أي وجعل الشهر الحرام أي الذي يؤدى فيه الحج وهو: ذو الحجة أو جنس الأشهر الحرم قياماً لهم. ﴿و﴾ كذلك جعل ﴿ٱلْهَدْىَ وَٱلْقَلَـٰٓئِدَ﴾ أي ذوات القلائد وهي البدن. قياماً لهم وبركة ينتفعون بها ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي الجعل المذكور أي كل ما ذكر من الأحكام شرعت ﴿لِتَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ ومن جملتها ما ترد عليكم من المنافع والمضار فقرر ما قرر لجلب المنافع إليكم ودفع المضار عنكم. ﴿ٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ وَأَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ فرحمته وسعت كل شيء وقد كتبها للمتقين. وعذابه يقع على من استحقه إلا إذا عفا عنه، فابتعدوا عن الذنوب والآثام، وأقلعوا عنها ﴿مَّا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَـٰغُ﴾ وقد بلغكم وأشهد الله والملائكة والناس عليه ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ﴾ فلا تخفى عليه خافية قطعاً.

﴿قُل لَّا يَسْتَوِى ٱلْخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ ٱلْخَبِيثِ ۚ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ يَـٰٓأُوْلِى ٱلْأَلْبَـٰبِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٠٠﴾﴾.

عن جابر قال: إن النبي ﷺ ذكر تحريم الخمر، فقام أعرابي فقال: إني كنت رجلاً كانت هذه تجارتي فاعتقبت منها مالاً. فهل ينفع ذلك المال إن عملت فيه بطاعة الله تعالى؟ فقال ﷺ: «**إن الله تعالى لا يقبل إلا الطيب**» فأنزل الله تعالى الآية تصديقاً لرسول الله ﷺ أخرجه الواحدي والأصبهاني في الترغيب. وقوله: فاعتَقَبْتُ أي فاقْتَنَيْتُ.

قوله تعالى: ﴿قُل لَّا يَسْتَوِى ٱلْخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ﴾ أمر الله رسوله الحبيب أن يقول للناس أو للسائل عن حكم ماله الخاص الحاصل من تجارة المخدرات أنه لا مساواة عند الله سبحانه وتعالى بين الرديء والجيد من الأشخاص والأعمال والأحوال ﴿وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ ٱلْخَبِيثِ﴾ فإن العبرة بالكيفية لا بالكمية، والمحمود القليل خير من المذموم الكثير. ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ يَـٰٓأُوْلِى ٱلْأَلْبَـٰبِ﴾، أي فاتقوا عذاب الله في اقتناء الخبيث، وإن كان كثيراً، واختاروا لأنفسكم الطيب وآثروه، وإن كان قليلاً ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ راجين أن تفوزوا بالفلاح والنجاة.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَسْـَٔلُواْ عَنْ أَشْيَآءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ ۖ وَإِن تَسْـَٔلُواْ عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ ٱلْقُرْءَانُ تُبْدَ لَكُمْ ۚ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهَا ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٠١﴾﴾.

عن أنس بن مالك قال: خطب النبي ﷺ خطبة فقال رجل: مَنْ أبي؟ قال: فلان. فنزلت الآية. وعن ابن عباس قال: كان قوم يسألون رسول الله استهزاء فيقول الرجل: من أبي؟ ويقول الرجل، تضل ناقته: أين ناقتي؟ فأنزل الله فيه الآية. أخرجهما البخاري وعن علي لما نزلت: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ. . .﴾ قالوا: يا رسول الله أفي كل عام؟ فسكت. قالوا: يا رسول الله أفي كل عام؟ قال: لو قلت نعم لوجبت. فأنزل الله الآية أخرجه أحمد والترمذي والحاكم. ولا مانع أن تكون نزلت بسبب الأمرين معاً.

والمعنى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ كونوا على رعاية الأمور المهمة التي تحتاج إلى الكشف والبيان من أمور الدين أصلاً وفرعاً. ومن ضروريات الحياة التي يستفيد الإنسان من العلم بها فائدة جليلة. و﴿لَا تَسْـَٔلُوا۟ عَنْ أَشْيَآءَ﴾ لا خير لكم فيها من نحو التكاليف الصعبة التي لا تطيقونها والأسرار الخفية التي قد تفتضحون بها، فكما أن السؤال عن الأمور الواقعة مستتبع لإبدائها كذلك السؤال عن تلك التكاليف لإيجابها عليهم بطريق التشديد ﴿لإساءتهم﴾ الأدب وتركهم ما هو الأولى من الاستسلام لأمر الله من غير بحث فيه. فقوله تعالى: ﴿إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ﴾ صفة لأشياء داعية للانتهاء عن السؤال فيها. وعطف عليها ﴿وَإِن تَسْـَٔلُوا۟ عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ ٱلْقُرْءَانُ تُبْدَ لَكُمْ﴾ ومعناه إن تلك الأسئلة إذا كانت على مقصود محمود ينبغي السؤال عنه، فهي تظهر لكم حين نزول القرآن الكريم على مرات متتالية؛ لأن المهم ينزل مشروحاً، ويفي بمقصود الإنسان الحازم الطالب لفهم المقاصد المهمة، وإن لم يكن كذلك فما ينبغي السؤال عنه مطلقاً لأنه لا ينبغي إضاعة الوقت على ما لا ينبغي. ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنْهَا﴾ أي عن المسألة التي سألتم عنها. ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ أي بليغ المغفرة وافر الحلم يسامح أهل الذنوب لا سيما إذا كانت عن جهل، وحليم لا يستعجل بالعذاب بل كرمه يغلب غيره.

أخرج مسلم وغيره أنهم سألوا رسول الله ﷺ حتى أتعبوه في المسألة، فصعد ذات يوم المنبر وقال: «**لا تسألوني عن شيء إلا بينته لكم**» فلما سمعوا ذلك خافوا أن يكون بين يدي أمرٍ قد حضر. قال أنس رضي الله عنه: فجعلت أنظر يميناً وشمالاً فإذا كلَ رجل لافّ رأسه في ثوبه يبكي، وأنشأ رجل كان إذا لاحى أي نازع أحداً يُدعى إلى غير أبيه، فقال: يا رسول الله من أبي؟ قال: أبوك حذافة. ثم أنشأ عمر رضي الله عنه فقال: رضينا بالله رباً، وبالإسلام ديناً، وبمحمد ﷺ نبياً. نعوذ بالله تعالى من الفتن. ثم قال

رسول الله: «**ما رأيت في الخير والشر كاليوم قط! إنه صورت لي الجنة والنار حتى رأيتهما دون الحائط**» وذكر ابن شهاب أن أم ابن حذافة واسمه عبد الله قالت له لما رجع إليها: ما سمعت قط أعق منك! أَمِنت أن تكون أمك قارفت بعض ما يقارف أهل الجاهلية فتفضحها على أعين الناس! فقال ابن حذافة: لو ألحقني بعبد أسود للحقته! وأخرج غير واحد عن قتادة أن هذه الآية نزلت يومئذ.

ومما يحسن أن نعلم أن لفظ أشياء لما استعملت غير منصرف، وظاهره أنه جمع شيء كبيت وأبيات وليس فيه أسباب منع الصرف اختلفت آراؤهم. فذهب سيبويه والخليل إلى أن الهمزة للتأنيث وأن الكلمة اسم مفرد يراد به الجمع كالحلفاء والطرفاء. فأشياء في الأصل شيئاء بهمزتين بينهما ألف، فقدمت الهمزة الأولى التي هي لام الكلمة على الفاء لاستثقال همزتين بينهما ألف قبلهما حرف علة، والهمزة الثانية زائدة للتأنيث ولذلك لا تنصرف، ووزنها لفعاء. وقصارى ما في هذا المذهب القلب وهو كثير في كلامهم. وذهب الفراء إلى أنها جمع شيء بياء مشددة وهمزة بوزن هين وليّن، إلا أنهم خففوه فقالوا شيء كمَيْتٍ، وبعد التخفيف جمعوه على أَشْيئاء بهمزتين بينهما ألف بعد ياء بزنة أفعلاء فاجتمعت همزتان إحداهما لام الكلمة والأخرى للتأنيث، فخففوا ذلك بقلب الهمزة الأولى ياء ثم حذفوا الياء الأولى التي هي عين الكلمة فصار وزنه أفعلاء.

وقيل في تصريف هذا المذهب: إنهم حذفوا الهمزة التي هي لام الكلمة لأن الثقل حصل بها فوزنها أَفعاءُ، ومنع الصرف لهمزة التأنيث واستحسن هذا المذهب لو كان دليل على أن أصل شيء بالتخفيف شيء بالتشديد. وقال الأخفش إنها جمع شيء وزن فلس وأصلها أشيئاء بهمزتين بينهما ألف بعد ياء ثم عمل فيه ما مر. وردّه الزجاج بأن فعلاء لا يجمع على أفعلاء.

﴿قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُوا بِهَا كَٰفِرِينَ ﴿١٠٢﴾﴾.

عن ابن عباس رضي الله عنهما هم قوم عيسى عليه السلام سألوه إنزال المائدة ثم كفروا بها. وقيل: قوم صالح سألوه الناقة ثم عقروها وكفروا بها. وعن مقاتل: هم بنو إسرائيل كانوا يسألون أنبياءهم عن أشياء فإذا أخبروهم كذبوهم. وقيل غير ذلك.

﴿مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٍ وَلَا سَآئِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ وَلَٰكِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا

يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ۖ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٠٣﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ قَالُوا۟ حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۚ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٠٤﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ ۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهْتَدَيْتُمْ ۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٠٥﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿مَا جَعَلَ ٱللَّهُ﴾ معناه ما شرع تعالى في دين من الأديان ﴿مِنۢ بَحِيرَةٍ﴾: وهي الناقة التي نتجت خمسة أبطن آخرها ذَكَرٌ فشقوا أذنها، وخلوا سبيلها، فلا تركب، ولا تحلب بحجة أن الله تعالى حرم الاستفادة منها بعد ذلك. والبحيرة: من البحر بمعنى الشق لأنهم كانوا يشقون أذنها، ﴿وَلَا سَآئِبَةٍ﴾: من سبيته إذا تركته وأهملته يعني يُعْرَض عنها وتترك دون انتفاع منها. وهي الناقة التي تنتج عشرة أبطن إناث فتهمل، ولا يشرب لبنها إلا لضيف أو ولد. ﴿وَلَا وَصِيلَةٍ﴾: وهي شاة نتجت سبعة أبْطُنٍ عناقين عناقين، ونتجت في آخرها عناقاً وجدياً: ذكراً وأنثى. قيل: وصلت أخاها؛ فجرت مجرى السائبة أهملت مرضية مرعية بدون أتعاب لها في الركوب ولا شرب لبنها. ﴿وَلَا حَامٍ﴾: وهو جمل نتج من صلبه عشرة أبطن وكانوا يحرمون ركوب ظهره أو تحميله شيئاً، ولا يمنعونه من ماء ولا مرعى وقالوا في حقه: قد حمى ظهره. ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ﴾ بنسبة تحريم ما ذكر إليه ﴿وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ أي لا يميزون الحلال من الحرام والمباح من المحرَم وإنما يطبقون ذلك تقليداً بلا بصيرة لأسلافهم الأجلاف. ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ﴾ في مقام النصيحة ودعوتهم إلى التوحيد والتزام الشريعة ورفض ما اخترعوه من المفتعلات: ﴿تَعَالَوْا إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ قَالُوا۟ حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۚ﴾ مما قلدناهم فيه ﴿أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾: الواو للحال والهمزة للإنكار أي أحسبهم ما وجدوا عليه آباءهم ولو كانوا لا يعلمون بأنفسهم طريق النجاة ولا يهتدون بهدي الناصحين المرشدين من الأنبياء والمُرسَلين وورثتهم من العلماء العاملين؟!

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ قد سمعتم أخبار الأمم الكافرة التي أبت استماع أوامر الله ونواهيه على ألسنة المرسلين، وعلمتم أن هناك أناساً يتمردون أمثال أولئك المارقين ولا ينفعهم الزجر والردع بآيات الله البينات، ولا بأدلة العلماء العاملين فـ﴿عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ﴾ ألزموها وعلوها وأدّبوها وزكوها بالعلم المشرق والعمل الحق،

ولا تكسلوا عن الاستعداد للاستشراق بأنوار شريعة الخلاق ﴿لَا يَضُرُّكُم﴾ في دنياكم ولا دينكم ضلال ﴿مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهْتَدَيْتُمْ﴾ بهدي الرسول الأمين من ترك المحرمات وأداء الواجبات العينية والكفائية في الدين. ومن جملتها الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر الحادث من المعتدين ﴿إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا﴾ المخلصون والمفلسون وحكم بينكم فيما كنتم فيه تختلفون ﴿فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

تنبيه: أشرت بقول: ومن جملتها الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إلى دفع ما يتوهم من ظاهر الآية أنه يجوز ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إذا كان الإنسان سالماً في نفسه مراعياً لحق الباري من فعل المأمورات وترك المنهيات وذلك باطل؛ لأن الاهتداء لا يتحقق إلا بأداء ما لزم المكلف قولاً وفعلاً، ومنه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

روى ابن مردويه عن أبي بكر بن محمد قال: خطب أبو بكر الصديق الناس فقال في خطبته: قال رسول الله ﷺ يا أيها الناس لا تتكلوا على هذه الآية: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهْتَدَيْتُمْ﴾: «**إن الداعر يكون في الحيّ فلا يمنعونه فيعمهم الله تعالى بعقاب**». فمعنى الآية الشريفة أنه إذا اهتديتم بترك المحرمات وأداء الواجبات، ومن جملتها الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛ فحين ذلك لا يضركم ضلال من ضل في الأفكار والأعمال، وانحرف عن الصراط المستقيم. وعلى ذلك فالاهتداء يستوعب كافة الأحكام ومن جملتها ذلك. ومن الناس من فسر الاهتداء هنا بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في الدين فقط.

ومن الناس من قال إن الآية تسلية لمن أمر بالمعروف ونهى عن المنكر ولكن لم يقبل منه لغلبة الفسق وبعد العهد بالوحي، ومعناها حينئذ إذا أمرتم بالمعروف ونهيتم عن المنكر وما قبله الناس الفاسقون فليس عليكم شيء من الذنوب لأنكم أبرأتم ذمتكم بالأمر والنهي ولستم بمسيطرين على المتكبرين. أخرج ابن مردويه عن معاذ بن جبل أنه قال: يا رسول الله أخبرني عن قول الله ـ عز وجل ـ يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم فقال ﷺ: «**يا معاذ مروا بالمعروف وانهوا عن المنكر فإذا رأيتم شُحّاً مطاعاً، وهَوىً مُتَّبَعاً، وإعجاب كل امرىء برأيه فعليكم أنفسكم**».

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ شَهَٰدَةُ بَيۡنِكُمۡ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ حِينَ ٱلۡوَصِيَّةِ ٱثۡنَانِ ذَوَا عَدۡلٖ مِّنكُمۡ أَوۡ ءَاخَرَانِ مِنۡ غَيۡرِكُمۡ إِنۡ أَنتُمۡ ضَرَبۡتُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَأَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةُ ٱلۡمَوۡتِۚ تَحۡبِسُونَهُمَا مِنۢ بَعۡدِ ٱلصَّلَوٰةِ فَيُقۡسِمَانِ بِٱللَّهِ إِنِ ٱرۡتَبۡتُمۡ لَا نَشۡتَرِي بِهِۦ ثَمَنٗا وَلَوۡ كَانَ ذَا قُرۡبَىٰ وَلَا نَكۡتُمُ شَهَٰدَةَ ٱللَّهِ إِنَّآ إِذٗا لَّمِنَ ٱلۡأٓثِمِينَ ﴿١٠٦﴾ فَإِنۡ عُثِرَ عَلَىٰٓ أَنَّهُمَا ٱسۡتَحَقَّآ إِثۡمٗا فَـَٔاخَرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا مِنَ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَحَقَّ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَوۡلَيَٰنِ فَيُقۡسِمَانِ بِٱللَّهِ لَشَهَٰدَتُنَآ أَحَقُّ مِن شَهَٰدَتِهِمَا وَمَا ٱعۡتَدَيۡنَآ إِنَّآ إِذٗا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠٧﴾ ذَٰلِكَ أَدۡنَىٰٓ أَن يَأۡتُواْ بِٱلشَّهَٰدَةِ عَلَىٰ وَجۡهِهَآ أَوۡ يَخَافُوٓاْ أَن تُرَدَّ أَيۡمَٰنُۢ بَعۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡۗ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱسۡمَعُواْۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ ﴿١٠٨﴾﴾.

عن ابن عباس عن تميم الداري في هذه الآية قال: برىء الناس منها غيري وغير عدي بن بداء، وكانا نصرانيين يختلفان إلى الشام قبل الإسلام، فأتَيَا الشامَ لتجارتهما وقدم عليهما مولى لبني سهم يقال له بديل بن أبي مريم بتجارة، ومعه جامٌ من فضة فأوصى إليهما وأمرهما أن يبلغا ما ترك أهله.

قال تميم: فلما مات أخذنا ذلك الجام فبعناه بألف درهم ثم اقتسمناها، أنا وعدي بن بداء. فلما قدمنا إلى أهله دفعنا إليهم ما كان معنا وفقدوا اللجام فسألونا عنه فقلنا: ما ترك غير هذا وما دفع إلينا غيره. قال تميم: فلما أسلمتُ بعد قدوم الرسول المدينة تأثمت عن ذلك، فأتيت أهله وأخبرتهم الخبر وأديت إليهم خمسمائة درهم وأخبرتهم أن عند صاحبي مثلها. فأتوا به إلى رسول الله ﷺ فسألهم البينة فلم يجدوا، فأمرهم أن يستحلفوه فحلف بما يعظم به عند أهل دينه. فأنزل الله الآيات إلى (الفاسقين). فقام عمرو بن العاص ورجل آخر منهم فحلفا فنزعت الخمسمائة درهم من عدي بن بدّاء. أخرجه الترمذي وابن جرير وابن أبي حاتم. والجام هو الإناء من فضة، وفي بعض الروايات: وكان مخوَّصاً أي عليها صفائح الذهب أي منقوش مموه بالذهب مثل خوص النخل.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ أي يا أيها الذين آمنوا من جملة الأحكام المشروعة فيما بينكم ما سيأتي وهو ﴿شَهَٰدَةُ بَيۡنِكُمۡ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ﴾ أي قاربه ﴿حِينَ ٱلۡوَصِيَّةِ﴾ أي حين الإدلاء بها وبيانها لنفع الورثة في المستقبل أو منفعة نفسه لبراءة ذمته من حقوق الله أو حقوق الناس ﴿ٱثۡنَانِ ذَوَا عَدۡلٖ مِّنكُمۡ﴾ أي شهادة رجلين

عادلين من المسلمين ﴿أَوْ ءَاخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ﴾ أي أو شهادة رجلين آخرين من غير المسلمين لضرورة ضبطها من المريض المقارب للموت لأدائها عند الحاجة.

واعتبار غير المسلمين في الشهادة كان في صدر الإسلام لقلة المسلمين. وأما بعده فلا اعتبار لها فالحكم منسوخ وعلى هذا الرأي الإمام الشافعي ومالك والنخعي. وأما أبو حنيفة فيعتبرها صحيحة في أي وقت لا سيما عند الحاجة. وهذا النوع من تحمل الوصية للشهادة بها ﴿إِنْ أَنتُمْ ضَرَبْتُمْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ أي سافرتم ﴿فَأَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةُ ٱلْمَوْتِ﴾.

وقال الإمام الرازي: إن قوله تعالى إن أنتم ضربتم في الأرض فأصابتكم مصيبة الموت: المقصود منه بيان أن جواز الاستشهاد بآخرين من غير المسلمين مشروط بما إذا كان المستشهد مسافراً ضارباً في الأرض وحضرت علامات نزول الموت. وعلى ما ذكره يكون قوله تعالى: ﴿تَحْبِسُونَهُمَا مِنۢ بَعْدِ ٱلصَّلَوٰةِ﴾ أي توقفونهما إلى ما بعد صلاة العصر الذي يجتمع فيه الناس ﴿فَيُقْسِمَانِ﴾ أي ذانك الشاهدان اللذان من غير المسلمين قسماً ﴿بِٱللَّهِ﴾ تعالى ﴿إِنِ ٱرْتَبْتُمْ﴾ أي وقعتم في ريب وشبهة من صدقهما أيضاً مربوطاً بالشاهدين اللذين كانا من غير المسلمين. وإلا فالشاهد المسلم لا يوقف ولا تقيد شهادته بما بعد الصلاة ولا يحلف، ومنهم من يقول: إن التوقيف إلى العصر وما بعده جائز للشاهد المسلم وغيره عند وقوع الريب والشبهة في حقه.

وقد روي عن الإمام علي - كرم الله وجهه - أنه كان يحلف الشاهد والراوي عند التهمة. ويقولان في حلفهما: ﴿لَا نَشْتَرِى بِهِۦ ثَمَنًا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾ أي يؤديان الشهادة ويقولان: نشهد أن فلاناً قال في وصيته إن هذا مال فلان وذاك حقه إلى آخر ما ذكره، ونقسم بالله لا نشتري بأدائنا لهذه الشهادة ثمناً قليلاً أي متاعاً نقداً أو غيره قليلاً النسبة إلى عذاب الآخرة ﴿وَلَوْ كَانَ﴾ الإنسان الذي تصله المنفعة بشهادتنا ﴿ذَا قُرْبَىٰ﴾ لنا ﴿وَلَا نَكْتُمُ شَهَٰدَةَ ٱللَّهِ﴾ أي ولا نضيع الشهادة التي كانت في ذمتنا، وأمرنا الله بأدائها على وجه الحق ﴿إِنَّآ إِذًا لَّمِنَ ٱلْءَاثِمِينَ﴾ بكتمنا لها. ﴿فَإِنْ عُثِرَ عَلَىٰٓ أَنَّهُمَا ٱسْتَحَقَّآ إِثْمًا﴾ أي فإن وقع العثور والإطلاع بعد ذلك على أن الشاهدين أديا الشهادة على غير وجه الحق واستحقا بذلك إثماً ﴿فَءَاخَرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا﴾ أي فشاهدان آخران غيرهما يقومان مقام الآثمين في أداء الشهادة على اعتقادهما الراجح ويعارضان بشهادتيهما شهادتيهما ويعود الحق لأهله. وهذان الشاهدان

الآخران يكونان ﴿مِنَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْأَوْلَيَٰنِ﴾ أي استحق الإثمَ الشاهدان اللذان كانا هما الأوليان والأوفقان بالإيصاء إليهما من جانب المريض الموصي.

وفيه إشارة إلى الزجر والتوبيخ لهما لأنهما كانا من المختارين عند المريض وحَمَّلهما الأمانةَ وقد خاناه وخانا الله وخانا الورثة. وقرىء (الأوّلان) تثنية الأول ومعناه ظاهر لتقدمهما في الشهادة. فقوله: (استحق) بفتح التاء فعل مبني للفاعل (والأوليان) فاعل (وعليهم) مفعول به غير صريح. والمعنى: استحق الشاهدان الأوليان الإثم على الورثة أي على إضرار الورثة. وقال ابن السري معناه استحق عليهم أداء الوصية. والأوليان بدل من آخران أي فآخران يقومان مقام الآثمين، وهما الأوليان والأوفقان بقبول شهادتهما لأن الوصيين قد خانا في حقهما ومقابلة الخيانة ودفعها جائز بل مستحب بل واجب بحسب المواقع ﴿فَيُقْسِمَانِ بِٱللَّهِ﴾ بعد أدائهما الشهادة: ﴿لَشَهَٰدَتُنَآ أَحَقُّ مِن شَهَٰدَتِهِمَا﴾ لأن شهادتنا كانت مبنية على إطلاعنا بخيانة الشاهدين الأولين، وحصل لنا الاعتقاد الراجح بأن المالَ مالُنا ﴿وَمَا ٱعْتَدَيْنَآ﴾ أي وما تجاوزنا الحق في شهادتنا وقلنا نشهد أن المال الفلاني عائدٌ إلينا ﴿إِنَّآ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أنفسنا إن تجاوزنا الحق. ﴿ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِٱلشَّهَٰدَةِ عَلَىٰ وَجْهِهَآ أَوْ يَخَافُوٓا۟ أَن تُرَدَّ أَيْمَٰنٌۢ بَعْدَ أَيْمَٰنِهِمْ﴾ قوله أو يخافوا معطوف على يأتوا أي ذلك المنهج المشروع الشامل على الاهتمام بشهادة عادلين منا، أو رجلين آخرين من غيرنا مع القيود اللاحقة أقرب وأوفق إلى إتيانهما بالشهادة على وجهها حال كونهم يخافون الله سبحانه وتعالى في الآخرة، أو يخافون أن ترد أيمان منهما إلى جانب أصحاب الأموال بعد أيمانهم إذا كانا غير مهتمين بالشهادة فيفتضحا ويخزيا بين الناس، والخزي والعار أشد من النار على الأحرار.

يقول المفسر البيضاوي رحمه الله تعالى ما نصه: ومعنى الآيتين: إن المحتضر إذا أراد الوصية ينبغي أن يُشهِدَ عدلين من ذوي نسبه أو دينه على وصيته أو يوصي إليهما احتياطاً فإن لم يجدهما بأن كان في سفر فآخرين من غيرهم، ثم إن وقع نزاع وارتياب أقسما على صدق ما يقولان بالتغليظ بالوقت، فإن اطلع على أنهما كذبا بأمارة ومظنة حَلَفَ آخران من أولياء الميت، والحكم منسوخ إن كان الاثنان شاهدين فإنه لا يحلف الشاهد ولا يعارض يمينه بيمين الوارث، وثابت إن كانا وصيين. ورد اليمين إلى الورثة إما لظهور خيانة الوصيين، فإن تصديق الوصي

باليمين لأمانته أو لتغير الدعوى انتهى. وقال الشهاب: وقوله أو لتغير الدعوى أي انقلابها بأن المُدّعى عليه صار مدعياً للملك والوارث مدعىً عليه فلذا لزمته اليمين لا للرد كما مرَّ وهو الصحيح.

وفي حاشية الشهاب أيضاً ما نصه: والشهادة لها معان منها: الإحضار كقوله تعالى ﴿وَٱسْتَشْهِدُوا۟ شَهِيدَيْنِ مِن رِّجَالِكُمْ﴾. ومنها القضاء نحو شهد الله أنه لا إله إلا هو. أي قضى. ومنها: أَقَرَّ. ومنها حَكَم. ومنها حلف. ومنها علم ومنها وصى كما في هذه الآية.

قلت: والظاهر عندي أن الشهادة هنا على المعنى المعروف في الشرع، لكنها في أول الأمر شهادة حسبة أي إن قول العدلين الحاضرين عند الوصية للورثة قبل النزاع إن فلاناً أشهدنا قبل موته بكذا وكذا شهادة حسبة وبيان حق لمرضاة الله. وفي وقت حدوث النزاع بين الورثة وطلب بعض منهم مقداراً وإنكار غيره له تكون شهادة مقامة بشرط طلب الورثة منه الشهادة، أو طلب القاضي. وأما شهادة الآخرين فليس إلا كلاماً مستقلاً يؤدي في مقابل الرجلين الخائنين حاصله أن ذلك المال مال أصحابِهِ والله أعلم. ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱسْمَعُوا۟﴾ أي اتقوا الله في مخالفة شريعته واسمعوا كلامه سماع إجابةٍ وإطاعةٍ وإلّا تحوّلتم فَسَقَةً ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾.

﴿يَوْمَ يَجْمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَآ أُجِبْتُمْ ۖ قَالُوا۟ لَا عِلْمَ لَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١٠٩﴾ إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱذْكُرْ نِعْمَتِى عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ ۘ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ ۖ تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا ۖ وَإِذْ عَلَّمْتُكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ۖ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ بِإِذْنِى فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِى ۖ وَتُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ بِإِذْنِى ۖ وَإِذْ تُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِى ۖ وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَنكَ إِذْ جِئْتَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١١٠﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ﴾ يوم ظرف منصوب بقوله السابق ﴿وَٱتَّقُوا۟﴾ أي واتقوا الله وعذابه وهيبته ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَآ أُجِبْتُمْ﴾؟ في الدنيا حين بلغتم كتابي إلى الناس وخرجتم من عهدة التبليغ؟ ﴿قَالُوا۟﴾ أي الرسل الكرام

من دهشهم واضطرابهم من سؤال الملك العلام: ﴿لَا عِلْمَ لَنَآ﴾ بتفصيل ما أجابونا به من كلمات التلبية والإسعاد أو عبارات البغي والعناد ﴿إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ﴾ بأنواعها وأصنافها وأشخاص لا يعزب عنك شيء منها ﴿إِذْ قَالَ ٱللَّهُ﴾ كلمة إذ بدل من يوم. أي وذلك الجمع للرسل، والسؤال والجواب واقع ﴿إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱذْكُرْ نِعْمَتِى عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ﴾ أما عليك فبما يأتي، وأما على والدتك فبولادتك منها ﴿إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ﴾ أي بجبريل الأمين عليه السلام، أو بتحقق روح لك مربوطة بحضرة القدس بتوالي نزول الأنوار عليها ودوام الشهود ونظرات رحمة الباري إليها حال كونك ﴿تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ﴾ كلاماً لا يليق ألا بأصحاب الرسالة والعهد ﴿و﴾ تكلمهم ﴿كَهْلًا﴾ بآيات كنت لتبليغها أهلاً ﴿وَإِذْ عَلَّمْتُكَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ أي الكتابة ﴿وَٱلْحِكْمَةَ﴾ والكلام الرصين المحكم الصواب ﴿وَٱلتَّوْرَىٰةَ﴾ المنزل على موسى ﴿وَٱلْإِنجِيلَ﴾ المنزل عليك انت ﴿وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ﴾ تصورها من جنسه وذلك بإذني ﴿فَتَنفُخُ فِيهَا﴾ أي في تلك الهيئة ﴿فَتَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِى وَتُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ﴾ الأعمى من الولادة والإنسان ﴿وَٱلْأَبْرَصَ بِإِذْنِى وَإِذْ تُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِى﴾ فتخرجهم إنساناً سوياً حياً بهياً ﴿وَإِذْ كَفَفْتُ﴾ أي منعت ﴿بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَنكَ﴾ حين هموا بقتلك ﴿إِذْ جِئْتَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ أي المعجزات الواضحة ﴿فَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ إِنْ هَٰذَآ﴾ أي ما هذا الأمر الصادر عن عيسى ﴿إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ واضح بلا شبهة.

﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى ٱلْحَوَارِيِّـۧنَ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِى وَبِرَسُولِى قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَٱشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ ﴿١١١﴾ إِذْ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ قَالَ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُوا۟ نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ٱللَّهُمَّ رَبَّنَآ أَنزِلْ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا وَءَايَةً مِّنكَ وَٱرْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿١١٤﴾ قَالَ ٱللَّهُ إِنِّى مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّىٓ أُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا لَّآ أُعَذِّبُهُۥٓ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١١٥﴾﴾.

﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى ٱلْحَوَارِيِّـۧنَ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِى وَبِرَسُولِى﴾. أي واذكر إذ ألهمت الناس الذين قررت أن يكونوا من حواريك أن آمنوا بي وبرسولي عيسى ابن مريم. أو

أوحيت إليهم على لسان عيسى فقلت له يأمركم الله الإيمان بي وبرسولي، فوقع في قلوبهم نور الإطاعة والتوجه إلى الخالق البارىء و﴿قَالُوٓاْ ءَامَنَّا﴾ بالله الواحد الفرد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد، وبرسوله المولود من أمه الصديقة بنفخة من جانب جبريل المأمور بها من الرب الجليل، وبكل ما يأتينا به من الله القدير ﴿وَٱشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ﴾ ونسترحمك يا الله أن تقبل إيماننا وتراقبه بإحسانك إلى يوم لقائك، وأن تعاملنا على أننا مسلمون منقادون مخلصون لك ﴿إِذْ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ قَالَ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾.

قيل: كيف يناسب هذا السؤال قوماً أوحى إليهم بالإيمان بالله ورسوله فآمنوا الله وبرسوله، وترجوا من الله أن يقبل منهم ذلك؟ فأجيب بأجوبة منها: إنه لا يلزم أن يكون المؤمن، كائناً من كان، أن يعلم بجميع ما يمكن منه تعالى من أفعاله وتصرفاته. ألا ترون أن سيدنا موسى عليه السلام سأل ربّه رؤيته؟ فقال: رب أرني أنظر إليك. قال: لن تراني الآية. وعلى ذلك يجوز في حق الحواريين الجهل ببعض الأمور الممكنة التي يعملها الباري سبحانه وتعالى.

ومنها: أن المراد بالاستطاعة تقتضيه الحكمة والإرادة الإلهية. وليس المراد بها القدرة لأن شمول قدرة الباري لكل ممكن واضح لا ريب فيه.

ومنها: أن قولهم يستطيع بمعنى يطيع ويجيب. أي هل يجيك ربك إذا طلبت منه إنزال مائدة لنا؟

ومنها: أن الحواريين كانوا فرقتين فرقة ألهموا رشدهم وآمنوا بالله وبرسوله حق الإيمان، وهم المرادون في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى ٱلْحَوَارِيِّينَ﴾ والسؤال لم يكن منهم. وفرقة كانوا معهم صورة لكنهم كانوا مترددين مذبذبين بين الإيمان والنكران، وهم الذين سألوا عيسى هل يستطيع ربك الآية ويؤيد هذا الجواب قوله: ﴿ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾. ﴿قَالُواْ نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا﴾ أي أكل تبرّك واختصاص بهذه المعجزة الشريفة ﴿وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا﴾ وتخلص من قبول الوساوس التي تأتيها من الشيطان، ﴿وَنَعْلَمَ﴾ علم عيان ﴿أَن قَدْ صَدَقْتَنَا﴾ في دعوى الرسالة وبشائرك التي بشرتنا بها ﴿وَنَكُونَ عَلَيْهَا﴾ أي على نزولها ﴿مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ والحاضرين عليها كي نبلغ الناس بكل قوة واطمئنان هدي رسالتك ومدى جلالتك واحترامك عند الله رب العالمين. ولما تبين أساس سؤالهم ﴿قَالَ عِيسَى ٱبْنُ

مَرْيَمَ﴾ عليه السلام: ﴿ٱللَّهُمَّ رَبَّنَآ أَنزِلْ عَلَيْنَا مَآئِدَةً﴾ يعني سفرة تميد ويمد عليها الطعام ﴿مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ سماء كرمك وهباتك وعلو عظمة فيضك وإحسانك ﴿تَكُونُ﴾ المائدة ﴿لَنَا عِيدًا﴾ سعيداً يبقى أثرها زماناً مديداً، لا لنا نحن الحواريين فحسب بل ﴿لِّأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا﴾ من أتباعنا، فإن رحمتك واسعة ﴿و﴾ تكون ﴿ءَايَةً﴾ باهرة ومعجزة ظاهرة ﴿مِّنكَ وَٱرْزُقْنَا﴾ التمتع بها والشكر عليها ﴿وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ فإن الرازقين صورة يرزقون من يطيعهم، وأنت ترزق المؤمنين والكافرين والناكرين والشاكرين فالحمد لك يا رب العالمين. ﴿قَالَ ٱللَّهُ﴾ تعالى مجيباً لنداء عبده عيسى عليه السلام: ﴿إِنِّى مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ﴾ لتوجه رحمتي إليكم ﴿فَمَن يَكْفُرْ﴾ بصاحب تلك النعمة الجسيمة ﴿بَعْدُ﴾ أي بَعدَ تنزيلها والأكل منها ﴿مِنكُمْ﴾ وأنتم المتمتعون بهذه المائدة المباركة ﴿فَإِنِّىٓ أُعَذِّبُهُۥ﴾ بسبب كفرانه لتلك النعمة ﴿عَذَابًا لَّآ أُعَذِّبُهُۥٓ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أي عالمي زمانهم.

وهذا العذاب في الدنيا كان بمسخهم قردة وخنازير. وروي ذلك عن قتادة. وأما في الآخرة فهو ما رواه أبو الشيخ وغيره عن ابن عمر ـ رضي الله تعالى عنه ـ قال: إن أشد الناس عذاباً يوم القيامة من كفر من أصحاب المائدة والمنافقون وآل فرعون. وهذه الرواية دليل على أن بعضاً من الحواريين كفر بعد نزولها.

﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِى كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾ قَالَ ٱللَّهُ هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١١٩﴾ لِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٢٠﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ﴾ عطف على ﴿إِذْ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ﴾ يعني وإذ قال الله يوم القيامة على رؤوس الأشهاد: ﴿يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ

إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾؟! وإنما يقول ذلك توبيخاً للكفار وتبكيتاً لهم بإقراره عليه السلام على رؤوس الأشهاد بالعبودية لله تعالى وأمرهم بعبادته ـ عز وجل ـ. ﴿قَالَ﴾ عيسى عليه السلام ﴿سُبْحَٰنَكَ﴾ أي تنزيهاً لك من أن أقول ذلك، أو تنزيهاً من أن يقال في حقك ذلك أبـــداً. ﴿مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ﴾ يقول ما ينبغي لي أنْ أقول شيئاً غير موافق للحق، وما قلته أبداً، وإن كنت قلته فقد علمته إذ لا تخفى عليك خافية، تعلم ما في نفسي من المضمرات ولا أعلم ما في نفسك من المغيبات. وذكرُ النفس وإضافتُها إلى المخاطب وهو ذات الباري تعالى للمشاكلة. أو المراد بالنفس الذات، أي ما هو معلوم عندك ﴿إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ﴾ و﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ﴾ عندما كنت معهم ﴿إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ﴾ وكـنـت رقـيـبـاً أراعـي أحوالهم ما بقيت فيهم ﴿فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِى﴾ أي فلما قَبَضْتَني ﴿كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ﴾ أي وبعد رفعي إلى مقامي المعلوم انحصرت الرقابة والعلم الغزير الشامل المستوعب في ذاتك ﴿وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾ أي حاضر ومراقب ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ﴾ أي فلا نزاع في أفعالك لأنهم أملاك خاصة وعبيد واقفون على عتبات عزتك وقدرتك ﴿وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ أي وإن تغفر لهم كُلَّ سيئاتهم فإنك القوي القادر على جميع شؤون التصرفات وكل تصرف لك مقرون بحكمة ثابتة لا عتب من أحدٍ عليها. ﴿قَالَ ٱللَّهُ﴾ هذا كلام مستأنف وقع في ختام واقعة الجمع يعني قال الله تعالى ﴿هَٰذَا﴾ اليوم الحاضر الذي وقع فيه جمع الرسل الكرام وسؤاله عن إجابة الأنام ﴿يَوْمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ أي الموصوفين بالصدق في توحيد الله تعالى وإرسال الرسل وما جاؤوا به واستمروا على ذلك إلى أن انتقلوا من الدنيا ﴿صِدْقُهُمْ﴾ فيما ذكر، ويأتيه ذلك الصدق بالمثوبة الحسنى عند الله وهي أنه ﴿لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾ رضي الله عنهم لإيمانهم وصدقهم في إيمانهم واستمرارهم عليه ﴿وَرَضُوا۟ عَنْهُ﴾ وعن إفاضة كرمه ونعمته عليهم بإحسانه ﴿ذَٰلِكَ﴾ الرضا من الطرفين هو ﴿ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ الذي لا يحيط به نطاق الوصف والبيان ولا غرو في ذلك الفوز العظيم الحاصل لأولئك المكلفين الفائزن بالنعيم المقيم فإنه ﴿لِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ﴾ يهب ما يشاء لمن يشاء والله الفاعل المختار ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ مبالغ في القدرة واللطف والله هو المعين.

❀ ❀ ❀

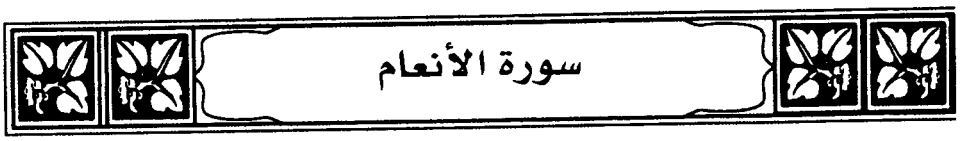

سورة الأنعام

مكية، وهي مائة وخمس وستون آية

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ۖ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿١﴾ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلًا ۖ وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُۥ ۖ ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ ﴿٢﴾ وَهُوَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِى ٱلْأَرْضِ ۖ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ ﴿٣﴾ وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٤﴾ فَقَدْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ ۖ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنۢبَٰٓؤُا۟ مَا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾.

قوله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ الكلام في لام التعريف أهي للجنس أو الاستغراق؟ مشهور. والحقيقة أن مآلهما واحد، لأن الجنس إذا كان موجوداً في الخارج فهو موجود بوجود الأفراد، لأن وجود الكلي الطبيعي وجود أفراده، فإذا قلنا: جنس الحمد مختص بالله تعالى، فمعناه أن هذا الجنس المتحقق في جميع الأفراد أياً كان فهو مختص بالله تعالى، وإذا قلنا: إن إفراد الحمد عموماً لله كما هو الاستغراق معناه أن أفراد ذلك الجنس مختص به تعالى، ولا يليق به غيره. ومن الناس من قال: إن اللام للعهد أي إن الحمد الذي حمد الله به نفسه ويليق بذاته، مختص به تعالى. ثم إن الحمد لله قد يكون في مقابل النعمة وقد لا، والواقع في فاتحة هذه السورة في مقابلة نعمة تستوعب أفراد النعم لأنه ربط الحمد بالمحمود ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ وكل نعمة وصل أو ستصل إلى أيّ مظهر للحمد فإنما تنبع من السماء أو من الأرض فقد أفاد أن كل أفراد الحمد ثابت لله الذي نشأت منه كل نعمة أنعم بها على البرايا، وجمع السماوات، وأفرد الأرض قالوا لأن السماوات طبقات متعددة متباينة بالذات، فأما الأرض فهي، وإن ورد أنها سبع

أيضاً في قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾ لكنها متطابقة لا ترى ولا تلاحظ إلا كشيء واحد فهي كالبصلة الواحدة فيها قشور متضامة بعضها فوق بعض. والحق أن يقال: إن ما تحت الأقدام شيء واحد وهو الأرض التي يستقر عليها البشر وسائر الحيوانات، وإن كان في ذاتها تحتوي على طبقات مختلفة متفاوتة الآثار. وأما ما علا رؤوس الإنسان فهو أمور كثيرة منها الشمس المضيئة التي تنور الكائنات، ومنها القمر، ومنها الزهرة، ومنها سائر الكواكب المشعة البعيدة. ثم قالوا: إن الفرق بين الخلق والجعل هو أن الخلق فيه معنى التقدير، وأن الجعل فه معنى التضمين، فمعنى خلق السماوات هو أن الله قدر وقرر في علمه الأزلي صورة الكائنات ثم أبدعها على ما تقرر في علمه.

وأما معنى ﴿جَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ﴾ أنه صير الظلمات عارضة على بعض المواد كما أنه صير الأنوار عارضة على بعض آخر، فالجعل يحتاج إلى اعتبار موصوف يقبل الصفة أي جعل الظلمات والنور صفات للمواد الكونية، وقد يستعمل الجعل معنى الخلق والإبداع بدون ملاحظة شيء آخر مع ذلك المخلوق المُبدَع.

والكلام في أن الماهيات مجعولة أولاً مشهور بين أهل العلم، ولكن في بيانه تفصيل، وهو أنه إذا أريد بالجعلِ الجعلُ البسيط، أي إبداع الشيء من العدم إلى الوجود، ومن الماهية الحقيقةُ الثابتة في الخارج أو في الذهن، فكل حقيقة خارجية جوهر أو عرض مجعول بهذا الجعل، فإن الله سبحانه وتعالى أبدعها من الليسية إلى الأيسية، وكما أن الشمس تستتبع حدوث الضوء كذلك إرادة الفاعل المختار تستتبع تلك الحقيقة الخارجية عيناً أو عرضاً، وكذلك الماهية الموجودة في الذهن بالوجود الذهني فإن ذلك الوجود عرض من حيث قيامه بالذهن، وكيف والله تعالى يخلقه في قلب الإنسان المدرك؟ وإذا أريد بالجعلِ الجعلُ المركب، أي جعل شيء شيئاً، واعتبرنا الوجود زائداً على ماهية الموجود فكل ماهية خارجية أو ذهنية مجعولة بذلك الجعلِ لأن الله تعالى جعل الماهية متصفة بالوجود، وجعل الماهية موجودة. وإذا اعتبرنا الوجود عين الماهية فلا مجال للقول بالجعلِ بهذا المعنى، لأن الشيء الواحد لا يتصور فيه جعل شيء شيئاً. هذا حاصل الموضوع بقدر مستوى أفكار المطالعين اليوم.

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ معناه ثم انظروا إلى عقول الكفار المشركين بعد أن إذا سألتهم من خلق السماوات والأرض وجعل الظلمات

والنور ليقولن الله فأولئك الناس الذين كَفَروا يَعْدلُونَ ويسوون الأصنام بربهم ويجعلونها شركاء لله تعالى في العبادة ويعبدونها كما يعبدون الله بزعمهم.

وقوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن طِينٍ﴾ استئناف لبيان كفرهم بالبعث، فيقول: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن طِينٍ﴾ أي خلق أصلكم وهو آدم عليه السلام من الطين، أو خلق أنفسكم من الطين باعتبار أن مادة النطفة المتكونة عند الوالدين نشأتها من المواد الطينية ﴿ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلًا﴾ يعني قدر وكتب حداً معيناً من الزمن للموت لا يستأخر آناً كما لا يتقدم. ذلك لأن الله سبحانه وتعالى علق علمه بانتهاء حياة كل حي في آن معين لأسباب معينة، وعلمه تعالى غير قابل للتبدل أبداً، فعلى ذلك تبين أن الأجل لكل حيّ أجل واحدٌ، والذين زعموا أن الأجل يتعدد وأن المقتول لم يمت بأجله وقعوا في غلط فاحش، حيث لم يعرفوا معنى الأجل، وإلا لزم تعدد الأجل لكل من لدغته حية، أو صال عليه سبع، أو سقط عليه حائط، أو غرقه الماء، إلى آخر الأسباب التي يتولد الموت منها.

ومنشأ الغلط تفسيرهم للأجل بالوقت الذ انحلّت أعضاء الحي فيه ولم تبق فيها قابلية النمو والبقاء مع أن ذلك تفسير موهوم. وإنما الأجل هو الوقت الذي علم الله تعالى انتهاء الحياة فيه ﴿وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُۥ﴾ أي وكما أن لانتهاء حياة الحي أجلاً معيناً كذلك يوجد في علمه تعالى حد معين للبعث من القبور ﴿ثُمَّ أَنتُمْ﴾ أيها المخاطبون ﴿تَمْتَرُونَ﴾ وتشكون في البعث مع أن البعث وهو الإحياء بعد الموت مثال للخلق والإيجاد أولاً. فكما صدر منه البدء يصدر منه الإعادة ﴿مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾. فالأساس لهذه التطورات قدرة الفاعل ووجود القابل والكل متحقق.

فإن قيل إذا كان الأجل على ما ذكرت فما وجه معصية القاتل المباشر للقتل؟ قلنا: معنى علمه تعالى بأجل الرجل تعلق علمه بأن زيداً العاصي السيىء الاختيار يباشر سبب قتل عمرو ويقتله. فهذا القاتل حقق ما علمه الباري تعالى وعلمه متعلق بأن زيداً جانٍ عاصٍ عابثٍ. فإن قلت: إذا كان الأمر كذلك فما معنى قوله: ﴿وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ﴾؟ وما وجه الأحاديث الكثيرة التي تدل على أن الصدقة تدفع البلاء وتزيد العمر، وأن صلة الأرحام ومساعدة الأرامل والأيتام توجبان زيادة العمر؟ قلت: معنى الآية الشريفة واضح، ووجه الأحاديث

الشريفة لائح وليس المعنى على أن عمر الشخص كان قليلاً في علمه تعالى ثم خالف علمه وزاد في مدة حياته وأخر أجله. بل المعنى إن العمر الطويل للشخص أو العمر القصير له مكتوب في اللوح المحفوظ ومعلوم عند الله تعالى، وإن عمر المتصدق على الفقراء والواصل للأرحام كتب طويلاً حسب علمه بأن الرجل المطيع للدين الحسن الاختيار يفعل في المستقبل تلك الحسنات والصلات والمبرات.

﴿وَهُوَ ٱللَّهُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِي ٱلْأَرْضِ﴾ الظرفان متعلقان بالمعنى الوصفي الذي تضمنه الاسم الجليل. ومعنى الآية: وهو المعبود بحق في السماوات وفي الأرض، وليس معناه إن الله مستقر في السماوات وفي الأرض، وذلك لوجوه:

الأول: إن الأدلة القطعية دلت على أن الله تعالى واجب الوجود، وموصوف بالكمال المطلق، ومنزه عن النقص مطلقاً. والاحتياج إلى المحل والمستقر نقص أي نقص.

الثاني: إن الله تعالى قديم أزلي والسماوات والأرض حادثتان، فلو احتاج الباري إلى المحل لزم احتياجه إلى الحادث، واحتياج القديم إلى الحادث غير معقول.

الثالث: إن الله تعالى أزلي قديم، والسماوات والأرض حادثتان فلو احتاج الباري إليهما لزم احتياجه قبلهما إلى غيرهما من الأمكنة الحادثة، ولزم احتياجه قبلها إلى مكان آخر حادث فلزم أن لا ينفك الباري عن المكان ولزم قدم المكان مع أن استغناء الباري عن المكان وحدوث كل ما سوى الله محقق ومعلوم بالإجماع.

الرابع: إن لو كان الله تعالى محتاجاً إلى المكان وجب أن يكون مكانه مساوياً له لأن نقصان المكان عن المتمكن وزيادته عليه ممتنع بالذات، فلزم من استوائه لمكان بُعداً ومَسافةً كونُ الباري تعالى على مسافة من البدن ومركباً من أجزاء محدودة، ولزم من ذلك احتياجه إليها وذلك شعار الحدوث وممتنع عليه تعالى، فوجب إما السكوت عن هذه الآية الكريمة وما شابهها وتفويضها إلى الله تعالى مع الإيمان بصدقها ومطابقتها للواقع وإما تأويلها بحيث يتناسب مع وجوب وجود الباري تعالى وقدمه واستغنائه عن كل حادث كما أفادها المحققون من المفسرين.

﴿يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ﴾ أي ما أسررتم وجهرتم به من القول والفعل ﴿وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ﴾ أي ما تفعلونه لجلب مصلحة أو طرد مضرة. كيف لا وهو عالم لا يعزب عنه مثقال ذرة في السماوات ولا في الأرض ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا في كتاب مبين. ﴿وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ﴾ سواء كانت تنزيلية أو تكوينية من الخوارق للعادة معجزات أو كرامات له ﷺ أو لأحد أصحابه أو أتباعه ﴿إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾ غير مقبلين ولا معتنين ﴿فَقَدْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ﴾ وهو القرآن الكريم الذي لا يرفضه إلا اللئيم ﴿فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنبَٰٓؤُا مَا كَانُوا بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ فإن الله تعالى عالم بجميع سيئاتهم من الكذب والافتراء والبهتان والاستهزاء والعناد والعداء والبغي والشحناء وهو تعالى، وإن كان له إمهال فلا إهمال منه، تعالى رب العالمين.

﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا ٱلسَّمَآءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا وَجَعَلْنَا ٱلْأَنْهَٰرَ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ ﴿٦﴾ وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَٰبًا فِى قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾ وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ ۖ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ ﴿٨﴾ وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ﴿٩﴾ وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُوا۟ مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١٠﴾﴾.

قوله: ﴿أَلَمْ يَرَوْا﴾ الآية استئناف مسوق لتعيين ما هو المراد بما تقدم، يعني الزجر والتوبيخ على المعاصي والتحريض على الإيمان بالله ورسوله. واختلف في مقدار مدة القرن فقالوا: مائة وعشرون سنة وقيل: مائة. وقيل: ثمانون، وقيل: سبعون وقيل: ستون. وقد تقرر اليوم على مائة سنة. فيقال: نحن في القرن الخامس عشر الهجري على هاجرها الصلاة والسلام.

والمعنى: و﴿كَمْ أَهْلَكْنَا مِن﴾ أهل ﴿قَرْنٍ مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ﴾ أي جعلناهم متمكنين في الاستقرار على الأرض والاستيلاء عليها واستغلالها في منافعهم وطرد الأعداء بحيث لم نمكن لكم بتلك الدرجة ﴿وَأَرْسَلْنَا﴾ عليهم (السماء مدرارا) كثير الدرّ بالخيرات. ﴿وَجَعَلْنَا ٱلْأَنْهَٰرَ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمْ﴾ أي مكناهم من البنيان والقصور والحدائق والأوراد وشق الأنهار الجارية فيها من تحت الأبنية

العالية، فصارت دورهم كمنتزهات لهم، ولكنهم لما استغنوا طغوا على الحق وبغوا في الأرض وأفسدوها بإفساد أهلها، وجعلوا يذنبون بدون زاجر ورادع حتى جاء وقت القضاء عليهم ﴿فَأَهۡلَكۡنَٰهُم بِذُنُوبِهِمۡ وَأَنشَأۡنَا مِنۢ بَعۡدِهِمۡ قَرۡنًا ءَاخَرِينَ﴾ أي أهل قرن آخرين. وكلما جاءت أمة لعنت أختها لبغيها وعدوانها، وهكذا الدنيا فلا ينجو أحد من عذاب رب العالمين.

وأولئك المتمردون الموجودون في قرنك مثل أهل القرون السابقة بل أشد شكيمة وأفظع حالاً وطبيعة، ولا يزالون في عنادهم ﴿وَلَوۡ نَزَّلۡنَا عَلَيۡكَ﴾ من السماء ﴿كِتَٰبًا﴾ مسطوراً من النور ومن أصول الدستور مكتوباً ﴿فِي قِرۡطَاسٖ﴾ مما اعتاده الناس ﴿فَلَمَسُوهُ﴾ أي الكتاب أو القرطاس ﴿بِأَيۡدِيهِمۡ﴾ حتى لا يبقى عندهم مجال شبهة ﴿لَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ مُّبِينٞ﴾ واعتقدوا أنه من غير الله تعالى.

وَإِذا الـبَـيِّـنـاتُ لَـمْ تُـغْـنِ شَـيْـئـاً فـالْـتِـمـاسُ الـهُـدى بِـهِـنْ عَـنـاء

﴿وَقَالُواْ﴾ بوجه آخر في قدحهم في رسالتك: ﴿لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ مَلَكٞۖ﴾ نراهُ بأعيُننا ﴿وَلَوۡ أَنزَلۡنَا﴾ عليك ﴿مَلَكٗا﴾ بصورته الحقيقية حتى يَرَوْهُ ﴿لَّقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ﴾ أي لتم أمر إهلاكهم وإبادتهم عن بكرة أبيهم، إما لهول منظره الرهيب أو لجريان سنة الله بأن إنزال الملك في حال طغيان الأمة لم يكن إلا لاستئصالها ﴿ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ﴾ أي لا يُمْهلون. ﴿وَلَوۡ جَعَلۡنَٰهُ مَلَكٗا لَّجَعَلۡنَٰهُ رَجُلٗا وَلَلَبَسۡنَا عَلَيۡهِم مَّا يَلۡبِسُونَ﴾ يعني ولو جعلنا الرسول النذير الذي اقترحتم إنزاله ملكاً لجعلناه رجلاً وصورناه بصورته، حتى يتمكن الناس من لقائه ويحشرون معه في مدة بقائه بينهم، لأن الرسول الملك لو أنزل ملكاً وفي صورة الملائكة لم يمكنهم مجاورته لعدم استطاعتهم بهذه القوة الاعتيادية الاستفادة منه، لمهابة الملك في صورته الحقيقية وكان يغشى عليهم إذا رأوه، وإذا جعلناه رجلاً كان كمثل الرسول محمد ﷺ والناس اعتقدوه بشراً وللبسنا عليهم ما يلبسون معناه لخلطنا عليهم ما يخلطون على أنفسهم، فيقولون: ما هذا إلا بشر مثلكم كما يقال في المثل العربي: (عادت الهيفاء إلى ديدنها) يعني إن طبعكم المستمر على التمرد والعصيان والقدح في الرسول ﷺ بالأساليب الخاطئة لازم لكم لا ينفك فلا فرق حينئذ بين إنزال الملك وإنزال البشر. والذي يطعن في الشمس بأنها أحمرانية يطعن في البدر بأنه أكدراني، والرسول مثل الرسول، والبشر مثل البشر، والطبيعة مثل الطبيعة إلا من هداه الله إلى الحقيقة.

ومما ينبغي أن يعلم أن هذه الآيات الثلاث لها أسباب للنزول، فأما الآية الأولى أعني ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَٰبًا فِى قِرْطَاسٍ﴾ فقد نزلت في النضر بن الحرث وعبد الله ابن أبي أمية، ونوفل بن خويلد لما قالوا لرسول الله ﷺ: يا محمد لن نؤمن لك حتى تأتينا بكتاب من عند الله تعالى ومعه أربعة من الملائكة يشهدون أنه من عند الله تعالى وأنك رسوله. فنزلت تلك الآية وردت عليهم بأن حصول مأمولهم لا يفيدهم لأنهم قوم تمردوا واستمروا على العناد ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَٰبًا فِى قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾﴾.

وأما الآية الثانية فقد نزلت في جواب واحد من مقترحين اقترحهما جمعٌ من مشركي مكة، فقد أخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عن محمد بن إسحاق قال: دعا رسول الله ﷺ قومه إلى الإسلام وكلّمهم، فَأَبْلَغَ إليهم فيما بَلَغني، فقال له زمْعَةُ ابن الأسود ابن المطلب، والنضر ابن الحرث بن كلدة، وعبدة ابن عبد يغوث وأبي بن خلف بن وهب والعاص بن وائل بن هشام: لو جُعِلَ معك يا محمد ملكٌ يُحدثُ عنكَ الناس ويرى معك! فأنزل الله تعالى قوله سبحانه: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ ۖ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ ﴿٨﴾﴾ وسر قضاء الأمر فيهم وإهلاكهم إما عدم قابليتهم لرؤية الملك في صورته الحقيقية، وإما لأنه لو أنزل الله الملك حسب اقتراحهم وهم الذين طبعوا على العناد ما كانوا يؤمنون، فاستحقوا الإهلاك لأن اقتراحهم لم يكن لمطلق المعجزة كيف كانت، بل كان معجزاً خاصاً تعلق به أمَلهم، فإذا أجيبوا وفق مقترحهم ولم يؤمنوا كانوا على غاية من العناد، وسنة الله تعالى جرت في تلك الحالة على إهلاك المقترحين.

وأما المقترح الثاني لهم هو أنهم اقترحوا أن يكون الرسول الذي يأتيهم غير البشر ويكونَ ملكاً، فردهم الله تعالى بالآية الثالثة، وهي قوله تعالى: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ﴾ ومعناها: ولو جعلنا النذير الذي اقترحتم إنزاله ملكاً لمثلنا ذلك الملك رجلاً لعدم استطاعتكم معاينة الملك على هيكله الأصلي، ولو جعلناه رجلاً لَلَبسنا عَلَيهم ما يلبسون، يعني لجعلنا عليهم الحالة التي هم عليها الآن مع الرسول محمد ﷺ فإن الملك لما تمثل برجل من الرجال لا يكون فيه مزية من محمد ﷺ. وكما أنكروا عليه كذلك كانوا ينكرون على ذلك الرجل الذي تمثل به الملك المرسل إليهم.

والحاصل: إن هذه الاقتراحات كلها تعنت ولم يتحقق شيء منها على وجه

الإنصاف والاسترشاد، حتى إذا أجبناهم أجابونا بل كلها على التعجيز، لأنا نراهم يسخرون بالرسول سخريتهم بإنسان من العوام. ولكن مع ذلك كله لا تهتم بهم وبمقترحاتهم وباستهزائهم ﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُوا۟ مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾.

وهذه الآية تسلية له ﷺ عما يصيبه من قومه. يعني يا حبيبي لست بأول رسول استهزأ به قومه، فكثير من الرسل الكرام استهزأ به من قومه الجهلة اللئام، وكان النصر حليفه في العاقبة كما أن عاقبة أولئك الجهال كان الدمار في الدنيا والنار في الآخرة. وهذه سنة الله في خلقه، والتأريخ يعيد نفسه بحقه.

﴿قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ ٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿١١﴾ قُل لِّمَن مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قُل لِّلَّهِ ۚ كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ ۚ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ ۚ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢﴾ ۞ وَلَهُۥ مَا سَكَنَ فِى ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٣﴾ قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ ۗ قُلْ إِنِّىٓ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ ۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٤﴾ قُلْ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾ مَّن يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُۥ ۚ وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٦﴾ وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٨﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿قُلْ سِيرُوا۟﴾ خطاب للرسول ﷺ وأمر له أن يقول لقومه المتمردين ﴿سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ ومواقع البلاد المعمورة منها حتى تتضح لكم أحوال الأمم الخالية المتمردة وما نزل عليهم من المصائب بسبب تمردهم ﴿ثُمَّ ٱنظُرُوا۟﴾ بعيون الإبصار وقلوب الاعتبار حتى تعلموا ﴿كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾ وبديهي عند ذلك النظر والاعتبار تعلمون أن عاقبتهم كانت سيئة، وعلتها البغي والطغيان والتمرد الموجود فيكم بزيادة، فتعلمون أن عاقبتكم هي الدمار في الدنيا والنار في الآخرة.

﴿قُلْ﴾ يا حبيبي لقومك على سبيل التوبيخ: ﴿لِّمَن مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾؟

من الكواكب والأنوار والأمطار وسائر الخيرات، ومن المعادن والنباتات والحيوانات؟ وإذا سكتوا عن الجواب خجلاً فـ﴿قُل﴾ نيابة عنهم: كل ما ذكر ﴿لِلَّهِ﴾، لأن كل عاقل يعلم أن تلك الأشياء ليست واجبة الوجود فلها مؤثر رجح وجودها وذلك المؤثر هو الله الواجب الوجود ﴿كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ﴾ وقل: إن ذلك الذات كتب على ذاته الرحمة ولذلك لا يستعجل بعذاب الكفار المتمردين ﴿لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ ويحاسبكم على إشراككم وسائر معاصيكم لا ريب فيه لا ينبغي لأحد أن يرتاب فيه ﴿ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ﴾ بتضييع رأس مال العقل والتفكر فيما هو فيه ﴿فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ أي فإذا خسروا رؤوس أموال العقول فهم لا يؤمنون. ﴿وَلَهُۥ﴾ أي لذلك الذات الكثير البر والإحسان جميع ﴿مَا سَكَنَ فِى ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ واستقر أي وله كل ما اشتملا عليه من المائع والجامد والمؤمن والجاحِدِ ملكاً وتصرفاً وإفناء وإبقاءً لا يمنعه مانع ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ﴾ القوي السمع لكل ما يسمع من الأصوات الجهرية والسرية و﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ الوافر العلم بكل ما يتعلق به العلم أبداً. ﴿قُلْ﴾ يا رسولي مستنكراً لما أصروا عليه من الكفر والجحود والإشراك في المعبود ﴿أَغَيْرَ ٱللَّهِ﴾ الجامع للكمال المانع عن النقص ﴿أَتَّخِذُ وَلِيًّا﴾ ناصراً ومولىً ينصرني ويؤيدني أعبده وأسجد له حال كونه ﴿فَاطِرِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ وموجدهما من العدم إلى الوجود. والفاطر: هو الباديء بالشيء خلقاً وإيجاداً، أو صنعاً واكتساباً ﴿وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ﴾؟ أي وهو يعين ولا يعان، يرزق ولا يرزق؛ لأنه الغني المطلق.

﴿قُلْ إِنِّىٓ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ﴾ من هذه الآمة فأمرني ربي أن أكون مسلماً موحداً، ونهاني عن الإشراك، وقال: ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ أحداً به؛ لا في وجوب الوجود، ولا في الخلق وإيجاد الموجود،ولا في العبادة من أشباه الطاعات والركوع والسجود، وأدَبني أن أمشي على سنته في الكائنات، وأباشر الأسباب في جلب كل خير من الخيرات ورفع كل شر وآفات ﴿قُلْ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ فإن الخالق أعظم من كل عظيم، وإطاعته عبارة عن العبادة وانتهاج الصراط المستقيم، وجزاء العاملين المثوبة الحسنى والنعيم المقيم، وجزاء العاطلين عذاب النار الأليم. ﴿مَّن يُصْرَفْ عَنْهُ﴾ أي عذاب ذلك اليوم ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ أي يوم نيل الجزاء ﴿فَقَدْ رَحِمَهُۥ﴾ الله ﴿وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ﴾ وهو الذي لا مانع لما أعطاه، ولا معطي لما أباه. ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى ﴿بِضُرٍّ﴾ لمرض ومخافة وفقر حال وآفة ﴿فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ﴾ فلا قادر على كشفه إلا

هو لأنه هو الذي أبداه وهو الذي يزيله ويفنيه، وكل ما قرره وشرعه من الأسباب النافعة والدافعة من الاستفادة بمداواة الطبيب، أو الالتجاء إلى ملجأ رهيب، أو الاستغاثة بإنسان نافع بعيد أو قريب، أو تعلم العلاج من أستاذ مرشد لبيب. . . فمن الأسباب. وقد قال تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ سَبَبًا ﴿٨٤﴾ فَأَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٥﴾﴾ وذلك كله هدى الله يهدي به من يشاء بجلب ما شاء أو دفع ما يشاء. ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ﴾ فصححك وأمنك، وأعزك، وأكرمك، فهو منه تعالى ومن مقدوراته التي يسيرها لك بفضله عليه، وإن تسألني عن مدى قدرته ﴿فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ لا يعظم عليه شيء، فتأدبوا واكتسبوا على سنته وشريعته إلى يوم الدين. ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ﴾ أي الغالب المستولي ﴿فَوْقَ عِبَادِهِۦ﴾ فوقية الغالب على المغلوب. وفوقية المعين على المكروب، وفوقية الناجح الحائز على المطلوب، لا فوقية زيد على السطوح، بل فوقية الفاتح على المفتوح. فإن الأدلة القاطعة والبراهين الساطعة تدل دلالة لا فيها شبهة أن الله تعالى أزلي قبل كل موجود قبل الزمان والمكان، وقبل حركة الفلك بالدوران، وقبل وجود السماء والكواكب والأرض وسائر الأكوان. فالفوقية النسبية باعتبار ما هو المعتاد ممتنع في حقه تعالى. والاستدلال بظاهر الآثار والإسناد عادةُ من لا ينظر إلى برهان الرشاد، ويكتفي بالظنون حسب المعتاد. وأنى هذا من ذلك!

وكل ما ورد من الأحاديث الشريفة الظاهرة في إسناد الفوقية إليه تعالى فليس على معنى ثبوت الجهة والجانب، وأن يكون هو فوق شيء فوقية مكانية، بل إنما هي من الآيات المتشابهة المفوضة إلى علم الله تعالى وتسليمها بدون البحث عنها، أو أنها مؤولة على قاعدة الخلف بتأويلات مناسبة أَظْهَرُها وأنْورها فوقية الغلبة والقدرة، كما أن قوله تعالى: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ وقوله تعالى: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ﴾ وقوله تعالى: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ﴾ وقوله تعالى: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ ﴿٨٥﴾﴾ عبارة عن ارتباط علمي وسيطرة من جهة القوة والقدرة. بل يقول الإمام حجة الإسلام الغزالي ـ رحمه الله تعالى ـ: إنها ليست من الآيات المتشابهة، بل كلها كنايات عربية مفهومة لأهل العرف العام. والمراد بها ما ذكرنا.

ورفع اليدين إلى السماء في وقت الدعاء مبني على رعاية الشرف والاحترام؛ فإن الأرض تحت الأقدام والقلب فوقها، والرأس فوق الصدر، وكل ما يكون

أمامك أو تحت أقدامك لا يلاحظ فيها اعتبار يمتاز به عن غيره شرفاً. فالإنسان إذا دعا ربه يدعوه ويجعل الكعبة التي هي قبلة الصلاة قبلة دعائه، ولا قبلة أخرى لنا غيرها. ورفع الأيدي إلى السماء ليس إلا لاعتبار الشرف في العلو والفوقية.

ولما كان معنى لفظ القاهر والأعلى الغلبة الباهرة والسطوة الظاهرة، وذلك مما يتوهم الناس منه أن الله إذا عصاه عاص فاجأه بالانتقام، وليس ذلك كذلك لأنه سبحانه وتعالى كثيراً ما يسمح ويعفو، وقد ينتقم ويؤجل الانتقام إلى مدى بعيد.. ختم الآية بقوله: ﴿وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ﴾ أي إن الله تعالى مع أنه قاهر فوق عباده حكيم ذو حكمة بالغة، وعالم بالأشياء على ما هي عليه، ومبالغ في إحكام الأمور وإتقانه، ولا يعمل شيئاً خالياً عن المصلحة والحكمة، وخبير بأحوال العباد وأعمالهم، وما يناسب العفو أو التأجيل أو التعجيل، وكل ما يصدر منه حق واضح مبين.

﴿قُلْ أَىُّ شَىْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ شَهِيدٌۢ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۚ وَأُوحِىَ إِلَىَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ ۚ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ ٱللَّهِ ءَالِهَةً أُخْرَىٰ ۚ قُل لَّآ أَشْهَدُ ۚ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَإِنَّنِى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿١٩﴾﴾.

عن ابن عباس قال: جاء النحام ابن زيد، وقروم بن كعب، ومجرى ابن عمرو، فقالوا: يا محمد ما نعلم مع الله إلهاً غيره. فقال النبي ﷺ: لا إله إلا الله، بذلك بعثت، وإلى ذلك أدعو. فأنزل الله في قولهم هذه الآية. رواه ابن إسحاق وابن جرير.

وقيل: إن رؤساء مكة قالوا: يا محمد ما نرى أحداً يصدقك بما تقول، ولقد سألنا عنك اليهود والنصارى فقالوا: ليس لك عندهم ذكر ولا صفة. فأرِنا من يشهد لك أنك رسول الله. فنزلت الآية. ذكره الواحدي والبغوي.

قوله تعالى: ﴿قُلْ أَىُّ شَىْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً﴾ يعني يا حبيبي قل في جواب قولهم من يشهد لك برسالتك: أي شيء وأي موجود في العلم أكبر شهادة على الحق من غيره؟ و﴿قُلِ﴾ أنت بنفسك في الجواب: ﴿ٱللَّهُ﴾ أي أن الذي هو أكبر شهادة ذات الله الواجب الوجود؛ لأنه عالم بجميع ما يمكن أن يعلم، وكل حقيقة معلومة عنده بلا شبهة وخفاء. ثم ابتدأ فقال: ﴿شَهِيدٌۢ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ﴾ أي هو شهيد يشهد على

رسالتي وهو صاحب القول الفصل بيني وبينكم ﴿وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ﴾ أي ومن جملة ما يشهد به لي أنه أوحي إليّ هذا القرآن الذي هو فصل الخطاب لأنذركم يا قريش ومن معهم، ومَن بَلَغ، وأنذر به من بلغه من الثقلين الجن والإنس الأسود منهم والأبيض والأحمر والأصفر ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ ٱللَّهِ ءَالِهَةً أُخْرَىٰ﴾؟ إنكار واستبعاد لما يجري من المخاطبين بقوله: ﴿أَئِنَّكُمْ﴾ أي أأنتم مع هذا القرآن العظيم الذي نزل وثبتت قدسيته بشخصه تشهدون بقوة وتأكد أن مع الله الواحد الأحد الفرد الصمد آلهة أخرى بلا وزن لوجودهم الفارغ عن الوجود لاستغناء الواجب عن الممكن والكامل عن النقص؟ ﴿قُل لَّآ أَشْهَدُ﴾ أي قل لهم إن شهدتم بوجود آلهة مع الله فأنا لا أشهد بما تشهدون؛ لأن الوحي السليم والعقل المستقيم يأبى ذلك ﴿قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَإِنَّنِي﴾ قل لأولئك الجاهلين الغافلين عن الحق: إنما المعبود بالحق إله واحد فحسبُ، ﴿وَإِنَّنِي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾ أي تجعلونه بزعمكم الباطل شريكاً لذلك الذات الكامل، من الأصنام والهياكل المنحوتة المنحوسة. تعالى الله عما يشركون.

﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمُ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠﴾﴾.

قوله: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ﴾ جواب عن قول الكفار ولقد سألنا اليهود والنصارى فقالوا: ليس لك عندهم ذكر، فيقول ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ﴾ من اليهود والنصارى ﴿يَعْرِفُونَهُۥ﴾ أي يعرفون رسول الله بحليته ونعوته ﴿كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمُ﴾ بحيث لا يشكون فيه. ومن هذا الباب قال عبد الله بن سلام في تصديق الآية: وأيم الله الذي يعرف ويحلف به ابن سلام لأنا بمحمدٍ أشد معرفة مني بابني؛ لأني لا أدري ما أحدثت أمه! ثم قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ﴾ من أهل الكتاب والمشركين ﴿فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ بما يجب الإيمان به.

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢١﴾ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَيْنَ شُرَكَآؤُكُمُ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴿٢٣﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ ۖ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٢٤﴾ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ ۖ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ

﴿أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِن يَرَوْا كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا بِهَا حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوكَ يُجَٰدِلُونَكَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٥﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ﴾ الآية معناه وأيّ مكلف أشدّ وأكثر ظلماً مِمن أي من الذي ﴿ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ بأن قال الملائكة بنات الله، أو الأصنام شفعاؤنا عنده برضاه ﴿أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ﴾ الدالة على وجوده وبعث رسله من المعجزات القاهرة الظاهرة، وادعوا أنها سحرٌ أو غير ذلك من المفتريات!؟ ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ الذين اتصفوا بالظلم ولو كان قليلاً، فكيف بمن هو أظلم الظالمين؟ فلا شبهة إنه لا يفلح لأنه ظالم ولا يفلح الظالمون.

﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا﴾ أي اذكر يوم نحشرهم جميعاً ﴿ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَيْنَ شُرَكَآؤُكُمُ﴾؟ أي أين الشركاء الذين كنتم تعتمدون عليها لتخلصكم من العذاب ﴿ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ أي تزعمونها نافعة لكم ودافعة عنكم الهول والعذاب ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ معناه لم تكن عاقبة كفرهم وشركهم إلا البهت والحيرة وعدم الانتفاع بما اتخذوه نافعاً لهم، والحلف الكاذب من قولهم: والله ربنا ما كنا مشركين ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ﴾ وضاع عنهم ما كانوا يفترون بوجوده ونفعه على الله.

﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ﴾ حين تتلو آيات القرآن الكريم من مشركي مكّة ﴿وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً﴾ أي أغطية وحجباً مانعة من ﴿أَن يَفْقَهُوهُ﴾ أي يفهموه وجعلنا ﴿وَفِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا﴾ مانعاً من استماعه حق الاستماع ﴿وَإِن يَرَوْا كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا بِهَا﴾ معناه وإن أبصروا بالعيون أو أدركوا بالقلوب كل آية دالة على رسالتك، وعلى صحة ما تدعو إليه من التوحيد لا يؤمنون بها لفرط عنادهم وشدة شكيمتهم للإصغاء إليك أو للتأمل فيما يدل على صدقك ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوكَ يُجَٰدِلُونَكَ﴾ أي وصل عنادهم وغيّهم إلى درجة لا تخليهم للاستفادة مما تقرأه عليهم، وزاد ضلالهم بحيث حتى إذا جاءوك يجادلونك ويتكلمون ويتخاصمون معك للغلبة عليك.

﴿يَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ﴾ أي ما هذا المكتوب الذي يقرأه عليكم ﴿إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ أي أحاديثهم المسطورة التي تنقل وتقرأ على العادة التقليدية، وليس بشيء يعول عليه. وكلامهم هذا ناشىء عن جهل وعناد وفساد وإفساد. فإن الإنسان العاقل إذا سمع ألفاظاً مأخوذة من الأفواه، أو مقروءة من الكتب فحقه أن يستمع

لها حتى يأخذها، ثم يتفكر في مدلولها فإن كان داعياً إلى الرشد والأخذ بالانتباه، وملاحظة الحال والاستقبال، وتوجيه القلوب إلى الشعور بالمسؤولية أخذه وتقبله وجعله وسيلة لسعادته في الدارين. وليس من حقه أن يرفضه وينسبه إلى ما لا يليق به. فإن ذلك مثل ما يجد الإنسان نقوداً من الذهب ويرميها في البحر ولا ينتفع بها لا هو ولا غيره من بني نوعه!

﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْـَٔوْنَ عَنْهُ ۖ وَإِن يُهْلِكُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٦﴾﴾.

عن ابن عباس قال: نزلت هذه الآية في أبي طالب، كان ينهى المشركين أن يؤذوا رسول الله ﷺ ويتباعد هو عما جاء به. رواه الحاكم والبيهقي. وعن سعيد ابن أبي هلال نزلت في عمومة النبي ﷺ وكانوا عشرة، فكانوا أشد الناس معه في العلانية وأشد الناس عليه في السر. رواه ابن أبي حاتم. وقيل: نزلت في كفار مكة كانوا ينهون الناس عن اتباع رسول الله ويتباعدون بأنفسهم عنه.

قوله تعالى: ﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ﴾ الضمير العمدة راجع للمشركين، وضمير عنه راجع إلى القرآن، يعني إن المشركين كانوا ينهون الناس عن استماع القرآن لئلا يقع في قلوبهم، أو لئلا يتفكروا فيه فيأخذون به. ﴿وَيَنْـَٔوْنَ عَنْهُ﴾ أي ويتباعدون عنه بأنفسهم إظهاراً لنفرتهم عن سماعه، ولا يؤمنون، فالضميران المجروران للرسول ﷺ: ﴿يُهْلِكُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ﴾ أي وما كانوا يهلكون بتلك الأعمال والحيل إلا أنفسهم بتعريضها لعذاب الآخرة ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ أن الوبال يأتيهم في المآل.

﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُوا۟ يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٧﴾ بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا۟ يُخْفُونَ مِن قَبْلُ ۖ وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٢٨﴾ وَقَالُوٓا۟ إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٢٩﴾ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَىٰ رَبِّهِمْ ۚ قَالَ أَلَيْسَ هَٰذَا بِٱلْحَقِّ ۚ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَرَبِّنَا ۚ قَالَ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٠﴾ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا۟ يَٰحَسْرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ ۚ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ﴿٣١﴾ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ ۖ وَلَلدَّارُ ٱلْـَٔاخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٣٢﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ﴾ الخطاب للرسول ـ ﷺ، أو لكل من له قابلية الخطاب، فيشرع الباري في بيان ما يأتي عليهم وما يصدر عنهم يوم القيامة. فيقول: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟﴾ أي عرضوا على النار وعرضت عليهم، وعلموا أنهم واردون فيها ومعذبون ﴿فَقَالُوا۟ يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ﴾ إلى الدنيا مع الشعور النافع ﴿وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا﴾ كما كنا نكذب من قبل ﴿وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٧﴾ بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا۟ يُخْفُونَ مِن قَبْلُ﴾ أي أعرض عما يشعر به كلامهم هذا من رغبتهم الصادقة في الرجوع إلى الدنيا للطاعة والانقياد، وإنما قالوا ذلك لأنه ظهر وبدا لهم عذاب وعقاب كانوا يخفونه وينكرونه من قبل في الدنيا ﴿وَلَوْ رُدُّوا۟﴾ إلى الدنيا ﴿لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ﴾ من الكفر والاستكبار والعناد. ﴿وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ فيما يستفاد من تمنيهم وهو أنهم نادمون عن المعاصي وعازمون على إطاعة الباري ورسوله في الأحكام ﴿وَقَالُوٓا۟﴾ قيل إنه عطف على قوله تعالى: ﴿عادوا﴾ أي ولو ردوا إلى الدنيا لعادوا لما نهوا عنه وقالوا: ﴿إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا﴾ والحق إن الواو لعطف حكاية حال من أحوالهم على حال آخر. والمقصود: وقالوا: أي المشركون أو الكفار المنكرون للبعث مطلقاً إن هي ضمير مبهم راجع إلى الحياة المذكورة بعدُ، أي وقالوا: ما الحياة إلا حياتنا الدنيا وحياتنا في عالم الوجود قبل الموت وعالم البرزخ ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾ إذا فارقتنا الروح في هذا العالم، أي لا حياة ولا بعث بعد الموت. هذا كلامهم الذي صدر منهم في هذه الدنيا ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ﴾ يا حبيبي ﴿إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ وعرضوا عليه ﴿قَالَ أَلَيْسَ هَٰذَا بِٱلْحَقِّ﴾؟ أي قال الله تعالى: أليس هذا بالحق. أي ليس هذا البعث والحياة بعد الحياة الدنيوية بالحق، أي حقاً ومتلبساً بالحق. ﴿قَالُوا۟ بَلَىٰ وَرَبِّنَا﴾ أي بلى هو حق وربنا. ﴿قَالَ﴾ الله تعالى لهم: ﴿فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ﴾ الذي أنكرتموه في الدنيا ﴿بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ بسبب كفركم به، أو بالكفر به وبغيره ﴿قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ﴾ قيل: إنّ لقاء الله تعالى استعارة تمثيلية عن البعث وما يتبعه. والحسن وابن عباس على أن المراد لقاء جزائه تعالى يوم القيامة بتقدير المضاف. ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلسَّاعَةُ﴾ أي يوم البعث والنشور. والساعة: القطعة من الزمان وغلب على يوم القيامة كالنجم للثريا ﴿بَغْتَةً﴾ أي فجأة، مصدر وقع موقع الحال أي مباغتة ﴿قَالُوا۟ يَٰحَسْرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا فِيهَا﴾ أي على تفريطنا وتقصيرنا في مدة الحياة الدنيا. وهذا المقول جملة ندائية يقصد بها إظهار التحسر على ما فات ﴿يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ﴾ والجملة في موضع الحال من فاعل قالوا، والمراد بها بيان

سوء حالهم وشدة ما يجدونه من المشقة والآلام والعقاب. وقيل حملها على الظهر حقيقة وأنها تجسم ﴿أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ﴾ تذييل مقرر لما قبله. ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾ يعني وما أعمال الإنسان في مدة الحياة الدنيا إلا لعب ولهو أي اشتغال بما لا يعني. وفرق بينهما بأن اللعب: ما قصد به تعجيل المسرة والاسترواح. واللهو: كل ما شغل من هوى وطرب وإن لم يقصد به ذلك ﴿وَلَلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ الكفر والمعاصي ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ ذلك؟

﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا۟ عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا۟ وَأُوذُوا۟ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَا ۚ وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَلَقَدْ جَآءَكَ مِن نَّبَإِى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣٤﴾﴾.

عن علي ـ كرم الله وجهه ـ أن أبا جهل قال للنبي ﷺ: إنا لا نكذبك، وإنك عندنا لصادق، ولكن نكذب بما جئت به! فأنزل الله الآية. رواه الترمذي والحاكم.

قوله تعالى: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ﴾ كسرت إن لدخول اللام فيما بعده ومعناه نحن نعلم إنه ليحزنك الذي يقولون ويتأثر قلبك به لأن مغزى كلامهم تكذيبك في دعوى الرسالة من الله، وإنكار آيات الله لأن معنى قولهم إنا لا نكذبك وإنك عندنا لصادق ولكن نكذب بما جئت به، إما أنك صادق في ما أخبرت به في أمور الدنيا، ولكن لا نصدقك في أنه يوحى إليك ولا بما تقول إنه وحي من الله. فهناك تكذيب لك في دعوى الرسالة كما أنه تكذيب لآيات الله النازلة، وإما معناه أنت كنت صادقاً بيننا وما نسبناك إلى الكذب في ما سبق من عمرك ولكنا نكذب ما جئت به وننكر أنه كلام الله وحكمه، وإنما هو من كلام بعض من الجن يُلقى إليك وأنت تقبله وتنقله إلينا فهناك أيضاً، وإن لم ينسبوه إلى الكذب ظاهراً ويقولون له أنت صادق في أنه أُلقي إليك كلامٌ غيبيّ بدعوى أنه كلام الله، ولكنه تكذيب لآيات الله تعالى وجحود وإنكار لها، وفي الحقيقة تكذيب للرسول في دعوى أنه رسول الله تعالى. فقوله تعالى: ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ﴾ أي ظاهراً ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ يكذبونك باطناً و﴿بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ حقيقة بكل معنى الكلام. هذا إذا كان مورد نزول الآية ما ذكرنا من قول أبي جهل: يا محمد إنا لا نكذبك وإنك عندنا لصادق، ولكن نكذب ما جئت به كما نقلناه آنفاً. وأما إذا كان المورد هو تكذيبهم له ﷺ كما كان عادتهم فمعنى الآية الكريمة: يا رسولي لا تحزن بإنكار المشركين وبتكذيبهم لك،

فإنهم وإن كذبوك ولكن ليس التكذيب عائداً إليك، بل إن الظالمين بالإشراك والاستكبار بآيات الله يجحدون، ونحن نعلم بهم وبأقوالهم وأفعالهم، وننتقم منهم في حالهم ومآلهم في الحال بعذاب وأسر وقتل محدد، وفي المآل بعذاب مستمر إلى الأبد. ويؤيد هذا المعنى قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ﴾ عيسى وموسى وإبراهيم وهود وصالح ونوح ﴿فَصَبَرُوا۟ عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا۟ وَأُوذُوا۟ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَا﴾ بتأييد وفتوح ﴿وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ﴾ أي كلماته التي هي فصل الخطاب في العالمين، حيث قال: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾. وقال: ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ﴾. وقال: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿١٧٣﴾ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿١٧٤﴾﴾. ﴿وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ﴾ فإنها من سنته التي تقررت في العالمين ﴿وَلَقَدْ جَآءَكَ مِن نَّبَإِى ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ والحمد لله رب العالمين.

﴿وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ ٱسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِىَ نَفَقًا فِى ٱلْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِى ٱلسَّمَآءِ فَتَأْتِيَهُم بِـَٔايَةٍ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ ۚ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٣٥﴾ ۞ إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ يَسْمَعُونَ ۘ وَٱلْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٣٦﴾﴾.

قوله: ﴿وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ﴾ الآية يقول سبحانه وتعالى لحبيبه محمد ﷺ إنك رسول الله أرسلك إلى كافة الناس بشيراً ونذيراً، وكلما ارتفعت درجة الإنسان في العالم زادت أعداؤه وحسّاده، لا سيما الرسول الذي نزل عليه الوحي وأمر بتبليغه إلى المكلفين، وعند ذلك لا مجال إلا بالاعتماد على الله وتفويض الأمر إليه، والصبر على ما يناله من الأتعاب، وهكذا كانت عادة الرسل قبلك إلى أن جاءهم النصر. وإلا فإن كان كبر عليك إعراضهم أي إعراض المشركين عن الإيمان بك وبما جئت به من القرآن المجيد وشق عليك الصبر على أذاهم ﴿فَإِنِ ٱسْتَطَعْتَ﴾ وقدرت وتهيأ لك ﴿أَن تَبْتَغِىَ نَفَقًا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي سرباً فيها تذهب إليه وتسكن به وتختفي عنهم ﴿أَوْ سُلَّمًا فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ أو أن تبتغي سلماً أي مرقاة ومصعداً فيها ترقى عليها وتصعد إلى محل لا تنالك فه أيدي العابثين، ولا تسمع فيه كلام المشركين وتتفرغ للسعي في ما ينجيك منهم ﴿فَتَأْتِيَهُم﴾ منها ﴿بِـَٔايَةٍ﴾ أرضية أو سماوية على حسب ما اقترحوه من الآيات، أو حسب ما تعتقد فيه

إقناعهم به من المعجزات فافعلْ ذلك وأقنعهم بها، وسخرهم لإطاعتك والإيمان بما جئت به من الله العلي القدير. وإن لم تستطع ذلك، ولن تستطيعه أبداً، فاصبر حتى يحكم الله بينك وبينهم بالحق وهو خير الحاكمين، ولا تعتقد أن الله سبحانه وتعالى عاجز عن أن يفعل بهم ما يريد من الإهلاك والإبادة، أو أن يهديهم إليه بحيث لا يبقى في قلوبهم شك وشبهة في أمر الدين كلا ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ﴾ جمعهم على ما أنت عليه ﴿لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ﴾ في أقرب وقت وأقل زمان، ولكن الله لا يريد ذلك لأن الإيمان حينئذ يكون إيمان إلجاء واضطرار، ولا وزن له في سوق العبودية، وإنما يحب أن يختار الإنسان المخلوق على القابلية والاستعداد صرف إرادته إلى الخير والرشاد، وينحرف بالقوة عن بغي الهوى وعناد النفس الأمارة وإفساد الشيطان ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ بهذه الحقائق.

وهنا نكتتان: الأولى: إن الله سبحانه وتعالى راعى كرامة الرسول ﷺ ومقامه الرفيع، ولم يقل فلا تجهل، بل قال فلا تكونن من الجاهلين أي ممن ينسب إلى أولي الجهل بواجبات الإنسان.

الثانية: إنه لم يكن الرسول منزعجاً غاية الانزعاج وضيق الصدر وحصر النفس في مقابل المشركين حتى يردع ويزجر بآية مثل ما نزلت، ولكنه أراد تنوير المسلمين وتوجيههم إلى وجوب الصبر وإفساح الصدر، فإن الإنسان كائناً من كان يجب عله أن يتورع بالأخلاق العالية، ومن أهمها: التوكل على الله، والصبر على أذى العباد، والاستقامة على طريق الرشاد.

ثم أتى الباري سبحانه بمفهوم آخر يؤيد الصبر والسلوى للرسول ﷺ. فقال تعالى ﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ يَسْمَعُونَ﴾ أي لا تجزع عن عدم استجابة أهل الإشراك لما تقرأه عليهم من الآيات؛ فإنه لا يستجيب إلا من يسمع الكلام ويفهمه، ولا يسمعه إلا الأحياء، ولكن المشركين مَوْتى القلوب، والموتى لا يسمعون إلا يوم ﴿يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ﴾ من القبور ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ﴾ أي إلى الله ﴿يُرْجَعُونَ﴾ فيحاسبهم على ما سمعوه وما لم يسمعوه وكانوا عنه غافلين.

﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يُنَزِّلَ ءَايَةً وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٧﴾ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم ۚ مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ

كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِى ٱلظُّلُمَـٰتِ ۗ مَن يَشَإِ ٱللَّهُ يُضْلِلْهُ ۖ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٩﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟﴾ أي وقال رؤساء قريش البالغون أعلى مراتب الجهل: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ﴾! أي لولا نزل عليه آية قاهرةٌ ملجئة للإيمان بأن يقلع جبل أبي قبيس ويرفعه على رؤوسهم ﴿إِنَّ ٱللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يُنَزِّلَ ءَايَةً﴾ كما يقترحون ﴿وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي لا يعلمون أن الله قادر على أن ينزل كل آية يقترحونها، لأنهم لا يؤمنون بوجود إله واجب الوجود موصوف بالكمال منزه عن النقص، ولو آمنوا بذلك لعلموا أن قدرته تشمل كل ممكن من الممكنات؛ فإن القدرة على خلق السماوات ونجومها، وحركات الكواكب السيارة فيها، وبقائها على نظام خاص في الحركة الدورية، وخلق الأرض والجبال وما فيها من المعادن والنبات والحيوان مع بداهة أن كلاً من المذكورات وأجزائها من الممكنات الخاصة التي يستوي وجودها وعدمها، ولا يتحقق شيء منهما إلا بمرجح خارج عن سلسلة الممكنات.. دليل ظاهر وسلطان قاهر على أن الله على كل شيء قدير.

وهذه الآية التي اقترحوها ليست بأعجب وأبدع من خلق جميع الحيوانات وإدارة شؤونها ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا طَـٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم﴾ في خلقها من العناصر ونشوئها ونمائها، وتوالدها وتناسلها، والميل والعطف الغريزي فيها، وفي إحساسها بالحواس الموجودة فيها، وفي إدراكها إلى درجة تناسب بقاء نوع الحيوان، ولكن لكل نوع من أنواعها أفق خاص محدود، وتتفاوت آفاقها، ومن طالع كتب الحيوانات ونشوءها وبقاءها والآثار الظاهرة منها في تربية أفراخها وتداويها، وسعيها في تحصيل الرزق، وعبورها المياه الكثيرة، وفي تحصيل المواد الغذائية التي تعيش بها، وفي إعداد المسكن الذي تبقى فيه، وفي نظامها الداخلي، ومدافعة الأعداء المهاجمة عليها، أو على نسلها.. اطلع على حقائق محيرة للعقول ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَـٰبِ مِن شَىْءٍ﴾ أي ما قصرنا في ضبط أحوالها في الكتاب المعهود، أعني اللوح المحفوظ، وجمعناها فيه، أو في القرآن الكريم بصورة إجمالية تناسب إدراكنا ﴿ثُمَّ﴾ بعد الخروج من دائرة الحياة المادية الدنيوية وبعد الموت وانقضاء أمد البرزخ ﴿إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾.

ثم إن ظاهر قوله تعالى: ﴿إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم﴾ وقوله: ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾

هو أن الحيوانات البرية والبحرية على كثرتها بعد الموت يحشرون ويحاسبون. ويؤيده ما روي أنه يأخذ للجماء من القرناء ويجازيها كيف يهملكم سدى؟! وهو حديث صحيح رواه الشيخان. ولكنه لا يلزم من هذا أن يدخل في الجنة أو في النار، ولعل لتعذيب الواحد أي واحد أصولاً مقررة خاصة، وكذا التنعيم، كما أن ظاهر الآيات القرآنية هو أن كل شيء له تسبيح خاص وأنا لا نفقه تسبيحه. فالكائنات شواهد وآيات للدلالة على ذاته الواجب الوجود الأزلي وصفاته الكمالية، وتسبيح الحصى في يده الشريفة دليل لطيف على الموضوع بالوجه المناسب، وهناك آراء مشروحة في محلها.

قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟﴾ في قوة التعليل، أو نزلت بمناسبة للآيات تشبه مناسبة العلة للمعلول في قوة الارتباط والمقارنة في الوجود. ويقول: والسر في أن الكافرين المشركين لا يعلمون أن الله قادر على كل شيء ولا يؤمنون بآيات الله مع ما يرونه من الآثار الدالة على وجوده وكماله هو أنهم استمروا في ظلمات الجهل وتحت سيطرة التقليد الأعمى، وركبوا جماع الهوى النفسية التي تعاند الهدى القدسي، وأضيف إلى كل ذلك العناد الناشىء عن الحسد.

﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا﴾ بناء على العوامل المذكورة ﴿صُمٌّ﴾ عن استماع الحق وآيات القرآن والمواعظ والنصائح المفيدة ﴿وَبُكْمٌ﴾ لا ينطقون بكل ما يفيدهم خيراً من الاستنجاد بأهل المروءة والنجدة والتعليم والإرشاد. وهم ﴿فِى ٱلظُّلُمَـٰتِ﴾ الأربع السابقة ظلمة الجهل والتقليد والهوى والعناد. و﴿مَن﴾ اختار مباشرة الأسباب الأربعة للضلال فهو ممن شاء الله تعالى أزلاً إضلاله بسبب سوء مباشرته وسوء اختياره لها فيما لا يزال ومن ﴿يَشَإِ ٱللَّهُ﴾ إضلاله أزلاً لعلمه بسوء مباشرته ﴿يُضْلِلْهُ﴾ لأن المراد لا يتخلف عن الإرادة ﴿وَمَن يَشَأْ﴾ أزلاً هدايته لعلمه بحسن تصرفاته فيما لا يزال يهديه و﴿يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ وبيان حقيقة الأمر هو أن الله خالق كل شيء وعالم بكل شيء أزلاً وأبداً وأنه خلق مخلوقات جامدة ونامية غير حساسة، وخلق مخلوقات حساسة غير عاقلة، وخلق مخلوقات حساسة عاقلة يميز بالعقل بين الخير والشر والنفع والضر، ولكنها لا تدرك بمحض العقل المغيبات الآتية والمسؤوليات في المستقبل فأرسل الرسل وأيدهم بالوحي فبين الرسول لهم على حسب الوحي أنهم يموتون ثم يبعثون ويحشرون ويحاسبون ويأخذون جزاء أعمالهم إن خيراً فخير وإن شراً فشر. وبنو آدم من العقلاء المكلفين

لهم تنوير العقل وتأييد الرسل للعقل وتعليمه في ما لا يدركه الذات فمن صرف قواه في هداه فقد فاز بالسعادة ومن صرفها في هواه فقد نال الشقاوة. والباري تعالى علم أزلاً أن أي إنسان وأي مكلف يصرف قوته في سعادته، وأي مكلف يصرفها في شقاوته، وعلى ذلك العلم الأزلي والإرادة الأزلية من باشر في ما لا يزال أسباب الخير شاءه الله له وخلقه ومن باشر فيه أسباب الشقاء شاءه الله له، فالمسؤول هو العبد المشغول الأعمال فمن وجد خيراً فليحمد الله تعالى، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه. فقدرة الباري وسائر صفاته أزلية أبدية، وخلقه للأشياء إنما هو بقدرته، وقدرته تابعة لإرادته وإرادته تابعة لعلمه، وعلمه مرآة يتجلى فيها صور الأشياء التي يباشرها العبد باختياره. ومن ذلك اشتهر عند الأصوليين أن العلم تابع للمعلوم وحاك عنه يحكي صورة ما يقع في المستقبل باختيار الفاعل الكاسب، وعليه قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ﴾.

﴿قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ ٱلسَّاعَةُ أَغَيْرَ ٱللَّهِ تَدْعُونَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٠﴾ بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَآءَ وَتَنسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ ﴿٤١﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ ﴿٤٢﴾ فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا۟ وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾ فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٥﴾﴾.

قوله: ﴿أَرَءَيْتَكُمْ﴾ استفهام تعجيب، ولفظ كُمْ حرف خطاب للدلالة على الجمع مجاز عن أخبرني مجازاً مرسلاً تبعياً. أي تجوز فيه بتبعية المجاز في المصدرين منقول عن أرأيت بمعنى أبصرت أو عرفت، كأنه قيل أأبصرته وشاهدت حاله العجيبة؟! أو أعرفتها أخبرني عنها؟ فلا تستعمل إلا في الاستخبار عن حالة عجيبة لشيء. ووجه المجاز أنه لما كان العلم بالشيء سبباً للإخبار عنه أو الإبصارُ به طريقاً إلى إحاطته علماً وإلى صحة الإخبار عنه استعملت الصيغة التي لطلب العلم أو لطلب الإبصار في طلب الخير، وعلى التقديرين فيه تجوزان، وشبه استعارة تبعية. وينبغي أن يسمى مثله مجازاً مرسلاً تبعياً قاله الشهاب.

يعني أخبروني ﴿إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ بَغْتَةً﴾ ومفاجأة كما أتى بعض المتمردين

الذين كانوا قبلكم ﴿أَوْ أَتَتْكُمُ ٱلسَّاعَةُ﴾ الموعودة وأدركتم هولها وشدتها ﴿أَغَيْرَ ٱللَّهِ تَدْعُونَ﴾ لتخليصكم ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾؟! في دعوى أن الأصنام آلهة. وجواب الشرط محذوف، أي فادعوه ﴿بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ﴾ أي تخصون الله تعالى بالدعاء كما عرف عن عادتكم إذا ألجأتكم الحوادث ﴿فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَآءَ﴾ لأن استجابة الدعاء تفضل منه تعالى ﴿وَتَنسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ﴾ به حين الخلاص والكشف لأن المستغيث إذا أجيب اطمأنّ قلبه إلى ربه.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ﴾ أي أرسلنا إلى أمم من قبل أيام رسالتك ﴿فَكَفَرُوا۟﴾ وكذبوا وتمردوا ﴿فَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْبَأْسَآءِ﴾ من الشدة وفقر الحال ﴿وَٱلضَّرَّآءِ﴾ من الأمراض والبلايا ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ﴾ أي يتذللون ويتوبون فنتوب عليهم، ولكن لم يتضرعوا لشدة شكيمتهم وقساوة قلوبهم ﴿فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا۟﴾! حتى نرحمهم ﴿وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ وذلك دأب الفاسقين المتعنتين ﴿فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ﴾ من النعم التي صورتها نعم وسيرتها نقم ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟﴾ منها ﴿أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ﴾ أي آيسون من الرحمة و متحسرون ﴿فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾ أي آخر من بقي منهم حتى يبادوا ويستأصلوا ﴿وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ على نعمته التي أنعم بها على العباد من إبادة أهل البغي والعناد ليستريح الناس برهة من الزمان تحت راية الأمان والأمر لله رب العالمين.

﴿قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَخَذَ ٱللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَٰرَكُمْ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم مَّنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِهِ ۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ ﴿٤٦﴾ قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٧﴾ وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ۖ فَمَنْ ءَامَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٤٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَمَسُّهُمُ ٱلْعَذَابُ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿٤٩﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَخَذَ ٱللَّهُ سَمْعَكُمْ﴾ الآية معناه: قل يا رسولي لأولئك المشركين الغافلين عن شكر نعم الله الكثيرة الواردة عليهم: ﴿إِنْ أَخَذَ ٱللَّهُ﴾ منكم ﴿سَمْعَكُمْ﴾ فجعلكم صُمّا لا تسمعون شيئاً ﴿و﴾ أخذ ﴿أَبْصَٰرَكُمْ﴾ وجعلكم عُمْياً لا تبصرون شيئاً ﴿وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم﴾ ومنعها عن إدراكها الغريزي وورود المعلومات عليها فـ ﴿مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِهِ﴾؟ أي بذلك المذكور من السمع

وغيره ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْآيَٰتِ﴾ أي تفكر في معاملتنا مع الناس الغافلين عن الخالق وشكر نعمه والإيمان به وبصفاته وبرسله وبما جاؤوا به، فتارة نذكرهم بالترغيب والترهيب، وتارة بذكر القصص العجيبة ونقل ما وقع في سالف الأيام على الأمم المعاندة للرسل، وتارة بالتوجيه نحو الاستدلال بالأدلة النفسية والآفاقية ﴿ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ﴾ ومع ذلك كله هم يعرضون عنها ولا يستفيدون منها، وما ذلك إلا لسوء اختيارهم ولقلة اعتبارهم وكلمة ﴿ٱنظُرْ﴾ يفيد التعجب مثل أرأيت وتصريف الآيات تكريرها على أنحاء مختلفة تناسبُ الحالَ والمقام ﴿قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ بَغْتَةً﴾ أي مباغتة ومفاجأة بدون مقدمة وكانت سراً ﴿أَوْ﴾ أتاكم عذابه ﴿جَهْرَةً﴾ واضحة يتقدم عليها دعوة للحق من الرسل وإنذارات وتباشير ﴿هَلْ يُهْلَكُ﴾ بذلك العذاب هلاكَ غضب ﴿إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾؟ والجواب لا؛ فإن الله إذا جرى عذابه على أحبابه فإنما هو لكفارة سيئات أو رفع درجات، وإذا جرى على الأشقياء المتمردين على الحق فإنما هو عذاب إهلاك وانتقام من حيث يشعرون أو لا يشعرون ﴿وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا﴾ مبلغين لأحكام الله تعالى الاعتقادية والعملية و﴿مُبَشِّرِينَ﴾ للمنقادين الجنة ﴿وَمُنذِرِينَ﴾ لهم بالنار، وليس عند الرسل إلا البلاغ وإيضاح السبل، وليس في قدرتهم الإتيانُ بالمقترحات والخروج عن سنة الله في الكائنات ﴿فَمَنْ ءَامَنَ﴾ بالله ورسوله ﴿وَأَصْلَحَ﴾ أعماله وترك ما يجب أن يترك وفعل ما يجب أن يفعل ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ من العذاب في الآخرة ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ على ما فات من الثواب.

﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَمَسُّهُمُ ٱلْعَذَابُ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ﴾ أي يخرجون عن إطاعة الباري.

﴿قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ ۚ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ۚ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ﴿٥٠﴾ وَأَنذِرْ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٥١﴾﴾.

﴿قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ﴾ أعطي من أشاء ما شاء ﴿وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ﴾ غير ما يوحى إلي ﴿وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ﴾ وأقدر على طي المسافات الشاسعة وفعل الأعمال الصعبة الشاقة، أو على مخالفة الطبيعة من الابتعاد عن الأكل والشر

والمنام والمقام ومقتضيات الأنفس البشرية، وإنما أنا بشر مستوعب لصفات البشر ومنتظر لأمر الله حسب القضاء والقدر، وخصني ربي برحمته فأفاض علي سابغَ نعمته، وشرفني بنبوته ورسالته، وأوحى إليّ ما شاء من شريعته و﴿إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾ وأبلغه إلى الأنام؛ فمن تبعه واهتدى به فهو البصير الذي يدرك طريقه ويمشي عليها سوياً، ومن تركه وعانده وجحده فهو الأعمى في البصيرة، ولو كان صاحب بصر، فإذا بينت القسمين له فـ ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ﴾؟ في الآفاق وفي أنفسكم، وفيما يوحى إليّ وأُلقي إليكم لعلكم تفلحون. ﴿وَأَنذِرْ بِهِ﴾ أي بما يوحى إليك ﴿ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ﴾ أن يحشروا إلى ربهم حال كونهم ﴿لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِيٌّ﴾ ينصرهم بالقوة والغلبة ﴿وَلَا شَفِيعٌ﴾ يشفع لهم ﴿لَّعَلَّهُمْ﴾ إذا أنذرتهم به ﴿يَتَّقُونَ﴾ ويحذرون مخالفة ربهم فيفوزوا بالسعادة في الدنيا والدين.

﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَىْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٢﴾ وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓا۟ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ ۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٥٣﴾ وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِنَا فَقُلْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ ۖ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ ۖ أَنَّهُۥ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوٓءًۢا بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥٤﴾ وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَٰتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٥٥﴾﴾.

عن سعد بن أبي وقاص قال: لقد نزلت: ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ﴾ الآية في ستة: أنا، وعبد الله بن مسعود، وبلال، وعمار، والمقداد، وصهيب. قالوا ـ المشركون ـ لرسول الله: اطردهم فإنا نستحي أن يكون لك تبع كهؤلاء، فوقع في نفس النبي ما شاء الله. فأنزل الله الآية إلى قوله: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ﴾؟ رواه ابن حبان ومسلم والنسائي والحاكم. وعن ابن مسعود قال: مرّ الملأ من قريش على رسول الله ﷺ وعنده خباب ابنُ الأَرَتِّ، وصهيب، وعمار، وبلال، وغيرهم من ضعفاء المسلمين. فقالوا: يا محمد أرضيت بهؤلاء من قومك؟! أهؤلاء مَنَّ اللهُ عليهم من بيننا؟! أنحن نصير تبعاً بهؤلاء؟ لو طردت هؤلاء لاتبعناك!! فأنزل الله تعالى: ﴿وَأَنذِرْ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ﴾ إلى ﴿وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ رواه أحمد، والطبراني وابن أبي

حاتم. وعن عكرمة قال: جاء عتبة بن ربيعة ومطعم بن عدي والحارث بن نوفل في أشراف بني عبد مناف من أهل الكفر إلى أبي طالب فقالوا: لو أن ابن أخيك يطرد عنه هؤلاء الأَعْبُدَ كان أعظم في صدورنا، وأطوعَ له عندنا، وأدنى لاتباعنا إياه!! فكلم أبو طالب النبي ﷺ، فقال عمر بن الخطاب لرسول الله ﷺ: لو فعلت ذلك حتى ننظر ما الذي يريدون. فأنزل الله تعالى: ﴿وَأَنذِرْ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ﴾ إلى ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ﴾؟ وكانوا بلالاً، وعمار بن ياسر، وسالماً مولى أبي حذيفة، وابن مسعود في آخرين، فلما نزلت أقبل عمر فاعتذر للنبي ـ ﷺ من مقالته، فأنزل الله تعالى: ﴿وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ﴾ رواه ابن جرير.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم﴾ الآية لما أمر النبي ﷺ بإنذار المذكورين لعلهم يدخلون في سلك المتقين نهى ـ عليه الصلاة والسلام ـ عن كون ذلك بحيث يؤدي إلى طردهم فيقول سبحانه وتعالى: يا رسولي ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ﴾ مخلصين حال كونهم ﴿يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾ أي رضاء ذاته. والجملة في موضع الحال من ضمير يدعون. والمراد بإرادة الوجه الإخلاص بناء على امتناع كون ذاته مراداً لذاته؛ لأن الإرادة لا تتعلق إلا بالممكنات ﴿مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ﴾ معناه ما عليك شيء من حساب إيمانهم وأعمالهم الباطلة ﴿وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَىْءٍ﴾ أي وما من حساب إيمانك وأعمالك عليهم أبداً، فحسابهم عليهم لا يتعداهم، كما أن حسابك عليك لا يتعدى إليهم ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ﴾؟ أي بمن يقع منه الشكر والإيمان والطاعة. ﴿وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِنَا فَقُلْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ ۖ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ ومعلوم أن المؤمنين هم الذين كانوا يدعون ربهم فأمر الله تعالى حبيبه أن يبدأ بالتسليم عليهم أو يبلغ سلام الله إليهم، ويبشرهم بسعة رحمته، ومعنى تلك الرحمة ﴿أَنَّهُۥ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوٓءًۢا بِجَهَٰلَةٍ﴾ أي جاهلين بحقيقة ما يتبعه من الخير والشر والثواب والعقاب ﴿ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَصْلَحَ﴾ ثم تندم عما اقترفه من السوء وعزم على أن لا يعود إليه في المستقبل، وأصلح بالتدارك ما أمكن تداركه ﴿فَأَنَّهُۥ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥٤﴾ وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَٰتِ﴾ أي وبمثل هذا التفصيل والبيان الواضح نفصل الآيات أي آيات القرآن وصفة المطيعين والمجرمين ﴿وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾.

﴿قُلْ إِنِّى نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۚ قُل لَّآ أَتَّبِعُ أَهْوَآءَكُمْ

﴿قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَآ أَنَا مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾ قُلْ إِنِّى عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَكَذَّبْتُم بِهِۦ مَا عِندِى مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦٓ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ يَقُصُّ ٱلْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْفَٰصِلِينَ ﴿٥٧﴾ قُل لَّوْ أَنَّ عِندِى مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦ لَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٨﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنِّى نُهِيتُ﴾ أي قل للمشركين قطعاً لأطماعهم الفارغة في ميلك إليهم: ﴿قُلْ إِنِّى نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ﴾ أي الآلهة الذين تعبدونهم ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ ۚ قُل﴾ إن ما أنتم عليه أهواءٌ باطلة وأمانٍ عاطلة، وإني ﴿لَآ أَتَّبِعُ أَهْوَآءَكُمْ ۙ قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا﴾ أي إن اتبعت أهواءكم فقد ضللت إذاً ﴿وَمَآ أَنَا مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾ قُلْ إِنِّى عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى﴾ قل للمشركين الذين تاهوا في بيداء الضلال: إني على بينة وبرهان من ربي تدل دلالة قاطعة على أن الله تعالى هو الواحد الأحد الفرد الصمدُ ﴿و﴾ الحال إنكم ﴿كَذَّبْتُم بِهِۦ﴾ وعاندتموني ودعوتموني إلى الإتيان ببعض الآية الكونية التي تدل على صدقي في أمري و﴿مَا عِندِى مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦٓ﴾ من تلك الآيات الكُبريات التي تقطع عرق الضلال الذي ضللتم به ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾ أي ما الحكم في تأخير إنزال تلك الآيات إلا لله وحده من غير أن يكون لأحد تأثير فيه ﴿يَقُصُّ ٱلْحَقَّ﴾ أي يتبع الحق والحكمة في ما يحكم به ﴿وَهُوَ خَيْرُ ٱلْفَٰصِلِينَ﴾ أي خير القاضين وخير الفاصلين للقضاء بين العباد.

﴿قُل لَّوْ أَنَّ عِندِى﴾ أي في سيطرتي ونفاذ أمري ﴿مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦٓ﴾ من عذاب يأتي عليكم ﴿لَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ﴾ وكنت أنزل عليكم ما تستعجلون به ﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ﴾ من كل عالم ﴿بِٱلظَّٰلِمِينَ﴾ ومدى استحقاقهم للعذاب أو للسماح في الدنيا أو في الآخرة.

﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٥٩﴾﴾.

﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ﴾ أي العلوم الدقيقة التي تكشف أفراد المغيبات في الكائنات أعم مما يصل إليها الأفهام أولاً ﴿لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ﴾ لا يعلم تلك المغيبات ولا يكشفها إلا هو وإذا طلع أحدٌ على شيء منه رسولاً أو نبياً أو ولياً

فإنما عليه بإطلاعه عليه سواء بوحيه أو بإلهامه وتلك العلوم ليس في إمكان غير الله سبحانه وتعالى كشفها. وجاء للتأكيد على الموضوع قوله الكريم ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾ أي ما في أبعاد الأرض وأعماق الماء، وما في البر يشمل الأحجار والرمال والتراب وما عليها من النبات والأزهار والأوراق ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا﴾ ويعلم وقت حدوثها وبقائها وزوالها وسقوطها ﴿وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ﴾ مما تحت القشرة العليا أو الوسطى أو الأدنى ﴿وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ﴾ بمعنى المادة المائية وغيرها، والنامي والجامد والحي والميت ﴿إِلَّا﴾ هو موجود ومحدود ومعين ﴿فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ وهو علمه الأزلي أو مخزن المعلومات الكونية أعني اللوح المحفوظ، أو غير ذلك مما استأثر الله بعلمه.

تنبيه: فسرت المفاتح العلوم بناء على أنها جمع مفتح بكسر الميم اسم آلة بمعنى المفتاح، ويؤيده قراءتها بالياء، فالغيب هو الأمر الغائب عن الإحساس وإدراك العقول، ومفاتحها علوم هي الكاشفة عنها. ثم الغيب على قسمين: غيب مطلق، وهو ما استأثر الله بعلمه ككنه ذاته وصفاته، وأسرار القدر، وقيام الساعة، وغيرها مما لا يعلمه إلا الله. وغيب مقيد، وهو ما غاب عن أبصار بعض دون آخر، وعن إدراك عقل شخص دون آخر. فالمادة التي أمام عين زيد في مملكة غيبٌ عند عمرو في مملكة أخرى، وليس غيباً عند كل أحد. والقضية التي يدركها عقل العالِم ليست غيباً عنده وهو غيب عند الجاهل أو العالم الذي ليس علمه في ذلك المستوى. فكل شيء محسوسٍ بالمجاهر ليس غيباً عنده، حتى يقال: كيف علم الغيب؟ وإنما هو غيب عند من ليست عنده المجاهر. وكذلك العلوم العقلية التي يدركها بعض دون بعض. فكل ذلك مما هو حاضر في علمه تعالى أزلاً وأبداً، وإذا لم يعلمه أحد فمن الممكن أن يعلمه الله بالوحي كما أوحى إلى الرسل كثيراً من المغيبات المستقلة عن زمانهم أو بالإلهام، أو بإراءة صورة ذلك الشيء بأن يجعل قوة نفسه الإدراكية قوية واسعة كما أدرك عمر بن الخطاب جيش سارية في (نهاوند).

والحاصل: إن علم الغيب معنى الإدراك اللازم للذات أزلاً وأبداً لا يوجد عند أحد إلا الله. وكل من كان له معرفة به فإن كان عنده جهاز يظهر له ذلك الشيء فهو حينئذ ليس من المغيبات بالنسبة إليه، وما عدا ذلك من المعلومات الغيبية إذا حصل علمها لأحد فإنما هو بإعلامه تعالى له ذلك الشيء، فليس لذلك الشخص علم الغيب بالمعنى المذكور. فخذ هذا وكن من الشاكرين.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰٓ أَجَلٌ مُّسَمًّى ۖ ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٦٠﴾ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۖ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ ﴿٦١﴾ ثُمَّ رُدُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ ۚ أَلَا لَهُ ٱلْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ ٱلْحَٰسِبِينَ ﴿٦٢﴾ قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ تَدْعُونَهُۥ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّئِنْ أَنجَىٰنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٦٣﴾ قُلِ ٱللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنْهَا وَمِن كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٦٤﴾ قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ ۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾ وَكَذَّبَ بِهِۦ قَوْمُكَ وَهُوَ ٱلْحَقُّ ۚ قُل لَّسْتُ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ﴿٦٦﴾ لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ ۚ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٦٧﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ﴾ الآية في هذه الآية وما بَعْدَها إلى قوله: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ﴾ الآية بيان لأعمال عظيمة عجيبة يعجز عنها غيره تعالى، يباشرها الباري بصفة أنه خالق السماوات والأرض والمتصرف فيهما وفيمن فيهما الإتعاب والإنامة والإيقاظ والإقامة والإماتة والإحياء، ثم الحساب وإعطاء الجزاء لكل عامل حسب عمله... وما على شاكلة هذا الأعمال للدلالة على أنه يجب على كل عاقل أن يعبد الله الواجب الوجود الخالق لكل موجود والمستحق لعبادته بالركوع والسجود حتى تلين عريكتهم وتخف شكيمتهم ويتوجهوا إلى الله رب العالمين.

ومعنى قوله الكريم: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ﴾ أنه يُنيمُكُمْ ويجعلُ النومَ غالباً عليكم بحيث تقعون في المحل كالمَوْتى لا عندكم حسّ ولا شعور بما يَجري حولكم، فضلاً فيما يبعد عنكم، فكأنه أماتكم وتَوفّاكم ﴿وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ﴾ أي ويعلم ما كسبتموه بالنهار المقدم على تلك الليلة، فكان النهار أوقات دنياكم وحياتكم فيها والليل وقت إماتتكم ﴿ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ﴾ أي في النهار الذي يلي تلك الليلة التي توفاكم فيها. ويشبه ذلك النهار يوم البعث. وتبقون هكذا يتقلب عليكم النهار والليل إلى انتهاء مدة حياتكم في الدنيا ﴿لِيُقْضَىٰٓ أَجَلٌ مُّسَمًّى﴾ لينتهي زمان مقرر معين لبقائكم فيها ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم﴾ بعد الرجوع ﴿بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾. ومما ينبغي أن يعلم أن الرسول الكريم ﷺ أمسك عن بيان حقيقة الروح

فأمسك عنها العلماء تأدباً، وذلك لغموضها وصعوبة الوصول إلى كشفها. ولكنهم ذكروا أن للإنسان روحاً حيوانياً يتولد من البخار المتولد من القلب الصنوبري، ويكون مداراً للحس والحركة الإرادية وبفنائه يفنى الإنسان ويموت. وله روح إنساني ويقال لها: الروح والنفس الناطقة، وعليها مدار العقل والتميز، وبها يصير الإنسان إنساناً عالماً بالكليات والجزئيات المجردة والمادية، وهو المسؤول يوم القيامة عن الأعمال خيرها وشرها، وهو المتمتع نعيم الجنة أو المتعذب بعذاب الجحيم. وكما أنه مدار للعقل والتميز كذلك مدار للتطورات الواردة عليه، ومن شدة ارتباطه بالروح الحيواني قد يتوهم أنهما شيء واحد، ولكنهما في الواقع شيئان متغايران، فإذا أراد الله سبحانه وتعالى إماتة الإنسان يطفىء الروح الحيواني، وبانطفائه تنقطع علاقة النفس الناطقة التي هي الروح الإنساني عن البدن، وإذا تعب الإنسان في ساعات اليقظة والعمل قبض الله تعالى الروح الإنساني وسلب عنه الشعور المنبعث من استعمال الحواس حتى يكتسب الإنسان راحة وهدوءً مؤقتاً، وهو في الزمان عينه باق ومتعلق بأعماله الذاتية، أي أنها في حالة النوم لا تتعطل عن الإدراك بقدر قابليته؛ فقد ثبت أنه كما في حالة اليقظة تدرك الأشياء كذلك في حالة النوم، لكنها في حالة اليقظة تستفيد المعلومات من الحواس الخمس الظاهرة وغيرها، وأما في حالة النوم فلا تستفيد من الحواس بل من غيرها. ومن جملة معلوماته المكتسبة في النوم الرؤى التي يراها إما بإفاضة الباري تعالى عليه علوماً من ذاته، وإما بعلاقته مع باقي الأرواح الحية أو الميتة، وإما باستفادته من اللوح المحفوظ الذي فيه صور جميع الأشياء الواقعية، فلا يغرنكم ما اشتهر من بعض الناس أن الرؤيا التي يراها الإنسان خيالات باطلة، بل هي إدراكات للنفس الناطقة كما ذكرنا، ولكن بعضاً منها إدراك لحقائق واقعية تظهر في الوجود، وبعض منها إدراكات لأمور غير واقعية أي لمفاهيم لا تطابق الواقع. ففي كتاب المواقف وشرحه: وقال الأستاذ أبو إسحاق: إنه أي المنام إدراك حق بلا شبهة، إذ لا فرق بين ما يجده النائم من نفسه في نومه من إبصار المبصرات، وسمع المسموعات، وذوق المذوقات وغيرها من الإدراكات، وبين ما يجده اليقظان في يقظته من إدراكاته. فلو جاز التشكيك فيه أي فيما يجده النائم جاز التشكيك في ما يجده اليقظان، ولزم السفسطة والقدح في الأمور المعلومة حقيقتُها بالبداهة. إنتهى.

وفي حاشيته للسيالكوتي ما نصه: قال المازني: مذهب أهل السنة أن حقيقة

الرؤيا خلق الله في النائم اعتقادات كخلقها في قلب اليقظان وهو سبحانه وتعالى يفعل ما يشاء ولا يمنعه نوم ولا يقظة، ويخلق هذه الاعتقادات على أمور يخلقها في ثاني الحال كالغيم علماً على المطر. إنتهى. والمراد بالاعتقادات ما يعم المتخيلة والمتحققة ليشمل القولين المذكورين في المتن أعني كونه خيالاً باطلاً أو أمراً حقاً. إنتهى.

قلت: فما اشتهر من أن النوم ضد الإدراك معناه ضد للإدراك بتوسط الحواس الظاهرة، والإ فإدراك النائم لكثير من الحقائق محقق لا شبهة فيه. وما ذكرناه هو الحق الموافق لظاهر الآيات الكثيرة الدالة على أن الرؤيا حق مثل قوله تعالى: ﴿هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَىَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّى حَقًّا﴾ ولـلأحاديث الكثيرة من جملتها ما ثبت بالأحاديث الصحاح أن النبي ﷺ جعل الرؤيا الصالحة جزء من ستة وأربعين جزء من النبوة، وعمل بها قبل الوحي ستة أشهر. ويؤيد ما ذكرنا من وجود الروح الحيواني والنفس الإنساني ما روي عن ابن عباس رضي الله عنهما أن في ابن آدم نفساً وروحاً بينهما مثل شعاع الشمس؛ فالنفس التي بها العقل والتميز، والروح التي بها النَّفَسُ والحياة. فتتوفّيان عند الموت، وتتوفى النفس وحدها عند النوم. والله أعلم.

﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ﴾ أي والله هو الغالب المستولي على عباده كافة استيلاء من أخذ جانب الفوق من مقابله بحيث لا يفلت منه قطعاً ﴿وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً﴾ أي يرسل عليكم ملائكة حافظين لأعمالكم، لا يخفى منهم شيء منها وهم الكرام الكاتبون، أو حافظين لكم من الأعداء الإنسية والجنية والوحشية في اليقظة والمنام والقعود والقيام. كما في قوله: ﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾ وما في قوله: ﴿إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ ﴿٤﴾﴾. وروي عن ابن عباس رضي الله عنهما أن مع كل إنسان ملكين أحدهما عن يمينه والآخر عن يساره، فإذا تكلم الإنسان بحسنة كتبها من على يمينه، وإذا تكلم بسيئة قال من على اليمين لمن على اليسار: لننتظره لعله يتوب منها. فإن لم يتب كتب عليه. والمشهور أنهما على الكتفين.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ﴾ معناه: حتى إذا انتهت مدة حياة أحدكم وجاء أسباب الموت توفته الملائكة المرسلة مِنّا المفوض إليهم ذلك وانتهى هنا حفظ الملائكة الحافظين، وهم لا يقصرون عن أداء واجبهم بالتواني والكسل ﴿ثُمَّ رُدُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ﴾ أي وبعد التوفي لأرواحهم ردّوا إلى الله تعالى مولاهم ومالكهم الحق الثابت في الواقع بلا معارض ومدافع ﴿أَلَا لَهُ

﴿ٱلْحُكْمُ﴾ أي يختص به الحكم والقضاء في شأنهم صورة ومعنى ظاهراً وباطناً لا حاكم غيره ولا مغير لحكمه ﴿وَهُوَ أَسْرَعُ ٱلْحَٰسِبِينَ﴾ يحاسب جميع الخلائق في أسرع زمان ولا يشغله حساب عن حساب. وفي الحديث: «**أنه تعالى يحاسب الكل في مقدار حلب شاة**».

﴿قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ﴾ الذي تسيرون فيه وهو مغبر بالغبار الذي أثارته الرياح بحيث لا يرى أحد ما أمامه ﴿و﴾ ظلمات ﴿ٱلْبَحْرِ﴾ إذا وقعتم فيها وانغمرت سفنكم أو المراد شدائد الأحوال في البر والبحر من الحروب أو الغلاء أو الآفات الواردة عليها حال كونهم ﴿تَدْعُونَهُۥ تَضَرُّعًا﴾ وابتهالاً إليه ﴿وَخُفْيَةً﴾ أي إسراراً. والمعنى إعلاناً وإسراراً قائلين: ﴿لَّئِنْ أَنجَىٰنَا﴾ ربنا المنجي ﴿مِنْ هَٰذِهِۦ﴾ الظلمات والشدائد ﴿لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ الراسخين في الشكر والمداومين عليه ﴿قُلِ ٱللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنْهَا﴾ أي من تلك الظلمات ﴿وَمِن كُلِّ كَرْبٍ﴾ وبلاء آخر إذا قدر الله إنجاءكم منها ﴿ثُمَّ أَنتُمْ تُشْرِكُونَ﴾ بربكم بدل أن تشكروه وتوحدوه وتعبدوه مخلصين له الدين. ﴿قل﴾ يا رسولي منذراً لأولئك الغافلين من عذاب الله الجاهلين بواجبهم إزاءه: ﴿هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ﴾ أي من جهة السماء كالصيحة والصاعقة، والبرق الخارق، والثلج المتوافر، والبرد المتناثر... وهذا في ذلك الزمان. أو من المواد التفجيرية الملقاة من الطيارات والصواريخ في زماننا ﴿أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ﴾ أي من جهة السفل كالرجفة، والخسف، والزلازل، والإحراق، والإغراق. أو الألغام والمواد التي تلقى في الأرض وتتفجر ويحصل منها هلاك العشرات والمئات ﴿أَوْ يَلْبِسَكُمْ﴾ أو يخلط عليكم أمركم ويجعلكم في اشتباه بدون انتباه. وفي آراء مختلفة بمعاذير مختلقة حال كونهم ﴿شِيَعًا﴾ وطوائف وجماعات كل منها ينظر فيها إلى جانب مشرقين و مغربين ومشتملين ومجنبين، مُفْرطين، ومفرِّطين بحيث يحصل العداء والبغضاء والتنافس بينكم، ويشتد الخلاف وينجر إلى القتال ﴿وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ﴾ كما نرى في العَصر العسير أموراً من هذا القبيل، وهذا من أشد أنواع البلاء؛ لأن البلاء العملي عملية مؤقتة غير مستمرة، وأما البلاء العلمي والفكري فهو مستمر بحيث لا يدع للناس فيه أماناً زماناً ﴿ٱنظُرْ﴾ يا رسولي ﴿كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ﴾ في التبشيرات والإنذارات، ونحولها من نوع إلى آخر وذلك ﴿لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ﴾ إن تلك الآيات الدالة على وجوه الحوادث لا يأتي بها إلا الله ويعتبرون بها ويرجعون من الغي والضلال إلى الرشد والإقبال.

﴿وَكَذَّبَ بِهِۦ﴾ أي بالقرآن الجامع لهذه الآيات البينات ﴿قَوْمُكَ﴾ أي قريش ومن شايعهم لا للجهل فقط بل للحسد والعناد ﴿وَ﴾ الحال ﴿هُوَ﴾ أي القرآن ﴿ٱلْحَقُّ﴾ النازل من ربك الحق ﴿قُل لَّسْتُ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ﴾ وما فُوضَ أمرُكم من الله تعالى إلي حتى أدبر الأمور ﴿لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ﴾ أي لكل نبأ عظيم أتى به الصادق تحقق ووقوع واستقرار وآثار ﴿وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ مقتضى نبأكم هذا فانتظروا إنا معكم من المنتظرين.

﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ ۚ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيْطَٰنُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٦٨﴾ وَمَا عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ وَلَٰكِن ذِكْرَىٰ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٦٩﴾ وَذَرِ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۚ وَذَكِّرْ بِهِۦٓ أَن تُبْسَلَ نَفْسٌۢ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ وَإِن تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لَّا يُؤْخَذْ مِنْهَآ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أُبْسِلُوا۟ بِمَا كَسَبُوا۟ ۖ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ ﴿٧٠﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ﴾ أي وإذا رأيت أهل الكتاب ﴿ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا﴾ أي يدخلون في تكذيب آياتنا ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ واتركهم ولا تَدْخُلْ بينهم ولا تجالسهم ﴿حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ﴾ أي في كلام غير الكلام في التكذيب ﴿وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ أي وإن أنساك الشيطان ذلك النهي الوارد عليك منا وجالستهم ﴿فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي فلا تقعد بعد تذكر الأمر بالإعراض مع أولئك القوم الظالمين بإنكار بعث خاتم الأنبياء والمرسلين وكتابه الذي أنزل عليه من رب العالمين. ﴿وَمَا عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ﴾ أي ليس على المسلمين الذين يتقون مخالفة أحكام الله تعالى من أعمالهم التي يحاسب عليها الخائضون من شيء قليل أو كثير إذا جالَسوهم حَسَبَ المعتاد بحيث لا يتوهم أنهم راضون بالخوض ﴿وَلَٰكِن﴾ عليهم ﴿ذِكْرَىٰ﴾ صادرة منهم بالنسبة لأولئك الخائضين بأن ينهوهم عن الخوض في تكذيب آيات الله، أو يظهر منهم ما يدل على كراهية ما يصدر منهم ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ أي لعل الكافرين الخائضين في تكذيب آيات الله يتقون الله ويتركون ذلك.

روي أن المسلمين قالوا لئن كنا نقوم كلما استهزىء بالقرآن لم نستطع أن نجلس في المسجد الحرام ونطوف! فنزلت للدلالة على أن الممنوع من مجالسة

﴿وَكَذَّبَ بِهِۦ﴾ أي بالقرآن الجامع لهذه الآيات البينات ﴿قَوْمُكَ﴾ أي قريش ومن شايعهم لا للجهل فقط بل للحسد والعناد ﴿و﴾ الحال ﴿هُوَ﴾ أي القرآن ﴿ٱلْحَقُّ﴾ النازل من ربك الحق ﴿قُل لَّسْتُ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ﴾ وما فُوضَ أمرُكم من الله تعالى إلي حتى أدبر الأمور ﴿لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ﴾ أي لكل نبأ عظيم أتى به الصادق تحقق ووقوع واستقرار وآثار ﴿وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ مقتضى نبأكم هذا فانتظروا إنا معكم من المنتظرين.

﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ ۚ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيْطَٰنُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٦٨﴾ وَمَا عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ وَلَٰكِن ذِكْرَىٰ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٦٩﴾ وَذَرِ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۚ وَذَكِّرْ بِهِۦٓ أَن تُبْسَلَ نَفْسٌۢ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ وَإِن تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لَّا يُؤْخَذْ مِنْهَآ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أُبْسِلُوا۟ بِمَا كَسَبُوا۟ ۖ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ ﴿٧٠﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ﴾ أي وإذا رأيت أهل الكتاب ﴿ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا﴾ أي يدخلون في تكذيب آياتنا ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ واتركهم ولا تَدْخُلْ بينهم ولا تجالسهم ﴿حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ﴾ أي في كلام غير الكلام في التكذيب ﴿وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ أي وإن أنساك الشيطان ذلك النهي الوارد عليك منا وجالستهم ﴿فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي فلا تقعد بعد تذكر الأمر بالإعراض مع أولئك القوم الظالمين بإنكار بعث خاتم الأنبياء والمرسلين وكتابه الذي أنزل عليه من رب العالمين. ﴿وَمَا عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ﴾ أي ليس على المسلمين الذين يتقون مخالفة أحكام الله تعالى من أعمالهم التي يحاسب عليها الخائضون من شيء قليل أو كثير إذا جالَسوهم حَسَبَ المعتاد بحيث لا يتوهم أنهم راضون بالخوض ﴿وَلَٰكِن﴾ عليهم ﴿ذِكْرَىٰ﴾ صادرة منهم بالنسبة لأولئك الخائضين بأن ينهوهم عن الخوض في تكذيب آيات الله، أو يظهر منهم ما يدل على كراهية ما يصدر منهم ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ أي لعل الكافرين الخائضين في تكذيب آيات الله يتقون الله ويتركون ذلك.

روي أن المسلمين قالوا لئن كنا نقوم كلما استهزىء بالقرآن لم نستطع أن نجلس في المسجد الحرام ونطوف! فنزلت للدلالة على أن الممنوع من مجالسة

الخائضين هو الرسول ﷺ فقط لا غيره من المسلمين. وروي عن ابن عباس رضي الله عنهما وجمع أن هذه الآية منسوخة بقوله تعالى النازلة في المدينة: ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلْكِتَٰبِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا...﴾.

وفي الطود الراسخ في المنسوخ والناسخ أنه لا نسخ؛ لأن قوله تعالى: ﴿وَمَا عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ خبر ولا نسخ في الأخبار، اللهم إلا إذا قيل بأن تلك الجملة الخبرية في معنى إنشاء إباحة المجالسة المذكورة في الآية الكريمة. والله أعلم.

﴿وَذَرِ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا﴾ معناه واترك أهل الكتاب الذين اتخذوا دينهم الذي فرض عليهم، وهو دين الإسلام، لعباً ولهواً؛ لا يهتمون به ولا يقبلونه ﴿وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾ أي أغفلتهم وخدعتهم هواية الآمال الفارغة في الحياة الدنيا أو نفس الحياة الدنيا المحبوبة عندهم بحيث يود أحدهم لو يعمر ألف سنة ﴿وَذَكِّرْ بِهِۦٓ﴾ أي بالقرآن واقرأه عليهم كراهة ﴿أَن تُبْسَلَ نَفْسٌۢ﴾ وتحبس في الآخرة ﴿بِمَا كَسَبَتْ﴾ه حال كونها ﴿لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِىٌّ﴾ ناصر يدفع عنها المهمات بالنصر والتأييد ﴿وَلَا شَفِيعٌ﴾ بالرجاء والدعاء والتمجيد ﴿وَإِن تَعْدِلْ﴾ أي تلك النفس وأعطت فديتها ﴿كُلَّ عَدْلٍ﴾ أي كل فداء ﴿لَّا يُؤْخَذْ مِنْهَآ﴾ ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أُبْسِلُوا۟ بِمَا كَسَبُوا۟﴾ أي أولئك المتخذون دينهم لعباً ولهواً، هم الذين أُبسلوا أي حرموا ومُنِعوا عن الثواب بسبب كسبهم الأعمال السيئة؛ فالموصول خبر لاسم الإشارة. وقوله: ﴿لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ﴾ خبر ثان واستحقاقهم للشراب من الحميم والعذاب الأليم ثابت ﴿بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ﴾ أي بسبب كفرهم بآيات الله البينات.

ومنهم من قال في تفسير قوله تعالى: ﴿وَذَرِ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟﴾ أي أترك مجالسة السفهاء الذين اتخذوا ﴿دِينَهُمْ﴾ الذي يتماوتون عليه صورةً ﴿لَعِبًا وَلَهْوًا﴾ في الحقيقة والسفهاء بتلك الدرجة لا يجوز مجالستهم إلا لإرشادهم، وإذا لم يسترشدوا فالبعد عنهم رشد إلا بقدر الضرورة الواقعية.

﴿قُلْ أَنَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ كَٱلَّذِى ٱسْتَهْوَتْهُ ٱلشَّيَٰطِينُ فِى ٱلْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُۥٓ أَصْحَٰبٌ يَدْعُونَهُۥٓ إِلَى ٱلْهُدَى ٱئْتِنَا ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۖ وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧١﴾ وَأَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّقُوهُ ۚ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٧٢﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ

﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۖ وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُ ۚ قَوْلُهُ ٱلْحَقُّ ۚ وَلَهُ ٱلْمُلْكُ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ ۚ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿٧٣﴾﴾.

أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن السدي أن المشركين قالوا للؤمنين: اتبعوا سبيلنا واتركوا دين محمد ﷺ فقال الله تعالى لحبيبه محمد ﷺ: ﴿قُلْ أَنَدْعُوا﴾ الآية وقيل: نزلت في أبي بكر الصديق رضي الله عنه حين دعاه ابنه عبد الرحمن إلى عبادة الأصنام. ولما كان الإسلام وصل من الرسول ﷺ إليهم كان الأصل الأصيل في الرد على تلك الرغبة الباطلة هو الرسول ﷺ فكأنه وكأنهم كالواحد أمر الله تعالى رسوله الجليل بالرد عليهم، وجعل نفسه الشريفة في عداد المؤمنين وعلى رأسهم الصديق رضي الله عنه فقال: ﴿قُلْ﴾ يا حبيبي لهؤلاء الجهلاء: ﴿أَنَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا﴾ ونترك عبادة الله الجامع لجميع صفات الألوهية التي من جملتها القدرة على النفع والضر ﴿وَنُرَدُّ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِنَا﴾ إلى الوراء من غير رؤية مواضع أقدامنا، فنضل ونهوى في جحيم الهوى بعد أن دخلنا سواء الطريق الموصل إلى جنة النعيم ورضوان الله العظيم ورؤية ذاته الكريم فنكون لا سمح الله حينئذ ﴿كَٱلَّذِى ٱسْتَهْوَتْهُ ٱلشَّيَٰطِينُ فِى ٱلْأَرْضِ حَيْرَانَ﴾ أي كالجاهل الغافل الذي ذهبت به مَرَدَة الجن في الصحارى القفرة البعيدة عن الإنسان ووسيلة الحياة الطيبة، فبقي حيران بلا بصر ولا بصيرة، وحاله أنه ﴿لَهُۥٓ﴾ أي لذلك المستهوي الغافل ﴿أَصْحَٰبٌ﴾ وأحباب ﴿يَدْعُونَهُۥٓ﴾ بجدٍّ ﴿إِلَى ٱلْهُدَى﴾ أي الطريق المستقيم الموصل سالكه بحيث كأنه نفس الهدى، قائلين لذلك الغافل: ﴿ٱئْتِنَا﴾؟! ولا تبعد عنا وكن لازماً لجماعة الرحمة فإن الجماعة رحمة والفرقة عذاب. ﴿قُلْ﴾ يا حبيبي لهم بعد الرد عليهم داعياً إلى الحق القويم: ﴿إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ﴾ الذي هدانا إليه وهو الإسلام ﴿هُوَ ٱلْهُدَىٰ﴾ وحده وغيره هو الهدى وماذا بعد الهدى إلا الضلال ﴿وَأُمِرْنَا﴾ نحن معاشر المسلمين بالإخلاص ﴿لِنُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧١﴾ وَأَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ معطوف على مفعول الأمر المقدر، وتقدير الكلام: وأمرنا بالإيمان وبإقامة الصلاة ﴿وَٱتَّقُوهُ﴾ أي وأمرنا بأن اتقوه أي اتقوا الرب في مخالفة أمره ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ وهذه الجملة مستأنفة موجبة لامتثال الباري تعالى فيما أمر به لأنه الله سبحانه وتعالى يعود إليه كل عائد كما قال: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ أي وهو الملك المسيطر الذي إليه لا إلى غيره تحشرون أيها المكلفون ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ بما فيها من

الكواكب النيرة الثابتة السيارة ﴿و﴾ خلق ﴿ٱلْأَرْضَ﴾ بما فيها من المعادن والنبات والحيوان والعيون والأنهار والأشجار والأزهار والبحار الكبيرة الممتدة. ﴿وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُ قَوْلُهُ ٱلْحَقُّ﴾ أي وقوله النافذ الحق الثابت يوم يقول لأي شيء أراده: كن، فيكون كما أراده وهذه إما كناية عن سرعة نفاذ إرادته وقدرته، أي إذا أراد شيئاً نفذت قدرته في وجود ذلك المراد كما أراد، أو أنه خطاب يتوجه منه تعالى إلى الصور العلمية الموجودة عنده ضمن اتصافه بالعلم بدون لزوم قدم شيء غير ذاته وصفاته تعالى؛ فإذا توجه إلى أية صورة من تلك الصور أحدثها وأبدعها كما قدرها وقررها، فتكون الأمور المعلومة أعياناً خارجية ثابتة جواهر وأعراضاً ﴿وَلَهُ ٱلْمُلْكُ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ﴾ أي وإذا ظهر في الصورة ملك ونفاذ أمر لشخص من الأشخاص في عالم الدنيا فذلك إنما يكون قبل يوم نفخ الصور، وفي ذلك اليوم له الملك لا لغيره أبداً يوم ينفخ بأمره، والنافخ الملك المقرب إسرافيل ينفخ في الصور، وهو قرن ينفخ فيه ذلك الملك عند الساعة نفختين، وبالنفخة الأولى يموت ما على الأرض من أصحاب الحياة ويتزلزل وتخرج أثقالها. وبالنفخة الثانية تحيى جميع الأموات ويساقون إلى المحشر للحساب والميزان ﴿عَـٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ﴾ أي هو عالم بكل شيء غائب عن الحواس وبكل ما يشاهد لأي مشاهد، وإلا فالكائنات المادية والمعنوية كلها مكشوفة لله أزلاً وأبداً ﴿وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ﴾ في كل ما يفعله ﴿ٱلْخَبِيرُ﴾ بجميع الأمور الخفية والجلية.

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً إِنِّىٓ أَرَىٰكَ وَقَوْمَكَ فِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٧٤﴾ وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا قَالَ هَـٰذَا رَبِّى فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْءَافِلِينَ ﴿٧٦﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَـٰذَا رَبِّى فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِى رَبِّى لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَـٰذَا رَبِّى هَـٰذَآ أَكْبَرُ فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَـٰقَوْمِ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ﴾ معناه واذكر إذ قال ﴿إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ﴾ مستنكراً اعتقاده الفاسد وعمله الكاسد ودورانه حول الصنم الجامد: ﴿أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً﴾ تعبد وهي منحوتة بأيدي صناعكم الحجّارين والنجّارين، وليس فيهم أية صفة تدعو

إلى شرفها واستحقاقها للتشريف والتعظيم فضلاً عن العبادة والركوع والسجود وطلب الجود بالموجود ﴿إِنِّيَ أَرَىٰكَ وَقَوْمَكَ﴾ التابعين لك ﴿فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ أي غيّ في الجنان وضياع لطريق سعادة الإنسان ضلالاً واضحاً لا يحتاج إلى بيان ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ ومثل ذلك التنوير لقلبه والتبصير لبصيرته المدركة للحق المميزة بينه وبين الباطل حتى عارض أباه بما تراه نريه ونبصره ملكوت السماوات ربوبية الباري تعالى للملك العظيم المتحقق في الأعيان بالطول والعرض للسماوات، والأرض وما فيهما وما بينهما وما احتوياه من الأعيان والأعراض الدالة على صنع الصانع المبدع القادر الحكيم ﴿وَلِيَكُونَ﴾ بقوته المعنوية من الغالبين، ويكون في نفسه ﴿مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ﴾. فإن الداعي إلى مبدأ يجب أن يكون غالباً في دعوته وقوياً في بصيرته وموقناً في سريرته، وإلا فإذا عارضه أدنى معارض تأثر وتراجع إلى الوراء فيتنازل من الثريا إلى الثرى.

﴿فَلَمَّا﴾ عارض أباه في مبتغاه، والتهب قلبه إلى إدراك طريق الوصول إلى مولاه، ولم يكن له بغية سواه و﴿جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ﴾ بعد يوم المعارضة والمقال ﴿رَءَا كَوْكَبًا﴾ مشرقاً يتلألأ بالتجوال ويشع على الجوّ بحسن الجمال ﴿قَالَ﴾ إبراهيم: ﴿هَٰذَا رَبِّي﴾ لا الأصنام الأرضية لأنها سفلية، وهذا علوي، وتلك أرضية مظلمة، وهذا سماوي مشرق، وتلك في متناول الأيدي والأقدام وهذا رفيع في القدر والمقام ﴿فَلَمَّآ أَفَلَ﴾ من مداره وغاب مع آثاره ﴿قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْءَافِلِينَ﴾ لأن المحبوب يجب أن يكون ثابتاً مرغوباً لا زائلاً محجوباً، فكيف بالمعبود الذي هو منتهى الأمل والمقصود ﴿فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ﴾ طلع من الأفق بازغاً وملأ الجوّ من نوره وما خلّى فراغاً ﴿قَالَ هَٰذَا رَبِّي﴾ لا ذاك الكوكب، ولم يأت على باله أنّه أيضاً في طريق زواله، ومشغول بدورانه وتجواله، ومسخر للخالق بجماله وجلاله ﴿فَلَمَّآ أَفَلَ﴾ القمر أيضاً ﴿قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ﴾ لأن الإنسان كائناً من كان لا يصل علمه إلى ما وراء الطبيعة الموصوفة بالحدوث والإمكان ﴿فَلَمَّا﴾ تأمل ساعة وعرف من نفسه قلة الاستطاعة و﴿رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً﴾ شقت الكون بالإشعاع وعم ضياؤها الأرض في كل بقاع، قال: هذا النير أكبر من ذاك الآفل وأنور ﴿هَٰذَا رَبِّي هَٰذَآ أَكْبَرُ﴾ استدلالاً بكبر الجسم ووفرة الجود على عظمته في الوجود، وأنه لائق بالعبادة والسجود ﴿فَلَمَّآ أَفَلَتْ﴾ وغربت مثل سابقيها ولم يستمر لها السكون علم أن المعبود بالحق لا يشبه ما كان وما يكون ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّي

بَرِيٓءٌ﴾ من عبادة كل زائل ومن عبادة ﴿مَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ﴾ وحولت ذاتي وقلبي ﴿لِ﴾ الإله ﴿لَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ ودبر أمرهما وأمر ما فيهما على الطول والعرض ﴿حَنِيفًا﴾ مائلاً من كل زائل وباطل ومن كل عاجز وعاطل، وأنا من الموحدين لله رب العالمين ﴿وَمَآ أَنَا﴾ قطعاً ﴿مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ فتدرج عليه السلام من بساطة الصبيان إلى فكرة أهل العرفان، ومن تقاليد العميان إلى تحقيق أهل العيان، ومن سفاسف السفليات إلى معارف العلويات، ومن صفاتها الناقصة الدالة على الحدوث إلى الإيمان بالله الواجب الوجود الخالق لكل موجود، فاستقر في حاله حيث انكشف له ربه وعرف واجبه في حاله ومآله فاشتهر أمره وذاع خبره، حتى دعاه الملك وحاجّه بما هو مشهور، فآل الأمر إلى رميه بالمنجنيق في النار فصارت له برداً وسلاماً! فاضطرّ إلى تهجيره من العراق فتحول من أسير بين يدي الملحدين إلى رسول صار إماماً للموحدين، وبنى قبلة لعالم الإسلام هي قبة التوحيد على مر الأيام، وولد له أولاد منهم إسماعيل الجد الأعلى لخاتم الأنبياء والمرسلين سيدنا محمد المبعوث رحمة للعالمين ـ عليه وعلى آله وأصحابه وأتباعه الصلاة والسلام إلى يوم الدين ـ.

ومما ينبغي أن يعلم في هذا المقام أن بعض الناس قد استشكلوا ما حكاه الله سبحانه وتعالى في قصة إبراهيم من القول بربوبية الكوكب، ثم القمر، ثم الشمس بأنه كفر بالإجماع، والكفر غير جائز على الأنبياء عليهم الصلاة والسلام مطلقاً وأجيب عنه بوجوه:

الوجه الأول: إن إبراهيم عليه السلام لم يقل: هذا ربي على سبيل الإخبار والاعتراف بربوبيته، بل قاله على سبيل التنازل الوارد في الجدال، فكأنه قال لهم فرضنا أن الكوكب هو الرب ولكن كيف يجوز أن يكون الرب يظهر تارة ويغيب أخرى، ويطلع ويغيب ويتحرك ويتحول؟! إلى آخر ما هنالك من أوصاف الأشياء الحادثة...

الوجه الثاني: إن المراد بقوله هذا ربي إنه ربي في زعمكم لأنكم كنتم تعبدون الكواكب.

الوجه الثالث: إن المراد بذلك الكلام كلام واقع على سبيل الاستفهام الإنكاري، كما هو المعروف.

الوجه الرابع: أن يكون على كلامه قول مضمر والتقدير قال يقولون هذا ربي.

الوجه الخامس: إن كلامه ورد منه على طريق الاستهزاء بقومه.

الوجه السادس: إن اسم الرب ليس من الأسماء المختصة بالمعبود كالإله، إلا إذا أضيف إلى ما يختص به نحو رب العالمين. وإذا أضيف إلى المتكلم أو المخاطب كأن يقال ربي أو ربك جاز أن يراد به المربي وصاحب الأمر كما قال سيدنا يوسف عليه السلام في شأن عزيز مصر: ﴿مَعَاذَ ٱللَّهِ إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحْسَنَ مَثْوَايَ﴾ وكما قال: ﴿ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسْـَٔلْهُ﴾ الآية. فقول سيدنا إبراهيم عليه السلام في المواقف الثلاث: ﴿هَٰذَا رَبِّي﴾ إشارة إلى الكوكب أو القمر أو الشمس ليس إلا كقول يوسف عليه السلام ﴿إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحْسَنَ مَثْوَايَ﴾ وليس نصاً في معنى الربوبية بالمعنى الممنوع، ولا سيما أن قومه كانوا متعودين على عبادة الكواكب على أساس أنها وسائط بين الخالق والمخلوق بزعمهم في ذلك العهد، فيجوز أن يراد به أن الكوكب الفلاني يربيني ويقربني إلى الله ويبعدني عن عبادة الهياكل المنصوبة.

ثم هذه الأجوبة مبنية على التزام أنه عليه السلام تكلم بذلك الكلام بعد البلوغ ووصوله حد التكليف. وأما إذا كان قبله وعند المراهقة فيقال: إنه تعالى خص إبراهيم بالعقل الصافي فخطر بباله قبل بلوغه معارضة الإشراك ورفض الهياكل والتوجه بالفكر السليم إلى الواحد الأحد، وبينما هو متفكر ومضطرب رأى ما رآه وأبدى ما أبداه على سبيل الانتخاب والاختيار حتى أتاه اليقين.

وقال بعض المحققين: التحقيق في الموضوع هو أن الكفر والإيمان وصفان متقابلان تقابل التضاد، فإن الكفر هو العناد والجحود بذات واجب الوجود. والإيمان هو الإذعان والتصديق به وبوحدته واستحقاقه للعبادة وإنه خالق لكل موجود. فهما كالسواد والبياض لا يجتمعان في محل واحد لتضادهما، ولكنهما قد يرتفعان، فكما أن الأجسام اللطيفة كالهواء ليست بأبيض ولا أسود كذلك من لا يكون فيه إيمان ولا كفر كمن نَشَأ في محل لم تبلغه الدعوة الإسلامية وبقي خالي الذهن منهما فإنه ليس بمؤمن ولا كافر، وكذلك المجنون والصبي الغير المميز فلا ينسب إليه منهما إلا بتبعية الدار أو الوالدين أحدهما أو كليهما. وكذلك الصبي المميز الغير الدارس للموضوع، وأما المميز الدارس له فإنه يتصف بواحد منهما

واقعاً ولكنه لا يجري عليه الأحكام التكليفية المترتبة على البالغ ولا تجري أحكام الحدود وأمثالها مما يتعلق بالتكليف، وإن ترتب عليها الأحكام الوضعية كالغرامة لما أتلفه. فالصبي المميز الدارس المتفكر في الموضوع إذا نظر إلى الآفاق والأنفس وتفكر في آثار الخالق في الكائنات فربما استرشد إلى الاستدلال على وجود الصانع الواجب الوجود، وما دام هو يتفكر في هذا الشأن ربما ينتقل من طور إلى آخر من الظن إلى الاعتقاد ثم إلى اليقين، وإذا قلنا: له درجات، فهو يتحول بين درجاته إلى أن يصل إلى علم اليقين بل عين اليقين بل حق اليقين، وهو في هذ المجالات، وإن كان في أوائل الاعتقادات لا يقال له إنه مؤمن لعدم التيقن ولا إنه كافر؛ لأنه غير جاحد وغير معاند، وإنما هو متفكر مسترشد يطلب الرشاد من الله تعالى. فشأن سيدنا إبراهيم في ذلك المجال وتكلمه بذلك الكلام ما دام كان أثناء البحث عن الخالق الخبير والصانع القدير لا يوجب القول بأنه عليه وبال وعنده شيء ممّا لا يناسب قدره؛ لأن القدر إذا لم يمتلىء لم يفض منه شيء.

وحاصل الكلام: إن قوله عليه السلام ﴿هَٰذَا رَبِّي﴾ إنما كان على معنى غير معنى الخالق والإله؛ فإنه لم يقل (هذا إلهي). ولو سلمنا جدلاً أنه كان على ذلك المعنى فبما أنه لم يكن قبل كلامه هذا دعوة إسلامية، وكان هو في دور الفكر والملاحظات لاستنارة القلب والتوجه إلى الله تعالى لم يكن إلا على حال الاستبصار والانتقال من مجال إلى مجال، حتى تجلى عليه الحق سبحانه وتعالى، وأفاض على قلبه النور والهدى، فلم يستقر قلبه إلا على الإيمان بواجب الوجود الخالق المعبود، كما قال: ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا﴾ وهذا التحقيق حقيق بالقبول، والله الهادي إلى سواء السبيل.

﴿وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَاجُّونِّي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٨٠﴾ وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨١﴾ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾ وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾﴾.

قوله: ﴿وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ﴾ يعني بعد أن أعْلن إبراهيم عليه السلام توحيد الباري سبحانه

وتعالى، ورفض عبادة الأصنام والهياكل خاصمه ونازعه قومه: أبوه ومن تابعه، تارة بالاستدلال بأدلة سقيمة عقيمة فاسدة مبنية على وجوب رعاية تقليد الجاهلين، وتارة بالتخويف بأمور على تركه عادة الملك وقومه ومعارضته بالنتيجة لإدارته وشؤون مملكته، لكنه ﴿قَالَ﴾ إبراهيم عليه السلام في ردهم وسد أفواههم بكل فتوة نفسية، وقوة قدسية، مستنكراً لاحتجاجهم بالباطل وانتهاجهم بالأمر العاطل قائلاً: ﴿أَتُحَآجُّوٓنِّي﴾ وتخاصمونني ﴿فِي﴾ توحيد ﴿ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنِۚ﴾ إلى الإيمان بذاته وصفاته، وإنه الواحد الأحد الفرد الصمد ﴿و﴾ جعلني صاحب معنوية بحيث ﴿لَآ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ﴾ به الملك العلام من الأصنام المصنوعة من الحجارة والأخشاب المسندة لا حول لها ولا قوة إلا بالأوهام ﴿إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّي شَيْـًٔاۗ﴾؟ يصيبني من أثر مكرهم وقهرهم، ولا حول ولا قوة إلا بالله ﴿وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًاۗ﴾ بما ينفع وما يضرّ، فيجوز أن يحدث منكم مكر ومكيدة، ويجوز أن يحصل من الله تعالى صيانة وسلامة لي ﴿أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾؟ ما رأيتم من الكائنات من الحوادث والبليّات، وكيف نجّى سبحانه وتعالى من شاء وابتلى بها من شاء، فإنه باق كما كان ولا يتغير بتغير الزمان ﴿وَكَيْفَ أَخَافُ﴾ أنا المسلم المتوكل على الله ﴿مَآ أَشْرَكْتُمْ﴾ أي ما أشركتموه بالله القدير ما لم ينزل به عليكم سلطاناً من تلك الأخشاب المشوهة والحجارة المموّهة، مع أنه لا يقبل العقل السليم أن يحدث منها أي شيء للتعذيب أو للتنعيم ﴿وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِٱللَّهِ﴾ الحي القيوم بعض الجوامد التي ركبتموها مـ ﴿مَا لَمْ يُنَزِّلْ﴾ الباري تعالى ﴿بِهِۦ﴾ أي بتقديره وتقديسه فضلاً عن عبادته عليكم ﴿سُلْطَٰنًاۚ﴾؟! برهاناً من العقل بياناً أو دليلاً من الحس عياناً ﴿فَأَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ﴾ من الموحدين والمشركين ﴿أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِۖ﴾ والسلامة ﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ مظانّ الخوف والأمان بالبرهان أو بالعيان؟ والجواب لهذا الاستفهام عند أولي الأفهام هو أن الموحدين أحق بالأمن والسلام بلا جدال وكلام. لكن لما سكت القوم عن الجواب قال تعالى في تحقيق الحال: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ بالله وملائكته ورسله وباليوم الآخر وبالقدر خيره وشره ﴿وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم﴾ في الدنيا والآخرة ﴿وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ إلى الحق والسعادة الوافرة في الدنيا والدين.

﴿وَتِلْكَ﴾ الحجة الواضحة القوية التي استدل واحتج بها على قومه رفضاً لعبادة الأصنام والهياكل والنيرات بأنها مسخرة ومنقادة للعمل وزائلة متحولة لا تبقى على حال، وكل ما كان كذلك لا يكون واجب الوجود ولا يستحق أن تنظر إليه

بعين النظر إلى المعبود، وفرضاً لعبادة الباري تعالى وحده بأنه هو الذي فطر السماوات والأرض وأودع فيها دقائق صنعه وحقائق حكمه، وكل من هذا شأنه وهو الفرد الصمد حقيق بأن يُطاعَ ويُعبَد هي ﴿حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ﴾ وألهمناه ليحتج بها ﴿عَلَىٰ قَوْمِهِۦ﴾ ولا عجب في ذلك فإن الأمر كله في قدرتنا ﴿نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ﴾ في العلم والحكمة ﴿مَّن نَّشَآءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ﴾ في توديع الناس العلوم والحكم وتوزيعها عليهم حسب الموهبة المطلقة، أو وفق علو الهمم ﴿عَلِيمٌ﴾ بمن يكون مستحقاً للرسالة ويختص برحمته من يشاء والله ذو الفضل العظيم.

﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۖ كُلًّا هَدَيْنَا ۖ وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٥﴾ وَإِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا ۚ وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٦﴾ وَمِنْ ءَابَآئِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ وَإِخْوَٰنِهِمْ ۖ وَٱجْتَبَيْنَٰهُمْ وَهَدَيْنَٰهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٨٧﴾ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ وَلَوْ أَشْرَكُوا۟ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٨٨﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ۚ فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا۟ بِهَا بِكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ ۗ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٠﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ﴾ أي لإبراهيم عليه السلام ﴿إِسْحَٰقَ﴾ وهو ولده من سارة عاش مائة وثمانين سنة ﴿وَيَعْقُوبَ﴾ وهو ابن إسحق عاش مائة وسبعاً وأربعين سنة ﴿كُلًّا﴾ من إبراهيم وابنه وحفيده ﴿هَدَيْنَا﴾ بالإيحاء، والرسالة، والنبوة، ونيل الكرامة، والثواب ﴿وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ﴾ أي من قبل إبراهيم عليه السلام. والمشهور أن إدريس عليه السلام كان قبله، وقيل بالعكس. ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ﴾ الضمير راجع لإبراهيم عند الجمع لأن المقام لبيان أحواله وشؤونه. واختار كثيرون رجوعه إلى نوح لكونه أقرب، ولأنه ذكر من الأنبياء لوطاً وليس من ذرية إبراهيم، وإنما هو ابن أخيه هاران، وآمن به وخرج معه مهاجراً إلى الشام، فأرسله الله إلى أهل سدوم. وكذلك يونس عليه السلام لم يكن من ذريته عند بعض، ولكن صرح في جامع الأصول أنه كان من الأسباط وعاصر (شعياء) وحينئذ لا يبقى خارجاً من

نسله إلا لوط عليه السلام و﴿دَاوُۥدَ﴾ هو كما قال الجلال السيوطي: ابن إيشا، كان أحمر الوجه، سبط الرأس، أبيض الجسم، طويل اللحية، حسن الصّوت والخلق. وجمع له بين النبوة والملك. ونقل النووي عن المؤرخين أنه عاش مائة سنة و مدة ملكه منها أربعون سنة ﴿وَسُلَيْمَٰنَ﴾ ولده وكان على سمت أبيه، وكان يشاوره أبوه في صغر سنه لوفور عقله.

ويقال: إنه ملك وهو ابن ثلاث عشرة سنة، وتوفي وله ثلاث وخمسون سنة. ويقال: إن أباه داود ابتدأ بناء بيت المقدس وأكمله سليمان عليه السلام ﴿وَأَيُّوبَ﴾ وهو ابن موص، بن دوم، بن عيص بن إسحاق عليه السلام وحكى ابن عساكر أن أمه كانت بنت لوط عليه السلام وأن أباه آمن بإبراهيم عليه السلام قال ابن جرير: إنه كان بعد شعيب عليه السلام وقال ابن أبي خيثمة: كان بعد سليمان. وروى الطبراني أن مدة عمره كانت ثلاثاً وتسعين سنة ﴿وَيُوسُفَ﴾ ابن يعقوب عليه السلام وعاش مائة وعشرين سنة ﴿وَمُوسَىٰ﴾ بن عمران بن يصهر بن ماهيث بن لاوي بن يعقوب. وفي الصحيح وصفه بأنه آدمُ، طوال، جعد، كأنه من رجال شَنوءة. وعاش مائة وعشرين سنة. قاله الثعلبي. ﴿وَهَٰرُونَ﴾ أخوه الشقيق وقيل لأبيه وقيل لأمه. توفي قبل موسى عليه السلام وقد ولد قبله بسنة ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ أي ومثل إبراهيم نجزي أولئك الرسل المحسنين ﴿وَزَكَرِيَّا﴾ هو ابن اذن ابن بركيا كان من ذرية سليمان عليه السلام، وقتل يوم قتل ولده، ومات وعمره تسع وتسعون، وقيل مائة وعشرون سنة. ﴿وَيَحْيَىٰ﴾ ابنه عليه السلام ﴿وَعِيسَىٰ﴾ ابن مريم عليه السلام. وذكره من عداد الذرية دليل واضح على دخول ابن البنت في الذرية ﴿وَإِلْيَاسَ﴾ هو ابن لسن بن فنحاص بن العيزار بن هارون أخي موسى بن عمران عليه السلام ﴿كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ المراد الكاملين في الصّلاح ﴿وَإِسْمَٰعِيلَ﴾ هو كما قال النووي: أكبر أولاد إبراهيم ولد من هاجر عليه السلام ﴿وَٱلْيَسَعَ﴾ قال ابن جرير: هو ابن أخطوب بن العجوز ﴿وَيُونُسَ﴾ وهو ابن متي كان في زمن ملوك الطوائف وولد في زمان شعياء وأرسل إلى أهل نينوى بالموصل. قال تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ مِاْئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴿١٤٧﴾﴾ ﴿وَلُوطًا﴾ هو ابن هاران بن آزر ﴿وَكُلًّا﴾ منهم ﴿فَضَّلْنَا عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أي على عالمي عصرهم. وفيها دليل على فضل الأنبياء على الملائكة ﴿وَمِنْ ءَابَآئِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ وَإِخْوَٰنِهِمْ﴾ أي وهدينا من آبائهم وأبنائهم وإخوانهم جماعات كثيرة ﴿وَٱجْتَبَيْنَٰهُمْ﴾ واصطفيناهم واخترناهم على غيرهم ممن أرسلناهم إليهم ﴿وَهَدَيْنَٰهُمْ

إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ هو دين الحق الذي ارتضاه ربهم وأحكامه العملية التي تناسب زمانهم ﴿ذَٰلِكَ﴾ الهدى ﴿هُدَى ٱللَّهِ﴾ هدى منه تعالى اختاره لأن يكون سراجاً منيراً للقلوب ﴿يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ من عباده ويظهر المهتدي من غيره باختياره الحسن إلى العمل الحسن ﴿وَلَوْ أَشْرَكُوا۟﴾ بالله تعالى غيره ﴿لَحَبِطَ عَنْهُم﴾ أي لسقط وضاع عنهم ﴿مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ من الصالحات، فإن صالح العمل موقوف على صالح الاعتقاد.

﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ﴾ المنزل من الله عليه أو على من سبقه وجعله تابعاً له في العمل بما نزله ﴿وَٱلْحُكْمَ﴾ أي كيفية فصل القضاء بين المتخاصمين، أو الحكمة ومعرفة حقائق الأشياء حتى كانت أقوالهم واضحة مبينة مفيدة، وأعمالهم رصينة سالمة مجيدة، وأخلاقهم طيبة حميدة. ﴿وَٱلنُّبُوَّةَ﴾ ورتبة النبوة التي هي خصوصية بين الله وعباده المختارين بها، وعلاقة كعلاقة المصباح بأطرافه المستنيرة ﴿فَإِن يَكْفُرْ بِهَا﴾ أي بتلك النبوة الرفيعة ﴿هَٰٓؤُلَآءِ﴾ المشركون من أهل مكة أو الكفار مطلقاً ﴿فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا﴾ أي بالإيمان بها وبرعايتها والعمل بمقتضاها ﴿قَوْمًا﴾ لهم قائمة الشرف و﴿لَّيْسُوا۟ بِهَا بِكَٰفِرِينَ﴾ في وقت من الأوقات وهم الأمة المرحومة التي أعلن الله أنها خير أمة أخرجت للناس من الطبقة الأولى، وما بعدها إلى يوم القيامة فإن مثل أمة الرسول محمد ﷺ مثل المطر لا يدرى أوله خير أم آخره، ولا يزال الخير فيه وفي أمته إلى يوم القيامة. ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ﴾ الأنبياء المذكورون هم ﴿ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ﴾ أي هداهم إلى الحق ﴿فَبِهُدَىٰهُمُ﴾ اعتقاداً وأعمالاً وأخلاقاً ﴿ٱقْتَدِهْ﴾ أي كن مجمع الأنوار في النور الوارد، وكنز الكنوز للفوائد، وبحر البحور للفوائد، واقتداء شخص بشخص في أمرٍ حَسَنٍ من الأمور لا يوجب كون المقتدي مفضولاً حيث جاز ووقع اقتداء الفاضل بالمفضول على أنه ليس المداد بالاقتداء منه أو من قواعد دينه، بل المقصود هنا أن يكون جامعاً لفضائل أولئك السلف الرشيد في الاعتقاد والأخلاق والأعمال حتى لا يبقى شيء من المحسنات إلا وهو موجود عنده، وكذلك أن يكون عند المقتدي مزيد فائدة لم تكن موجودة عند الإمام؛ ولذلك قال ﷺ: «**إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق**» كما أنه يجوز أن يكون عندهم من الآداب والأحكام ما لا يناسب عصره وعصر أمته وينسخ بما عنده من شريعته. ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ﴾ أيها الناس الناسون لحقوق الله على عباده ﴿عَلَيْهِ﴾ أي على ما نزل علي وأبلغه إليكم من القرآن وأحكامه ﴿أَجْرًا﴾ ومنفعة مادية تعود إلي.

فإن شأن الرسل إيضاح السبل للكل، وشأن الفائزين بالسعادة منهم الاتباع بلا جدال ولا نزاع ﴿إِنْ هُوَ﴾ أي ما هو ﴿إِلَّا ذِكْرَىٰ﴾ وموعظة حسنة تهدي إلى طريق الرشاد، أي ترك الفساد ومباشرة الخيرات للعباد، لا لأمة أو قبيلة محدودة بل لجميع العالمين.

وهنا أمور يستحسن التنبيه عليها:

الأول: إن الله سبحانه لم يذكر الأنبياء الكرام على تسلسل النسب ولا الزمان، بل قدم منهم وأخر للإشارة إلى أمور معلومة لدى أهل الكفر، ومنها أن الدين الحق ينظر إلى الرسل نظرة واحدة كأن الكل مهتمون بشيء واحد في عصر واحد، وليست مهمتهم إلا الرسالة وتنوير العباد أين كانوا ومتى كانوا وكيف عاشوا.

ولما كان الأولاد والأحفاد أول شيء تَقِرّ به العُيون ذكر إسحاق ويعقوب قبل كل شيء. ثم لما كان نظر الناس إلى الدولة والدنيا أقوى ذكر داود وسليمان الجامعين لهما. وبعد ذكرهما ذكر الأنبياء من أصحاب الأسقام والبلاء كسيدنا أيوب وسيدنا يوسف. ثم ذكر من جعله مظهراً لقدرته حيث تسلّط مع ضعفه وفقره في طبيعته على ملك ادّعى الألوهية في مملكته، وبعد ذلك أراد أن يبين استغناءه عن رعاية الاعتبارات في خواص عباده، فذكر زكريا ويحيى المستشهدين بأيدي الطغاة من أهل البغي والعناد، وذكر عيسى لابتلائه بأيدي اليهود الألداء. وأخر إسماعيل مع أنه كان من أولاده الصلبية لأنه رأس سلسلة مستقلة نادرة الوجود، وهي سلسلة آباء سيدنا محمد صاحب المقام المحمود، ثم ذكر اليسع ويونس ولوطاً لتناسبهم في الانفراد ببعض أمور نادرة كابتلاء يونس بتمرد الآشوريين وابتلاع الحوت له، وابتلاء لوط بقوم لم يسبقه أمة في ارتكاب العمل الفاحش الذي ارتكبوه. والحاصل إن لكل من ذكر هنا خصوصية امتياز رجحت ذكره والله أعلم.

الثاني: يجب أن لا يتوهم أحد أن الأنبياء والرسل هم المذكورون في هذه الآيات أو غيرها من آيات القرآن الكريم؛ لأنهم لا يبلغون ثلاثين مع أن الرسل والأنبياء كثيرون لا يعلم عددهم إلا الله فإنه تعالى قال: ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ وقال: ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا﴾ أي يأتي واحد بعد الآخر. وقال: ﴿مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ﴾ فالحصر في عدد معين غير جائز قطعاً.

والأحسن الإمساك عنه. وإنما ذكر أولئك الأنبياء الكرام في القرآن لأنهم عاشوا في جزيرة العرب وكانت أسماؤهم دائرة بين الناس، وأما الأنبياء والرسل الذين كانوا في البلاد الآسيوية الشرقية، أو الغربية، أو في أوروبا وغيرها فلم يتعرض القرآن الكريم لذكرهم.

الثالث: إن الحق الحقيق بالقبول هو أن المدة بين أبينا وسيدنا آدم أبي البشر عليه السلام والأنبياء المذكورين لا يعلم ضبطه إلا الله، وما يقال إن المدة بينه وبين نوح عبارة عن عشرة قرون أو ما شاكلها ليست عليه حجة يعتمد عليها، فإن العقائد لا تؤخذ بروايات الآحاد. يقول تعالى في سورة هود: ﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ ٱلْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ﴾ الآية وفي سورة طه: ﴿أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ ٱلْقُرُونِ يَمْشُونَ فِى مَسَٰكِنِهِمْ﴾؟ وفي سورة السجدة: ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْقُرُونِ يَمْشُونَ فِى مَسَٰكِنِهِمْ﴾؟ وفي سورة يس: ﴿أَلَمْ يَرَوْا۟ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ ٱلْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿٣١﴾﴾؟. والحاصل: إن الآيات الصريحة في تقدم القرون الكثيرة كثيرة، والأدلة القاطعة على كثرة القرون متوفرة، فيجب على المسلم العاقل أن يؤمن بأن الأرض كانت مأوى للجن قبل الإنس. قال تعالى: ﴿وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ﴾ [الحجر: ٢٧] وأن آدم عليه السلام خلقه الله وجعله خليفته في الأرض، وأما مبدأ ذلك الزمان، ومتى كان، وكم من الأمم جاءت وذهبت؟ فهو في علم الله تعالى لا يعلمها غيره. وإن المكلف كيفما كان وفي أي زمان ومكان وجب عليه إطاعة ربه وخالقه وشريعته في خليقته، ويبقى على هذه الاعتقادات مع العمل بالشريعة إلى أن يموت، وأن يعتقد أنه سيأتيه الموت، ثم البعث بعد الموت، ثم الحشر والحساب، ثم المصير إلى دار الجزاء. ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴿٨﴾﴾.

﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِذْ قَالُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ ۗ قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا ۚ وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوٓا۟ أَنتُمْ وَلَآ ءَابَآؤُكُمْ ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۙ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِى خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩١﴾ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا ۚ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩٢﴾﴾.

عن سعيد بن جبير قال: جاء رجل من اليهود يقال له: مالك بن الصيف

فخاصم النبي ﷺ. فقال النبي: أَنشُدُكَ الله الذي أنزل التوراة على موسى هل تجد في التوراة أن الله يبغض الحبر السمين؟، وكان حبراً سميناً، فغضب وقال: والله ما أنزل الله على بشر من شيء! فقال له أصحابه: ويحك ولا على موسى؟ فقال: والله ما أنزل الله على بشر من شيء فأنزل الله الآية. رواه ابن أبي حاتم وابن المنذر. وذهب ابن جرير إلى أن الآية نزلت في قريش؛ لأنها مكية.

قوله تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ﴾ يعني وما عرفوا الله حق معرفته في إنعامه وكرمه وإفاضته الخير على عباده ﴿إِذْ قَالُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ﴾ حين قالوا ما أنزل الله على بشر شيئاً من الوحي المسطور في الكتاب، فإنهم لو كانوا يعرفون قدرة الله على كل ممكن، ومدى رحمته بعباده، وإرسال الرسل إليهم لتعليم الأحكام ما تجاسروا على هذا السلب الكلي وما قالوا ذلك، علاوة على ذلك فهم يتجاسرون حين يتجاهلون إنزال التوراة على عبده موسى. فـ﴿قُلْ﴾ يا رسولي لرده وإخزائه: ﴿مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى﴾ أي واضحاً في ذاته، وموضحاً طريق الحق لغيره من الناس ﴿تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ﴾ أي حال كون الكتاب أنه تجعلونه موزعاً بحسب الأهواء، مكتوباً في قراطيس ﴿تُبْدُونَهَا﴾ لمن يرغب فيكم وترغبون في إمالته إليكم ﴿وَتُخْفُونَ كَثِيرًا﴾ مما في ذلك الكتاب لعدم الرغبة في علم الناس به وإطلاعهم عليه، وعلمتم بواسطة ذلك الكتاب ﴿وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوٓا۟ أَنتُمْ وَلَآ ءَابَآؤُكُمْ﴾؟ وإذا لم يجبك أحد جهلاً أو عناداً أو استكباراً ﴿قُلِ ٱللَّهُ﴾ أي فقل أنت: أنزله الله. يعني الله هو الذي أنزل ذلك الكتاب ﴿ثُمَّ ذَرْهُمْ فِى خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾ أي بعد أن بينت لهم أن الكتاب الموصوف أنزله الله على موسى وتم إلزامهم، ذرهم في خوضهم يلعبون، أي اتركهم يلعبون في خوضهم الباطل.

﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ وكما أن الله أنزل الكتاب الواضح على موسى، وهذا الكتاب الذي تتلوه عليكم وندعوكم على ضوئه إلى الحق كتاب مبارك كثير الخيرات ديناً ودنيا، مصدق للكتاب الذي بين يديه أي نزل قبله. والمراد به الإنجيل والتوراة وما سبقهما ﴿وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ معناه وكما نزل لتصديق الشرائع السماوية والكتب التي قبله كذلك نزل لتنذر أهل أم القرى أي مكة المكرمة، ومن حولها إلى آخر الكرة الأرضية جنوباً وشمالاً شرقاً وغرباً لعموم بعثته ﷺ إلى أمم العالم. ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ﴾ وبلقاء ربهم فيها ﴿يُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾ أي بذلك الكتاب ومن أنزله ومن أنزل إليه، ﴿وَهُمْ﴾ لإيمانهم بما

آمنوا به ﴿عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ لأن الدوام على الأعمال الواجبة فرع الإيمان الكامل بمن أوجبها.

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَنْ قَالَ سَأُنْزِلُ مِثْلَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنْتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٩٣﴾﴾.

نزلت هذه الآية فيمن ادعى النبوة كذباً وزوراً كمسيلمة، والأسود العنسي وفيمن اجترأ على الله، وقال: سأنزل مثل ما أنزل الله كعبد الله بن سعد بن أبي سرح، وكان من كتبة الوحي، وكان من خبره أن الرسول دعاه ليكتب الآيات الآتية في سورة المؤمنين: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ ﴿١٢﴾﴾ فلما أملى عليه هذه الآيات ووصل إلى قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ﴾ عجب عبد الله من تفصيل خلق الإنسان فقال: فتبارك الله أحسن الخالقين. فقال له الرسول ﷺ: اكتبها فكذا أنزلت علي. فشك عبد الله حينئذ، وقال: لئن كان محمد صادقاً لقد أوحي إليَّ كما أوحي إليه، وإن كان كاذباً لقد قلتُ كما قال! فارتد عن الإسلام، ولحق بالمشركين. ذكره ابن إسحاق عن ابن عباس رضي الله عنهما.

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ معناه ومن أشد ظلماً وأقوى فساداً ممن اختلق على الله خبراً لا يطابق الواقع وقال: ﴿مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ﴾ مع أنه إنزال الله تعالى الكتاب على الرسل ثابت ومحقق بذكر الأنبياء والرسل وإثباته بالمعجزات الباهرة ﴿أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ﴾ من الله تعالى ﴿و﴾ الحال إنه ﴿لَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ﴾ كمسيلمة والأسود العنسي ﴿وَمَنْ قَالَ سَأُنْزِلُ مِثْلَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾ أي قال أنا قادر على إنشاء مثل تلك الآيات النازلة من الله سبحانه وتعالى كعبد الله بن سعد بن أبي سرح ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ﴾ كالأناس الثلاثة السابقين ﴿فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ﴾ أي في سكراته الشديدة ﴿وَالْمَلَائِكَةُ﴾ المأمورون بقبض الأرواح وهم أعوان أو مأمورو ملك الموت ﴿بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ﴾ أي مادون الأيدي بالتعذيب إليهم، قائلين لهم: ﴿أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمُ﴾ من هذا العذاب وخلصوها منه، والمقصود من هذا التوبيخ والتأنيب. ويقولون لهم: ﴿الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ﴾ أي عذاباً هو الإهانة والتحقير

الذي أشد على أهل الشرف من كل عذاب، أو عذاباً بالنار شديداً في ذاته ومخلوطاً بالإهانة والتحقير ﴿بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ﴾ من نفي إنزال الكتاب على أيّ بشر، أو ادعاء الوحي ودعوى النبوة كذباً، أو إنزالهِ مثلَ ما أنزل الله، ﴿وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَـٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ أي تعرضون بدون تأمل فيها.

﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَٰدَىٰ كَمَا خَلَقْنَـٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَـٰكُمْ وَرَآءَ ظُهُورِكُمْ ۖ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَـٰٓؤُا۟ ۚ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٩٤﴾﴾.

عن عكرمة قال: نزلت الآية في النضر بن الحارث لما قال: سوف تشفع لي اللات والعزى. وراه ابن المنذر وابن أبي حاتم.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَٰدَىٰ﴾ استعراض لأحوال المشركين في يوم القيامة ليتنبه من له إدراك وبصيرة في الأمور، وينتهي عن العبث والغرور فيقول: ﴿و﴾ الله ﴿لَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَٰدَىٰ﴾ أي لا شك ولا شبهة في أنكم ستأتوننا يوم القيامة فرادى بدون ناصر ومعين وبدون شفيع لكم عند الله المبين ﴿كَمَا خَلَقْنَـٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَـٰكُمْ﴾ من الأولاد والخدم والحشم ﴿وَرَآءَ ظُهُورِكُمْ﴾ أي وتتركون ما نفعكم وما انتفعتم بها كُلَّها ﴿وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ﴾ في ذلك اليوم ﴿شُفَعَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَـٰٓؤُا۟﴾ أي شركاء لله في الربوبية ﴿لَقَد تَّقَطَّعَ﴾ ما ﴿بَيْنَكُمْ﴾ من وجوه الوصل والعلاقة الوثيقة ﴿وَضَلَّ عَنكُم﴾ أي وضاع عنكم ﴿مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ أنها شفعاؤكم، أو أنهم شركاء لله تعالى عن ذلك.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ ۖ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَىِّ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٩٥﴾ فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ حُسْبَانًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٩٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُوا۟ بِهَا فِى ظُلُمَـٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْـَٔايَـٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٩٧﴾ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْـَٔايَـٰتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ﴿٩٨﴾ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ ٱلنَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّـٰتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَٱلزَّيْتُونَ

﴿وَٱلرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ۗ ٱنظُرُوٓا۟ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَيَنْعِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكُمْ لَـَٔايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٩٩﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ ۖ﴾ شروع في بيان آثار قدرة الباري تعالى وعجائب صنعه وأفعاله العجيبة التي يحار المتفكر فيها فقال: إن الله فالق الحب والنوى. والحب في اللغة المواد المأخوذة كثمرة للمزروعات أو الموجودات في داخل الفواكه. والنوى: جمع نواة. وهي الموجودة في داخِلِ التمرة والفلق الشق ومعنى الآية: إن الله سبحانه وتعالى هو الذي يشق للحبوب والنوى المبذورة في الأرض فتخرج كنبات نام من الأرض وتعلو وتثمر ويعيش عليها الإنسان وسائر الحيوان ﴿يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ﴾ أي يُخرج ما ينمو من الحيوان والنبات والشجر مما لا ينمو من النطفة والحب والنوى ﴿وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَىِّ﴾ والميت كالنطفة والحب والنوى، والحي الحيوان والنبات والشجر ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ﴾ يعني إن ذلك الصانع الحي العليم القادر الحكيم هو الله الواجب الوجود المستحق للعبادة ﴿فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾؟ فكيف تصرفون عن عبادته وتشركون به المواد الجامدة التي لا حياة فيها ﴿فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ﴾ الإصباح مصدر سمي به وقت الصبح أي إن الله تعالى أخرج نور الصباح من ظلمة الليل حتى يبصر الناس وسائر الحيوانات ما أمامها فيأتي الإنسان ويذهب ويسعى ويكتسب، ويدور الحيوان والحشرات على طريق معيشتها ويحصل ما يتقوت بها، وألهم كل ذي روح ما يحتاج إليه في بقائه واستمرار نوعه على اختلاف المستويات، وميز الإنسان بينها بتفكرات نابعة عن النفس الناطقة، وبمحاولات عملية دقيقة على ما يسر له من أسباب الرقي. ومن أهمها: العلم، ووحدة الصف، ونظام العدل. فإن الأعمال الناتجة عن الجهل لا تكون أنيقة، وما يكتسب بدون وحدة الصف لا تتقدم به الأمة، وما يحصل بدون النظام العادل لا يستريح منه البشر. ﴿وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا﴾ أي كما أنه خلق الإنسان والحيوان، وخلق لها وسائل عيشها وفلق الصبح، وجعل النهار مجالاً لكسب المعيشة بالتعب، كذلك جعل الليل سكناً أي وقتاً يسكن إليه المتعبون بالنهار من كل إنسان وطير ودابة ﴿وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ حُسْبَانًا﴾ أي وجعل الشمس والقمر حسباناً. والحسبان بالضم مصدر حسب بالفتح بمعنى الحساب، أي جعل الشمس والقمر ذوي حساب ومنشأ حساب للأوقات في الليل والنهار والأسابيع والشهور والسنين على أوضاعهما المتتابعة في

الشروق والغروب، سواء كانت الحركة منهما أو من غيرهما ﴿ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾ أي ذلك الجعل ناشىء من تقدير الله العزيز الغالب على أمره العليم بكل ما جرى ويجري في الكائنات.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ﴾ ما عدا الشمس والقمر ﴿لِتَهْتَدُوا۟ بِهَا﴾ عند السير في الصحارى أو البحار، أي تهتدوا بطلوعها وارتفاعها وغروبها دائماً ﴿فِى ظُلُمَٰتِ﴾ الليل بـ﴿ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾ فإن من راقبها بمرور الوقت يستعلم منها أوقات الليل وجهة الشرق والغرب كما يستعلم من طلوعها وغروبها أحوال الفصول والمواسم حراً وبرداً، ومواسم الزراعة وغرس الأشجار وغير ذلك لأن الله تعالى جعلها علامات على أحوال شتى. فمن راقبها وكان له معرفة بحركات السيارات منها استنبط أشياء كثيرة.

والمذموم من التنجيم ومن أحوال المنجمين نسبة الآثار إليها لا جعلها علامات على أمور خفية، كما أن كل إنسان يستعلم من تفتح الأزهار حلول موسم الربيع. والحاصل: إن الاستدلال بالعلامات والأسباب أمر مشروع وإنما الخطأ في جعل العلامات عللاً واقعية بدون نسبة التأثير إلى الحكيم الخبير. ﴿قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ معانيها ومراميها وأهدافها فيعلمون بمقتضاها. ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ أي آدم عليه السلام وخلق منها زوجته، وبثكم منها على بسيط الأرض ﴿فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ﴾ أي فلكم استقرار في الأماكن التي استوطنتموها واستيداع في الأماكن التي سكنتم بها بقدر الضرورة ﴿قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ﴾ الموضحة لأحوال الأمة وواجباتها في أدوار حياتها واستقرارها واستيداعها ﴿لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ﴾ معانيها الدقيقة الحقيقة بالتأمل والإمعان.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ منهم من فسرها بأنه تعالى أنزل من نفس السماء ماء مع بعدها مسافة ويقول إن ذلك من الممكنات وظاهر الآية دليل عليه. ومنهم من فسرها بتقدير المضاف أي من جانب السماء. أي من جهة الفوق. ومنهم من فسر السماء بالسحاب مستدلاً بأن الأبخرة الكثيرة تجتمع في باطن الأرض ثم تصعد بالرياح وترتفع إلى الهواء وينعقد السحاب منها ويتقاطر ماء. ويستدل بأن الناس كثيراً ما يقفون على قمم الجبال تحت الشمس ويرون السحاب المتراكم في وسطها وتنزل منها الأمطار، وكل ذلك محتمل وجائز، والمؤمن بقدرة الله فائز ﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ﴾ أي فأخرجنا من الأرض وأنبتنا بذلك الماء نبات كل

صنف من أصناف الناميات فأخرجنا منه ﴿خَضِرًا﴾ أي نباتاً ملوناً بالخضرة ﴿نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا﴾ والجملة صفة لما قبله. أي خضراً نخرج منه حباً كثيراً يركب بعضه بعضاً كما في السنبل ﴿وَمِنَ النَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ﴾ النخل معروف ويستعمل في الواحد والجمع. والطلع شيء يخرج منه كأنه نعلان مطبقان، والحمل بينهما منضود. والقنوان جمع قنو بمعنى العذق. وهو للتمر بمنزلة العنقود للعنب، وتثنية قنوان، ولا فرق بين المثنى والجمع إلا الإعراب، أي أن إعراب المثنى بالألف والياء وإعراب الجمع بالحركة لأنه جمع مكسر. وقوله دانية أي قريبة من المتناول، أو قريبة من الأرض بكثرة ثمرها وثقل حملها. أي وأخرجنا من النخل نخلاً من طلعها قنوان ﴿وَجَنَّاتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ﴾ أي وأخرجنا به جنات كائنة من أعناب ﴿وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ﴾ وقوله تعالى: ﴿مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ﴾ إما حال من الزيتون اكتفى به عن حال الرمان لسبقه، والتقدير والزيتون مشتبهاً وغير متشابه، والرمان كذلك. أو حال من الرمان لقربه ويقدر مثله في الأول أي وأخرجنا الزيتون والرمان حال كون ذلك بعضه مشتبه وبعضه غير متشابه في الهيئة والمقدار واللون والطعم وغير ذلك من الأصناف. وذلك دليل على كمال حكمة صانعها وقدرته الواسعة ﴿انظُرُوا إِلَىٰ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ﴾ إلى حالِ ﴿يَنْعِهِ﴾ أي نضجه واستوائه ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكُمْ لَآيَاتٍ﴾ عظيمة دالة على وجود الصانع القادر الحكيم ووحدته ﴿لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ أي يطلبون الإيمان بالله تعالى.

﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٠٠﴾ بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٠١﴾ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٠٢﴾ لَّا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴿١٠٣﴾﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ﴾ معناه إن ذلك الإله العظيم الشأن العظيم الآثار الذي ذكرنا أوصافه آنفاً جعل المشركون الجاهلون له شركاء ونظراء في الألوهية والربوبية. وقوله: (الجن) عطف بيان أو بدل من الشركاء. والمراد من الجن إما الشياطين، ومعنى جعل الجن شركاء له تعالى إنهم يطيعونهم كما أطاعوا الباري تعالى، أو المراد به الملائكة حيث عبدوهم وقالوا: إنهم بنات الله سبحانه

وتسميتهم جناً مجاز لاجتنانهم واستتارهم عَنِ الأَعْين. وقوله: ﴿وَخَلَقَهُمْ﴾ حال من فاعل جعلوا بتقدير قد، أي والحال إن الله تعالى خلقهم لا الملائكة، وكانَ الحق أن يوحدوا من خلقهم، أو الضمير راجع إلى الجن أي وجعلوا الجن شركاء له تعالى مع أنه تعالى خلقهم، وما دام هو خلقهم ولم يكونوا إلا بإيجاده وإحداثه فكيف يعقل أن يكونوا شركاء له تعالى؟ ﴿وَخَرَقُوا لَهُ﴾ أي اختلقوا ﴿بَنِينَ وَبَنَاتٍ﴾ فقالت اليهود: عزير ابن الله، وقالت النصارى: المسيح ابن الله، وقالت العرب: الملائكة بنات الله. وهذا الخلق كان بغير علم بحقيقة من خطأ أو صواب ﴿سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ﴾ وتنزيهاً له ﴿عَمَّا يَصِفُونَ﴾ أي تنزيهاً له تعالى أن يكون له ولد أو زوجة ﴿بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي موجدهما ومبدعهما من العدم إلى الوجود ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٠١﴾ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ يعني أن ذلك الخالق لكل شيء والعليم بكل شيء هو ربكم رباكم وأوصلكم إلى مستوى الإنسان اللائق بالاحترام، ولا معبود بحق إلا هو خالق لكل موجود مباين لذاته، فاعبدوه وحده ولا تشركوا به غيره، وهو على كل شيء وكيل، أي متولّ لجميع الأمور ﴿لَّا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ﴾ المودعة في الوجوه في هذ الدنيا وإنما تدركه الأبصار المودعة في وجوه الوجهاء في الآخرة، ووجهاء الآخرة من وجه وجهه في حياته إلى ذاته وصفاته، ونظر إلى رحمته وهباته، وتَرَكَ محرماته، وأدى واجباته، وفيهم قال تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾﴾ وإنما فسرنا الآية على الوجه المذكور؛ لأنه لا يجوز حملها على السلب الكلي المستغرق للأزمنة والأمكنة والأحوال مع أفراد الموضوع، وإلا لزم أن لا ترى ذاته الشريفة عين في الدنيا ولا في الآخرة لا من المؤمن، ولا من الكافر، وليس الأمر كذلك لأنه قد تقررت الآية بحملها على رفع الإيجاب الكلي، أي لا تدركه كل الأبصار، وإنما تدركه بعض الأبصار، وذلك لوجود الدليل على رؤيته تعالى في دار الآخرة كالآية المذكورة آنفاً، ولحديث: «**إنكم سترون ربكم كما ترون القمر ليلة البدر**» وهذا الحديث رواه الكثيرون من الصحابة ﷺ. ﴿وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ﴾ أي يراها على وجه الإحاطة والضبط الكامل وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ جملة سيقت للتعليل على قوله: ﴿وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ﴾ لأن اللطيف لا يمنعه شيء عن الوصول إلى شيء.

وقال بعض: إنها تعليل للحكمين السابقين، فاللطيف يفيد علة عدم إدراكه بالأبصار. والخبير يفيد علية إدراكه للأبصار. فإن قيل: اللطيف مقابل للكثيف، وهما من صفات الجسم! قلنا: ذلك هو اللطيف النسبي، والمراد باللطيف في وصفه تعالى اللطيف الحقيقي المطلق، وذلك ليس مما له علاقة بالأجسام، وقد بين ذلك في محله.

﴿قَدْ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِۦ وَمَنْ عَمِىَ فَعَلَيْهَا ۚ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴿١٠٤﴾ وَكَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ وَلِيَقُولُوا۟ دَرَسْتَ وَلِنُبَيِّنَهُۥ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٥﴾ ٱتَّبِعْ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٦﴾ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكُوا۟ ۗ وَمَا جَعَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴿١٠٧﴾ وَلَا تَسُبُّوا۟ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّوا۟ ٱللَّهَ عَدْوًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٠٨﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿قَدْ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ﴾ البصائر جمع بصيرة. وهي للقلب كالبصر للعين يدرك بها الحقائق. والآية استئناف وارد على لسان الرسول أو شأنه كسائر الآيات السابقة. أي قل يا حبيبي: ﴿قَدْ جَآءَكُمْ﴾ أو هو تعالى مباشرة يقول: أيها الناس قد جاءكم ﴿بَصَآئِرُ﴾ أي آيات بينات كالبصائر والقوى المودعة في القلوب لإدراك الأشياء على ما هي عليه، أي جاءكم الرسول ﴿مِن رَّبِّكُمْ﴾ بكتاب مبين معجز ويحتوي على اعتقادات سليمة وأحكام مستقيمة، وعظات وإرشادات مناسبة لأهل القلوب السالمة عن العناد ﴿فَمَنْ أَبْصَرَ﴾ الحق بتلك البصائر ﴿ف﴾ لقد أبصره ﴿لِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِىَ﴾ عن إدراكه ﴿ف﴾ عماؤه ﴿عَلَيْهَا وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ﴾ يحفظ أعمالكم فيجازيكم عليها، بل الله هو الحفيظ المجازي على أعمال العاملين ﴿وَكَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ﴾ معناه ومثل ذلك التصريف اللطيف المناسب للمقام نصرف الآيات، ونغيرها من صنف إلى صنف بإجراء الحوادث في الكائنات وبإنزال الآيات البينات، وبإظهار المعونات والمعجزات ليسترشد المسترشدون على حسن النيات ﴿وَلِيَقُولُوا۟ دَرَسْتَ﴾ أي وليقول الكفار الحاسدون المتعنتون ليست تلك الآيات من خالق السماوات بل من الجن أو من بعض الأعاجم الآتين بالأساطير المنقولات، فإن سنة الله جرت على أنه كلما أرسل رسولاً أو أقام داعياً يدعو إلى

الرشد ومعارضة الخرافات انقسم الناس أصنافاً، فمنعهم من اتبع الحق، ومنهم من عاند. والمعاند منهم الساكت، ومنهم الناشر لبذور السيئات، ونحن لا نهتم بهم ﴿إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴿٣﴾﴾ نحن نستمر على ما أردنا من الهدى لما ذكرنا ﴿وَلِنُبَيِّنَهُۥ﴾ أي الحق ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ وهم الصالحون السالمون. ﴿ٱتَّبِعْ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ واستمر دواماً على تبليغك وحسن حسبك ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ وحده لا شريك له ﴿وَأَعْرِضْ﴾ بكل وجه ﴿عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ ولا تعتد بأقاويلهم الباطلة وعاداتهم العاطلة، ولو شاء الله عدم إشراكهم وهدايتهم إلى التوحيد قسراً ما أشركوا، ولكن ما شاء ذلك لأن سر العبودية إنما يظهر في حسن تصرف العباد بتوجيه قلوبهم إلى داعي الرشاد فيؤمنوا وينقادوا ﴿وَمَا جَعَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾ أي رقيباً مهيمناً من جانبنا حتى نخاف من عدم أداء الواجب. ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ﴾ تقوم بأمرهم حتى تخاف من سوء العواقب على جسارتهم. إنما أنت رسول أمين، وما على الرسول إلا البلاغ المبين. ﴿وَلَا تَسُبُّوا۟ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ﴾ أي يدعوه المشركون ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ إنساناً أو أوثاناً، فإن من اعتقد شيئاً حصل في قلبه من ذلك عقدة لا تنحل، ولا يحصل من سبابه وشتائمه إلا الجراحة المؤدية إلى الوقاحة ﴿فَيَسُبُّوا۟ ٱللَّهَ عَدْوًۢا﴾ وتجاوزاً عن الحق والحد ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ منهم، إن ذلك شيء باطل عاطل ﴿كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ﴾ أي مثل هذا التزيين المبني على ما وقر في القلب زينا لكل أمةٍ عملهم من الخير والشر ويستمرون عليه إلى أن يموتوا ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ﴾ بالبعث بعد الموت ﴿فَيُنَبِّئُهُم﴾ الله ﴿بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ في الدنيا من الأعمال الحسنة أو السيئة المبنية على ما في قلوبهم من النية الحسنة أو السيئة.

﴿وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِن جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا ۚ قُلْ إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ ۖ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَآ إِذَا جَآءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٩﴾ وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١٠﴾﴾.

ثم ذكر الله تعالى بعض أحوال المشركين الفاسدة فقال: ﴿وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ﴾ أي أقسم المشركون بالله ﴿جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ﴾ أي أيماناً بالغة حدها من الاهتمام: ﴿لَئِن جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ﴾ من الله تعالى دليلاً على صدق محمد ﷺ في دعوى الرسالة ﴿لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا﴾ أي بتلك الآية قل يا رسولي ﴿إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ﴾ ولا تحدث ولا تحصل ولا تنزل إلا بأمره وإرادته ﴿وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَآ إِذَا جَآءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ معناه نحن نعلم

إذا أنزلنا الآيات المقترحة حسب اقتراحهم تعاندوا وأولوهم على غير الحق، ولا يؤمنون وما دام الأمر ذلك فلا تنزل الآيات إلا حسب إرادتنا وحكمتنا.

﴿وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَـٰرَهُمْ﴾ أي وما يشعركم أنا نقلب أفئدتهم عن إدراك الحق، ونُحوّل أبصارهم عن اجتلائه فلا يبصرونه، وذلك لأنا وجدناهم مستمرين على العناد والاستكبار فهم لا يؤمنون بالآيات المقترحة على فرض إنزالها ﴿كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ﴾ أي بالرسول أو بما نزل عليه وهو أكبر آية عالمية ﴿أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ أي عند ورودها بادي بدء في أول الزمان. ﴿وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَـٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ يعني ونتركهم في حالهم السيىء مِن الطّغيان حال كونهم يعمهون ويتحيرون لا تبقى عندهم بصيرة في أمورهم.

الجزء الثامن

﴿وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَىْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ ﴿١١١﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ﴾ جاء تحقيقاً لما عليه طبيعة أولئك المشركين المعاندين من الاستمرار على الكفر وعدم الاهتمام بقوارع الأحداث وزواجر الآيات فيقول ولو أننا أنزلنا إليهم الملائكة كما طلبوا إنزالها ﴿وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ بإحيائهم ثم شهادتهم بأن الإيمان بالله وبرسوله واجب ﴿وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَىْءٍ قُبُلًا﴾ أي لو حشرنا عليهم كل شيء جماعات في موقف واحد ﴿مَّا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوٓا۟﴾ ما صح لهم الإيمان ولا استقامَ لهم في أيّ حال من الأحوال ﴿إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ أي إلا في حال تعلق مشيئة الله بإيمانهم ﴿وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ﴾ أي ولكن أكثر الكافرين المشركين يجهلون عدم إيمانهم عند مجيء الآيات لجهلهم بأن الله لم يشأ إيمانهم.

قال صاحب روح المعاني: وتحقيق ذلك أنه قد حقق كثير من الراسخين إن ماهيات الممكنات المعلومة لله تعالى أزلاً معدومات متميزة في نفسها تميزاً ذاتياً غير مجعولة لما حقق من توقف العلم بها على ذلك التميز، وإنما المجعول صورها الوجودية الحادثة، وإن لها استعدادات ذاتية غير مجعولة تختلف اقتضاءاتها، فمنها ما يقتضي اختيار الإيمان والطاعة، ومنها ما يقتضي اختيار الكفر والمعصية والعلم الإلهي متعلق بها كاشف لها على ما هي عليه في أنفسها من اختلاف استعداداتها

التي هي من مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو، واختلاف مقتضيات تلك، فإذا تعلق العلم الإلهي بها على ما هي عليه في أنفسها من اختلاف استعدادتها حسب ما يقتضيه استعدادها من اختيار أحد الطرفين الممكنين أعني الإيمان والطاعة أو الكفر والمعصية تعلقت الإرادة الإلهية بهذا الذي اختاره العبد حال عدمه بمقتضى استعداده تفضلاً ورحمة، لا وجوباً لغناه الذاتي عن العالمين المصحح لصرف اختيار العبد إلى الطرف الآخر الممكن بالذات إن شاء، فيصير مراد العباد بعد تعلق الإرادة الإلهية مراداً لله تعالى. ومن هذا يظهر أن اختيارهم الأزلي بمقتضى استعدادهم متبوع للعلم المتبوع للإرادة مراعاة للحكمة تفضلاً، وأن اختيارهم فيما لا يزال تابع للإرادة الأزلية المتعلقة باختيارهم لما اختاروه، فهم مجبورون في ما لا يزال في عين اختيارهم، أي مساقون إلى أن يفعلوا ما يصدر عنهم باختيارهم لا بالإكراه والجبر، ولم يكونوا مجبورين في اختيارهم الأزلي لأنه سابق رتبة على العلم السابق على تعلق الإرادة. والجبرُ تابع للإرادة التابعة للعلم التابع للمعلوم الذي هو هنا اختيارهم الأزلي، فيمتنع أن يكون تابعاً لما هو متأخر عنه بمراتب، فمن وجد خيراً فليحمد الله تعالى؛ لأنه سبحانه متفضل بالإيجاد لما اختاروه لا يجب عليه مراعاة الحكمة، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه لأن إرادته جل شأنه لم تتعلق بما صدر منهم من الأفعال إلا لكونهم اختاروها أزلاً بمقتضى استعدادهم، فاختارها تعالى مراعاة للحكمة تفضلاً. والعباد كاسبون بالله تعالى إذ لا كسب إلا بقوة ولا قوة إلا بالله العلي العظيم. والله تعالى خالق أعمالهم بهم لأنه سبحانه أخبر بأنه خالق أعمالهم مع نسبة العمل إليهم المتبادر منها صدورها منهم باختيارهم. وذلك يقتضي أن المخلوق لله تعالى بالعبد عين مكسوب العبد بالله تعالى، ولا منافاة بين كون الأعمال مخلوقة لله تعالى، وبين كونها مكسوبة لهم بقدرتهم واختيارهم. وما شاع من الأشعري من أنه لا تأثير لقدرة العبد أصلاً، وإنما هي مقارنة للفعل، وهو بمحض قدرة الله تعالى فمما لا يكاد يقبل عند المحققين. وقدرة العبد عندهم مؤثرة بإذن الله تعالى لا استقلالاً كما تزعمه المعتزلة، ولا غير مؤثرة كما نسب إلى الأشعري، ولا هي منفية بالكلية، كما يقوله الجبرية. وهذا بحث مفروغ منه، وقد أشرنا إليه في أوائل التفسير، وليس غرضنا هنا سوى تحقيق أن عدم إيمان الكفار إنما هو لسوء استعدادهم الأزلي الغير المجعول المتبوع للعلم المتبوع للإرادة ليعلم منه ما في كلام الشهاب وغيره. وقد حصل ذلك بتوفيقه تعالى عند من تأمل وأنصف.

﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا ۚ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١١٢﴾ وَلِتَصْغَىٰٓ إِلَيْهِ أَفْـِٔدَةُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا۟ مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ ﴿١١٣﴾ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِى حَكَمًا وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَٰبَ مُفَصَّلًا ۚ وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿١١٤﴾ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ۖ لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١١٥﴾ وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿١١٦﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَن يَضِلُّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١١٧﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا﴾ الآية كلام مستأنف نزل لتسلية الرسول ﷺ مما أصابه من جانب مشركي قريش من الأقاويل والأفاعيل، فيقول الباري جل شأنه: ومثل ما جعلنا لك أعداء من قريش وغيرهم من الجهات الكثيرة جعلنا لكل نبي ممن تقدمك عدواً بل أعداء ﴿شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ﴾ أي المتمردة من النوعين عن الإيمان وكذلك من المؤمنين الفسقة الجهلة الذين يلفقون أكاذيب ينشرونها بين الناس، وجهة عداوتهم أنه ﴿يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ﴾ أي يلقى بالسرّ أو بالإشارة بعض إلى بعض ما يكون عيباً على الرسول الذي يعادونه، ويكون ما يوحيه إليه ﴿زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ﴾ أي القول الباطل المزين بالأكاذيب، وقوله: ﴿غُرُورًا﴾ مفعول له للفعل السابق، أي وإنما يوحي بعضهم إلى بعض ذلك غروراً واستكباراً واعتماداً على النفس بدون مستند واقعي ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ﴾ أي ما قدروا على ذلك الإيحاء لأنه تعالى قادر على كل ممكن فعلاً أو لا، وإنما أملي ذلك لهم ترفيعاً لدرجات الأنبياء والمرسلين وتمريناً لهم ولأتباعهم على مصايرة الأعداء ﴿فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾ إلى وقت المحاسبة والجزاء يوم الدين ﴿وَلِتَصْغَىٰٓ إِلَيْهِ أَفْـِٔدَةُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ على الوجه الصحيح الثابت وإنما يؤمنون بها على ما تلقوه ﴿وَلِيَرْضَوْهُ﴾ ويختاروا القوت للأرواح الخبيثة والقوة للنفوس الأمارة ﴿وَلِيَقْتَرِفُوا۟ مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ﴾ أي وليكتسبوا ما هم يكتسبونه من القبائح التي لا تليق إلا بهم.

﴿أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِى حَكَمًا وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَٰبَ مُفَصَّلًا﴾ الجملة

مستأنفة على إرادة القول والهمزة للإنكار. يعني قل لهم يا رسولي: هل أطلب حكماً يحكم بيني وبينكم غير الله؟ وهل أميل إلى زخارف القول من الشياطين وأترك حكم الله تعالى وهو الذي أنزل الكتاب إليكم مفصلاً فيه الأحكام ومميزاً فيه الحق عن الباطل؟ ﴿وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ﴾ السابق على كتابك وهم علماء اليهود والنصارى وأحبارهم ﴿يَعْلَمُونَ أَنَّهُۥ﴾ أي أن الكتاب المنزل إليكم ﴿مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ﴾ بالوجه ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ ومتلبساً به ولكنهم يعاندون ويتجاهلون ابتغاء مرضاة الهوى وأهله. ﴿فَلَا تَكُونَنَّ﴾ يا رسولي ﴿مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ﴾ المترددين في عملهم بذلك أو في أن القرآن منزل إليكم بالحق كنظائره والنهي تعريض بالناس الممترين الفاسدين، وإلا فسيد أهل اليقين من الواصلين إلى حق اليقين ولا يمكنه عدوله عن علم يلزم ذاته فإن علم الإنسان بنفسه ولوازمها الضرورية ضروري غير قابل للإنفكاك أبداً. ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾ أي كلامه وحجته على العالمين، وهي أن الدين عند الله الإسلام، وأن محمداً خاتم الأنبياء الكرام وأصحابه خير أمة أخرجت للرسل بمر الأيام، وأنه يأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون ﴿صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ أي حال كون ربك صادقاً في ما أتى به من الكلام وعادلاً في الأقضية والأحكام ﴿لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ﴾ ولا ماحي لها، ولا ناسخ لأحكامها الأساسية ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ﴾ لكل ما يتعلق به السمع ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ بكل ما يمكن أن يعلم ويخبر عنه. وهذا الذي نزل عليك وعَلمته هو الحق الثابت، ومن سلك طريقه اهتدى فلا تنحرف عنه ولا تسمع كلام الكفار المشركين وغيرهم ولا تطعهم ﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ﴾ وهم الكفار على اختلاف أهوائهم ﴿يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ لأنهم ليسوا أرباب بصيرة ويقين في أمورهم ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ يقولون ويعملون بالخرص والتخمين. ومن يسلك طريق الظن في الاعتقاد فهو ضال ومن يمشي على اليقين فهو مهتدٍ ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَن يَضِلُّ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ من أهل الخرص والظنون ﴿وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾.

﴿فَكُلُوا۟ مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ إِن كُنتُم بِـَٔايَٰتِهِۦ مُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾ وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا۟ مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا ٱضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَآئِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُعْتَدِينَ ﴿١١٩﴾ وَذَرُوا۟ ظَٰهِرَ ٱلْإِثْمِ وَبَاطِنَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْسِبُونَ ٱلْإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا۟

يَفْتَرُونَ ﴿١٢٠﴾ وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴿١٢١﴾ أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٢٢﴾.

قوله تعالى: ﴿فَكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾ عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: أتى اليهود النبي ﷺ فقالوا: يا محمد أنأكل ما نقتل ولا نأكل ما يقتل الله؟ فنزلت الآية رواه أبو داود والبزار والترمذي. وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾ عن ابن عباس قال: لما نزلت: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ﴾ أرسلت فارس إلى قريش أن خاصموا محمداً فقولوا له: ما تذبح أنت بيدك بسكين فهو حلال وما ذبح الله بشمشار من ذهب (يعني الميتة) فهو حرام؟ فأنزل الله تعالى: ﴿وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ﴾ قال ابن عباس: الشياطين فارس وأولياؤهم قريش. رواه الطبراني وابن جرير.

روي عن زيد بن أسلم قال: نزلت الآية أي ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا﴾ في عمر بن الخطاب وعمرو بن هشام وهو أبو جهل كانا ميتين في ضلالتهما فأحيا الله عمر بالإسلام، وأعزه، وأقر أبا جهل على ضلاله وموته، وذلك أن رسول الله دعا فقال: «**اللهم أعز الإسلام بعمر بن الخطاب أو بعمرو بن هشام**» فاستجاب الله له في عمر. رواه ابن المنذر وابن أبي حاتم.

قوله تعالى: ﴿فَكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ إِن كُنتُم بِآيَاتِهِ مُؤْمِنِينَ﴾ أمر مترتب على النهي عن اتباع المضلين. يعني أيها المؤمنون لا تتبعوا الكافرين، ولا تأكلوا مما لم يحبه الدين المبين، فكلوا مما ذكر اسم الله عليه لا ما ذكر اسم غيره تعالى عليه فقط، أو مع اسم الله جل جلاله؛ كأن يقول باسم الله واسم اللات ﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ﴾؟ أي بينه وأوضحه بقوله: ﴿قُل لَّا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَن يَكُونَ مَيْتَةً﴾ الآية من سورة الأنعام أيضاً. وليس التفصيل ما في قوله تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ﴾ الآية من سورة المائدة فإنها مدنية من آخر ما نزل فكيف يحال عليه ما ورد في مكة ﴿إِلَّا مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ وَإِنَّ كَثِيرًا﴾ من الكفار ﴿لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَائِهِم﴾ الناس بتحريم الحلال وتحليل الحرام بأهوائهم الزائفة وشهواتهم الباطلة ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾

مأخوذ من الوحي ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُعْتَدِينَ﴾ أي بالمتجاوزين على الحق إلى الباطل.

﴿وَذَرُوا۟ ظَٰهِرَ ٱلْإِثْمِ﴾ ما يعلن منه بين الناس ﴿وَبَاطِنَهُۥٓ﴾ أي ما يسر منه كالزنا والمفاسد الخفية، أو ظاهر الإثم أعمال الجوارح وباطنه ما في القلب من الاعتقادات الفاسدة والحسد والحقد والغضب وتمني ما ليس له وقصد الإضرار بالغير فيما كان للإنسان سيطرة عليه ودخل في حد التكليف ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْسِبُونَ ٱلْإِثْمَ﴾ أي يعملون المعاصي سراً أو علناً ﴿سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا۟ يَقْتَرِفُونَ﴾ أي يكتسبون أي إنهم يستحقون جزاءه على العدل من الله، وإن كان يجوز عفوه فضلاً منه تعالى ﴿وَلَا تَأْكُلُوا۟ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ﴾ معناه ولا تأكلوا من لحم حيوان لم يذكر اسم الله على ذبحه ﴿وَإِنَّهُۥ لَفِسْقٌ﴾ أي وإن ترك ذكر اسم الله تعالى تعمداً فسق وخروج من أدب الدين. وظاهر الآية حرمة أكل لحم حيوان لم يذكر اسم الله عليه سواء كأن ترك الذكر عمداً أو نسياناً، وإليه ذهب الإمام داود الظاهري، ولكن يبعد تعميم الترك من العمد أو النسيان قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَفِسْقٌ﴾ لأن ترك التسمية لا يكون فسقاً لأن الناسي غير مكلف ومذهب الإمام الأعظم حرمة الأكل عند ترك التسمية عمداً لا نسياناً. وكذلك مذهب الإمام مالك في بعض الروايات. وقال الشافعي: إن المقصود مما لم يذكر اسم الله عليه أنه ذكر اسم غيره عليه فترك التسمية عليه سهواً أو عمداً لا يحرم أكل لحمه. ومثله مالك في بعض الروايات. والدليل على ما رواه أبو داود وعبد بن حميد عن راشد بن سعد مرسلاً: «ذبيحة المسلم حلال ذكر اسم الله تعالى أو لم يذكر» ﴿وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ﴾ أي وإن إبليس وجنوده من شياطين الجن والإنس يوسوسون إلى أوليائهم وأصدقائهم الذين اتبعوهم من المشركين شُبهاً ضعيفة سخيفة في الموضوع ﴿لِيُجَٰدِلُوكُمْ﴾ بالباطل كما قالوا: إن الميتة قتلها الله، وَذبائحكم أنتم قتلتموها فكيف تحرم ذبيحة الله وتحل ذبائحكم؟! وتلك الشبه أوهام واهية لا تطيعوا المشركين فيها ﴿وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ﴾ فيها واستحللتم الميتة ﴿إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾ لبداهة أن ترك طاعة الرب لإطاعة غيره إشراك به تعالى. أعاذنا الله منه.

ثم أراد الله سبحانه تنفير المسلمين عن طاعة المشركين فقال: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ﴾ يعني أو من كان ضالاً فهديناه ﴿وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ﴾ أي وخلقنا لذلك الحي نوراً عظيماً يمشي به أي بسبب ذلك النور في الناس أي بينهم

﴿كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾؟ أي كمن صفته أنه في الظلمات المتراكمة بحيث لا يخرج منها ولا يقدر على التجاوز عنها. والجواب الصحيح: لا؛ فإن الضال لا يكون كالمهتدي، كما أن الميت لا يكون كالحي ﴿كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَٰفِرِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ أي كتزيين الأعمال الصالحة أمام المؤمن زين للكافرين وأمام أعينهم ما كانوا يعملون من السيئات من أكل الميتة وغيرها من المحرمات.

﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا فِى كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَٰبِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا۟ فِيهَا ۖ وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿١٢٣﴾ وَإِذَا جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ قَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ رُسُلُ ٱللَّهِ ۘ ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ ۗ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ صَغَارٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَمْكُرُونَ ﴿١٢٤﴾ فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢٥﴾ وَهَٰذَا صِرَٰطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٢٦﴾ ۞ لَهُمْ دَارُ ٱلسَّلَٰمِ عِندَ رَبِّهِمْ ۖ وَهُوَ وَلِيُّهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢٧﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا﴾ الآية اسم الإشارة استعملت هنا الإشارة إلى شيء معقول معلوم عند الرسول كالمشار إليه المحسوس، أي كما جعلنا في مكة أكابر من المجرمين ليمكروك فيها، جعلنا سابقاً وأجعل لاحقاً ﴿فِى كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَٰبِرَ مُجْرِمِيهَا﴾ الطغاة الهواة للأوهام والأهواء الباطلة ﴿لِيَمْكُرُوا۟ فِيهَا﴾ من يزعمون أنه حجر عثرة أمام إرادتهم ﴿وَمَا يَمْكُرُونَ﴾ في الحقيقة ﴿إِلَّا بِأَنفُسِهِمْ﴾ لأن وبال مكرهم وقتل أهل الحق وتشريدهم يعود عليهم إن عاجلاً أو آجلاً ﴿و﴾ لكن ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ بذلك شعوراً يزجرهم ويردعهم عما به يشتغلون.

﴿وَإِذَا جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ﴾ تدل على صدق الرسول وحقية ما جاء به ووجوب نصره وتأييده ﴿قَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ رُسُلُ ٱللَّهِ﴾ أي حتى يأتينا الوحي مثل ما أتى الرسول، ويتكلم جبريل معنا كما تكلم معه، فرد الله تعالى ذلك عليهم بقوله الكريم: ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ وأي نفسية لها قدسية وتناسب هذه الموهبة العالية وليس العلم بذلك من صفات الناس، بل الله أعلم بذلك بل هو

العالم لا غيره، والذين تمنوا ذلك من المجرمين أمام حكم الله، والذين يعقبون قولهم ذلك بأعمال بذيئة مخالفة للرسول من أفظع المجرمين و﴿سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُواْ صَغَارٌ﴾ وذل في الدنيا أو في الآخرة ﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾ حسب ما قدره وقرره في علمه ﴿و﴾ يصيبهم ﴿عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ فيهما ﴿بِمَا كَانُواْ يَمْكُرُونَ﴾ مع الرسول وكتابه وأتباعه المسلمين، ويا أيها الرسول الكريم لا تبتئس بما كانوا يمكرون ويكفرون ويعادونك فإن الله تعالى نظر إلى العباد وميز أهل الإطاعة والانقياد من أهل العداء والعناد فمنهم من قرر شرح صدره، ومنهم من قرر بسوء اختيار سوء أعماله وخسرانه في عاقبة أمره وهما فريقان متفارقان لا يتساويان ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ﴾ فيجعل في قلبه علماً وافياً بما يجب اتباعه ويتنور ما أمامه للتطبيقات الفعلية ويرى وراء ذلك لقاء بربه ووصولاً إلى جزائه ﴿وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ﴾ على حسب ما علم منه أنه يسيء التصرف النفسي ويعارض النداء القدسي ويتبع هواه كما يشاء ﴿يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ﴾ إزاء اعتناق الدين والتزام مبادئه ﴿ضَيِّقًا﴾ لا يسع خزن الإرشادات ﴿حَرَجًا﴾ متعباً إزاء التفكرات الدقيقة لنيل الحقائق ﴿كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ أي يصعد في الهواء بدون طائر يطير فيه ويصعد في الأثير العالي بدون قوة هائلة ينفذ بها فيه ﴿كَذَٰلِكَ﴾ وبمثل ذلك الجعل المذكور ﴿يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ﴾ من الخذلان عن الإيمان والدخول في الكفران ﴿عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ ولا يريدون أن يؤمنوا بما جاءهم من الرسول الأمين وما نزل عليهم من الكتاب المبين ﴿وَهَٰذَا﴾ القرآن العظيم الشأن وواسع البيان ﴿صِرَٰطُ رَبِّكَ﴾ طريقه الذي ارتضاه لسلوك السالكين وانحراف الهالكين ﴿مُسْتَقِيمًا﴾ معتدلاً ﴿قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ﴾ فيتفهمون دقائقها ويعلمون حقائقها ﴿لَهُمْ﴾ أي لهؤلاء المتذكرين ﴿دَارُ ٱلسَّلَٰمِ﴾ الجنة التي لا لغو فيها ولا أثام، وفيها كل ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين من فرح القلوب على نهج آمال الكرام وهي معدة لهم ﴿عِندَ رَبِّهِمْ﴾ ﴿وَهُوَ وَلِيُّهُم﴾ ومحبهم وناصرهم فيجازيهم ﴿بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾.

﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ قَدِ ٱسْتَكْثَرْتُم مِّنَ ٱلْإِنسِ ۖ وَقَالَ أَوْلِيَآؤُهُم مِّنَ ٱلْإِنسِ رَبَّنَا ٱسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَآ أَجَلَنَا ٱلَّذِىٓ أَجَّلْتَ لَنَا ۚ قَالَ ٱلنَّارُ مَثْوَىٰكُمْ خَٰلِدِينَ فِيهَآ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٢٨﴾ وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّى

﴿بَعْضَ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٢٩﴾ يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِى وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ۚ قَالُوا۟ شَهِدْنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَا ۖ وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَشَهِدُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَٰفِرِينَ ﴿١٣٠﴾ ذَٰلِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَٰفِلُونَ ﴿١٣١﴾ وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُوا۟ ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٣٢﴾ وَرَبُّكَ ٱلْغَنِىُّ ذُو ٱلرَّحْمَةِ ۖ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنۢ بَعْدِكُم مَّا يَشَآءُ كَمَآ أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ ءَاخَرِينَ ﴿١٣٣﴾ إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَءَاتٍ ۙ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿١٣٤﴾ قُلْ يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَٰمِلٌ ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِ ۖ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿١٣٥﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ﴾ منصوب على الظرفية، والعامل فيه اذكر. يعني اذكر يوم يحشر الله الثقلين فيه ﴿جَمِيعًا﴾ فيقول: ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ﴾ وجماعته ﴿قَدِ ٱسْتَكْثَرْتُم مِّنَ﴾ إغواء ﴿ٱلْإِنسِ﴾ وإضلالهم ﴿وَقَالَ﴾ عند ذلك ﴿أَوْلِيَآؤُهُم﴾ الذين أطاعوا الجن: ﴿رَبَّنَا ٱسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ﴾ وانتفع الإنس بالجن حيث دلوهم على الشهوات، وتمتع الجن بالإنس، حيث اتخذوهم قادة واتّبعوا أمرهم وقضينا حياتنا في هذه الأمور التافهة، ﴿وَبَلَغْنَآ أَجَلَنَا ٱلَّذِىٓ أَجَّلْتَ﴾ وعينته ﴿لَنَا﴾ وهو يوم القيامة، فنحن مُعترفون بأنا مُقترفون فـ﴿قَالَ﴾ الله تعالى في جواب قولهم: ﴿ٱلنَّارُ مَثْوَىٰكُمْ﴾ ومنزلكم ومحل إقامتكم لتعذيبكم فيها ﴿إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ﴾ من وقت نقلكم من النار إلى برد الزمهرير فأنتم تتقلبون فيها كما قررنا ﴿إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ﴾ في التعذيب بالنار أو بالزمهرير، و﴿عَلِيمٌ﴾ بأحوال الثقلين من القليل والكثير ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ الذي تعلمونه من أحوال الكافرين وأتباعهم الشياطين الإنس والجن لإغوائهم ﴿نُوَلِّى بَعْضَ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضًۢا﴾ آخر منهم وتلك التولية ﴿بِـ﴾ سبب ما كانوا يكسبون من الأعمال السيئة، فإن المسيء إذا تندم ورجع تاب الله عليه وغفر له وسامحه، وأما إذا استمر في غيه ازداد ساعة فساعة ويوماً فيوماً إثماً وإثماً آخر وثالثاً.

﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ﴾ أي من جملتكم، ولو أتى من الإنس فقط، فإن المشهور أن لا رسول يرسل من الجن أو من القبيلين على أن يراد برسول الجن الرسول من طرف رسول الإنس إذ لا مانع من أن يؤمن من الجن

أشخاص فينتخب منهم شخص ويرسل من جانب الرسول الإنسي إلى تعليم باقي الجن كما أرسل جمع من قبل المسيح عليه السلام إلى أنطاكية. ويذكرهم الله بالرسالة فيقول: ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَٰبَ ٱلْقَرْيَةِ إِذْ جَآءَهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿١٣﴾﴾ مع أنهم رسل عيسى لا رسل الله بالذات ﴿يَقُصُّونَ﴾ أي أولئك الرسل ﴿عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِى وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا﴾؟ أي يوم الحشر واللقاء والحساب ﴿قَالُوا۟﴾ أي الفريقان: ﴿شَهِدْنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَا﴾ بإيتاء الرسل وتبليغ الكل، ثم يقول الباري عز اسمه ﴿وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَشَهِدُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَٰفِرِينَ ﴿١٣٠﴾ ذَٰلِكَ﴾ أي إتيان الرسل ثابت لـ﴿أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَٰفِلُونَ ﴿١٣١﴾ وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُوا۟﴾ أي ولكل فرد من الجن والإنس درجات مما عملوا أي مراتب من سيئات ما عملوا صالحة أو سيئة، وعلى كل درجة من الخير درجات من الرضوان، وعلى درجة من الشر دركات من النيران، فكما أن كل مؤمن يدخل الجنة والتفاوت بحسب ميزان الحسنات كذلك الكافرون متساوون في استحقاق النار ولكن يتفاوتون في شدة العذاب على حسب درجة سوء المعاصي ﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾ في الليل والنهار وفي البراري والبحار، وهنا ينكشف معنى قوله ﷺ: «**رأيت عمرو ابن لحي ويجرُّ أمعاءه في النار**» أو كما قال.

﴿وَرَبُّكَ ٱلْغَنِىُّ﴾ المطلق عن كل ما سواه وسائر الأغنياء إذا استغنوا عن بعض الأشياء فهم في حاجة إلى غيره، وأما الباري تعالى فغني بالإطلاق، ومع أنه غني مطلق عما سواه فهو ﴿ذُو ٱلرَّحْمَةِ﴾ على العباد، وجهات رحمته لا تحصى، ولولا رحمته الواسعة لأباد أهل الكفر والعناد من العباد، وما دام كذلك فهو ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ﴾ ويستأصلكم بحيث لا يبقى منكم أثر ﴿وَيَسْتَخْلِفْ مِنۢ بَعْدِكُم مَّا يَشَآءُ﴾ من الخلق ﴿كَمَآ أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ ءَاخَرِينَ﴾ لم يكونوا على صفاتكم كمن نزل مؤمناً من سفينة نوح عليه السلام ﴿إِنَّ مَا تُوعَدُونَ﴾ بعد الموت من الأهوال والبعث والحشر والحساب ﴿لَءَاتٍ﴾ متحقق لا محالة ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ﴾ لنا عما نريده فإذا علمت أن الله تعالى هكذا فـ﴿قُلْ﴾ يا رسولي: ﴿يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟﴾ ما تشاؤون ﴿عَلَىٰ﴾ مقدار ﴿مَكَانَتِكُمْ﴾ من الإيذاء والإلقاءات والدس والافتراء ﴿إِنِّى عَٰمِلٌ﴾ على مكانتي بما خولني ربّي، وسائر على منهج الرسل من إرشاد العباد وتوجيههم إلى الله ووحدته وصفاته الكاملة ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِ﴾ أي

من يكون له عاقبة حسنة وختام خير من بقاء في دار الدنيا ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ والمشركون هم الظالمون. وفي الآية الشريفة تهديد للكفار والمشركين الأشرار، وقد حقق الله تعالى جزء مما هددهم به، وهو أنه أخزاهم وأبادهم ولم يخل لهم كرامة وشأناً في الدنيا وسوف ينالون جزاءهم في دار الآخرة على ما قرره الله رب العالمين.

﴿وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلْحَرْثِ وَٱلْأَنْعَٰمِ نَصِيبًا فَقَالُوا۟ هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَٰذَا لِشُرَكَآئِنَا ۖ فَمَا كَانَ لِشُرَكَآئِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَآئِهِمْ ۗ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿١٣٦﴾ وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَٰدِهِمْ شُرَكَآؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُوا۟ عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ ۖ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١٣٧﴾ وَقَالُوا۟ هَٰذِهِۦٓ أَنْعَٰمٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لَّا يَطْعَمُهَآ إِلَّا مَن نَّشَآءُ بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعَٰمٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَٰمٌ لَّا يَذْكُرُونَ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا ٱفْتِرَآءً عَلَيْهِ ۚ سَيَجْزِيهِم بِمَا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿١٣٨﴾ وَقَالُوا۟ مَا فِى بُطُونِ هَٰذِهِ ٱلْأَنْعَٰمِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِنَا ۖ وَإِن يَكُن مَّيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَآءُ ۚ سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٣٩﴾ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ قَتَلُوٓا۟ أَوْلَٰدَهُمْ سَفَهًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا۟ مَا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ ٱفْتِرَآءً عَلَى ٱللَّهِ ۚ قَدْ ضَلُّوا۟ وَمَا كَانُوا۟ مُهْتَدِينَ ﴿١٤٠﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلْحَرْثِ وَٱلْأَنْعَٰمِ نَصِيبًا﴾ شروع في بيان بعض آخر من الأحوال الفاسدة التي افتعلها المشركون، وهو أنهم كانوا إذا حصلوا على واردات مالية من الحرث والنسل أي من الزراعات والنتاج أخذوا منهما سهمين: سهماً لله يصرف للضيفان وسائر وجوه الخير، وسهماً للأوثان وما تحتاج إليه! وإذا دعت حاجة إلى صرف السهمين صرفوا من سهم الله على سدنة الأصنام. وأما السهم المختص بالأوثان فلا يصرفونه إلا إليهم. والباري تعالى ينقدهم على هذا العمل الدنيء فقال: ﴿وَجَعَلُوا۟﴾ أي مشركو العرب ﴿لِلَّهِ﴾ تعالى ﴿مِمَّا ذَرَأَ﴾. الله وأظهره ﴿مِنَ ٱلْحَرْثِ﴾ كفوائد الزراعة ﴿وَٱلْأَنْعَٰمِ﴾ كالفصلان والطليان ﴿نَصِيبًا﴾ أي قسماً معيناً ﴿فَقَالُوا۟ هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ﴾ ونصيباً آخر ﴿و﴾

قالوا: ﴿هَٰذَا لِشُرَكَآئِنَا﴾ يصرف في مصالحها ﴿فَمَا كَانَ﴾ معيناً ﴿فَلَا يَصِلُ إِلَى ٱللَّهِ وَمَا كَانَ﴾ معيناً ﴿لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَآئِهِمْ﴾ وذلك تحكم وتعسف بلا داع ﴿سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ فيما فعلوا من صرف سهم الله لمصالح الأصنام، وعدم صرف سهم الأصنام إلا للأصنام.

والحاصل: إنه بالرغم من أنه كان أصل عملهم فاسداً بدون مبرر وداع كان صرف نصيب الله إلى غيره من الأصنام دون العكس فساداً آخر. و﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ العمل الفاسد الذي نشأ منهم عقيدة فاسدة وهي أنه ﴿زَيَّنَ﴾ الباري خلقاً وإبداعاً على أساس العلم بسوء اختيارهم في المستقبل ﴿لِكَثِيرٍ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَٰدِهِمْ شُرَكَآؤُهُمْ﴾ أي إن الجن أو السدنة القائمين على الأصنام زينوا لهم قتل الإناث من أولادهم فيدفنون البنات المسكينات وهن أحياء، وكانوا في ذلك فريقين أحدهما يقول: إن الملائكة بنات الله سبحانه؛ وقيل: خشية العار والإنفاق. وهو المروي عن جماعة. والآية الكريمة في الإسراء تصرح بالأول وإنما زينوا ذلك في قلوبهم ﴿لِيُرْدُوهُمْ﴾ أي ليهلكوهم بالإغواء ﴿وَلِيَلْبِسُوا۟ عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ﴾ أي وليخلطوا عليهم ما كانوا عليه من دين إسماعيل فإن دينه كان صافياً عن هذه الخرافات، والشياطين من الإنس ألقوا إليهم هذه الخرافات باسم الدين حتي يتغير عليهم ما كان فيه من التكليفات المشروعة، وإن كان أصل الدين لم يبق كدين معمول به ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا فَعَلُوهُ﴾ أي ما فعل المشركون هذه التلبيسات وما ألقوها إليهم ﴿فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾ أي فاتركهم وافتراءاتهم الواردة على قلوبهم من الشياطين.

﴿وَقَالُوا۟ هَٰذِهِۦٓ أَنْعَٰمٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ﴾ أي وقالوا في شأن ذلك النصيب الذي أفرزوه لآلهتهم في أنعام وحرث أي زرع وأنعام محجورة لله ﴿لَّا يَطْعَمُهَآ إِلَّا مَن نَّشَآءُ﴾ وكان قولهم ذلك مربوطاً ﴿بِزَعْمِهِمْ﴾ لا بدليل مشروع مقبول ﴿وَأَنْعَٰمٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا﴾ أي وقالوا: هذه أنعام حرمت ظهورها؛ فلا تركب ولا تحمل ﴿وَأَنْعَٰمٌ لَّا يَذْكُرُونَ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا﴾ أي وكانت من بين أنعامهم أنعام لا يذكر اسم الله عليها أي لا بد أن تذبح تقرباً إلى الأصنام ﴿ٱفْتِرَآءً عَلَى ٱللَّهِ﴾ ويفعلون بإسنادهم له إلى أمر الله به افتراء على الله، سيجزيهم الله بما كانوا يفترون ﴿و﴾ من جهة أخرى ﴿قَالُوا۟ مَا فِى بُطُونِ هَٰذِهِ ٱلْأَنْعَٰمِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا﴾ أي لأولادنا الذكور ﴿وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِنَا﴾ أي على من هي من صنف أزواجنا أي الإناث وهن بناتهم ﴿وَإِن يَكُن

مَّيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَآءُ﴾ وأما إذا كانت ميتة أي ولد ميتاً فهم أي الجميع من الأولاد والبنات فيه شركاء ﴿سَيَجْزِيهِمْ﴾ الله ﴿وَصْفَهُمْ﴾ أي بيانهم المذكور السابق افتراء على الله ﴿إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ فيجزي كل عامل حسب عمله. ثم ذكر الباري عاقبة أمرهم فقال: ﴿قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ قَتَلُوٓاْ أَوْلَٰدَهُمْ سَفَهًۢا﴾ وخفة عقل ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُواْ مَا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ﴾ من فوائد الأنعام ﴿ٱفْتِرَآءً عَلَى ٱللَّهِ قَدْ ضَلُّواْ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ﴾.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ جَنَّٰتٍ مَّعْرُوشَٰتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَٰتٍ وَٱلنَّخْلَ وَٱلزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُۥ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُتَشَٰبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ۚ كُلُواْ مِن ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَءَاتُواْ حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ ۖ وَلَا تُسْرِفُوٓاْ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿١٤١﴾ وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ حَمُولَةً وَفَرْشًا ۚ كُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿١٤٢﴾ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ ۖ مِّنَ ٱلضَّأْنِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْمَعْزِ ٱثْنَيْنِ ۗ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۖ نَبِّـُٔونِى بِعِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٤٣﴾ وَمِنَ ٱلْإِبِلِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ ٱثْنَيْنِ ۗ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۖ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ وَصَّىٰكُمُ ٱللَّهُ بِهَٰذَا ۚ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا لِّيُضِلَّ ٱلنَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٤﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ﴾ الآية عود إلى ما هو المقصود الأصلي من إقامة الدلائل على تقرير التوحيد، فيقول ﴿و﴾ الله ﴿هُوَ﴾ القادر ﴿ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ﴾ وخلق لكم ﴿جَنَّٰتٍ مَّعْرُوشَٰتٍ﴾ يعني شجرات مثمرة محمولة على العريش وهو عيدان تصنع كهيئة السقف ويوضع الكرم أو شبيهه عليه ﴿وَغَيْرَ مَعْرُوشَٰتٍ﴾ أي وأنشأ لكم جنات غير معروشات وهي الملقيات على وجه الأرض كالكروم السطحية وأشباهها ﴿وَٱلنَّخْلَ وَٱلزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُۥ﴾ أي ثمره الذي يؤكل منه اختلافاً بالحجم واللون واللذة ﴿وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُتَشَٰبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ﴾ من الأصناف المتشابهة في الصورة وغيرها ﴿كُلُواْ مِن ثَمَرِهِۦٓ﴾ أي يقال من جانب مالك الملك حسب التشريع: كلوا يا عبادي منْ ثَمَره ﴿إِذَآ أَثْمَرَ وَءَاتُواْ حَقَّهُۥ﴾ الذي أوجبه الله عليكم ﴿يَوْمَ حَصَادِهِۦ﴾ إن كان المراد بالحق حق الله أي الزكاة فالواجب العشر فيما وصل

بلا كلفة، ونصف العشر فيما حصل بها، وإن كان حقاً آخر واجباً قبل الزكاة فالمراد المقدار الذي تقرر في ذلك الوقت، وإن كان عبارة عن أجرة البستاني والعامل فيه فهو ظاهر ﴿وَلَا تُسْرِفُوٓاْ﴾ في إيتاء الحق ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ وعن أبي العالية قال: كانوا لا يعطون يوم الحصاد شيئاً سوى الزكاة ثم تسارفوا (أي تبارَوا بالإسراف) فنزلت هذه الآية. رواه ابن جرير وابن أبي حاتم. وعن ابن جرير قال: نزلت في ثابت بن قيس بن شماس، جذّ نخلاً فقال: لا يأتيني اليوم أحد إلا أطعمته، فأطعم حتى أمسى وليس عنده تمرة. فأنزل الله تعالى: ﴿وَلَا تُسْرِفُوٓاْ﴾ رواه ابن جرير وابن أبي حاتم.

﴿وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ حَمُولَةً وَفَرْشًا﴾ أي وهو الذي أنشأ لكم من الأنعام حمولة أي ما يحمل عليه الأحمال، وفرشاً أي ما يفرش منها للذبح قائلاً لكم: ﴿كُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ﴾ أي كلوا بعض ما رزقكم الله وهو الحلال؛ لأن الله تعالى لا يأمر بأكل الحرام ﴿وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ أي لا تتبعوا طرقه الإغوائية ﴿إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ ظاهر العداوة ﴿ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ﴾ بدل من حمولة وفرشاً، والزوج يقال لكل واحد من القرينين من الذكر والأنثى كما يقال لمجموعهما. والمراد هنا الأول ﴿مِّنَ ٱلضَّأْنِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْمَعْزِ ٱثْنَيْنِ قُلْ﴾ للمشركين تبكيتاً لهم: ﴿ءَٱلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ﴾ الله تعالى ﴿أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ﴾؟أي أنثى ذينك الصنفين ﴿أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ﴾ ذكراً كان أو أنثى ﴿نَبِّـُٔونِى بِعِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٤٣﴾ وَمِنَ ٱلْإِبِلِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ ٱثْنَيْنِ قُلْ ءَٱلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ﴾ الله تعالى ﴿أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ وَصَّىٰكُمُ ٱللَّهُ بِهَٰذَا﴾؟﴾ أي بهذا التحريم ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾؟ فنسب إليه تعالى تحريم ما لم يحرّم. والمراد به على ما روي عن ابن عباس رضي الله عنهما عمرو بن لحي ابن قمئة الذي بحر البحائر وسيّب السوائب وتعمد الكذب على الله تعالى، وقيل كبراؤهم المقررون لذلك ﴿لِّيُضِلَّ ٱلنَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

﴿قُل لَّآ أَجِدُ فِى مَآ أُوحِىَ إِلَىَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُۥ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٥﴾ وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِى ظُفُرٍ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ وَٱلْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَآ إِلَّا مَا

حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَآ أَوِ ٱلْحَوَايَآ أَوْ مَا ٱخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ۚ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِبَغْيِهِمْ ۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿١٤٦﴾ فَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَٰسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُۥ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٤٧﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿قُل لَّآ أَجِدُ فِى مَآ أُوحِىَ إِلَىَّ مُحَرَّمًا﴾ أمر لرسول الله بعد إلزام المشركين بأن يبين لهم ما حرم عليهم لا أَجدُ في ما أوحي إلي محرماً ﴿عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ﴾ أي طاعم كان من ذكر أو أنثى ﴿إِلَّآ أَن يَكُونَ﴾ ذلك الشيء المحرم ﴿مَيْتَةً﴾ والمراد بها ما لم يذبح ذبحاً شرعياً، فيتناول المنخنقة والموقوذة والنطيحة وما أكل السبع ولم يصل إليه صاحبه في حال الحياة المستقرة حتى يذبحها ﴿أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا﴾ أي مصبوباً سائلاً كالدم في العروق، وخرج به الدم الجامد كالكبد والطحال ﴿أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُۥ رِجْسٌ﴾ أي قذر أو خبيث مخبَّث ﴿أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ﴾ والمراد به الذبيح على اسم الأصنام فإنما سمي ذلك فسقاً لتوغله في الفسق، وأصل الإهلال رفع الصوت ﴿فَمَنِ ٱضْطُرَّ﴾ أي أصابته الضرورة الداعية إلى تناول شيء من ذلك ﴿غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ﴾ أي حال كون ذلك الرجل أو المرأة غير باغ على نصيب مضطر آخر ولا متجاوز مقداراً يكفيه ﴿فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

واستشكلت هذه الآية الشريفة بأنها حصرت المحرمات من المطعومات في أربعة: الميتة، والدم المسفوح، ولحم الخنزير، والفسق الذي أهل لغير الله به. ولا شك أنها أكثر من ذلك! وأجيب عنه بأن الآية مكية، وكلمة أوحي فعل ماض مجهول فالآية الشريفة تدل على التوقيت، ومعناها قل: لا أجد فيما أوحي إلي إلى هذا الوقت محرّماً غير هذه الأربعة، وذلك لا ينافي ورود تحريم أشياء أخرى بعد ذلك الوقت، كما في آية سورة المائدة النازلة بالمدينة المنورة، وهي: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحْمُ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ وَٱلْمُنْخَنِقَةُ وَٱلْمَوْقُوذَةُ وَٱلْمُتَرَدِّيَةُ وَٱلنَّطِيحَةُ وَمَآ أَكَلَ ٱلسَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ وَأَن تَسْتَقْسِمُوا۟ بِٱلْأَزْلَٰمِ ۚ ذَٰلِكُمْ فِسْقٌ﴾ الآية على أنه وسع الله تعالى في المطعومات بقوله الكريم في سورة الأنعام: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ۚ﴾؟ وفي سورة الأعراف: ﴿وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ﴾ الآية وما يقال من أنهما ليسا مضبوطين إن أراد أنهما ليسا مضبوطين بضبط تحديدي لا يقبل الزيادة والنقص فمسلم، ولكن الدين

يسر، ولم يقرر الأمور الاقتصادية على ذلك المنهج، وإن أراد أن الطيبات والخبائث لم يكونا مضبوطين عند أوساط الناس من العرب الموجودين في عهد نزول الآية بالحرمين فهو غير مسلم، فإن كل عاقل ذي طبع سليم يعلم أن الحيوانات المستقذرة والسامة كالحيايا والعقارب والسلحفيات والفئران والخنافس وما شاكلها، وكل حيوان يعيش على أكل الخبائث، وكل سبع ذي ناب متلطخ بدماء الحيوانات الضعاف، وكل طير ذي مخلب يصيد العصافير الضعاف الأخرى، وكل ما ذكر تحريمه في آيات المائدة والأنعام من الخبائث المستقذرة.. من الخبائث ولا تؤكل إلا في الاضطرار، وما عداها من الطيبات تؤكل بلا شبهة. وأما ما كان فيه شبه من الجانبين أي يعد من الطيبات عند بعض ومن الخبائث عند آخر فمن طاب هو عنده أكله، ومن خبث ذلك عنده تركه، ومن لم يكن له رأي فيه فالأصل فيه الإباحة فلم يبق اشتباه شرعي، لأن بعض المحرمات منصوصة وبعضها متروكة ومحالة على طبائع أوساط الناس المعتدلين، إذا لم يلحقه المجتهد بأحد الجانبين من الطيب والخبيث بالقياس، وأما إذا ألحقه المجتهد بأحدهما قياساً فلا تبقى فيه شبهة لمن اتبع ذلك الإمام. والأصل فيما لم يظهر فيه محرّم ولا مبيح الإباحة، لأن الأصل في الأشياء الحلّ والبراءة.

﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِى ظُفُرٍ﴾ أي كل ما له أصبع كالإبل والسباع والطيور، وقيل كل ذي مخلب وحافر وسمي الحافر ظفراً مجازاً. ﴿وَمِنَ ٱلْبَقَرِ وَٱلْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ﴾ أي على الذين هادوا ﴿شُحُومَهُمَآ﴾ الثروب وشحوم الكِلى، أي لا لحومهما فإنها باقية على الحل والثروب شحوم على الأمعاء والكرش ﴿إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَآ﴾ أي ما علق بظهرهما، ﴿أَوِ ٱلْحَوَايَآ﴾ فإنه عطف على المستثنى وليس بشحم بل هو بمعنى المباعِر، فيكون الاستثناء منقطعاً. وإذا اعتبرت مضافاً مقدراً أي شحوم الحوايا كان الاستثناء متصلاً ﴿أَوْ مَا ٱخْتَلَطَ بِعَظْمٍ﴾ وهو شحم الإلية لاتصالها بالعصعص. ﴿ذَٰلِكَ﴾ التحريم كان جزاء لهم ﴿جَزَيْنَٰهُم بِبَغْيِهِمْ﴾ وعدوانهم على الأنبياء بقتلهم ﴿وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ﴾ في ما أخبرنا به عن الماضي أو غيره. آمنا بذلك. ومن أصدق من الله قيلاً؟.

﴿فَإِن كَذَّبُوكَ﴾ أي كذبك اليهود لقربها، أو المشركون ﴿فَقُل﴾ لهم: ﴿رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَٰسِعَةٍ﴾ لا يعاقبكم باستعجال ﴿و﴾ لكنه ﴿لَا يُرَدُّ بَأْسُهُۥ عَنِ

﴿ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ وسينتقم منكم على إنكاركم ما وقع منه تعالى من تحريم بعض الطيبات عليكم.

﴿سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَىْءٍ ۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا۟ بَأْسَنَا ۗ قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ ۖ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴿١٤٨﴾ قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ ۖ فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٤٩﴾ قُلْ هَلُمَّ شُهَدَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَ هَٰذَا ۖ فَإِن شَهِدُوا۟ فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ وَهُم بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿١٥٠﴾﴾.

قوله: ﴿سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟﴾ الآية بيان لنوع آخر من أباطيلهم؛ فقال تعالى: ﴿سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ﴾ عدم إشراكنا ﴿مَآ أَشْرَكْنَا﴾ نحن ﴿وَلَآ﴾ أشرك ﴿ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا﴾ من شيء وما دام كان تحريمنا لما حرمنا مما شاء الله فلا عتب علينا، فرد الله تعالى عليهم بقوله ﴿كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ أي مثل ما كذب هؤلاء المشركون الموجودون في وقت الرسالة كذب المشركون الذين من قبلهم في الأزمنة الغابرة، وكانوا يستدلون على تبريرهم في التكذيب بمثل استدلالهم من قبل، ومقصودهم الأخير من ذلك تكذيب الرسول في دعوى الرسالة من الله، وإن التوحيد مقصود لله، وإن الإشراك مذموم مردود عنده والدليل على ظاهره قياس استثنائي تقريره: لو شاء الله عدم إشراكنا ما أشركنا لأن مقابلة مشيئة الله ممتنعة، لكنا أشركنا، فينتج أن الله شاء إشراكنا! فإذا جعلت هذه النتيجة صغرى لدليل يكون تقريره مع الكبرى: كل إشراك منا حصل بمشيئة الله تعالى، وكل أمر حاصل بمشيئته لا عتب على العباد فيه، فإشراكنا لا عتب فيه علينا ويدل قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ ذَاقُوا۟ بَأْسَنَا﴾ أي ذاقوا عذاباً من عندنا مقرراً لهم على أن قولهم لو شاء الله ما أشركنا لم يكن عن إيمان بالله ونفاذ قدرته حسب إرادته، وإنما قالوه عن كفر بالله وتملص للخروج من ربقة التكاليف والأحكام، وعن اتباع للظنون والأوهام التي دعتهم إلى الاعتقاد بأن كل ما شاء الله فمباشرته حلال، وليس كذلك لأنه وإن كان الممكن الموجود لا يخرج عن إرادته وقدرته لكن المرضي منه ما لم يكن فيه دخل إلا له تعالى، أو كان فيه دخل لكسب العبادِ المكلّفين على الطريقة

المباحة المشروعة. وأما ما باشره على أساس سوء الاختيار وصرفه إلى ما لا ينبغي فهو وإن كان خلقه من الله تعالى وبإرادته وقدرته، لكن ذلك تابع لعلمه بأن ذلك الإنسان الفاسد يكفر بالحق ويجحد ويعاند، أو ينحرف عن إطاعة الله في تشريعه ويقصده بسوء القصد على سبيل البغي والعدوان والعصيان. وذلك موجب لسخطه تعالى وعدم رضائه.

وحاصل الجواب: إن الدليل الذي استدللتم به مسلم بتمام أجزائه وإن أعمالكم السلبية الإيجابية كلها بمشيئته تعالى وإرادته، ولكن ليس كل مراد منه تعالى مرضياً، بل منه المرضي وهو ما وافق منهج الدين، ومنه ما هو غير مرضي كما خالف الدين والحق القويم. وعلاوة على ذلك فإنهم ليسوا عالمين بتوجه مشيئة الله إلى إشراكهم قبل الإشراك، ولكن بعد أن أشركوا جاؤوا يبررون إشراكهم بما قالوا، ولذلك قال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ﴾ بتعلق مشيئة الله وإرادته بإشراككم، وعلى ذلك العلم أشركتم ﴿فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ﴾؟ فتظهروه لنا إظهاراً وافياً؟ والجواب: لا. وأيد ذلك الرد بقوله الرادع لهم وهو: ﴿إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ﴾ الباطل الذي لا يغني من الحق شيئاً ﴿وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ﴾.

﴿قُلْ﴾ يا رسولي ما دام كلامكم مبنياً على الاستناد إلى مشيئة الله تعالى ﴿فَلِلَّهِ﴾ خاصة ﴿ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ﴾ أقصى درجات القوة لا لكم، لأنه ينظر إلى مشيئته حسب تعلق علمه الأزلي بأفراد العباد المجهزين بالحواس، والعقل، صرف الإرادة، وعلمه بأن أي واحد منهم يختار الأمر الحسن الموافق للحق ورضائه تعالى، وأي واحد يختار خلافه. وأنتم تنظرون إلى مشيئته بعد تحقق أعمالكم السيئة، وتبررون بتعلق المشيئة بها صدورها عنكم، فعلى اعتبار الباري لمشيئته واعتبار نفاذها في ما تتعلق به[1] ﴿فَلَوْ شَآءَ﴾ الله هدايتكم جميعاً ﴿لَهَدَىٰكُمْ﴾ إذ لو شاء هدايتكم قسراً وتنفيذاً منه ما منعها شيء وهداكم إلى ما اختاره من الدين ولم يستثن أحداً بل هداكم ﴿أَجْمَعِينَ﴾ لكنه لم يشأ ذلك إذ لا يبقى بعد الإرادة والتنفيذ القسري معنى لعبادة العابدين، وإنما يكون المعنى لصرف العبد اختياره إلى فعل ما

(١) في روح المعاني: وقال شيخ مشايخنا الكوراني: (الحجة البالغة) إشارة إلى أن العلم تابع للمعلوم وإن إرادة الله تعالى متعلقة بإظهار ما اقتضاه استعداد المعلوم في نفسه مراعاة للحكمة جوداً ورحمة لا وجوباً انتهى. ومآل ذلك مع ما ذكرناه واحد.

أمر الله به ومخالفته لنفسه وهواها، وإلى ترك ما نهى الله عنه وتحمل أذى مخالفة النفس ومتمناها[١]. ﴿قُلْ﴾ يا رسولي ﴿هَلُمَّ﴾ أي أحضروا ﴿شُهَدَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَ هَٰذَا﴾ الشيء الحرام ﴿فَإِن﴾ حضروا و﴿شَهِدُوا﴾ أن الله حرّمه ﴿فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْ﴾ فإنها شهادة زور ومن أهل الفسوق والفجور لا أهل العدالة والحضور. ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ كعبدة الأوثان ﴿و﴾ الذين ﴿هُم بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ أي يجعلون له عديلاً مستحقاً للعبادة. تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً. وسبحان ربك رب العزة عما يصفون.

ومما يجب أن يعلم أن هناك مقدمات قطعية لا مجال للنزاع فيها، وهي أن الكائنات ممكنة وحادثة وأن لها خالقاً واجب الوجود متصفاً بالكمال ومنزهاً عن النقص، وأنه عالم بجميع ما خلقه ويخلقه بذواتها وصفاتها الاستعدادية وغيرها. وأن الموجودات المخلوقة منها الجمادات والناميات والحيوانات، ومن الحيوان نوع الإنسان وهو مكلف ومسؤول بانفاق العقلاء، وأن أولئك العقلاء كما لهم الحواس الخمس يحسون بها ما يختص بواحد منها كذلك لهم العقول المدركة

---

(١) قال في روح المعاني: وقال الكوراني المراد لكنه لم يشأ إذ لم يعلم أن لكم هداية يقتضيها استعدادكم، بل المعلوم له عدم هدايتكم، وهو مقتضى استعدادكم الأزلي لغير المجعول. وهذا تحقيق الحق ولا ينافي ما في صدر الآية لما علمت من مرادهم به. وفائدة إرسال الرسل على القول بالاستعداد تحريك الدواعي للفعل والترك باختيار المكلف الناشىء من ذلك الاستعداد وقطع اعتذار الظالمين. وقد أشرنا إلى ذلك من قبل فتذكر.

وقال ابن المنير وجهاً آخر في توجيه الآية، وهو أن الرد عليهم إنما كان لاعتقادهم أنهم مسلوبو الاختيار والقدرة، وأن إشراكهم إنما صدر عنهم اضطراراً، وزعموا أنهم يقيمون الحجة على الله ورسوله عليه الصلاة والسلام بذلك فرد الله عليهم قولهم في دعواهم عدم الاختيار لأنفسهم وشبههم بمن اغتر قبلهم بهذا الخيال، فكذب الرسل، وأشرك بالله عز وجل، واعتمد على أنه إنما يفعل ذلك بمشيئة الله تعالى، ورام إفحام الرسل بهذه الشبهة.

ثم بين سبحانه أنهم لا حجة لهم في ذلك وأن الحجة البالغة له جل وعلا لا لهم. ثم أوضح سبحانه أن كل واقع واقع بمشيئته وأنه لم يشأ منهم إلا ما صدر عنهم، وإنه تعالى لو شاء منهم الهداية لاهتدوا أجمعون.

والمقصود من ذلك أن يتمحض وجه الرد عليهم، ويتخلص عقيدة نفوذ المشيئة وعموم تعلقها بكل كائن عن الرد، وينصرف الرد إلى دعواهم سلب الاختيار لأنفسهم وإن إقامتهم الحجة بذلك خاصة، وإذا تدبرت الآية وجدت صدرها رافعاً بصدور الجبرية وعجزها معجزاً للمعتزلة، إن الأول مثبت أن للعبد اختياراً وقدرة على وجه يقطع حجته وعذره في المخالفة والعصيان، والثاني مثبت نفوذ المشيئة لله تعالى في العبد وأن جميع أفعاله على وفق المشيئة الإلهية، وبذلك تقوم الحجة البالغة لأهل السنة على المعتزلة. والحمد لله رب العالمين.

للنافع والضار في أمور الدنيا وأمور الدين. وأنه بحسب الظاهر عنده قدرة وإرادة وعلم بحيث يتمكن من تصور الأحكام والتصديق بها وتوجيه القدرة إليها بعد تعلق إرادته بها، ولا نزاع أيضاً في أن الكلام في أن علاقة العبد به هل أنه خلقه بلا دخل لله تعالى عن ذلك. أو أن الله خلقه بلا دخل للعبد فيه مطلقاً، أو أن الطرفين لهما علاقة به بالتأثير فيه أو في وصفه، أو أن علاقة الله تعالى به بالخلق والتأثير وعلاقة العبد فيه بالكسب؟ والحق الحقيق بالقبول الثابت بالدليل هو هذا الأخير أي أن الله تعالى خلق ذلك الفعل لكن عند توجه قدرة العبد وإرادته إليه، وإن توجيه القدرة التابعة للإرادة هو المسمى بالكسب. فذلك العمل مخلوق لله تعالى يخرجه من العدم إلى الوجود فهو الخالق ومكسوب للعبد لأنه حصل بصرف العبد قدرته وإرادته إليه، فالعبد كاسب ولا بأس بكون الفعل بين الله وعباده أي بخلقه وكسبهم. وعلى كل فالباري سبحانه وتعالى كان ولم يزل ولا يزال عالماً بالعبد وبأنه يفعل ذلك ويترك ذاك لأن عدم علمه به نقص لا يناسب الباري تعالى وهذا العلم ليس كوسيلة إجبار للعبد في فعله بل هو مختار والله عالم به وباختياره أزلاً وأبداً. ولكن شرار العباد من الكفار والعصاة يبررون صدور السيئات منهم بأنها تعلق علم الله وقدرته ولا يمكننا أن نتركه، ولكن هذه شبهة فاسدة؛ لأن علمه تعالى ليس من المجبر للعباد، وإنما علمه كمرآة فيها صور الأشياء وهي حاكية لها لا حاكمة عليها؛ فالناس مسؤولون عن أعمالهم إن خيراً فجزاؤهم خير وإن شراً فجزاؤهم شرّ نعم لو كان الله أراد أن يعمل جميع الناس الخيرات كان قادراً على هدايتهم لها لكنه تعالى لا يجبر أحداً على شيء وإلا لم يبق معنى لعبودية العباد فإن العبد يجب أن يطيع بالاختيار لا بالاجبار هذا والله أعلم.

﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٢﴾ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا

﴿ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿قُلْ تَعَالَوْا﴾ بعدما أظهر الله لهم بطلان ما اعتقدوه من الإشراك وبطلان ما ادعوا تحريمه، أمر رسوله ﷺ أن يدعوهم وينصحهم علَى الأسلوب المرغوب ويبين لهم ما يستحق الاجتناب من العقائد الفاسدة ومن الأعمال العاطلة الكاسدة فقال له ﷺ: ﴿قُلْ تَعَالَوْا﴾ أيها المشركون ﴿أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِۦ شَيْـًٔا﴾ أي من أن لا تشركوا به شيئاً أي إشراكاً ضعيفاً أو قوياً، أو شريكاً واحداً فصاعداً ﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَـٰنًا﴾ أي وأن تحسنوا بالوالدين إحساناً تاماً كاملاً لا يشوبه شيء من الإساءة ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓا أَوْلَـٰدَكُم﴾ ولا تقتلوا أولادكم ﴿مِّنْ إِمْلَـٰقٍ﴾ أي من أجل خوف فقركم ﴿نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ﴾ جميعاً ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلْفَوَٰحِشَ﴾ من أصناف الزنا ما ظهر منها وما بطن، مما يعمل علانية أو سراً باتخاذ الأخدان أو بالاستيلاء على النسوان ﴿وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ﴾ قتلها بالإسلام أو بالمعاهدة ﴿إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ كأن تقتل بالكفر بعد الإيمان، والزنا بعد الإحصان، وقتل النفس المعصومة، كما في الحديث الشريف. ﴿ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ خطورةَ وصيّة الله للعباد.

﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ﴾ أي لا تتعرضوا له بوجه من الوجوه ﴿إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ إلا بالهيئة التي هي أحسن الهيئات كأن تقربوا منه لحفظة وتنميته واستثماره ﴿حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ﴾ أي حتى يبلغ رشيداً قال تعالى: ﴿فَإِنْ ءَانَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَٱدْفَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ﴾ والأشدّ: على وزن أفعل بفتح الهمزة وسكون الفاء وضم العين جمعٌ لا واحِد له عند الفراء، أو مفرد كآنك، ولم يأت على هذا الوزن في المفرد غيرهما. وقيل: هو جمع شِدّة كأنعم في جمع نعمة، أو شُدٍّ بضم الشين كوُدّ وآوُدّ، أو شَدّ بفتحها... وأيّا كان فهو من الشدة أي القوة. ﴿وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ﴾ أي أتمّوها للمشتري أو الآخذ بحق إتماماً ملتبساً بالعدل بحيث لا يتضرر المعطي والمعطى له ﴿لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ أي إلا بما في وسعها وطاقتها ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ﴾ قولاً في حكومة أو شهادة أو استشارة أو نحوها ﴿فَٱعْدِلُوا۟﴾ فيه، وقولوا الحق ﴿وَلَوْ كَانَ﴾ المقول له أو عليه ﴿ذَا قُرْبَىٰ﴾ أي صاحب قرابة لكم ﴿وَبِعَهْدِ ٱللَّهِ أَوْفُوا۟﴾ أي ما عهد إليكم من الأمور المعدودة أو أي عهد شرعي أو ما عاهدتم الله عليه من الأيمان والنذور. ﴿ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ ما يندرج فيه وتعملون بمقتضاه. ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ﴾ قرىء إنَّ بكسر الهمزة

والتشديد على الاستيناف وأن بالفتح والتخفيف، وأنَّ بالفتح والتشديد. أي ولأن هذا الذي ذكر في السورة كلها، أو في الآيتين السابقتين صراطي وطريقي حال كونه مستقيماً لا عوج فيه فاتبعوه، واسلكوا فيه حتى لا تهلكوا ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا ٱلسُّبُلَ﴾ أي الأديان المختلفة ما عدا دين الإسلام، أو الطرق التابعة للهوى المختلقة من الناس من أنواع البدع المكفرة وغيرها، والأفكار المبتكرة الداعية إلى غير طريق الإسلام ﴿فَتَفَرَّقَ﴾ أي فتتفرق بكم تلك السبل عن سبيل الله، ومعنى تفرق بكم تفرقكم وتزيلكم عنه. والمضارع من محذوف التاء في باب التفعل، ومنصوب لوقوعه جواباً للنهي. ﴿ذَٰلِكُمْ﴾ الاتباع لسبيل الله بالاعتصام والتمسك بالعروة الوثقى وترك اتباع السبل المختلفة ﴿وَصَّىٰكُم بِهِۦ﴾ الله ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ عقاب الله تعالى وأخذه إن أخذه أليم شديد.

﴿ثُمَّ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ تَمَامًا عَلَى ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٤﴾ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٥٥﴾ أَن تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أُنزِلَ ٱلْكِتَٰبُ عَلَىٰ طَآئِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمْ لَغَٰفِلِينَ ﴿١٥٦﴾ أَوْ تَقُولُوا۟ لَوْ أَنَّآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْكِتَٰبُ لَكُنَّآ أَهْدَىٰ مِنْهُمْ ۚ فَقَدْ جَآءَكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ ۚ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا ۗ سَنَجْزِى ٱلَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ ءَايَٰتِنَا سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْدِفُونَ ﴿١٥٧﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ﴾ تقرير للعمل بالوصية المذكورة سابقاً، وتنبيه على أنّ هذه الوصية المودعة إياكم ليست مختصة بكم، بل هي سنة الله في عباده المرسلين لأمّتهم وأتباعهم ألا ترون أنّا آتينا موسى الكتاب أي التوراة ﴿تَمَامًا﴾ أي إتماماً للكرامة والنعمة عليه و﴿عَلَى﴾ الإنسان ﴿ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ﴾ القيام به من أمّته ﴿وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ﴾ ومفصلاً لكل حكم اعتقادي أو عملي مما يحتاج إليه في الدين ﴿وَهُدًى﴾ وإرشاداً ﴿وَرَحْمَةً﴾ بالمكلفين ﴿لَّعَلَّهُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ﴾ لعلهم يصلون بنور التقوى إلى الإيمان الكامل بالبعث بعد الموت، وبلقاء ربهم المدبر لأمورهم في الدنيا والدين ﴿وَهَٰذَا﴾ القرآن العظيم ﴿كِتَٰبٌ﴾ كريم ﴿أَنزَلْنَٰهُ﴾ بواسطة جبرائيل الأمين إليك ﴿مُبَارَكٌ﴾ كثير البركة من خير الدنيا والآخرة ﴿فَٱتَّبِعُوهُ﴾ في الأحكام الإيجابية والسلبية ﴿وَٱتَّقُوا۟﴾ مخالفة ما فيه ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾.

﴿أَن تَقُولُوٓاْ﴾ كراهة أن تقولوا أيها الناس الذين أرسل إليهم رسولنا محمد ﷺ ﴿إِنَّمَآ أُنزِلَ ٱلْكِتَٰبُ﴾ من الله تعالى ﴿عَلَىٰ طَآئِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا﴾ وهم اليهود والنصارى ﴿وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمْ لَغَٰفِلِينَ﴾ والحق إنا كنا غافلين عن دراستهم، وما علمنا أحكامهما، وما استفدنا منهما شيئاً ﴿أَوْ تَقُولُواْ لَوْ أَنَّآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْكِتَٰبُ﴾ كما أنزل عليهم ﴿لَكُنَّآ أَهْدَىٰ﴾ وأرشد ﴿مِنْهُمْ﴾ فقد ﴿جَآءَكُم﴾ قطعاً لمعذرتكم وإزالة لغطاء غفلتكم ﴿بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ أي كتاب آياته بيّنة وحجة جليلة واضحة، وأنزل من ربكم الذي خلقكم ﴿وَهُدًى وَرَحْمَةٌ﴾ فمن أظلم ﴿مِّمَّن كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا﴾؟ يعني ومن الذي هو أكثر ظلماً على نفسه ممن كذب بآيات الله وأعرض عنها ﴿سَنَجْزِى ٱلَّذِينَ يَصْدِفُونَ﴾ أي يعرضون ﴿عَنْ ءَايَٰتِنَا سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ﴾ أي بالعذاب السيىء الشديد ﴿بِمَا كَانُواْ يَصْدِفُونَ﴾ أي بسبب ما كانوا يستمرون على الإعراض عن آياتنا.

﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِىَ بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ ۗ يَوْمَ يَأْتِى بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا ۗ قُلِ ٱنتَظِرُوٓاْ إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴿١٥٨﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىْءٍ ۚ إِنَّمَآ أَمْرُهُمْ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ ﴿١٥٩﴾ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٦٠﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ﴾ جملة أو جُمَل مستأنفة مسوقة لبيان أن المشركين حصلت لهم عقدة نفسية لا تنحل بشيء من الآيات سواء الآيات المقترحة منهم أو غيرها. وهل للاستفهام الإنكاري عند الجمهور. أي لا حق لهم في أن ينتظروا تلك الأمور لعدم انتفاعهم بها. ومعنى ظاهر الآية الشريفة: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ﴾ أي ينتظر أولئك المشركون ﴿إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ لقبض أرواحهم ﴿أَوْ يَأْتِىَ رَبُّكَ﴾ يوم القيامة في ظلل الغمام حسبما أخبر ﴿أَوْ يَأْتِىَ بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ﴾ مما ترشدهم إلى الحق ﴿يَوْمَ يَأْتِى بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ﴾ كطلوع الشمس من مغربها ﴿لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا﴾ في ذلك اليوم حال كونها ﴿لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ﴾ لأنها وقت لم يعتبر الإيمان فيه لكونه ناشئاً من خوف الأمر الجاري لا من خوف ذات الباري ﴿أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا﴾ عطف على آمنت، وأو للترديد الخلوي؛ لأنه يجوز استفادة المؤمن من لإيمان وكسب الخير إذا اجتمعا، ويمتنع استفادته خيراً إذا لم يكن له إيمان ولا

كسب خير فتقدير الآية: لا ينفع نفساً إيمانها المجرد عن العمل إذا لم تؤمن قبل ذلك اليوم، ولا إيمانُها وكسبُها الخير إذا لم تؤمن ولم تكسب الخير قبل ذلك.

والحاصل: إن الإيمان المجرد عن العمل، وإن كان ينفع الإنسان، لكن لا ينفعه في ذلك اليوم إذا لم يتحقق قبله لأنه وقت اليأس، ولا ينفع فيه الإيمان وحده أو مع العمل. وأما قبل ذلك اليوم فإنّه إذا آمنت إيماناً وافياً، ولم تكسب خيراً، أو آمنت وكسبت خيراً، فهو المستفيد الناجح، لكن النجاح من اجتماع الأمرين نجاح ظاهر، وأما من آمَنَ بدون العمل فنجاحُهُ ضئيل، وأما من كسب الخير بدون الإيمان أو لم يكسب الإيمان ولا الخير فلا خير فيه ومصيره إلى النار وبئس المصير.

﴿قُلِ﴾ يا رسولي بعد تبليغ الرسالة ﴿ٱنتَظِرُوٓاْ﴾ ما تنتظرونه من إتيان أحد تلك الأمور ﴿إِنَّا مُنتَظِرُونَ﴾ لذلك اليوم، وحينئذ نحن المالكون وأنتم الهالكون ولله عاقبة الأمور. وكان الكلام هنا مع المشركين وظهر مصيرهم، ثم بين الله سبحانه حكم اليهود والنصارى فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعًا﴾ من اليهود والنصارى وكل فرقة أخذت نوعاً من العقائد والأحكام وصارت متميزة عن الأخرى بحيث تُعارض بعضها بعضاً، كما أخرج أبو داود والترمذي وصححه، وابن ماجه وابن حبان وصححه، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «**افترقت اليهود على إحدى وسبعين فرقه، كلهم في الهاوية إلا واحدة، وافترقت النصارى على اثنتين وسبعين فرقة كلهم في الهاوية إلا واحدة، وستفترق أمتي على ثلاث وسبعين فرقة كلهم في الهاوية إلا واحدة**» ثم استثناء الواحدة من فرق كل من أهل الكتابين إنما هو بالنظر إلى العصر الماضي قبل النسخ، وأما بعده فالكل في الهاوية. وقوله: ﴿لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ﴾ أي لست بالنسبة إليهم وملحوظاً منهم في شيء من الفرق، أولست من السؤال عنهم والبحث عن تفرقهم، أو من عقابهم في شيء تلك أمة قد خلت.

وأما إخباره ﷺ عن افتراق أمته إلى ثلاث وسبعين فهو مما أخبره به ربه الذي أوحى إليه الكتاب وهو حق اليقين. وأما تعيين الفرقة الواحدة المستثناة فواضح عند من له إنصاف؛ لأنه ﷺ بينها في قوله: «**وهم الذين على ما أنا عليه وأصحابي**» والفرقة المتمسكة بكتاب الله وسنته السنية، وبما هو عليه وأصحابه، كما في نص الحديث الشريف واضح لائح. واعتبار الكل في النار إلا فرقة المقصود به الاستحقاق للنار من حيث الاعتقاد، وإلا فالمستحق للنار من جهة الأعمال كثير من

كل فرقة إلا قليلاً من أهل التقوى جعلنا الله تعالى بفضله من المتقين. وبعد أن قال: إنك لست منهم في شيء قال تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُمْ إِلَى ٱللَّهِ﴾ أي هو وحده يتولى أمورهم ويدبرها حسب حكمته كما قال ﴿ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿١٥٩﴾ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ﴾ أي بالخصلة الواحدة من الخصال الحسنة والطاعة المقبولة أصلاً أو فرعاً إيماناً أو عملاً ﴿فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾ فضلاً من الله. وتقدير الجزاء المساوي للحسنة وتضعيفها إلى عشرة من الأمثال موكول إلى علم البارىء المتعال. ﴿وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا﴾ والمماثلة موكولة إلى علمه وحكمته أيضاً. وجملة ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ أساس للإيمان لجزاء الباري للعباد فإنه هو العليم بالأحوال والعقائد والأعمال والاستمرار عليها، أو التحوّل في المآل ولا مقياس لذلك إلا عند رب العالمين.

﴿قُلْ إِنَّنِى هَدَىٰنِى رَبِّىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٦١﴾ قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾ قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِى رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَىْءٍ ۚ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿١٦٤﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٦٥﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّنِى هَدَىٰنِى﴾ الآية أمر الله تعالى رسوله الكريم أن يبين ما هو عليه من الدين الحق الذي هو الإسلام فقال له ﴿قُلْ إِنَّنِى﴾ لا شك ﴿هَدَىٰنِى رَبِّىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ لا عوج فيه ولا اختلال حال كونه ﴿دِينًا قِيَمًا﴾ ديناً ذا قيام بذاته، أعني ملّة إبراهيم، أي اعتقاده في وجوب وجود الله ووحدته واتصافه بالكمال المطلق وأنه خالق كل شيء وهو على كل شيء وكيل ﴿حَنِيفًا﴾ مائلاً عن الباطل إلى الحق ﴿وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ في يوم من الأيام. وعندما بلغ سن الشعور والنور تنور ما أمامه فتفكر في ملكوت السموات والأرض حتى هداه إلى حضرة قدسه. ﴿قُلْ﴾ يا رسولي: ﴿إِنَّ صَلَاتِى﴾ التي أصليها ﴿وَنُسُكِى﴾ وعبادتي كلها حجها وعمرتها، وصيامي وقيامي، وسائر طاعاتي ﴿وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى﴾ وحياتي ومماتي كل ذلك ﴿لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ لا نصيب لي فيها إلا أن الله جعلني كاسباً لها وأقوم بها.

﴿لَا شَرِيكَ لَهُۥ﴾ في تلك العبادات وغيرها، فهي له لا لغيره، بل لا شريك له ولا مثيل لذاته وصفاته وأفعاله، ولا مشابه ﴿وَبِذَٰلِكَ﴾ القول الذي أعلنته ﴿أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ في هذا الدين القويم الذي اختاره الله تعالى لي ولأمتي إلى يوم القيامة.

﴿قُلْ﴾ في استنكار ما هم عليه من الإشراك ﴿أَغَيْرَ ٱللَّهِ﴾ تعالى ﴿أَبْغِى﴾ وأطلب ﴿رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَىْءٍ﴾؟ وعادل في جميع أحكامه، ﴿و﴾ قرر أنه ﴿لَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ﴾ خطيئة من الخطايا ﴿إِلَّا عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ﴾ أي لا تحمل ﴿وَازِرَةٌ﴾ أي نفس آثمة ﴿وِزْرَ﴾ نفس ﴿أُخْرَىٰ﴾ بل لكل نفس ما كسبت وعليها ما اكتسبت ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ ببيان الحق لأهله والباطل لأهله ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ﴾ أي يخلف بعضكم بعضاً ﴿وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ﴾ في الأعراض والأوصاف الممتازة المميزة للهويات ﴿دَرَجَٰتٍ﴾ لا يعلمها إلا الله ﴿لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ﴾ أي ليعاملكم معاملة المختبر في ما أمركم بفعله أو نهاكم عنه ﴿إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ﴾ إذا أراد أن يعاقب ﴿وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ غفر الله لنا ورحمنا برحمته الواسعة بفضله وكرمه إنه أكرم الأكرمين وأرحم الراحمين.

فرغت من كتابة تفسير سورة الأنعام قبيل العصر من اليوم الخامس والعشرين من جمادى الأولى سنة ألف وأربعمائة وأربع من هجرة الرسول ﷺ، المصادف السادس والعشرين من الشهر الثاني من سنة ألف وتسعمائة وأربع وثمانين ميلادية. وأنا المؤلف الخادم عبد الكريم الكردي الشهرزوري. غفر الله له ولوالديه ولسائر المسلمين.

❀ ❀ ❀

سورة الأعراف

مكية إلا من آية (١٦٣) إلى آية (١٧٠) فمدنية، وآياتها (٢٠٦) نزلت بعد سورة (ص)

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿الٓمٓصٓ ﴿١﴾ كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُن فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ۗ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾ وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا فَجَآءَهَا بَأْسُنَا بَيَٰتًا أَوْ هُمْ قَآئِلُونَ ﴿٤﴾ فَمَا كَانَ دَعْوَىٰهُمْ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَآ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٥﴾ فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٦﴾ فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ ۖ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ ﴿٧﴾ وَٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ ۚ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٨﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُم بِمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَظْلِمُونَ ﴿٩﴾﴾.

قوله: ﴿الٓمٓصٓ﴾ فسره المفسرون على تأويلات كثيرة. منها: أنه بمعنى المُصَوِّرِ، ومنها أنها بمعنى أنا الله أَعْلَمُ وأُفَصِّلُ. ومنها أنه ونظائره أسماءٌ للسّور إلى غير ذلك...

وأقول: إن هذه كلها تخمينات وظنون لا تُغْنِي عَن الحق شيئاً، والحق أنها رموزٌ بين الله تعالى ورسولهِ ﷺ، وليس إلى معرفتها سبيل إلا بالتوقيف منه عليه الصلاة والسلام.

﴿كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ أي هذا المقروء كتاب يهدي إلى الصواب أنزل إليك مَعَ الملك الأمين على الوحي والتنزيل جبرائيل، وليس للاكتساب سبيل إليه، وإنما هو موهبةٌ ربانية قدسية مستوعبة لسعادة الدارين يدعُو المكلفين إلى الشرف الخالد والخلق الماجد، ويبعد عن القلوب ظلمات الأوهام، ويوجهها إلى الله الواحد العلام، ويمنع الرذائل والدنايا، ويُوسّع دائرةَ الفضائل على البرايا، وَيَنْشر العقائدَ

السليمة والأحكام العملية المستقيمة. وكتاب كذلك يَتعَبُ صاحبُهُ بنشره وتأييدِهِ ونَصْره، وَيزدَحِم الجُهلاء والطُّغاة على التشكيك في أمره. ﴿فَلَا يَكُن فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ﴾ وضيق ﴿مِن﴾ تلقّيه ونشر ﴿ـه﴾ فإنه نزل مع التوفيق ولا يكن في قلبك أذىً من إيذاء الكافرين لك ومعارضتهم لدعوتك، فإنه جرت سنة الله بذلك على التحقيق، فَإنه أنزل إليك ﴿لِتُنذِرَ بِهِۦ﴾ وما على الرسول إلّا البلاغ المبين ﴿و﴾ أرسل إليك لتكون ﴿ذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي للذين يُشارِفونَ الإيمانَ أو سُجلت أَساميهم في علمه الأزلي باستعدادهم الزكي الجلي، وإذا أنزل ذكرى لهم فقل لهم: ﴿اتَّبِعُوا مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ﴾ أيّها المؤمنون أو أنزِلَ كدعوة عامة للأنام، فقل لهم: اتبعوا ما أُنزل إليكم مِن ربكم فمن آمن به فهو السعيد الأمين، ومن كفر به فعليه ما عليه يَومَ الدين ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا﴾ أيها المكلّفون ﴿مِن دُونِهِۦٓ﴾ أي من دون ذاته الواحد الأحد ﴿أَوْلِيَآءَ﴾ مُزَيفة ضالّة مُضِلة ﴿قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ أنها لا قائمةَ لها في مقام الكرامة، وأن عبادتها ناشئة عن الجهل والتقليد الخالي عن الحق وظاهرة من اللآمة.

وكما أن سنة الله جرت بمعاندة الكفار لما نزل من الكتب السماوية، بل ولكل دعوة تخالف النفس وهواها كذلك جرت بإهلاكهم عندما طغوا وبغوا وخرجوا عن الحدود الاحتمالية كما قال تعالى: ﴿وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا﴾ دمرناها وأبدْنا ما فيها من الطغاة والبغاة ﴿فَجَآءَهَا بَأْسُنَا﴾ أي عذابنا عليهم ﴿بَيَٰتًا﴾ أي حال كونهم بائتين داخلين في الليل نائمين ﴿أَوْ هُمْ قَآئِلُونَ﴾ أو جاءها بأسنا وهم قائلون داخلون في نوم القيلولة. والمقصود إن عذابنا باغتهم في أروح أوقاتهم وأفرغها وهو وقت المنام بالليل أو المنام المعروف بالقيلولة قبل الزوال. والفاء في قوله تعالى: ﴿فَجَآءَهَا﴾ للتعقيب الذكري، وإلا فالتدمير والإهلاك كشيء واحد في زمان واحد بلا تعاقب زمني ﴿فَمَا كَانَ دَعْوَىٰهُمْ﴾ أي دعاؤهم واستغاثتهم ﴿إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَآ﴾ أي زمان نزول البأس عليهم ﴿إِلَّآ أَن قَالُوٓا إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾ أي إلا قولهم واعترافهم بظلمهم على أنفسهم وعلى الناس حين لا ينفعهم الندم والاستغاثة قطعاً وفوت المعصومين من الحيوانات والصبيان والمجانين بالبأس الوارد تابع لإرادة إهلاك الظالمين، فإن إرادة إهلاك الجوهر مقارن لإرادة إفناء الأعراض وإرادة إفناء الملزوم إرادة إفناء اللازم. وليس كل إفناء ناتجاً عن الغضب والسخط الناشيء عن الجريمة، فإنه تعالى مالك الملك ومِلك الملوك يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد.

﴿فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ﴾ يعني ولا نكتفي بإهلاك أولئك الكافرين بعذاب

الدنيا بل والله ﴿لَنَسْئَلَنَّ﴾ يوم القيامة الكفار ﴿ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ﴾ الرسل حتى نعذبهم بالسؤال عذاب الهوان والحقارة، وبعد افتضاحهم وعجزهم عن الجواب الشافي نأمر بجرهم إلى جهنم وعذابهم عذاباً معمماً لأحوالهم وأوقاتهم، ولا ينتهي بل يستمر أبداً. ﴿وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ عما أجيبوا حتى يكون جوابهم زيادة في عذاب الكافرين ﴿فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم﴾ أي على المرسلين المسؤولين بعد إحالتهم العلم إلينا قصة أعمالهم السيئة ونخبرهم بها إخباراً ملتبساً ﴿بِعِلْمٍ﴾ منا على تفاصيلها ﴿وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ﴾ عنهم حين قصدوا أعمالهم، ولا وقت مباشرتهم لها، فما غرب عن علمنا شيء منها ﴿وَٱلْوَزْنُ﴾ أي وزن الأعمال ﴿يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ﴾ لا خلاف فيه ﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ﴾ أي موازين حسناته ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٨﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ﴾ في الخيرات ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُم﴾ بإضاعة فطرتهم السليمة وفكرتهم المستقيمة ﴿بِمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَظْلِمُونَ﴾ فإعراضهم عن أحكام الله، وتكذيبهم بالآيات، وبإضاعتهم للفطرة والفكرة.. كل ذلك صار من أسباب شقائهم الأبدي والعياذ بالله. ودرجات التدرج إلى تلك الغاية الفاسدة أوّلاً إهمالُ النصائح، ثم الأعمال الفاسدة، ثم الاستمرار في الغي، ثم المعاندة والمعارضة للحق، ثم الموتُ على الكفر والعياذ بالله.

﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّٰكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ ۗ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿١٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّٰكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ ترغيب للمشركين في قبول دعوة النبي ﷺ بتذكير النعم الواصلة منها تعالى إليهم، فيقول قل لَهُم: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّٰكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ وجعلنا لكم في الأرض قراراً وتمكناً، وأقدرناكم على التصرف فيها، ﴿وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ﴾ أي ما تعيشون به من المطاعم والمشارب. أو أقدرناكم على مادة من النقود تتوصلون بها إلى ذلك، ومع ذلك فأنتم ﴿قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ أي تشكرون نعم الله تعالى في أوقات قليلة بالنسبة إلى تمكنكم في البلاد وقدرتكم على التصرف فيها.

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِـَٔادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿١١﴾ قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ ۖ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿١٢﴾ قَالَ فَٱهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا

فَٱخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴿١٣﴾ قَالَ أَنظِرْنِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤﴾ قَالَ إِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿١٥﴾ قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ ۖ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ ﴿١٧﴾ قَالَ ٱخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا ۖ لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٨﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ﴾ معناه: ولقد خلقنا أصلكم آدم، ثم صورناه ثم قلنا للملائكة: اسجدوا لآدم فجعل خلق آدم وتصويره كخلق المخاطبين وتصويرهم لأنه أصلُهم. وعليه فتكون كلمة ﴿ثُمَّ﴾ للتراخي في الزمان على معناها الوضعي الحقيقي، ويجوز أن يراد بالآية الشريفة خلق الأناس المخاطبين في عصر النزول وتصويرهم. وتعتبر كلمة ثم للتراخي الذكري، أي خلقناكم وصورناكم كما خلقنا سابقاً أباكم آدم وصوَّرناه. ﴿ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ﴾ سجود الاحترام والتشريف، وكان فيهم إبليس في صورة الملك ومغموراً بينهم، واستفيد انسحاب الأمر بالسجود عليه وعلى الملائكة فكأنه واحد منهم تقديراً، فصح الاستثناء المتصل في قوله: ﴿فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ﴾ لأن دخول المستثنى في المستثنى منه قد يكون تحقيقياً وقد يكون تقديرياً، وعلى فرض عدم دخوله فيهم اعتباراً يكون الاستثناء منقطعاً. وقد وقع ذلك في مواضع من القرآن الكريم. ﴿لَّمْ يَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ﴾ قال الله تعالى له: ﴿مَا مَنَعَكَ﴾ يا إبليس ﴿أَلَّا تَسْجُدَ﴾ أي من أن تسجد له، أو ما الذي منعك من السجود ورغبك في أن لا تسجد له؟ فكلمة (لا) على الأول زائدة وعلى الثاني صامدة. قوله تعالى: ﴿إِذْ أَمَرْتُكَ﴾ نص في توجيه الأمر بالسجود إليه مع الملائكة إما بدلالة ظاهر العبارة من الله، أو بالقرينة المصاحبة للأمر الوارد، أو بأمر خاص ورد عليه علاوة على ما يستفاد من أمر الملائكة. ﴿قَالَ﴾ إبليس في جوابه تعالى وبيان المانع: ﴿أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ﴾ المانع من السجود له هو فضل عنصري على عنصره حيث ﴿خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ﴾ وهي عنصر لطيف علوي ونيّر قويّ التأثير ﴿وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ﴾ وهو عنصر كثيف سفلي تحت الأقدام، والفاضل لا يسجد للمفضول. أي وأمرك بهذا العمل الذي يخالف ظواهر العادات غير مناسب ولا يُطاعُ. ولم يدر أنّه قد يكون في العنصر المفضول فوائد لا توجد في الفاضل وعلاوة عليه فالرب حكيم ولا يأمر بشيء إلا وفيه حكمة تفوق عقول العاقلين. ولما ظهر فيه التكبر والتمرد المردود ﴿قَالَ﴾ تعالى: ﴿فَٱهْبِطْ مِنْهَا﴾ أي فانزل من

الجنة يا إبليس ﴿فَمَا يَكُونُ لَكَ﴾ أي لا ينبغي لك ﴿أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا﴾ أي في الجنة فإنها ليست دار الكبرياء والعصيان، وإنما هي دار العبودية والرضوان. ﴿فَٱخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ﴾ الأذلاّء لا مِن الكابرين الأجلاّء. ﴿قَالَ﴾ إبليس ما دام أمرتني بالهُبوط من العلو إلى السفل، وأخْرجتَني من دارِ الكرامة على رَفض السجود لذلك المخلوق ﴿أَنظِرْنِى﴾ وأمْهلني للانتقام من ذريته ﴿إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ أي إلى آخر أيام التكليف حتى أَتَمكَنَ من إغوائهم وأخذ ثأري منهم ﴿قَالَ﴾ الله تعالى له: ﴿إِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ﴾ إلى ذلك اليوم ﴿قَالَ﴾ إبليس: ﴿فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِى﴾ أي فبسبب إغوائك لي أي خذْلِك لي وعَدَمِ إفاضة اللطف والتوفيق عَلي حتى أسْجُدَ، وجَرى مني ما جرى، وسمعت ما أسمع من الأمر بالهبوط والخروج، ووقعت فيما أرى ﴿لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ أي على صراطك، وأقطع عليهم السبيلَ إليك بكل ما في إمكاني ﴿ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم﴾ بالإغواء والتلبيس والتدليس ﴿مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ﴾ بالمغريات التي أمامهم مدة من الحياة من الشهوات التي زينت للناس على كثرة أصنافها ﴿وَمِنْ خَلْفِهِمْ﴾ وبتدارك ما فاتهم من خلفهم ﴿وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ﴾ وبما لذ وطاب لهم من المشتهيات المحرمة التي في متناول أيديهم يمنة ويسرة، أو عن جهة النظر إلى أقرانهم المجاورين لهم يميناً وشمالاً المتنافسين معه في تحصيل الكماليات من المال والمنال ﴿وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ﴾ عند ذلك ﴿شَٰكِرِينَ﴾ لك على نعمائك، وصابرين على بَلواك، فإن الناس كثيراً ما يعبدونك على بُعدٍ من المشتهيات والمغريات، وعلى الصيانة من المصيبات والابتلاءات، فإذا أتتهم تلك فلا تبقى العبودية الخالصة هنالك. ﴿قَالَ﴾ تعالى: ﴿ٱخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا﴾ اعتقاداً وعملاً و﴿مَّدْحُورًا﴾ مطروداً مُبْعَداً عصياناً وزللاً، والله ﴿لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ﴾ على ما ذكرت، وما عبدني خالصاً خالياً عن الاعتقاد والآمال الفاسدة والمطامع والمطامح الكاسدة ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ﴾ منهم و﴿مِنكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ فإني طيب لا أقبلُ إلا الطيب، وأنا المعبود بالذات، ولا أريدُ إلا مَن يعبدني بالذات بحيث لا يشوب عبادته شيءٌ من المفاسد والرذائل، فمن وفى بذلك فأنا أحْسِنُ إليه إحساناً يليق بكرامتي، ومن خالف ذلك، فإن شئتُ عفوتُ، وإن شئت عذبت. تمت القواعد عندي بكلماتي، ولا تبديل لكلمات الله العليم الحكيم.

﴿وَيَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩﴾ فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ لِيُبْدِىَ لَهُمَا مَا وُۥرِىَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّى

لَكُمَا لِمَنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢١﴾ فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ ۚ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ ۖ وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٢﴾ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٢٤﴾ قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ ﴿٢٥﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَيَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ﴾ أي بعد أن صار ما صار من سجود الملائكة لآدم، وامتناع إبليس منه، وطردِه من الجنة، وإعلان الشيطان العِداء لآدم وذريته... قلنا في مقام التربية والنصح والإرشاد: يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة ﴿فَكُلَا﴾ من الأرزاق الموجودة فيها ﴿مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا﴾ واشتهيتما ﴿و﴾ لكن ﴿لَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ﴾ المخصوصة وهي شجرة الحنطة، فإنها أساس الشجار ووسيلة الاستكبار والدمار ﴿فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ الذين ظلموا أنفسهم ﴿فـ﴾ لما عَلِمَ آدمُ بذلك وحق العالم أن يكونا مُنْتَبِهاً لا ينخدع بالوساوس والأوهام ﴿وَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ أي ألقى إلى قلوبهما الوسوسة والتردد بما ألقى إليهما من الإغواءات، وإنما فعل ذلك ليطيعاه فيما أمر به من أكل الشجرة المنهيّ عنها ﴿لِيُبْدِىَ لَهُمَا﴾ الشيطان ويظهر بنتيجة الأكل ﴿مَا وُۥرِىَ﴾ وستر ﴿عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا و﴾ كان كيفية الوسوسة أن ﴿قَالَ﴾ لهما: ﴿مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ﴾ أي عن أكلها لأي علة ﴿إِلَّآ﴾ لـ﴿أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ﴾: من المفسرين من فسّر الاستثناء بقوله: إلاّ كراهة أن تكونا ملَكين محفوظين، أو كراهة أن تكونا من الخالدين في الجنة يعني لو أكلتما منها كنتما مِن عِداد الملائكة، وكنتما من الخالدين في الجنة، والله يكره ذلك فنهاكما عن أكلها. ومنهم من فسرها بقوله: إلا محبة أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين في الجنة، يعني إذا لم تأكلا منها فتصيران من أصحاب السر في العالم أي في العرش والفرش والجنة وأي محل آخر كان ﴿وَقَاسَمَهُمَآ﴾ أي أقسم لَهُما، وقال والله ﴿إِنِّى لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾ فيما بينته لكما ﴿فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ ۚ﴾ أي فنزلهما الشيطان عَن الرتبة العالية وهي إطاعة الباري تعالى في الاجتناب عن الشجرة بما غرهما به من القسم أو من تجاوز ما حدّ لهما إلى غيره فأكَلا مِنها، ﴿فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا﴾ أي تهافَتَ عن بدنهما الغطاء الصَّدَفيّ السّاتِرُ وظهرت لهما عَوراتهما وانفَعَلا من ظهورهما، فإن مقتضى الطبيعة السليمة ستر

العورة لا كشفها ﴿وَطَفِقَا﴾ شرعا ﴿يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا﴾ أي يلزقان ببدنهما أو بسوأتيهما ﴿مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ﴾ بعد وقوع الواقعة معاتباً لهما: ﴿أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ﴾ أي عن أكلها ﴿وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَانَ لَكُمَا﴾ ولذريتما ﴿عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾؟! واضح العداوة ﴿قَالَا﴾ معتذرين إلى الله: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا﴾ بخروجنا عن حدود حكمك والتعرض للشجرة بالأكل منها ﴿وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا﴾ أي وإن لم تسامح عن ذلك بعدم العقاب وترحمنا بالرضا عنا ﴿لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾.

استشكل ذلك على أهل السنة القائلين بعصمة الأنبياء عليهم السلام من الكبائر والصغائر لا سيما في ما أمروا به أو نهوا عنه باهتمام واحتياط كما هنا. وأجيب عنه:

أولاً: بأن ذلك لم يكن من باب التشريع بل من باب الإرشاد والنصيحة؛ وليس في مقابلتهما ومخالفتهما معصية.

وثانياً: بأن ذلك كان عن نسيان كما قال تعالى في سورة طه: ﴿فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا﴾.

وثالثاً: بأن ذلك الأمر كان من الصغائر والعصمة إنما تشترط عن الكبائر قبل النبوة وبعدها. وأما الصغائر فيجوز صدورها عنهم قبلها.

﴿قَالَ ٱهْبِطُوا﴾ يا آدم وحواء وذكرهما بضمير الجمع احتراماً أو لملاحظة من في صلب آدم وتربية حواء من الذرية لا سيما الشرفاء المرموقين حال كونكم وذريتكم المتناسلة إلى يوم القيامة ﴿بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ بسبب المنازعات الواقعة بينكم لمعارضة أفكار بعضكم لبعض، وسوق المشتهيات والمغريات إلى التنافس والجدال، وبجهل بعضكم بحقائق الأمور أو عناده لها مع العلم بها بالعناد والغرور ﴿وَلَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ﴾ بالاستيطان أو الاستيداع ﴿وَمَتَٰعٌ﴾ وتلذذ وتمنع من أرزاقها وما ينال فيها من اللذائذ والشهوات إلى حين حدده الله تعالى.

﴿قَالَ﴾ الله تعالى: ﴿فِيهَا﴾ أي في الأرض براً وبحراً ﴿تَحْيَوْنَ﴾ تقضون مدة حياتكم ﴿وَفِيهَا تَمُوتُونَ﴾ كذلك ﴿وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ﴾ وقت البعث والنشور وقال صلى الله عليه وسلم: «**كما تَحيَون تموتون وكما تموتون تبعثون**» وأقول: اللهم أحينا مسلمين وأمتنا مسلمين.

﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَٰرِي سَوْءَٰتِكُمْ وَرِيشًا ۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ۚ ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿٢٦﴾ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ

كَمَآ أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَٰتِهِمَآ ۗ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ ۗ إِنَّا جَعَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٧﴾.

قوله تعالى: ﴿يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ﴾ خطاب للناس كافة ويقول: يا بني آدم أينما كنتم ومتى ولدتم وعشتم ﴿قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَٰرِى سَوْءَٰتِكُمْ﴾ أي هيأنا لكم لباساً يستر عوراتكم التي كشفها يسيئكم لأنه مخالف لأدب الإنسان السليم الطبع المعتدل الحال، فإن السّوأتين منفذان يخرج منهما الهواء والمواد السيالة والمتعفنة التي تشمئز عنها الطبائع، وما حولهما وما فوقهما وما تحتهما من السرة والركبة وما بينهما من ملحقاتهما في الاستحياء والخجل من كشفها ﴿و﴾ كما أنزلنا عليكم لباساً كذلك أنزلنا عليكم ﴿رِيشًا﴾ أي مالاً ومتاعاً من الألبسة الفاخرة الجميلة والحلي المباحة للنساء والجواهر المستعملة في الخاتم وغيره للرجال. أو المراد بالريش اللباس الذي يكون علاوة على ساتر العورة من المواد الجميلة المستحسنة، فإن الريش الجمال. فيكون الكلام مما حذف فيه الموصوف. أي وأنزلنا عليكم لباساً ذا ريش وجمال وذلك كله من موجبات الجمال ظاهراً ﴿وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ﴾ أي العمل الصالح الذي يستولي جماله على الجباه والوجوه. ﴿ذَٰلِكَ خَيْرٌ﴾ لكم من لباس البدن الساتر له و﴿ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ التي تدل على حكمة الباري وعموم فضله. وإنما زودهم بذلك كله لعلهم يذكرون فيعلموا أن ذلك من نعمة الله المُنزلة عليهم فيصلوا بالعلم بالنعمة إلى العلم بالمُنعِم هذا.

ومن المفسرين من فَسَّرَ إنزال اللباس بإنزال المطر من السماء حتى ينبت النبات الذي يؤخذ منه بعض الألبسة، وتعيش به المواشي التي يؤخذ من أصوافها وأوبارها وأشعارها ألبسة واقية راقية وكافية وافية.

ثم بعد تذكيرهم بتلك النعم الجسام نبههم على الإخلاص في العمل واليقظة حتى يسدّوا المجاري على الشيطان فقال: ﴿يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ أي لا يوقعنكم الشيطان في الفتن، ولا يُوسوس لكم ﴿كَمَآ﴾ وسوس في قلوب آدمَ وحواءَ و﴿أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم﴾ هذين ﴿مِّنَ ٱلْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَٰتِهِمَآ ۗ﴾ حتى لا تتكرر المصيبة فـ﴿إِنَّهُۥ﴾ قوي متمكن من الإلقاءات، ومطلع عليكم و﴿يَرَىٰكُمْ هُوَ﴾ أي الشيطان ﴿وَقَبِيلُهُۥ﴾ من ذرياته أو من مطلق الجن ﴿مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ ۗ﴾ والعدو الذي لا تراه العيون أشد خطراً. وراقبوا قلوبكم حتى لا يكون فيها محبة وولاية لشياطين

الإنس والجن ﴿إِنَّا جَعَلْنَا ٱلشَّيَـٰطِينَ أَوْلِيَآءَ﴾ وأحباء ﴿لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ فإذا أحببتموهم كنتم من غير المؤمنين.

﴿وَإِذَا فَعَلُوا۟ فَـٰحِشَةً قَالُوا۟ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا ۗ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾ قُلْ أَمَرَ رَبِّى بِٱلْقِسْطِ ۖ وَأَقِيمُوا۟ وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ۚ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴿٢٩﴾ فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلضَّلَـٰلَةُ ۚ إِنَّهُمُ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلشَّيَـٰطِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٠﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا فَعَلُوا۟ فَـٰحِشَةً﴾ جملة مستأنفة لا محل لها من الإعراب، والغرض منها بيان رسوخهم في الضلال ومباشرة الأعمال السيئة، وتبرير موقفهم منها بأمر الله وبأنها شيمة آبائهم. فيقول سبحانه وتعالى: ﴿وَإِذَا فَعَلُوا۟ فَـٰحِشَةً﴾ أي فعلة قبيحة متناهية في القبح، غير مقبولة في العقول السليمة كعبادة الأصنام والفجور وشرب الخمور ﴿قَالُوا۟﴾ لتبرير موقفهم ﴿وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا﴾ فنقلدهم فيها، فإنّ تقليد الآباءِ فيه شرف وإباء ﴿وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا﴾ وما أمر الله به وجب فعله ﴿قل﴾ في الرد عليهم: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ﴾ فسقط الدليل الثاني ﴿أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾؟ أنه كلامه بل تعلمون أنه ليس من كلامه. وأما تقليد الآباء في العمى فلا يقبله إلا أولو العمى ﴿قُلْ﴾ لهم مُعلِناً ما أمرَ الله تعالى به حتى لا يتقولوا عَلَيهِ: ﴿أَمَرَ رَبِّى بِٱلْقِسْطِ﴾ أي العدل أي المعتدل الوسط من كل شيء بلا إفراط ولا تفريط لا في العقائد، ولا في الأعمال لا في المدح ولا في الذم. فاعلموا أن العالم مخلوق وأن الله خالق كل شيء، وأنه هو الغني المطلق، وأن ما سواه من آثار قدرته المفتقر إليه حدوثاً وبقاء ﴿وَأَقِيمُوا۟ وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ أي توجهوا إلى عبادته بإخلاص عند العبادة في كل مسجد جامع أو غيره ﴿وَٱدْعُوهُ﴾ أي اعبدوه ﴿مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ أي الطاعة فعلاً أو تركاً. أو ادعوه تعالى لكشف الضر ودفع الشر وجلب الخير، وتضرعوا إليه؛ فإنه هو القادر فوق عباده، وهو المحاسب والمجازي في يوم ميعاده. واعلموا أنه ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ﴾ وأنشأكم وأحياكم من النطف المربوط بالوالدين، وسواكم وهَداكم ورزقكم وآتاكم من الحال والمال ما يناسب حكمته ثم أماتكم وأبلاكم وأبقاكم في عالم البرزخ متنعمين أو متعذبين حسب أعمالكم.. يَبْعَثكم أينما كنتم في البر والبحر مجتمعي الأجزاء أو متفرقيها، وبعد

أن بعثكم ونشركم وحَشَركم ﴿تَعُودُونَ﴾ إليه سبحانه وتعالى للحساب حسب الكتاب وميزان الأعمال، فإن ذلك سهل عليه. ما خلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة، فيأخذ كل منكم طريقه إلى مرجعه من دار الجحيم أو جنة النعيم لأنه تعالى ﴿فَرِيقًا هَدَىٰ﴾ لسابق علمه باستعداده الحسن الداعي إلى العقائد والأعمال الحسنة فمآله إلى الجنة ﴿وَفَرِيقًا﴾ آخر من أهل سوء الاختيار ﴿حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلضَّلَٰلَةُ﴾ فـ﴿إِنَّهُمُ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أي تولوهم وأطاعوهم فيما أمروا به ونهوا عنه، وكل ذلك لترجيح الهوى على الهدى، وتقديم العاجل على الآجل، فكان مآل حالهم الخسران المبين ﴿وَيَحْسَبُونَ﴾ ويزعمون ﴿أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ﴾.

﴿يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ خُذُوا۟ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ۚ قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣٢﴾ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّىَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْىَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ ۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٣٤﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ خُذُوا۟ زِينَتَكُمْ﴾ روي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه كان أناس من الأعراب يطوفون بالبيت عُراةً حتى أن كانت المرأة لتطوف بالبيت وهي عريانة. فأنزل الله تعالى هذه الآية لإيجاب ستر العورة عند الطواف، وفي وقت الصلاة؛ لأن الطواف والصلاة في واد واحد فعليه المراد بالزينة ساتر العورة والأمر للوجوب.

وحمل بعضهم الزينة على لباس التجمل لأنه المتبادر منها. ونسب للباقر رضي الله عنه وروي عن الحسن السبط رضي الله تعالى عنه أنه كان إذا قام إلى الصلاة لبس أجود ثيابه، فقيل له يا ابن رسول الله ﷺ لم تلبس أجود ثيابك؟ فقال: إن الله تعالى جميل يحب الجمال فأتجمل لربي، وهو يقول ﴿خُذُوا۟ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ فأحبّ أن ألبس أجمَل ثيابي. ولا يخفى أن الأمر حينئذ لا يحمل على الوجوب لظهور أن هذا التزين مسنون لا واجب. وعلى الاحتمال الأول تفهم سنية التزين عند كل صلاة لأنه لما كان ستر العورة واجباً وهو زينة، ظهر استحباب ما عداه لكونه زينة أيضاً.

﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا﴾ مما طاب لكم من الحلال ﴿وَلَا تُسْرِفُوا﴾ بتحريم الحلال، ولا بتحليل الحرام، ولا بالزيادة على المعتاد ليوجب الفساد في المعدة. فكل ذلك حرام يجب الاحتراز عنه. وقد اشتهر أن قلة الطعام يوجب قلة المنام وقلته لأهل الطاعة يوجب القرب إلى الله العلام، فيقلل من الكلام إلا فيما وجب أو سنّ في الإسلام.

ثم الإسراف كما يكون في الكمية يكون في الكيفية، فمن ليس عنده إلا ما يكفي قوت عياله لا يجوز له اشتراء ما يستوعب جُلَّ مالِهِ ﴿إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ وما اشتهر بين الناس من الدعوة إلى ترك الناعم من المأكل والمشرب والملبس وليس له على ذلك شبهة فضلاً عن حجة.. ويردّه بوضوح قوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ﴾ فإنه بظاهره دليل جليّ لحل كلّ ملبوس جميل ناعم، وأكل كل طعام لذيذ مرغوب عند الطاعم إلّا ما استثناه الله تعالى من المسكرات وسائر المحرمات كلبس الذهب والحرير للرجال، ولبس الثوب المعصفر والمزعفر وما عرض عليه الحكم بالتحريم كأن يكون من أموال الغير بدون إذن شرعي منه. وأما حرمة الخيلاء عند لبس النواعم فليست من لبس الملبوس وإنما هي ناشئة عن فساد نفس اللابس. والحاصل إن المواد المخلوقة مخلوقة للانتفاع يقول تعالى: ﴿خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ لكن ليس المراد بطريق الفوضى بل إباحته بطريق الشرع على الحدود المقررة، فإذا روعي الشرع فلا بأس فيه قطعاً، بل للمؤمنين اختصاص زائد بما ذكر لكرامتهم عند الله تعالى: ﴿قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾. أي هي لهم بالأصالة لكرامتهم الزائدة عند الله تعالى ومشتركة بينهم وبين الكافرين في الدنيا و﴿خَالِصَةً﴾ لهم ﴿يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ لا يشاركهم فيها غيرهم ﴿كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ﴾ أي مثل تفصيلنا لهذا الحكم نفصل الآيات في الأحكام الأخرى ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ ما فيها من الفوائد والعوائد النافعة في الدنيا والدين.

﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ﴾ أي الأعمال الفاحشة القبيحة من باب الاعتقاد كعبادة الأوثان، ومن باب الأعراض كالزنا وسائر أنواع الفجور سواء ﴿مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾ كالمعتاد عند الفساق من بيوت الدّعارة ﴿وَمَا بَطَنَ﴾ مما يفعل سراً بالفاسقات من جانب الأخدان ﴿وَالْإِثْمَ﴾ من شرب الخمور والميسر المعتاد بين الناس ﴿وَالْبَغْيَ﴾ أي التعدي على حقوق الناس المالية أو الأدبية بغير الحق مما يوجب

تعزير من يتعدى عليها ﴿وَأَن تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا﴾ أي حجة وبرهاناً. بل أقام الأدلة القاطعة على مقابلها وهو التوحيد لله من ملاحظة الأنفس والآفاق ومعجزات الرسل عليهم الصلاة والسلام. ﴿وَأَن تَقُولُوا﴾ أي وحرم أن تقولوا ﴿عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ بالإلحاد في صفاته وأعماله، ونسبة البنات إليه، والقول بأن الملائكة بنات الله، والقول بالحلول والاتحاد كما هو معروف من أهل الإلحاد، وبعد أن قلت لهم ما أمرت به قل لهم ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ﴾ وقت محدود للدوام في الأرض، أو وقت معين لانتهاء قوتها ﴿فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ﴾ أي أجل أفرادها ﴿لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ قالوا: إن قوله تعالى: ﴿لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً﴾ جزاء للشرط، وله فائدة أنه إذا جاء الأجل فهو قطعي الثبوت. وقوله تعالى ﴿وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ لا يناسب جعله جزاء لأنه لا يتصور استقدام الشيء عند حدوثه، فمنهم من أجاب بأن جملة لا يستقدمون ليست معطوفة على الجزاء حتى ينسحب عليه الشرط، وإنما هي جملة مستقلة معطوفة على الجملة الشرطية نفسها، ولم يرض به المحقق الهندي، وقال: إن ذلك المعنى ليس فيه دقة ولطافة. والحق أن مجموع الجملتين كناية عن تحتم الأجل وعدم قبوله للتغير والتبدل. أي إن لكل أمة أجلاً محتوماً قطعياً لا مجال فيه للتبدل والتغير بأي وجه من الوجوه فالمتعاطفتان مرتبطتان بالعطف قبل ربطهما بالشرط. أي إذا جاء أجلهم لا تبدل فيه.

﴿يَا بَنِي آدَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي فَمَنِ اتَّقَىٰ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٥﴾ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٣٦﴾ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ أُولَٰئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مِّنَ الْكِتَابِ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُوا أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا وَشَهِدُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ ﴿٣٧﴾ قَالَ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ فِي النَّارِ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا حَتَّىٰ إِذَا ادَّارَكُوا فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لِأُولَاهُمْ رَبَّنَا هَٰؤُلَاءِ أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ النَّارِ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾ وَقَالَتْ أُولَاهُمْ لِأُخْرَاهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٣٩﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ﴾ خطاب لكافة الناس. وقد أخرج ابن جرير عن أبي يسار السلمي قال: إن الله تبارك وتعالى جعل آدم وذريته في كفه فقال: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ﴾ الآية... ثم بثّهم. والذي ذَهَب إليه بعض المحققين: أنها حكاية لما وقع مع كل قوم. والذي يترجح في العقل هو: أن هذه الآية الكريمة مقول القول المحذوف (وحذف قول من حديث البحر) أي قلنا: يا بني آدم الآية... وإذا اعتبرت حذف القول قبل قوله السابق: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا﴾ واعتبرت هذه الآية وما قبلها مرتبطة بها... كان أحسن.

وعلى كل حال فالآية الشريفة بيان لكلامه تعالى ووصيته لبني آدم. وقوله لهم ما جاء في الآية الشريفة. وحاصلها: إنا نادينا بني آدم على عهد كونهم ذراري في صلب آدم عليه السلام أو في عالم الأرواح ونصحناهم... أو يقال إن هذا استعراض لوصاياه سبحانه لكل رسول حتي يُبَلِّغَ أمتَه مضمون الآية ـ. والمعنى: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ﴾ أي من نوعكم من البشر حال كونكم ﴿يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِى﴾ أي يعرضون عليكم أحكامي وشرائعي، ويخبرونكم بها ﴿فَمَنِ ٱتَّقَىٰ﴾ وخاف عقاب ربه ﴿وَأَصْلَحَ﴾ عقيدة وقولاً وعملاً ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ من مكروه في المستقبل ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ على مفقود في الماضي. ﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُوا۟ عَنْهَآ﴾ ولم يقبلوها ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٣٦﴾ فَمَنْ أَظْلَمُ﴾ لنفسه ﴿مِمَّنِ﴾ كذب و﴿ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ أي تعمد الكذب عليه ﴿أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ﴾ المنزلة على الرسول ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ أي يصيبهم ما كتب لهم وقدر في اللوح المحفوظ من خير أو شر، أو أن المعنى أولئك ينالهم نصيب مما كتب لهم من متاع الدنيا ولذائذها ومشتهيات النفس فيها مدة حياتهم ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا﴾ الموكلون بقبض الأرواح ﴿قَالُوٓا۟﴾ لهم: ﴿أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾؟ من الأوثان والأصنام؟ ﴿قَالُوا۟﴾ في جوابهم ﴿ضَلُّوا۟ عَنَّا﴾ لا ندري أين مكانهم ﴿و﴾ عند ذلك ﴿شَهِدُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَٰفِرِينَ﴾ قال الله سبحانه وتعالى لأولئك الكافرين: ﴿ٱدْخُلُوا۟ فِىٓ أُمَمٍ﴾ أي مع أمم ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ﴾ أي كفار النوعين من الأمم ﴿كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ﴾ في ذلك المصير المقرر ﴿لَّعَنَتْ أُخْتَهَا﴾ أي لَعَنَت أختَها ونظيرها في وضع الكفر والجحود فتلعن التابعة المتبوعة على أساس أنها أضلتها وجاءت بتقاليدَ لا دينية ولا عقلية، فيدخلون في دار الجزاء فوجاً فوجاً لاعِناً بعضهم بعضاً ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱدَّارَكُوا۟ فِيهَا جَمِيعًا﴾ أي اجتمعوا فيها ﴿قَالَتْ أُخْرَىٰهُمْ لِأُولَىٰهُمْ﴾ أي عن بيان

أحوالهم وبالنسبة إليهم: ﴿رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ﴾ الناس المتنفذون رأياً وشخصيةً وتقدماً في التقاليد ﴿أَضَلُّونَا﴾ عن طريق الحق ﴿فَـَٔاتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا﴾ بالنظر إلى عذابنا ﴿مِّنَ ٱلنَّارِ قَالَ﴾ الله تعالى: ﴿لِكُلٍّ﴾ منكم ومنهم ﴿ضِعْفٌ﴾ من النار أي مضاعف ما يعتبر جزاء من الأصل ﴿وَلَٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ﴾ ذلك من شدة العذاب، فإن المبتلي يفقد الميزان فيعلم القليل كثيراً والكثير قليلاً ﴿وَقَالَتْ أُولَىٰهُمْ لِأُخْرَىٰهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ﴾: معناه أنه بعد ما قال الله سبحانه لكل ضعف لم يبق لكم علينا من فضل يُعَبَّرُ عنه بخفة العذاب بل كلّنا متساوون ﴿فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ﴾ المُضاعَف ﴿بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ﴾.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُوا۟ عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٤٠﴾ لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤١﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٤٢﴾ وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ ۖ لَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ ۖ وَنُودُوٓا۟ أَن تِلْكُمُ ٱلْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ أي الآيات المنزلة مِنّا على عبادنا المرسلين، ومنها الآياتُ المنزلة على خاتم أنبيائي ورسلي محمد ﷺ، سواء كانت الآيات آيات العقائد والأحكام، أو آيات قصص الأمم الماضية، أو آيات الإرشاد والوعظ والتذكير وغير ذلك ﴿وَٱسْتَكْبَرُوا۟ عَنْهَا﴾ أي تعاظموا وتكبروا عن قبولها والإذعان بها ﴿لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ﴾ أي لا تفتح لأرواحهم إذا ماتوا كما تُفتّح لأرواح المؤمنين، أو لا تفتح لأعمالهم ولا لدعائهم. وقيل المراد لا يصعد لهم عمل ولا تنزل عليهم البركة. وكونُ السماءِ لها أبواب تفتح للأعمال الصالحة والأرواح الطيبة أمر ممكن أخبر به الصادق فلا حاجة إلى تأويله. وإذا أولناه بالإكرام وقبول الأعمال ونزول الرضا والرحمة عليه فهو جائز مستحسن لكثرة نحو ذلك التأويل في آي التنزيل. ﴿وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ﴾ وَهُو الحيوان المعروف ﴿فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ﴾ يعني ثقبة الإبرة. وهذا تعليق بالمستحيل لأن مساواة المكان للمتمكن وسعة المعبر للعابر واجب عقليّ وخلافه ممتنع. وهذا مثل ما يقال

حتى يبيضّ القار، ويشيب الغراب. وقرىء بضم الجيم وفتح الميم المشدّدة أو المخففة وبفتح الجيم وسكون الميم، وفسر في جميع ذلك بالحبل الغليظ. وفي القاموس: وكسكّر وصُرَدٍ وعُنُق وجَبَل حَبلُ السَفينةِ، **وقرىء بهن حتى يلج الجمل.** ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ أي وبمثل ذلك الحرمان من الجنة في النار ﴿نَجْزِي ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ بتكذيب الآيات والاستكبار عن قبولها ﴿لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ﴾ أي فراش تحت أقدامهم ﴿وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ﴾ جمع غاشية أي أغطية نارية ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ أي وبمثل ذلك المذكور ﴿نَجْزِي ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ بما ذكرنا ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَآ﴾ جملة معترضة معناها لا نكلف أي مكلف إلا ما في طاقته. وخبر الموصول المبتدأ قوله ﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ﴾ أي ملازموها ﴿هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٤٢﴾ وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ﴾ أي قلعنا ما في قلوبهم من حقد وعداوة ﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ أي تجري من تحت غرفهم المسكونة مياه الأنهار زيادة في مسرّتهم. ﴿وَقَالُواْ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا﴾ الفوز العظيم ﴿وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ﴾ لذلك أو لغيره من الخيرات ﴿لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ﴾ إليه بتصديق الرسل الكرام. ﴿لَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ﴾ وكل ما وعدونا من درجات المؤمنين حَق يُطابقُ الواقع ﴿وَنُودُوٓاْ﴾ عند استقرارهم في دار النعيم من الملائكة الكرام: ﴿أَن تِلْكُمُ ٱلْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي بسبب ما عملتموه من الخيرات المعنوية والمادية، أو بسبب عملكم الخالص بها.

﴿وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُواْ نَعَمْ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌۢ بَيْنَهُمْ أَن لَّعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾ ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ كَٰفِرُونَ ﴿٤٥﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ﴾ أي وينادي أصحاب الجنة بعد الاستقرار فيها ﴿أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ﴾ أي ينادي من هو يعرفه لا لمجرد الإخبار بل لاستحضار وعده تعالى ووعيده للفريقين ومزيد شكر أهل الجنة والتحدث بالنعمة ومزيد أسف أهل النار؛ فيقولون لهم متكاشفين متقاربين متواجهين على ما يبرز لنا العلم اليوم وهو جزء لا يتجزأ من آثار قدرة الحي الذي لا ينام ولا يموت: ﴿أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا﴾ على ألسنة الرسل الكرام حقاً بلا شائبة تخلف ﴿فَهَلْ وَجَدتُّم﴾ أنتم أيضاً ﴿مَّا وَعَدَ﴾ كم ﴿رَبُّكُمْ حَقًّا﴾ من العذاب والعقاب ﴿قَالُواْ﴾ أي أصحاب النار في جواب

أصحاب الجنة: ﴿نَعَمْ﴾ قد وجدنا ذلك حقاً بلا شائبة خلاف ﴿فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ﴾ أي فأعلن معلن بين الفَريقين بأعلى ما يعلو به صوته ﴿أَن لَّعْنَةُ اللَّهِ﴾ وطرده الأبدي من رحمته الواسعة الدائمة ﴿عَلَى الظَّالِمِينَ ﴿٤٤﴾ الَّذِينَ يَصُدُّونَ﴾ أي كانوا في الدنيا يصدون ويمنعون الناس ﴿عَن﴾ سلوك ﴿سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أنفسهم أولاً والناس الآخرين تالياً وكانوا ﴿وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾ أي يطلبون جعلها عوجاً في عيون الناس وعقولهم ﴿وَهُم﴾ لسوء حالهم ﴿بِالْآخِرَةِ﴾ بمجيئها مع ما فيها من الجحيم وجنة النعيم ﴿كَافِرُونَ﴾.

أخرج ابن جرير وأبو الشيخ عن السدي قال ما من مؤمنٍ ولا كافر إلا وله في الجنة والنار منزل مبين، فإذا دخل أهل الجنة وأهل النار النار، ودخلوا منازلهم رفعت الجنة لأهل النار فنظروا إلى منازلهم فيها فقيل هذه منازلكم لو عملتم بطاعة الله تعالى. ثم يقال: يا أهل الجنة رِثوهُم بما كنتم تعملون فيقتسم أهل الجنة منازلهم. وهناك تجري بينهم المُناداة والمُناجاة ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم. نسأل الله الفوز بالنعيم المقيم بفضله إنه جواد كريم.

﴿وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَاهُمْ وَنَادَوْا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَن سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ ﴿٤٦﴾ ۞ وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ تِلْقَاءَ أَصْحَابِ النَّارِ قَالُوا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٤٧﴾ وَنَادَىٰ أَصْحَابُ الْأَعْرَافِ رِجَالًا يَعْرِفُونَهُم بِسِيمَاهُمْ قَالُوا مَا أَغْنَىٰ عَنكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٨﴾ أَهَٰؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَا أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٤٩﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ﴾ أي وبين فريقي أصحاب الجنة والنار، أو بين نفس الجنة والنار حجاب يمنع وصول بعضهم إلى بعض مع أنه لا يمنع رؤية بعضهم بعضاً وكلامَ بعضهم مع بعض كما في قوله تعالى: ﴿فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ﴾ ﴿وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَاهُمْ﴾ أي وعلى أعالي الحجاب ﴿رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَاهُمْ﴾ أي رجال يعرفون كلاً من أهل الجنة والنار بسيماهم وعلامتهم المميزة لكل منهم. وفي أولئك أقوال كثيرة. ولكن الحق والإنصاف والمماشاة مع ظاهر الآية الكريمة القول بما قاله بعض من المحققين: إن أصحاب الأعراف قوم عَلَت درجاتهم وأعطاهم ربهم رتبة الاطلاع على أحوال الفريقين، وهم من عدول الأمم المنتسبة للأنبياء أو عدول أمة الرسول سيدنا محمد ﷺ لأن كلمة الرجال ظاهرها الآدميون. و﴿يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَاهُمْ﴾ ظاهرها الفضل والاختصاص بمعرفة الناس صنفاً وشخصاً،

ولا تناسب تلك الرتبةُ أهل الفترة الذين لا مقام لهم، ولا أناساً آخرين على شَبَههم. ﴿وَنَادَوْا أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ﴾ حين رأوهُم وعرفوهم: ﴿أَن سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ لَمْ يَدْخُلُوهَا﴾ عند ذلك الكلام لكونهم في مقام المأمورية بملاحظة الفريقين وإلقاء الكلمات التبشيرية لبعض مع التبريك والتهنئة وهم أهل الجنة وعبارات التعبير والتأنيب لبعض، وهم أهل النار أعاذنا الله تعالى منها ﴿وَهُمْ يَطْمَعُونَ﴾ أن يدخلوها على وعد الله تعالى فضلاً ورحمة. وهذه الجملة أيضاً تدل على أن من على الأعراف رجال مؤمنون ومن أصحاب الإيمان والأعمال الصالحة.

﴿وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَٰرُهُمْ تِلْقَآءَ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ﴾ وأبصروا أحوالهم المرئية الفظيعة خافوا جداً و﴿قَالُوا۟ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا﴾ في دار العذاب ﴿مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ عند ذلك ﴿وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلْأَعْرَافِ رِجَالًا يَعْرِفُونَهُم بِسِيمَٰهُمْ﴾ المعلومة من وجوههم وجباههم، وعلموا أنهم من أي قوم وقبيلة ﴿قَالُوا۟﴾: ﴿وَمَآ﴾ الذي ﴿مَآ أَغْنَىٰ عَنكُمْ جَمْعُكُمْ﴾ الذي كنتم تعتمدون عليهم ﴿وَمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ أي واستكبارهم على الله ودينه بالاعتماد على النفس أو القبيلة أو غيرها ﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ﴾ المسلمون ﴿ٱلَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ﴾ في الدنيا ﴿لَا يَنَالُهُمُ ٱللَّهُ بِرَحْمَةٍ﴾ وهم حقراء وفقراء لا قدر لهم ولا قيمة؟ الذين قال الملائكة لهم بأمر الله تعالى: ﴿ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ﴾ وهذه الآية الكريمة أيضاً دليل جلي على أن أهل الأعراف رجال أشراف من أهل الفضل والميزة عند الله، وأنهم كشهداء على الفريقين ومطلعون على أحوالهم السابقة واللاحقة.

﴿وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا۟ عَلَيْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ ۚ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٠﴾ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۚ فَٱلْيَوْمَ نَنسَىٰهُمْ كَمَا نَسُوا۟ لِقَآءَ يَوْمِهِمْ هَٰذَا وَمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿٥١﴾ وَلَقَدْ جِئْنَٰهُم بِكِتَٰبٍ فَصَّلْنَٰهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ﴾ يعني وبعد استقرار الفريقين كل في مكانه وانغمار أهل الجنة في أنواع النعيم وانهيار أهل النار في وديان الجحيم وانكشاف الفريق الأول للفريق الثاني لحكمة ربانية منها: زيادة مسرة أهل الجنة، وزيادة ألَم أهل النار ينادي أهل النار أهل الجنة بالطريقة المعمولة إذ ذاك: ﴿أَنْ أَفِيضُوا۟ عَلَيْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ﴾ الذي يطفىء حرارة الأجساد والتهاب الأكباد ﴿أَوْ مِمَّا

﴿رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ﴾ معطوف على قوله تعالى من الماء بتأويل قوله أفيضوا بما يناسب المطلوبين. أي أوردوا علينا. أو بتقدير عامل مناسب للمعطوف، ثم عطف العامل على العامل كما هو مذكور في نحو قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ أو بتضمين العامل الأول ما يناسب المطلوب الثاني ﴿قَالُوٓا﴾ أي أهل الجنة جواباً لأهل النار: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا﴾ أي المطلوبين ﴿عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾، أي منعهما عنهم منع الحرام عن المكلفين ﴿ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا﴾ أي اتخذوا دينهم المزيف الذي اعتنقوه صورة لهواً ولعباً. أو اتخذوا دين الإسلام الذي كلفوه باعتناقه لهواً ولعباً. والفرق بينهما أن اللهو صرف الوقت فيما لا ينبغي أن يصرف فيه، واللعب الفرح بما لا يحسن أن يفرح به ﴿وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾ شَغلَتهم عن إطاعة مَوْلاهُم ﴿فَٱلْيَوْمَ نَنسَىٰهُمْ﴾ أي نعامِلُهُم معاملة المنسي ﴿كَمَا نَسُوا۟ لِقَآءَ يَوْمِهِمْ هَٰذَا﴾ أي مثل ما نسوا لقاءنا في هذا اليوم ﴿وَمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ﴾ أي وبما كانوا ﴿يَجْحَدُونَ﴾ فهو معطوف على ما نسوا. أي كما نسوا لقاءنا وكما كانوا يجحدون بآياتنا. والمراد بالنسيان التغافل وعدم الاهتمام بالأمر، وإلا فما عملوا ذلك حتى ينسوه ﴿وَلَقَدْ جِئْنَٰهُم بِكِتَٰبٍ فَصَّلْنَٰهُ﴾ بينا ما فيه من العقائد والأحكام تفصيلاً مبيناً ﴿عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ منا بكلياته وجزئياته حال كون الكتاب ﴿هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ به لأنهم المهتدون به المقتدون بأحكامه.

﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُۥ ۚ يَوْمَ يَأْتِى تَأْوِيلُهُۥ يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ فَيَشْفَعُوا۟ لَنَآ أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ ۚ قَدْ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٥٣﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ﴾ الاستفهام توبيخي. أي ما ينتظر هؤلاء الكفرة بعدم إيمانهم وجحودهم شيئاً ﴿إِلَّا تَأْوِيلَهُۥ﴾ أي ما يؤول إليه أمر الكتاب من ظهور صدق بتحقق ما أخبر به من الوعد والوعيد ﴿يَوْمَ يَأْتِى تَأْوِيلُهُۥ﴾ أي يوم تظهر الحقائق المذكورة فيه، وهو يوم القيامة ﴿يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ﴾ في الدنيا وتركوا العمل به من قبل متأسفين ومتحسرين: ﴿قَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ﴾ وكل ما جاؤوا به من الكتاب ومحتوياته كان صدقاً وحقاً، ونحن ظلمنا أنفسنا بتركنا الإيمان به ﴿فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ فَيَشْفَعُوا۟ لَنَآ﴾ اليوم ويدفعوا عنا العذابَ ﴿أَوْ﴾ هل ﴿نُرَدُّ﴾ إلى الدنيا ﴿فَنَعْمَلَ غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ﴾؟ من الكفر والعصيان والله سبحانه يقول ﴿قَدْ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ﴾

أي خسروا مدة بقاء أنفسهم في الدنيا حيث صرفوها فيما أهلكهم ﴿وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ أي وضاع عنهم ما قالوه افتراء.

﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٥٤﴾ ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٥٥﴾ وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا ۚ إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَٰهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ۚ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٥٧﴾ وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَٱلَّذِى خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا ۚ كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ ﴿٥٨﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ شروع في بيان مبدأ الفطرة، وخلق العالم، وإظهار عجائب صنعه التي تدل بوضوح على وجود الباري ووحدته وصفاته الذاتية والفعلية. فيقول: إن ربكم أي صانعكم ومربيكم هو الله الذي خلق السماوات والأرض بما فيها وما امتزج معها ككرة واحدة من الماء في ستة أيام. والمشهور أنه ابتدأ الخلق يوم الأحد وانتهى يوم الجمعة ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾.

يقول أهل التأويل: استوى أمره، أو إن معناه استولى على العرش، وذلك لأن العرش جسم والاستقرار على الجسم من صفات الجسم، ويوجب تجزئة المستقر بحسب المستقر ـ بالفتح ـ وذلك يوجب التركيب المستحيل على الله تعالى. على أن العرش إن كان قديماً يستلزم القول بقدم بعض الأجسام مع أن المسلمين متفقون على أن لا قديم غير ذات الباري تعالى وصفاته. وإن كان حادثاً أي إن الباري تعالى لم يكن في الأزل محتاجاً إلى المحل ثم لما خلق العرش احتاج إليه واستقر عليه يستلزم عروض الحاجة على الغني المطلق. فتأويل الآية ما مر لا غير.

ويقول أهل التفويض: نحن نقول بالآية ونؤمن بمعناها بدون ملاحظة

الكيفية، فالاستواء على العرش معلوم وكيفيته مجهولة. وقد ذكرنا شيئاً من الموضوع في أول سورة (آل عمران) فراجعه.

﴿يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ﴾ والاسمان مفعولان لما قبلهما أي يجعل الليل غِطاءً ساتراً للنهار ويغشيه به، ولم يذكر عكسه للعلم به، أو لأن لفظ المفعولين يحتمل المعنيين لأن المعنى الأول مبني على جعل الليل مفعولاً أول والنهار مفعولاً ثانياً، والعكس مبني على العكس، والكل محتمل ﴿يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا﴾ أي يطلب الليلُ النهارَ ليغطيه فور نهايته، فيطلب في معنى يعقب أي يعقبه سريعاً كالطالب له لا يفصل بينهما بشيء ﴿وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ﴾ أي وخلقها ﴿مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ﴾ أي بقضائه وقدره ﴿أَلَا﴾ أيها الإنسان العاقل ﴿لَهُ ٱلْخَلْقُ﴾ أي الإيجاد من العدم إلى الوجود ﴿وَٱلْأَمْرُ﴾ أي التصرف في كل ما خلقه ﴿تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أي البقاء لله رب العالمين. أو كثرت وازدادت الآثار الفاضلة من رب العالمين، لأن البركة جاءت بمعنى البقاء وبمعنى كثرة الآثار الفاضلة.

في تفسير البيضاوي: وتحقيق الآية ـ والله سبحانه وتعالى أعلم ـ أنّ الكفرة كانوا متخذين أرباباً، فبين لهم أن المستحق للربوبية واحد وهو الله سبحانه وتعالى، لأنه الذي له الخلق والأمر، فإنه سبحانه وتعالى خلق العالم على ترتيب قويم وتدبير حكيم، فأبدع الأفلاك ثم زينها بالكواكب، كما أشار إليه بقوله: ﴿فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ﴾ وعمد إلى إيجاد الأجرام السفلية فخلق جسماً قابلاً للصور المتبدلة والهيئات المختلفة، ثم قسمها بصور نوعية متضادة الآثار والأفعال... وأشار بقوله: ﴿خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ﴾ ثم أنشأ أنواع المواليد الثلاثة بتركيب موادها أولاً، وتصويرها ثانياً، كما قال تعالى بعد قوله: ﴿خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ﴾﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ مِن فَوْقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ﴾ أي مع اليومين الأولين. لقوله تعالى في سورة السجدة: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ [السجدة: ٤] ثم لما تم له عالَم الملك عمل إلى تدبيره كالملك الجالس على عرشه لتدبير المملكة. فدبر الأمر من السماء إلى الأرض بتحريك الأفلاك وتسيير الكواكب، وتكوير الليالي والأيام. ـ ثم صرح بما هو فذلكة التقرير ونتيجته فقال: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ ثم إن اليوم في اللغة مطلق الوقت فإن أريد هذا فالمعنى: خلق الله السماوات والأرض في ستة أوقات. وإن أريد المتعارف فاليوم إنما كان بعد خلق الشمس والسماوات فيقدر فيه مضاف، أي

مقدار ستة أيام. هذا إذا نظرنا إلى سرعة تأثير قدرته. وإن نظرنا إلى خلق الأمور على مهلة وإناة وملاحظة لترتيب المسبب على الأسباب فيمكن لك أن تفسر الأيام الستة بستة آلاف سنة لقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ ولا تهتم بكثرة الأوقات فإنها تضمحلّ عند النظر إلى الأزل والأبد فاحفظه. ثم إنه تعالى بعد أن بين التوحيد وأخبر أنه المتفرد بالخلق والأمر.. أمر عباده أن يدعوه مخلصين فقال: ﴿ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ﴾ أي الذي عرفتم أفعاله وشؤونه لقضاء حاجاتكم ﴿تَضَرُّعًا﴾ أي ذوي تضرع أو متضرعين ﴿وَخُفْيَةً﴾ أي سرّاً ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾ أي المتجاوزين عن الحد المقرر بأن يرفع الداعي صوته بحيث يؤذي من يليه، أو لطلب الشيء الحرام فعلاً أو تركاً، أو يطلب ما لا يليق به، أو ما لا يمكن له حصوله، فكل ذلك اعتداء.

أخرج أحمد في مسنده وأبو داود عن سعد بن أبي وقاص قال: سمعت النبي ﷺ يقول: «**سيكون قوم يعتدون في الدعاء وحسب المرء أن يقول أللهم إني أسألك الجنة وما قرب إليها من قول أو عمل، وأعوذ بك من النار وما قرب إليها من قول أو عمل**» ثم قرأ: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾.

وذكروا للدعاء آداباً كثيرة منها: الكون على طهارة، واستقبال القبلة، وتخلية القلب من الشواغل، وافتتاحه واختتامه بالصلاة على النبي ﷺ، ورفع اليدين نحو السماء، وإشراك المؤمنين فيه، وتحري ساعات الإجابة. ومنها: يوم الجمعة عند كثير ساعة الخطبة، ويدعو فيها بقلبه، ووقت نزول الغيث، والإفطار، وثلث الليل الأخير، وبعد ختم القرآن، وغير ذلك مما هو مبسوط في محله.

﴿وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا﴾ وهذا النهي يعم أنواع الإفساد وأهمها إفساد عقائد المؤمنين، وإفساد ذات البين، وإفساد الملك على الرعايا وبالعكس، وإفساد الأولاد على الوالد وبالعكس، وإفساد الزوجة على الزوج وبالعكس، وإفساد الطلاب على الأستاذ وبالعكس، والمراد بإصلاحها إصلاح الله تعالى لها وخلقها على الوجه الملائم لمنافع الخلق.

﴿وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ مصدران وقعا حالين عن الفاعل، أي خائفين وطامعين خائفين من رد الدعاء للقصور في الإخلاص، وطامعين في إجابته تفضلاً وإحساناً، أو خائفين من عقابه وطامعين في ثوابه ﴿إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ ولا يكون الداعي محسناً إلا إذا كان خائفاً طامعاً كما ذكرنا. واستشكل تذكير قريب مع

أن الرحمة مؤنث وأجيب عنه بأجوبة. منها: أن الرحمة وإن كان مؤنثاً اكتسب التذكير من المضاف إليه. ومنها: أن لفظ قريب صيغة النسبة أي ذات قرب. ومنها: أن الرحمة بمعنى الإحسان.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ﴾: عطف على الجملة السابقة أو على جملة خلق السموات والأرض ﴿بُشْرًۢا﴾ بضم الباء وسكون الشين مخفف بُشُرا بضمتين كنذر جمع نذير، فيكون جمعاً لبشير يعني وهو الذي أرسل الرياح مبشرات بين يدي رحمته أي قدّام رحمته أي قدام نزول المطر النازل من رحمته وكرمه ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا﴾ يعني حتى إذا حملت الرياح سحاباً ثقالاً بالندى والرطوبة ﴿سُقْنَٰهُ لِبَلَدٍ﴾ أي إلى بلد ﴿مَّيِّتٍ﴾ أي لا ماء فيه. والبلد كل موضع من الأرض عامر أو غيره خال أو مسكون. والطائفة منه بلدة والجمع بلاد. وتطلق البلدة على المفازة ﴿فَأَنزَلْنَا بِهِ﴾ أي في البلد ﴿ٱلْمَآءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ أي الثمرات المستثمرة هناك، والاستغراق عرفي لا حقيقي، أو باعتبار مجموع البلاد ﴿كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ أي مثل إخراج النبات من الأرض على البذور المنشقة، أو من إبداعنا الأساسي بإحداث القوى النامية هناك نخرج الموتى من القبور أو غيرها ونحييها بجمع الأجزاء الأصلية المتفرقة أينما كانت، أو بخلق أمثال الأجزاء البالية ورد النفوس إليها. فإن القادر على الإبداء قادر على الإعادة ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ وتتفكرون حتى تعلموا أن الواجب الوجود مبدأ لكل موجود.

﴿وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ﴾ ومعناه الأرض الكريمة التي لا سبخة ولا حرة يخرج نباته حسناً وافياً كثير النفع بإذن ربه ﴿وَٱلَّذِى خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا﴾ والبلد السبخة أو لحرة لا يخرج نباته إلا قليلاً لا خير فيه. وهذه الآية تفيد الناظر فيها أن الآيات النازلة من الله كالأمطار الغزيرة التي تنزل من رحمة الله بعباده، والإنسان الطيبُ القلب كالبلد الطيب يأخذ الآيات ويستفيد منها سعادة الدارين، والإنسان السيىء الخلق الشرس المشاكس كالأرض السبخة لا يستفيد منه الاهتداء إلى الحق، بل يزيد به طغياناً وكفراً أعاذنا الله منه ﴿كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ﴾ الدالة على شمول قدرة الباري لكل ممكن ﴿لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ﴾ نعم الله تعالى. ومنها إرسال الرسول الرؤوف الرحيم، وإنزال آيات القرآن الكريم لدعوة الناس إلى سلوك الصراط المستقيم.

﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ

﴿إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ ٥٩ قَالَ ٱلۡمَلَأُ مِن قَوۡمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ٦٠ قَالَ يَٰقَوۡمِ لَيۡسَ بِي ضَلَٰلَةٞ وَلَٰكِنِّي رَسُولٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٦١ أُبَلِّغُكُمۡ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي وَأَنصَحُ لَكُمۡ وَأَعۡلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ٦٢ أَوَعَجِبۡتُمۡ أَن جَآءَكُمۡ ذِكۡرٞ مِّن رَّبِّكُمۡ عَلَىٰ رَجُلٖ مِّنكُمۡ لِيُنذِرَكُمۡ وَلِتَتَّقُواْ وَلَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ ٦٣ فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيۡنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ فِي ٱلۡفُلۡكِ وَأَغۡرَقۡنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآۖ إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَوۡمًا عَمِينَ ٦٤﴾.

قوله تعالى: ﴿لَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ﴾: جواب قسم محذوف، أي والله لقد أرسلنا نوحاً إلى قومه ﴿فَقَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ﴾ وحده ﴿مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓۖ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ﴾ إن لم تعبدوه وحده ﴿عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ﴾ هو يوم القيامة أو يوم الطوفان ﴿قَالَ ٱلۡمَلَأُ مِن قَوۡمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ﴾ يا نوح ﴿فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾ أي واضح لا شبهة فيه ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ لَيۡسَ بِي ضَلَٰلَةٞ وَلَٰكِنِّي رَسُولٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٦١﴾ يعني ليس بي ضلالة ولكن لست رجلاً خالياً عن المواهب الربانية، بل إني رسول من رب العالمين ﴿أُبَلِّغُكُمۡ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي﴾ من جهة الاعتقاد والأحكام ﴿وَأَنصَحُ لَكُمۡ﴾ والمعنى كما أني أبلغكم الرسالات أرغبكم في قبولها وأتحرّى ما فيه صلاحكم بكل ما لديّ من الاستطاعة، ﴿وَأَعۡلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾ أي وأعلَمُ مِن الله بالوحي أموراً لا علم لكم بها، وأنا أُلْقيها إليكم لتأخُذوها وتنتفعوا بها.

﴿أَوَعَجِبۡتُمۡ أَن جَآءَكُمۡ ذِكۡرٞ مِّن رَّبِّكُمۡ عَلَىٰ رَجُلٖ مِّنكُمۡ﴾ أي من عشيرتكم ووطنكم، تعرفون أصله وفصله ومَولِدَه ومنشأه، كما تعرفون أنّه ليس فيه ما يدعو إلى الشبهة والاشتباه. وإنما جاءكم ذكر من ربكم ﴿لِيُنذِرَكُمۡ﴾ ويُحَذّركُم عذاب الله ﴿وَلِتَتَّقُواْ﴾ ولكي تتقوا ﴿وَلَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ﴾ فعلة مجيء الذكر ثلاث: الأول الإنذار من موجبات عذاب النار. والثاني: تقوى ربكم ولزوم طريقة الإيمان والإحسان واجتناب ما لا ينبغي. والثالث: نزول الرحمة وخلعة القبول منه تعالى عليكم. ﴿فَكَذَّبُوهُ﴾ أي فاستمروا على تكذيبه، وأنه ليس رسول الله تعالى فغضبنا على المكذبين فأمرنا نوحاً بتهيئة سفينة ليدخلها وأتباعه في حال الطوفان الموعود فهيأها ﴿فَأَنجَيۡنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ فِي ٱلۡفُلۡكِ﴾ أي في السفينة المصنوعة بأعيننا ﴿وَأَغۡرَقۡنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآۖ إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَوۡمًا عَمِينَ﴾ أي عمي القلوب عن معرفة التوحيد والنبوة والمعاد. وأصل (عمين) عميين بياءين على وزن فرحين؛ ثقلت

الكسرة على الياء الأولى فنقلناها إلى ما قبلها وحذفناها لالتقاء الساكنين فصار عَمينَ على وزن فعين.

﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۚ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٦٦﴾ قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَٰكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦٧﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴿٦٨﴾ أَوَعَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنْذِرَكُمْ ۚ وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَصْطَةً ۖ فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾ قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا ۖ فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٧٠﴾ قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ ۖ أَتُجَادِلُونَنِي فِي أَسْمَاءٍ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ ۚ فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ ﴿٧١﴾ فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٧٢﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ﴾ متعلق بمضمر معطوف على أرسلنا فيما سبق، أي وأرسلنا إلى عاد أخاهم ﴿هُودًا﴾ بدل من أخاهم ﴿قَالَ﴾ هود: ﴿يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ﴾ وحده ﴿مَا لَكُمْ مِنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾؟ عذاب يوم عظيم ﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ في دعوى الرسالة. ﴿قَالَ﴾ هود عليه السلام: ﴿يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَٰكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ والرسالة من الله تقتضي الاتصاف بالرشد، فكيف يكون الرسول سفيهاً خفيف العقل؟ ﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ﴾ وأصل النصح في اللغة: الخلوص يقال: نصحت العسل إذا خلصته من الشمع. وقد يستعمل لخلوص المحبة للمنصوح له والسعي في إرشاده إلى ما يسعده. وعلى ذلك حمل ما أخرجه مسلم وأبو داود والنسائي عن تميم الداري أن رسول الله ﷺ قال: «**إن الدين النصيحة. قلنا: لمن يا رسول الله؟ قال: لله تعالى، ولكتابه، ولرسوله، ولأئمة المسلمين وعامتهم**» ومقصود سيدنا هود: أني فيما أبلغكم به لست متهماً بخيانة؛ لأني معروف بينكم بالنصح والإخلاص والأمانة.

﴿أَوَ عَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ﴾ أتستغربون أن ينزل الله تعالى على عادته وسنته الماضية في الكائنات كتاباً جامعاً لأسباب سعادة الدارين على رجل من قومكم معروف النسب والحسب ﴿لِ﴾ يبشركم بالجنات على الإيمان والأعمال الصالحة و﴿يُنْذِرَكُمْ﴾ بالدركات النارية على الكفر والأعمال السيئة. وذلك مما لا يتعجب منه لأنه من السنن الربانية المتواترة. وعلاوة على ذلك إذا نظرتم إلى أنفسكم في العالم رأيتموها فائزة بنعم لا تحصى فلا يجوز التغافل عنها ﴿وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ﴾ واستوليتم على ما استولوا عليه، وجعلكم ملوكاً، فإن شداد بن عاد ملك جزيرة العرب وما والاها ﴿وَزَادَكُمْ فِى ٱلْخَلْقِ﴾ أي وزاد اختصاصاتكم في ما بين المخلوقين، ولم يؤت أحداً مثل ما آتاكم، فصرتم سادةً على الخليج وباب المندبَ وممر البحار من جهتكم تحتَ سيطرتكم. أو زادكم في الإبداع ﴿بَصْۜطَةً﴾ زيادة في الجسم وقوة، وخلقكم رجالاً طوالاً أبطالاً مهولين ومهابين ﴿فَٱذْكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ﴾ أي نعمه وفضائله الواردة عليكم من كثرة الأموال والأرزاق والكماليات ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ بإسنادها إلى الله تعالى تهيئة أسباب وإبداعاً فتشرونه عليها بتوحيده وعبادته. ﴿قَالُوٓاْ أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ ٱللَّهَ وَحْدَهُۥ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا﴾؟ فقابلوه على وجه لا عقل فيه ولا رعاية للواقع، وجعلوا جملة دعوته متوجهة إلى ناحية خاصة دنيوية وهي عاداتهم التي كانوا عليها، وجعلوها أساساً لرقيهم وشوكتهم على التوهمات المزيفة. وكأنهم يقولون له إنك تحسدنا على قوتنا وسيطرتنا في العالم وتريد هدم أساسنا بالحيلة والخديعة فلا نترك عاداتنا ونستمر عليها ولا نخاف وعيدك ﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ بالإخبار بنزوله ﴿قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ﴾ أي من مالك أمركم ﴿رِجْسٌ وَغَضَبٌ﴾ أي عذاب يؤول إلى ما يستقذر لأنهم بعد أن هلكوا بالرياح المتموجة صاروا أجساداً فتحولوا جيفاً مستقذرة. فالمراد بالغضب بعدُ إما غضب الله الوارد عليهم، ويكون عطف السبب على المسبب، أو نوع آخر من العذاب في الدنيا أو في الآخرة.

وحاصل كلام سيدنا هود عليه السلام أنه يقول: بعد ما عارضتموني على الإيمان بالله وتوحيده قد ثبت العذاب عليكم واستقر ما تستحقونه، فما لكم من محيص عنه. ثم عاد يوبخهم على عاداتهم الدنيئة في عبادة أخشاب وأحجار جعلوها نصب أعينهم فقال: ﴿أَتُجَٰدِلُونَنِى فِىٓ أَسْمَآءٍ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّا نَزَّلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ﴾؟

يعني أتخاصمونني في ذوات جامدة معمولة من الأخشاب والأحجار، ووضعتم لها وضعاً جعلياً أسماء وألقاباً لا تليق بها، كاسم الإله الفلاني والفلاني، من غير أن يكون هناك مدلول صحيح ومصداق واقعي، وما نزل الله تعالى باعتبارها من أيّ سلطان وبرهان يفيد القلب اطمئناناً على أنها مما يليق اعتبارها ﴿فَٱنتَظِرُوٓاْ﴾ نزول العذاب الذي تستهزئون به ﴿إِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ﴾ لوقوعه، لكنا نعلم بحلوله عليكم عاجلاً في الدنيا وإن عليكم في الآخرة عذاباً أشدّ وأبقى تَبقَوْنَ فيه خالدين.

﴿فَأَنجَيْنَٰهُ﴾ أي هوداً ﴿وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ﴾ أي من المؤمنين ﴿بِرَحْمَةٍ مِّنَّا﴾ أي برحمة عظيمة منا ﴿وَقَطَعْنَا دَابِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ أي استأصلناهم جميعاً بسبب معصية هي من أشد المعاصي وأفظعها عند الله وهو تكذيبهم بآياتنا المنزلة على رسولنا هود، ﴿و﴾ بسبب أنهم ﴿مَا كَانُواْ مُؤْمِنِينَ﴾ أي استمروا وأصروا على العناد بحيث لم يبق لهم نور الإيمان.

وقصتهم طويلة مكتوبة في التفاسير وخلاصتها: أن قوم عاد كانوا في الأحقاف جنوبي اليمن، واستولوا على كثير من الأمم، فأرسل الله إليهم هوداً فكذبوه، فابتلاهم الله بجدب وقحط، حتى أن رأوا سحاباً مظلماً ظهر لهم من واد يسمى وادي المغيث ففرحوا به، وظنوا أنه سحاب يمطرهم، فجاءتهم من تلك السحابة ريح عقيم قوية، سخرها الله عليهم سبع ليال وثمانية أيام على الدوام، فدمّرت الدور والقصور والخيم، وضَرَبَ بعضها على بعض، وأهلك كل من فيها، إلا من نجاه الله أو خرج منها بوحي منه كسيدنا هود ومن معه (وقطع دابر القوم الذين ظَلَموا والحمد لله رب العالمين).

﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِيٓ أَرْضِ ٱللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ ٱلْجِبَالَ بُيُوتًا فَٱذْكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْاْ فِي ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٧٤﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِۦ قَالُوٓاْ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلَ بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿٧٥﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓاْ إِنَّا بِٱلَّذِيٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٧٦﴾ فَعَقَرُواْ ٱلنَّاقَةَ

وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا يَا صَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٧٧﴾ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ ﴿٧٨﴾ فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَكِنْ لَا تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ ﴿٧٩﴾.

قوله تعالى: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا﴾ يعني وأرسلنا إلى القوم المعروف باسم جدّهم الأعلى ثمود بن عامر بن إرم بن سام بن نوح، ـ وقد سكنوا بالحجر بين الحجاز والشام إلى وادي القرى، ـ وهم من قبيلة عاد، ونزحوا إلى تلك البقعة ﴿أَخَاهُمْ صَالِحًا﴾ وهو ابن عبيد بن اسف بن ماشح بن عبيد بن حاذر بن ثمود ﴿قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ﴾ وحده ﴿مَا لَكُمْ مِنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ﴾ ﴿قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ أي معجزة ظاهرة الدلالة على رسالتي. وقوله: ﴿هَٰذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ﴾ استئناف مسوق لبيان البينة، أي ناقة مخلوقة بقدرة الله وإبداعه على غير قاعدة التناسل الحيواني. وهذه مبتدأ، وناقة خبر أول، ولكم خبر ثان. وآية حال من فاعل الظرف. ﴿فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ﴾ مما تعيش به ﴿وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ﴾ أي لا تمنعوها من الرعي والسقي ولا تؤذوها ﴿فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ لأن معارضة المعجزة مهلكة ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ﴾ أي خلفاء لهم بعدهم ﴿وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ مكّنكم بالاستيلاء عليها وتعميرها واستغلالها والاستفادة من وجوه المعايش والمكاسب فيها ﴿تَتَّخِذُونَ مِنْ سُهُولِهَا قُصُورًا﴾ أي تبنون في أراضيها المسطحة قصوراً رفيعة تسكنون فيها وتتمتعون بأنواع من متاع الحياة ﴿وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا﴾ مسكونة. روي عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أنهم اتخذوا القصور في السهول ليصيّفوا فيها، ونحتوا من الجبال بيوتاً ليشتّوا فيها، ﴿فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ حال مؤكدة لمعنى العامل لأن عثا بمعنى أفسد. ﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ﴾ الملأ: الاشراف لأنهم هم الذين يملأون مجالس الشورى وغيرها من مجالس الأمة ﴿لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا﴾ لا لكلهم بل ﴿لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحًا مُرْسَلٌ مِنْ رَبِّهِ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ ﴿٧٥﴾ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي آمَنْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ﴿٧٦﴾ فَعَقَرُوا النَّاقَةَ﴾ أي نحروها ﴿وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ﴾ أي استكبروا عن امتثال أمره ﴿وَقَالُوا يَا صَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا﴾ من العذاب والدمار ﴿إِنْ كُنْتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٧٧﴾ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ ﴿٧٨﴾﴾ هامدين موتى لا حركة لهم. والرجفة: هي الصيحة السماوية النازلة عليهم. وقيل الرجفة: خفقان القلب. ويجوز اعتبارهما معاً على اعتبار أن خفقان

قلوبهم وموتهم نشأ من الصيحة السماوية. ﴿فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ﴾ سيدنا صالح بعد أن جرى عليهم ما جرى مغتماً متحسراً على ما فاتهم من الإيمان ﴿وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ﴾ بما في طاقتي بلا قصور ﴿وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾ على حكاية الحال الماضية، أي شأنكم الدوام على هذه الحالة الفاسدة، فكان مآلكم هذه العاقبة السيئة والعياذ بالله.

وقصة ثمود باختصارها: إن عاداً لما هلكوا عمرت ثمود بعدها وتمكنوا في الأرض فاستوطنوا ديارهم بين الحجاز والشام، وبنوا القصور في الصحراء للصيف، ونحتوا من الجبال بيوتاً للشتاء، فداموا في رفاه وأخذوا يعبدون الأصنام. فبعث الله تعالى إليهم صالحاً وهو شاب، فدعاهم إلى الله وتوحيده حتى شمط وكبر ولم يتبعه إلا قليل من المستضعفين. فلما ألحَّ عليهم سألوه معجزة، فقال لهم: أي شيء تريدون؟ فقالوا: تخرج غداً معنا إلى عيدنا، وكان لهم عيد يخرجون فيه بأصنامهم، فتدعوا إلهك، وندعو آلهتنا، فإن استجيب لك اتبعناك وإن استجيب لنا اتبعتنا. فقال لهم صالح: نَعَمْ. فخرجوا وخرج معهم، فدعوا أصنامهم أن لا يستجاب لصالح في شيء مما يدعو به. ثم قال جندع بن حراش وهو في ذلك الوقت سيدهم: يا صالح اَخْرِجْ مِنْ هذه الصخرةِ (لِصخرةٍ واحدةٍ في الحجر) وتسمى بالكائبة ناقَةً مخترجة، أي تُشاكِلُ البُخْتَ فإن فَعَلْتَ صَدّقناك وآمَنا بك. فَأَخَذ عليهم صالحُ مَواثيقَهم، وصلّى ركعتين، ودعا، فَتَمخّضَتِ الصّخرةُ تَمَخُّضَ النَّتوجِ بولدها فانصَدَعَتْ عن ناقة عشراء جَوْفاءَ ووَبراءَ، كما وَصَفوا، ثم نتجت ولداً مثلها! فآمن به جندع ورهطٌ مِن قومه، وأراد أشرافُهم أن يؤمنوا به، فَمنَعهم ذؤاب بن عمرو بن لبيد، والحَبّاب صاحبُ أَوْثانِهم، ورباب بن ضمر كاهنهم. فلمّا خرجت الناقة قال لهم: هذه ناقة الله لها شرب ولكم شرب يوم معلوم، فمكثت الناقة ومعها سقيها في أرضهم ترعى الشجر وتشرب الماء، وكانت ترده غباً فإذا كان يومها وضعت رأسها في بئر في الحجر يقال له الآن: بئرالناقة فما ترفع رأسها حتى تشرب كل ما فيها، ثم ترفع رأسها وتتفجج لهم فيحلبون ما شاؤوا من اللبن فيشربون ويدخرون، ثم تصدر من غير الفج الذي وردت منه لا تقدر تصدر من حيث ترد لضيقه عنها، حتى إذا كان الغد يومهم فيشربون ما شاؤوا ويدخرون ما شاؤوا ليومِ الناقةِ، وما زالوا في سعة ورغد وكانت الناقة تصيِّف إذا كان الحرّ بظهر الوادي فتَهرب منها مواشيهم، وتَهْبِط إلى بطن الوادي في حرّه وجدبه، وتشتو في

بطن الوادي فتهرب مواشيهم إلى ظهره في برد وجدب، فَأَضَرّ ذلك بمواشيهم للأمر الذي يريده الله تعالى بهم والبلاء والاختبار فكبر ذلك عليهم، فعتوا عن أمر ربهم فَأَجْمَعوا على عقرها.

وكانت امرأتان من ثمود يقال لأحديهما عنزية بنت غنم بن مجلد وتكنّى بأم غنم، وكانت امرأة ذؤاب بن عمرو، وكانت عجوزاً مُسِنّة ذات بنات حسان، وذات مال من إبل وبقر وغنم، ويقال للأخرى: صَدوق بنت المختار، وكانت امرأة جميلة غنية ذات مواش كثيرة، وكانت من أشد الناس عداوة لصالح ﷺ، وكانتا تحبان عقر الناقة لما أضرّت بمواشيهما فدعت صدوق رجلاً يقال له الحباب لعقر الناقة، وعَرَضَتْ عليه نفسَها إن هو فعل فأبى. فدعت ابن عمر لها يقال له مصدع ابن مهرج وجعلت له نفسها إن هو فعل فأجابها إلى ذلك. ودعت عنيزة أم غنم قَدّار بن سالف وكان رجلاً أحمر أزرق قصيراً يزعمون أنه لزَنْيَةٍ ولم يكن لسالف، لكنه ولد على فراشه، فقالت: أعطيك أيّ بناتي شئت على أن تعقر الناقة، وكان عزيزاً منيعاً في قومه، فرضي وانطلق هو ومصدع فاستغويا غواة ثمود، فأتبعهم سبعة، فكانوا تسعة رهط، فانطلقوا ورصدوا الناقة حتى صدرت عن الماء، وقد كمن لها قدار في أصل صخرة في طريقها، وكمن لها مصدع في أصل أخرى فمرت على مصدع فرماها بسهم، فانتظم بها عضلة ساقها، وخرجت أم غنم فأمرت إحدى بناتها وكانت من أحسن الناس وجهاً فسفرت عن وجهها ليراها قدار، ثم حثته على عقرها فشدّ على الناقة بالسيف فكشف عن عرقوبها، فخرّت، ورَغَتْ رُغاءً واحدة، فتحدر سبقها أي ولدها الفصيل، وانطلق هارباً حتى أتى جبلاً منيعاً هناك. وكان صالح ﷺ قال لهم: أدركوا الفصيل عسى أن يدفع عنكم العذاب! فخرجوا في طلبه، فرأوه على الجبل وراموه ولم ينالوه، وانفجت الصّخرة بعد رغائه فدخلها، فقال لهم صالح: لكل رَغْوَةٍ أَجَلُ يوم، ﴿تَمَتَّعُواْ فِي دَارِكُمْ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍۖ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ﴾. ولما جاء وقت العذابُ على ثمود بقول سيدنا صالح ﷺ ورأوا العلامات، طلبوه ليقتلوه، وهرب ولحق بحي من ثمود يقال لهم بنو غنم، فنزل على سيدهم واسمه نفيل ويكنى بأبي هدب، فطلبوه منه فقال: ليس لكم إليه سبيل، فتركوه وشَغَلهُم ما نزل بهم. ثم خرج ﷺومن معه إلى الشام، فنزل رملة فلسطين، وكان رجل من ثمود يقال له: أبو رغال، وهو أبو ثقيف في حرم الله، فمنعه الحرم من عذاب الله تعالى، فلما خرج أصابه ما أصابهم، فدفن ومعه غصن من ذهب.

وروي أن النبي ﷺ مر بقبره فأخبر بخبره فابتدره الصحابة ﷺ بأسيافهم، فحفروا عنه واستخرجوا ذلك الغصن.

وروي أنه عليه السلام خرج في مائة وعشرين من المسلمين، وهو يبكي فالتفت فرأى الدخان ساطعاً فعلم أنهم قد هلكوا، وكانوا ألفاً وخمسمائة دار. وروي أنه رجع بمن معه فسكنوا ديارهم.

وأخرج أبو الشيخ عن وهب قال: إن صالحاً لما نجا هو والذين معه قال: يا قوم إن هذه دار قد سخط الله عليها وعلى أهلها فاظعنوا والحقوا بحرم الله تعالى وأمنه، فأهلوا من ساعتهم بالحج وانطلقوا حتى وردوا مكة، فلم يزالوا بها حتى ماتوا، فتلك قبورهم في غربي الكعبة.

وروى ابن الزبير عن جابر أن نبينا ﷺ لما مر بالحجر في غزوة تبوك قال لأصحابه: لا يدخلن أحد منكم القرية، ولا تشربوا من مائها، ولا تدخلوا على هؤلاء المعذبين إلا أن تكونوا باكين أن يصيبكم مثل الذي أصابهم. وذكر محيي السنة البغوي أن المؤمنين الذين مع صالح عليه السلام كانوا أربعة آلاف وأنه خرج بهم إلى حضرموت، فلما دخلها مات عليه السلام، ثم بنى الأربعة آلاف مدينة ويقال لها حاضورا. ثم نقل عن قوم من أهل العلم أنه توفي بمكة وهو ابن ثمان وخمسين سنة، ولعله المعوّل عليه.

﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿٨١﴾ وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٨٢﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٨٣﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٨٤﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلُوطًا﴾ أي وأرسلنا لوطاً. فيكون قوله ﴿إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ﴾ ظرفاً لأرسلنا. وأكثر النسابين على أنه ابن أخي إبراهيم عليه السلام، ورواه الحاكم في المستدرك عن ابن عباس ﷺ. ولم يذكر لقب قومه لأنهم لم يعهدوا باسم معروف، وكانوا يسكنون سدوم، واختصوا بالفاحشة المنكرة المشهورة. أي قال لقومه في مقام النصح والتوبيخ على المنكر واستنكاره: ﴿أَتَأْتُونَ﴾ الخصلة ﴿ٱلْفَٰحِشَةَ﴾ وحالها أنها ﴿مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾! بهذه الصورة العادية

المستبشعة ﴿إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ﴾ وتجامعونهم ﴿شَهْوَةً﴾ لأجل قضاء النفس الأمارة ﴿مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ﴾ أي متجاوزين عنهن وهن محل الشهوة عند أصحاب الطباع السليمة ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾ كلمة بل للإضراب الانتقالي عن الإنكار المذكور إلى الإخبار بما أدى إلى ذلك وهو تَعَود الإسراف والتجاوز عن الحدود. وإلا فإن كان الداعي لصرف الماء التناسل أو الاستيناس الإعتيادي، أو تكوين عائلة تحصل بها راحة، فالاستيناس بالنساء الطيبات الطاهرات كفيل به، أو إراحة النفس من ثوران الشهوة فالوسيلة المشروعة كافية، وإن كان ارتكاب الفواحش والاختباط في الأنجاس فهو عين الإسراف المحرم ﴿وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ﴾ شيء مستساغ نقلاً أو عقلاً ﴿إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ﴾ أي من محل سكناكم وبلدكم ﴿إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾ فإنهم أناس يدعون النظافة وإنهم يتطهرون ويتباعدون عن هذه الأشياء ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ﴾ المختصين به ﴿إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ﴾ فما نجيناها من العذاب لأنها ﴿كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ﴾ أي الفائتين الهالكين.

ثم بين الله تعالى طريق تعذيبهم وإهلاكهم بقوله: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا﴾ أي أمطرنا عليهم نوعاً عجيباً من المطر كانت بدل قطرات الأمطار قطعات الأحجار، كما قال في آية أخرى: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ﴾ ﴿فَٱنظُرْ﴾ يا من يمكنه النظر للاعتبار ﴿كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾؟ أي كيف كان مآل تلك الفرقة المرتكبة لتلك الفعلة الشنيعة؟

ثم إن لوطاً عليه السلام بعد إنزال العذاب على قومه لحق بعمه إبراهيم، فلم يزل معه حتى قبضه الله تعالى. وروي أن سارة زوجة إبراهيم عليه السلام كانت أخته لأنها بنت هاران، كما أن لوطاً كان ابناً له.

وفي الآية دليل على أن اللواطة من المعاصي الكبائر الفواحش، ولذلك سببت إهلاك قوم بأسرهم.

روي أن لوطاً بن هاران بن تارخ لما هاجر مع عمه إبراهيم إلى الشام نزل بالأردن، فأرسله الله تعالى إلى أهل (سدوم) وهي بفتح السين والدال المهملة أو المعجمة قرية سميت باسم بانيها، وفي المثل (وأجور من قاضي سدوم) فدعاهم إلى الله، ونهاهم عما ابتدعوه من الفاحشة فلم ينتهوا عنها، فأمطر الله عليهم الحجارة فهلكوا. وقيل خسف بالمقيمين منهم، وأمطرت الحجارة على مسافريهم.

وهكذا صاروا مثلاً في الهلاك والدمار لأهل العظة والاعتبار. أعاذنا الله تعالى من الأشرار وأعمالهم الموجبة للنار بمنه.

﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۚ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۖ قَدْ جَاءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨٥﴾ وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا ۚ وَاذْكُرُوا إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ ۖ وَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴿٨٦﴾ وَإِن كَانَ طَائِفَةٌ مِّنكُمْ آمَنُوا بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ وَطَائِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُوا فَاصْبِرُوا حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا ۚ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴿٨٧﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۚ﴾ أي وأرسلنا إليهم، وهم أولاد مدين بن إبراهيم خليل الله، شُعيب بن ميكيل بن يشجر بن مدين. أخرج ابن عساكر عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كان رسول الله ﷺ إذا ذكر شعيباً يقول: «**ذاك خطيب الأنبياء عليه السلام لحسن مراجعته لقومه**» والمراجعة فاعلة من الرجوع وهي مجاز عن المحاورة. وإنما عنى النبي ﷺ ما ذكر في هذه السورة كما يعلم بالتأمل فيه ﴿قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۖ قَدْ جَاءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ﴾ يريد المعجزة التي كانت له. ولم تذكر في القرآن الكريم، كما لم تذكر أكثر معجزات الرسل عليهم الصلاة والسلام. وفي الكشاف: إن من معجزاته محاربة عصا موسى عليه السلام للحيّات حين دفع إليه غنمه ليرعاها ووقوع عصا آدم عليه السلام في يده في المرات السبع. وولادة غنمه الدرع حين وعده أن يكون الدرع من أولادها. وهو من الخيل والشاة ما اسودّ رأسه وابيض سائره. واعترض بأنه يحتمل أن يكون إرهاصاً لرسالة موسى. ويجاب عنه: بأنه يجوز في مثل ذلك أن يكون معجزة لرسول بالفعل وإرهاصاً لرسول بالقوة. ويحتمل أن يكون معجزته إيحاء الله إليه نقص القوم من المكائيل والموازين متى وأينما نقصوا فيخبرهم بذلك. وفي بعض الكتب: إن معجزته أنه كلما صعد على جبل يَطْويهِ ويَصلُ إلى قمّته مع مَن معه من قومه، فيكون ذلك دليلاً على رسالته. كما يجوز أن تكون معجزته بلاغته الزائدة في

خطبه ونصائحه بحيث لم يبق مجال لمنكريه إلا العناد والعدوان. فقال: ما دام جاءتكم البينة من الله على رسالتي فتأدبوا وأطيعوا الأمر والنهي الصادرين مني ﴿فَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ﴾ إذا عاملتم الناس ﴿وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ﴾ يعني لا تنقصوا من الأشياء التي تخص الناس في المعاملات وأدّوها إليهم كاملة وافية ﴿وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ بالجور والعدول عن نهج العدالة في الأمور كلها ﴿بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا﴾ بالشريعة التي أَتيتكُم بها أو بما استقرّ عندنا من شريعة أبينا إبراهيم عليه السلام ﴿ذَٰلِكُمْ﴾ الذي بيّنت لكم ﴿خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ وحَسن، وما عداه قبيح غير مرضي ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾.

﴿وَلَا تَقْعُدُوا۟ بِكُلِّ صِرَٰطٍ تُوعِدُونَ﴾ أي ولا تقطعوا الطرق عن العابرين للتجارة وسائر المكاسب حال كونكم تخيفون من مرّ عليكم، أو تخيفون من آمنَ بالقتل. فقد روي عن ابن عباس رضي الله عنهما أن بلادهم كانت يسيرة ـ أي غنية بالموارد ـ وكان الناس يمتارون منهم، فكانوا يقعدون على الطريق ويخيفون الناس، أن يأتوا شعيباً ويقولون لهم: إنه كذاب فلا يفتننكم عن دينكم! ﴿وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِهِۦ﴾ أي وتمنعون من آمن بالله وأراد السعي في الخبر عن سبيل الله أي عن الطريق الموصلة إليه ﴿وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾ وتطلبون لسبيل الله عوجاً وفساداً بإلقاء الشبه إلى أذهان المشتبهين الضعفاء، فإن ذلك يعتبر جريمة كبيرة، بل أكبر الكبائر وهو الكفر بالله، والعياذ به من ذلك. ﴿وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا﴾ من حيث العدد فكثركم الله وزادكم عدداً. فقد حكي أن مدين بن إبراهيم تزوج بنت لوط فولدت، فجعل الله في نسله البركة والنماء. أو المراد بالقلة الإقلال من المال، يعني كنتم فقراء فأغناكم الله من فضله ﴿وَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ بتدمير ما عمروا وإماتة من وَلَدوا واعلموا أن كل عاقل يجب عليه الاحتراز عن أسباب الدمار ﴿وَإِن كَانَ طَآئِفَةٌ مِّنكُمْ ءَامَنُوا۟ بِٱلَّذِىٓ أُرْسِلْتُ بِهِۦ وَطَآئِفَةٌ﴾ منكم ﴿لَّمْ يُؤْمِنُوا۟﴾ به ﴿فَٱصْبِرُوا۟ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ بَيْنَنَا﴾ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾ يعني ما دام صار الأمر وعاقبته أنه لم يؤمن القوم كلهم، ولم ينفعهم الإبلاغ والنصيحة، وانقسموا إلى قسمين: قسم آمنوا، وقسم بقوا على كفرهم ﴿فَٱصْبِرُوا۟﴾ على ما نلقاه من عاقبة الأمر ﴿حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ بَيْنَنَا﴾ المؤمنين والكافرين ﴿وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾ لا مبدل لحكمه، وهو أسرع الحاسبين. ففيه تنبيه للمؤمنين على أنهم يلقون الأذى من الكافرين وواجبهم الصبر عليه، كما فيه تهديد ووعيد للكافرين بأنهم ينالون عقابهم.

فهرس المحتويات

بقية الجزء الخامس من سورة النساء ٥
سورة المائدة ٦٦
سورة الأنعام ١٥٩
سورة الأعراف ٢٣٩
فهرس المحتويات ٢٧٢